أمين معلوف

رحلة بالداسار

رواية



ترجمة: روز مخلوف

أمين معلوف

رحلة بالداسار

رواية

ترجمة: روز مخلوف

رحلة بالداسار

* أمين معلوف
* رحلة بالداسار
* ترجمة روز مخلوف

* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 49414 تاريخ 2000/10/8
* الناشـــــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053

عنوان الكتاب الأصلي:

Le Périple de Baldassare

إلى أندريه

الدفتر الأول

الاسم المئة

مازالت تفصلنا أربعة شهور طويلة عن *عام الوحش*، لكنه حاضر هاهنا. ظله يغشى صدورنا ونوافذ بيوتنا.

لم يعد الناس من حولي يتكلمون عن شيء آخر سوى العام الذي يقترب، العلامات المنذرة به، والتنبُّؤات... أقول لنفسي أحياناً: فليأتِ! وليُفرِغْ في نهاية الأمر خِرْجَ آياته ونكباته! ثم أراجع نفسي، أعود بذاكرتي إلى كل تلك الأعوام الطيبة العادية حين كان كل نهارٍ يجري بانتظار أفراح المساء. وألعن ملء فمي عَبَدَةَ نهايةِ العالم.

كيف بدأ ذلك الجنون؟ في أي ذهن نَبَتَتْ بذرته أولاً؟ تحت أية سماوات؟ لا أعرف بدقة، مع ذلك، فإنني، بطريقةٍ ما، أعرف. من المكان الذي أنا فيه، رأيت الخوف، خوفاً فظيعاً يولد ويكبر وينتشر، رأيته يتسلل إلى الأذهان، أذهان القريبين مني، ذهني. رأيته يطيح بالعقل، يدوسه، يذلُّه، ثم يفترسه.

رأيت الأيام الجميلة تبتعد.

كنتُ حتى ذلك الوقت أعيش في سكينة. كل فصلٍ أزدادُ قليلاً بَدانةً وثروة. لم أطمع بشيءٍ بعيدٍ عن متناول يدي. كان جيراني يدلِّلوني أكثر مما يحسدوني.

وفجأةً تساقط كل شيء من حولي.

ذاك الكتاب الذي ظهر، ثم اختفى بخطأ مني...

وفاة العجوز إدريس، التي لا يتهمني بها أحد، اللهمَّ سِوايَ أنا نفسي.

وتلك الرحلة التي عليّ، رغم ترددي، أن أبدأها منذ الاثنين، يبدو لي اليوم أني لن أعود منها.

لذا أخطُّ هذه السطور الأولى في هذا الدفتر الجديد بتخوُّف. لا أعرف بعدُ بأية طريقة سأعرض الأحداث سواءٌ تلك التي وقعت، أو تلك التي تنذر بالوقوع. هل أسرد الوقائع في حكاية بسيطة؟ في يوميات؟ في مفكرة أسجِّل فيها حوادث الطريق؟ أم في وصية؟

ربما يجب أن أتحدث أولاً عن أول شخصٍ أثار جزعي بخصوص *عام الوحش*. كان يدعى إفدوكيم. وهو حاج من موسكوفيا، طرق بابي قبل سبعة عشر عاماً تقريباً. لماذا أقول تقريباً؟ لدي التاريخ الدقيق في سجلي التجاري. إنه العشرون من كانون الأول 1648.

كنت دوماً أسجِّل كل الأشياء وأوَّلها التفاصيل الصغيرة التي ربما أنساها.

قبل أن يجتاز الرجلُ بابي، رسم إشارة الصليب بإصبعين مشدودين، ثم حنى رأسه كيلا يصطدم بالقنطرة الحجرية. كان يرتدي معطفاً سميكاً أسود، يداه يدا حطاب ثخينة الأصابع، لحيته شقراء كثة، لكن عينيه صغيرتان وجبينه ضيق.

ليس مصادفة أنه توقف عندي في طريقه إلى الأرض المقدسة. أعطوه العنوان في القسطنطينية قائلين له إن مايبحث عنه يمكن أن يجده هنا، فقط هنا.

«أود الكلام مع سنيور توماسو»

«إنه أبي، قلتُ. لقد توفي في تموز».

«أَسكَنَهُ اللهُ في جنته!»

«أَسكَنَ موتاك القديسين أيضاً!»

جرى تبادُلُ الحديث باليونانية، لغتنا المشتركة الوحيدة، رغم أنه، كان واضحاً أننا كلانا لا نتكلم بها بطلاقة. تبادل متلعثم، تنقصه الثقة، بسبب الحِداد الذي كان مايزال مؤلماً لي، وغير متوقع له. وأيضاً لأن كلاً منا حَرِصَ على ألاَّ ينطق بكلمة تَمسُّ بمعتقدات الآخر، هو لِكَونهِ يُكلِّم «بابوياً مارِقاً»، وأنا لكوني أكَلِّمُ «مُنْشَقّاً ضالاً».

استأنف بعد صمت قصير مشترك:

«آسف جداً لأن والدك غادرنا».

وهو يقول هذا راح يجيل نظره في المحل، لسبر هذا الركام من الكتب والتماثيل القديمة والزجاجيات والآنية الملونة والصقور المُحَنَّطة، متسائلاً - في سرِّهِ، مع أنه كان بوسعه تماماً أن يعبر بصوت عالٍ - إذا كنت أستطيع مساعدته، رغم أن أبي لم يعد موجوداً. كنت قد بلغت الثالثة والعشرين إلا أن وجهي المدور والحليق كان مايزال طفوليّ الملامح.

وقفت منتصباً وذقني إلى الأمام.

«اسمي بالداسار، وأنا الذي أخلف والدي».

لم يُبدِ زائري أي مؤشر على أنه سمعني. كان مايزال يجيل نظره في الأعاجيب الألف المحيطة به، بمزيج من الافتتان والقلق. كان محلنا، من بين كل محلات الطرائف في الشرق، هو الأغزر بالمحتويات والأشهر منذ مئة عام. يأتي الناس إلينا من كل صوب، من *مرسيليا*، من *لندن* من *أنكون* ومن *سميرنا*، من *القاهرة* ومن *أصفهان*.

بعد أن قاسني مرة أخيرة، استسلم.

«أنا إفدوكيم نيكولاييفيتش. أتيت من فورونيج. لقد امتُدِحَ لي محلُكم جداً».

اتخذت في الحال نبرة البوح، تلك كانت آنذاك طريقتي في إظهار الحفاوة.

«نعمل في هذه التجارة منذ أربعة أجيال. جاءت أسرتي من جنوة، لكنها استقرت في المشرق منذ زمن طويل جداً...».

هز كتفيه عدة مرات قاصداً القول بأنه لايجهل شيئاً من هذا كله. وبالفعل، إذا حدَّثوه عنَّا في القسطنطينية، فهذا أول ما يُفتَرض أنهم أخبروه به. «آخِر الجنَويين في هذه البقعة من العالم...». مع بضع صِفات وحركات تشير إلى جنونٍ أو فَرادةٍ قصوى مُتَوارثة دوماً أباً عن جد. ابتسمتُ وصَمَتُّ. وفي الحال، استدار هو نحو الباب صارخاً باسمٍ ما وموجهاً أمراً. هُرِع خادمٌ، وهو رجل قصير القامة بدين بثياب

سوداء منتفخة، يعتمر قلنسوةً مسطحة، ويرخي نظره نحو الأرض. كان يحمل صندوقاً صغيراً، رَفعَ غطاءه ليُخرج منه كتاباً قدَّمه لسيده.

ظننت أنه سيبيعني إياه، فأخذت حذري في الحال. في تجارة الأشياء النادرة، نتعلم باكراً جداً أن نحذر من هؤلاء الأشخاص الذين يأتون بهيئة متكلِّفة للإيحاء بأهميتهم، يُسلسِلون نَسَبَهُم وعلاقاتهم الاجتماعية النبيلة، يلقون أوامرهم يميناً ويساراً، وهم في نهاية المطاف، يريدون بَيْعَكَ عملاً جليلاً، فريداً في نظرهم، وبالتالي فريد في العالم، أليس كذلك؟ إذا عرضتَ عليهم سعراً لا يطابق السعر الذي أضمروه، صُدموا وفكروا بأنهم أهينوا فضلاً عن أنهم تعرَّضوا للغش. وفي النهاية يبتعدون مطلقين التهديدات.

سرعان ما طمأنني زائري: لم يأت إليّ لبيعٍ أو شراء.

«هذا الكتاب طُبع حديثاً في موسكو قبل بضعة أشهر. وقرأهُ كل من يعرف القراءة».

أشار لي بإصبعه إلى العنوان المكتوب بالحروف السيريلية، وراح يذكر اسمه بورع: «كنيغا أو فيري...»، قبل أن ينتبه إلى أنّ عليه أن يترجم لي: «كتاب العقيدة الواحدة، الحقيقية والأرثوذوكسية». نظر إلي بطرف عينه ليرى إذا كانت هذه الصياغة قد هزَّتني كبابويّ. كنت هادئ الأعصاب من الخارج ومن الداخل. ابتسامة التاجر المهذبة، من الخارج، وابتسامة الشكَّاك الساخرة، من الداخل.

«يعلن هذا الكتاب بأن نهاية العالم على الأبواب!»

أشار لي إلى صفحة في أواخر الكتاب.

«كُتب هنا بالنص الكامل بأن المسيح الدجال، طِبقاً للكتاب المقدس، سيظهر في عام 1666 بالتقويم البابوي».

كرر هذا الرقم أربع أو خمس مرات، مُوارِياً «ألفَ» البدايةِ أكثرَ قليلاً كلَّ مرة. ثم راقبني منتظراً رد فعلي.

كنت قد قرأت رؤيا يوحنا عن نهاية العالم وتوقفتُ لحظةً مثل الجميع عند هذه الجمل الغامضة في الإصحاح الثالث عشر: «من له

فهْمٌ، فليَحْسُبْ عَدَدَ الوَحْشِ. فَإنَّه عَددُ إنسانٍ. وعَدَدُهُ ستمئةٍ وستةٌ وستون».

«لقد كُتب 666 ، وليس 1666»، أشرتُ بخجل.

«يجب أن يكون الإنسان أعمى كيلا يرى إشارةً بهذا الوضوح!»

إشارة. كم من مرة سمعت هذه الكلمة، ومِثْلُها كلمة «نذير»! يصبح كلُّ شيء إشارةً أو نذيراً بالنسبة لمن يترقَّب، لمن هو مستعد للاندهاش، للتأويل، مستعد لِتَخَيُّلِ تَوافُقاتٍ وتَقاربات. العالم يغصُّ بِمُتَرَقِّبي الإشارات الذين لا يتعبون ـ عرفتُ عدداً منهم في هذا المحل! من أكثرهم فتنةً إلى أشدِّهم شؤماً!

بدا المدعو إفدوكيم مغتاظاً من فتوري النسبي، الذي يشي بجهلي وزندقتي معاً. ولأنني لم أشأ إغضابَه، بذلتُ مجهوداً لأقول:

«في الحقيقة، كل هذا غريب ومثير للقلق...». أو جملة من هذا النوع. فاستأنف الرجل وقد اطمأنَّ:

«جئت إلى هنا بسبب هذا الكتاب. أبحث عن نصوصٍ توضِّح لي الأمور».

عندها فهمت، وسأستطيع مساعدته.

يجب أن أقول بأنّ ثروةَ محلِّنا قامت في العقود الأخيرةِ على شَغَفِ المسيحيين بالكتب الشرقية القديمة ـ خاصةً اليونانية والقبطية والعبرانية والسريانية ـ التي بدا أنها تنطوي على أقدم حقائق الإيمان، والتي سَعَت البلاطاتُ الملكية، خصوصاً البلاط الفرنسي والإنكليزي، للحصول عليها من أجل دعم وجهة نظرها في النزاعات بين الكاثوليكيين وأنصار الإصلاح. منذ قرابة القرن قامت عائلتي بنهب أديرة الشرق أثناء بحثها عن تلك المخطوطات المتواجدة اليوم بالمئات في مكتبة باريس الملكية، أو مكتبة البودليان بأوكسفورد، حتى لا نذكر سوى أكثرها أهمية.

«لا أملك كتباً كثيرة تتحدث عن نهاية العالم، ولا عن المقطع الذي يشير إلى عدد الوحش بصورة خاصة. لكن لديّ هذه...».

واستعرضتُ بعض المؤلفات، عشر أو اثني عشر، بلغات مختلفة،

مفصِّلاً محتواها، ومعدداً أحياناً عناوين فصولها. لا أكره هذا الجانب من مهنتي. وأظن أن لديَّ الأسلوب اللازم لذلك. لكن زائري لم يُظهر الاهتمام الذي أردتُ إثارته. كلما ذكرت كتاباً، أظهرَ خيبته ونفاد صبره عبر حركات صغيرة بأصابعه ونظرات سريعة.

في النهاية، فهمت.

«حدثوك عن كتاب محدد، أليس كذلك؟»

لفظ اسماً وهو يتخبط في أصوات الحروف العربية، لكني لم أجد صعوبة في الفهم. *أبو ماهر المازندراني*. الحقّ أني كنت أتوقع ذلك منذ زمن.

هواةُ الكتبِ القديمة، يعرفون كتاب المازندراني. وقد اشتُهر لأن قليلاً جداً من الناس حصلوا عليه. مازلت أجهل، أساساً، هل هو موجود حقاً الآن وهل وجد في أي زمن.

أوضِّح قولي، إذ سرعان ما سأبدو كَمَنْ يكتب أشياء متناقضة: عندما نغوص في كتب بعض المؤلفين المشهورين والمعترف بهم، نجد أنهم كثيراً ما يشيرون إلى هذا الكتاب قائلين بأن أحد أصدقائهم أو معلميهم يملكه في مكتبته... وبالمقابل، فإنني لم أقع على تأكيدٍ لايشوبهُ الغموض بشأن وجود هذا الكتاب. لم يقُل أحدٌ قط بوضوح «لديَّ الكتاب»، «تصفَّحتُهُ»، «قرأتُهُ»، لم يستشهد أحد بمقاطع منه. بحيث أن أكثر التجار جديةً، وكذلك غالبية المتعلِّمين، مقتنعون بأن هذا الكتاب لم يوجد أبداً، وأن النسخ النادرة منه والتي تظهر من وقت لآخر، هي من عمل مزوِّرين ومخادعين.

هذا الكتاب الخرافي يحمل عنوان كشف *الاسم المخبوء*، لكنه متعارف عليه بعنوان *الاسم المئة*. وعندما أحدد الاسم المقصود، يُفهم لماذا كان مطلوباً دوماً بهذا الشكل.

لا أحد يجهل أن القرآن ذكر تسعة وتسعين اسماً لله، والبعض يفضل القول «صفات». الرحيم، المنتقم، اللطيف، الظاهر، العليم، الحكم، الوارث... ولقد أثار هذا الرقم الذي أكدته التقاليد، لدى ذوي

العقول الفضولية، التساؤل البديهي التالي: ألا يوجد اسمٌ مئة خبيءٌ يكمل هذا الرقم؟ ثمة أحاديث للنبي، يرفضها بعض أساتذة القانون، ويعتبرها آخرون حقيقيَّة، تؤكِّد وجودَ اسم فائق يكفي النطق به لإبعاد كل الأخطار والحصول على أية نعمة من السماء. يقال إن نوح عرفَهُ، وبهذا نجا مع ذويه عندما وقع الطوفان.

يَسهُل تَخيُّل الجاذبية غير العادية لكتاب يدَّعي كشف سرٍّ مماثل في هذا الوقت الذي يخشى فيه الناس طوفاناً جديداً. تَقاطَرَ إلى محلي كل أنواع الشخصيات، راهب كرملي حافي القدمين، خيميائي من تبريز، قائد عثماني، قبائلي من طبرية، كانوا جميعاً يبحثون عن هذا الكتاب. ولطالما وجدتُ من واجبي أن أشرح لهؤلاء الناس لماذا ليس الأمرُ، في نظري، سوى سراب.

بعد أن ينتهي زوَّاري من سماع حججي، يستسلمون عادةً، بعضهم خائباً وبعضهم الآخر مطمئناً. لأنهم إذا لم يكن بوسعهم الحصول على هذا الكتاب، فهم يفضلون الاعتقاد بأنَّ لا أحد آخر في العالم سيحصل عليه...

لم يكن ردُّ فعلِ الموسكوفيّ خيبةً ولا اطمئناناً. في البداية بدا هازئاً، كأنه أراد أن يُفهِمني بأنه لا يصدِّق كلمة واحدة من كلامي المُنَمَّق، كلام التجار. وحين قررت التوقف، مغتاظاً من حركاته، همس، وقد أصبح فجأةً وقوراً، بل مُتَوَسِّلاً:

«بِعْني إياه، وسأعطيك في الحال كل ما أملكه من ذهب!»

ياصديقي المسكين، وددتُ لو أقول له، أنت محظوظ بأنك وقعت على تاجر شريف. ستجد ما يكفي من المحتالين الذين سينهبون ذَهَبَكَ قريباً!

عدت أشرح له بصبر، لماذا، حسب علمي، ليس لهذا الكتاب وجود، ومَنْ يدَّعون العكس هم إما المؤلفون الساذجون وسريعو التصديق، أو المحتالون.

وكلما مضيتُ في محاكمتي، ازداد وجهه احتقاناً. مثل مريض محكوم عليه، أخذوا يشرحوا له بهدوءٍ وابتسامةٍ على الشفاه، بأن

العلاج الذي يتوقع الشفاء بوساطته، لم يرَكّب قط. لم أر في عينيه الخيبة أو الاستسلام، ولا حتى عدم التصديق، بل رأيت الكراهيةَ، ابنةَ الخوف. اختصرتُ عرضي ورسوتُ عند خاتمةٍ حذرة:

«العلم عند الله وحده!»

لم يعد الرجل يسمعني. تقدم مني وأمسكني من ملابسي بقبضتيه القويتين، شدَّني إليه هارساً ذقني فوق صدره الشبيهِ بصدر عملاق. ظننت أنه سيخنقني أو يهشم رأسي على الجدار. تَقَدَّمَ خادمُهُ، لحسن الحظ، لمَسَ ذراعَهُ وهمس بشيء في أذنه. أفترض أنها كلمات مهدِّئة لأن سيده أفلتني في الحال ودفعني بحركة احتقار. ثم خرج من المحل وهو يتمتم بلعنةٍ ما بلغته.

لم أره ثانيةً قط. وكنت سأنسى حتى اسمه لو لم يرتبط مرورُهُ ببدايةِ تَقاطُرٍ غريبٍ للزوار. احتجتُ إلى وقت لأنتبه إلى ذلك، لكنني الآن متأكد منه: فبعد ذلك الـ إفدوكيم، لم يعد الناس الذين يأتون إلى المحل مثل سابق عهدهم، لم يعودوا يتصرفون بالطريقة نفسها. ألم يكن ذلك الحاج الموسكوفي يحمل في عينيه ذلك الرعبَ الذي يصفه البعض بالـ «مقدّس»؟ إنني أراه الآن في جميع النظرات ومعه نفاد الصبر والاستعجال، معه ذلك الإلحاح القلِق.

ليست هذه سوى انطباعات. التاجر هو الذي يتكلم الآن، وأصابعه فوق سجلِّه: بعد زيارة ذلك الرجل، لم يمض يوم دون أن يكلمني أحد عن نهاية العالم، عن المسيح الدجال، عن الوحش وعدده.

لماذا لا أقولها بفجاجة، في السنوات الأخيرة أصبحت نهاية العالم هي التي تحقق لي معظم إيراداتي. نعم، الوحش هو الذي يَكسيني، الوحش هو الذي يُطعمني. ما أن يَظهَر ظلُّهُ في أحد الكتب حتى يهرع المشترون من كل حدب وصوب، فاتحين أكياس نقودهم. كل شيء يباع بسعر الذهب. من أكثر المؤلفات علماً حتى أكثرها هوائيةً. بل لقد احتوت رفوفي على كتاب *وصف دقيق للوحش ووحوش نهاية العالم الكثُر*، باللاتينية مع أربعين رسماً مساعداً...

وإذا حقق هذا الشغفُ المرَضيُّ ازدهاري، فهذا لايعني أنه لم يقلقني.

لستُ بالرجل الذي يلاحِقُ جنونَ العصر. فأنا أعرف كيف أحافظ على التَّعقُّل حين يدب من حولي الاضطراب. غير أني لستُ أيضاً من أولئك البليدين المتَعَنِّتين الذين يصوغون آراءهم مثلما يصوغ المحار لؤلؤه ثم ينغلق عليه. لدي أفكاري وقناعاتي إلا أنني لستُ بالأصمِّ عن تَنَفُّس العالم. هذا الخوف الذي ينتشر، لا أستطيع تجاهله. وحتى إذا اقتنعتُ بأن العالم قد جُنَّ فليس بوسعي أن أتجاهل هذا الجنون أيضاً. عبثاً ابتسمت، ورفعت كتفيّ لامبالياً وأرغيت وأزبدتُ شاتماً الحماقة والطيش، لقد شوَّشني هذا الأمر حقاً.

أحرَزَ الجنونُ نقاطاً في المعركة التي يتواجه فيها العقلُ مع الجنون، بداخلي. احتجَّ العقلُ وسخِر وتشبَّثَ وقاومَ، ومازلت أملك مايكفي من جلاء الذهن لكي أراقب هذه المواجهة من بعض المسافة. لكن هذه البقية من الجلاء تحديداً هي التي تحملني على الإقرار بأن الجنون يغلبني. وإذا استمر هذا، فسأصبح يوماً غير قادر على كتابة مثل هذه الجمل. بل ربما أعود وأنقِّب في هذه الصفحات لأمحو ماكتبته للتو. لأن ما أسميه اليوم بالجنون سيكون قد أصبح عقيدتي. وإذا وُجِد يوماً شخصٌ كهذا، بالداسارّ كهذا، لاسمَحَ الله!، فإنني أمقُتُهُ وأحتقرُهُ وألعنُهُ بكل ما بقي لي من ذكاء ومن شرف.

أعرف أن كلماتي غير مطبوعة بالصفاء. ذلك أن الأصوات التي تملأ العالم بالضجيج قد تسللت إلى بيتي. بدأتُ منذ الآن أسمع في بيتي بالذات كلاماً مثل كلام إفدوكيم.

الخطأ خطئي أصلاً.

قررتُ منذ سنة ونصف، حين لم تتوقف تجارتي عن الازدهار، استدعاء ابنَيْ أختي بليزانس لمساعدتي والتدرُّب على مهنة التعامل مع الأشياء النادرة، والاستعداد لخلافتي يوماً ما. توقعتُ الكثير من الكبير جابر خاصةً. وهو شاب مثابر دقيق مجتهد وشبه عالم حتى قبل بلوغه سن النضج. بعكس أخيه الأصغر حبيب، قليل الميل للدراسة، والذي

يتسكع دوماً في الحارات. توقعتُ القليل من هذا الأخير، وتمنيتُ على أية حال أن أجعله يعقل بتحميله أولى مسؤولياته.

جهد ضائع. لأن حبيب عندما كبرَ أصبح غاوياً لا سبيل إلى إصلاحه. يجلس دوماً قرب نافذة المحل، عينه تَرصُد، يوزع المجاملات والابتسامات، ويغادر في أية ساعة، إلى مواعيد محاطة بالألغاز، أستشفُ فحواها بسهولة. فكَمْ من امرأةٍ من نساء الحي، وقت الذهاب لملء الجرار من النبع، تجد الطريق من أمام تلك النافذة، أقصر... حبيب، نادراً ماتكون الأسماءُ بريئةً.

أما جابر فقد بقي داخل المحل. وأخذ وجهه يزداد بياضاً لشدة بقائه بعيداً عن الشمس، يقرأ وينسخ ويسجل ملاحظات ويرتب ويستشير مَراجِعَ ويقارن. وإذا أضاءت ملامحه أحياناً، فليس ذلك بفضل ابنة الإسكافيّ التي ظهرت للتو في آخر الشارع وراحت تتقدم بمشيتها المتثاقلة. بل لأنه قد اكتشف للتو في الصفحة مئتين وسبع وثلاثين من كتاب شرح الشروح، تأكيداً لما ظَنَّ أنه استَشَفَّهُ، عشية الأمس عند قراءته لـِ الشرح النهائي للكتاب المقدس... مثل هذه المؤلفات العويصة، المتجهِّمة، أنا أكتفي بالمرور عليها في قراءة سريعة، بحكم الواجب، وأيضاً بمحطات استراحة عديدة. أما هو فلا. يبدو أنه يتلذَّذ بها، كأنها من أشهى أنواع الحلوى.

كنت أقول لنفسي بأنّ هذا أفضل. لم أكن أستاء لرؤيته مثابراً بهذا القدر، كنتُ أستشهد به كَمَثَلٍ أمام أخيه، بل بدأتُ أُحِيل إليه مهام معينة ليقوم بها بدلاً مني. لم أكن أتردد في تسليمه أكثرَ الزبائن تدقيقاً، يمضي ساعاتٍ مجادلاً معهم. ومع أن التجارة ليست هَمَّهُ، فقد كان يجعلهم في النهاية يشترون جبالاً من الكتب.

لم يكن باستطاعتي إلاّ أن أهنِّئ نفسي عليه، لو أنه لم يبدأ، هو أيضاً، بإسماعي كلاماً يثير السخط عن النهاية الوشيكة للزمن والدلائل المنذرة بها. هل حدث ذلك بتأثير قراءاته أم بتأثير زبائن معينين؟ ظننت في البداية أنه يكفي أن أربت على كتفه طالباً منه ألاّ يصدق هذا الهذر. بدا الصبي ليِّناً، وظننت أنه سيطيعني في هذا كما في غيره. لكنّ

معنى ذلك أني لا أعرفه جيداً ولا أعرف خصوصاً عصرَنا، لا أعرف أهواءه ولا هواجسه.

وطبقاً لكلام ابن أختي، فإن موعد نهاية العالم، قد حُدد منذ الأزل. والموجودون اليوم على الأرض، سيحظون بالامتياز القاتم، امتيازِ حضورِ التتويج الجنائزي للتاريخ. ويبدو لي أنه، هو نفسه، لا يشعر بسبب ذلك بالحزن ولا بالقنوط، بل بالأحرى بنوع من الفخر الممزوج بالخوف دون شك، ولكن أيضاً بنوع من الابتهاج. كل يوم يكتشف تأكيداً لتنبُّؤاته في مصدرٍ جديد لاتيني أو يوناني أو عربي. فيؤكد أن الكل يلتقي عند التاريخ نفسه، التاريخ الذي ذكره كتاب الإيمان الروسي - والذي أخطأتُ إذ حدثته عنه - 1666 . العام القادم. «عام الوحش» كما يحلو له أن يسميه. يُعِدّ حشداً من الحجج والشواهد وتواقيت الأعياد والحسابات المعقدة ولائحة لاتنتهي من «الإشارات» دعماً لقناعته.

عندما نبحث عن الإشارات نجدها. ذاك كان شعوري على الدوام، وأصرُّ على تدوينه مرة أخرى هنا، بحبري، لأجل اليوم الذي سأنساه فيه، في دوامة الجنون التي تسيطر على العالم. كل ما نريد إثباته، إشارات واضحة، إشارات بليغة، إشارات مقلِقة، كله يتمّ إثباته في النهاية. وإذا أردنا إثبات العكس، سنجد أيضاً ما يلزمنا لذلك.

أكتب هذا وأعتقد به. إلا أنني لستُ أقلَّ تأثُّراً من اقتراب «العام» المذكور.

ثمة مشهد مايزال ماثلاً في ذهني، حدث قبل شهرين أو ثلاثة. اضطررتُ أنا وابنا أختي للعمل حتى وقت متأخر إلى حد ما، لإجراء جَرْدِ ما قبل الصيف، وكنا ثلاثتنا منهكين. استرخيت على كرسي وذراعاي يحيطان بسجلّي المفتوح، وبجانبي مصباح زيت بدأ يضعف. حين أقبل جابر فجأةً من الجانب الآخر للطاولة، انحنى فلامس رأسه رأسي واتّكأتْ يداه فوق مرفقيّ حتى آلمتاني. كان وجهه بكامله محمراً، وظله الذي لا حدَّ له، يغطي الأثاث والجدران. همس بصوتٍ آتٍ من وراء الموت:

«العالم مثل هذا المصباح، استهلك الزيت المخصص له، ولم يبق إلا النقطة الأخيرة. انظرْ! الشعلة ترتعش! سينطفئ العالم قريباً».

فجأةً، وبسبب التعب وكل ما يُقال حولي بشأن علائم نهاية العالم، شعرتُ بأني أنوء تحت رصاص هذه الكلمات. ظننت أني لن أجد القوة حتى لكي أقف ثانيةً، وأن عليَّ أن أنتظر، خائراً بهذا الشكل، أن تختنق الشعلة أمام عيني، وتغشاني الظلمات...

حين علا صوت حبيب من خلفي، ضاحكاً، ساخراً، مضيئاً، نافعاً:

«بومة!» ألن تكفّ عن تعذيب خالنا؟»

«بومة»، «طائر النحس»، هكذا كان الأخ الأصغر يسمي أخاه دوماً منذ الطفولة. وأقسمتُ وأنا أنهض، ذلك المساء، وقد تيبَّستُ فجأةً، ألا أدعوه باسم آخر بعد الآن أبداً.

مع ذلك، فعبثاً صرختُ «بومة!»، وأرغيت وأزبدت، وهمهمت، لم أستطع منع نفسي من سماع كلماته التي عشَّشَتْ في ذهني، بحيث بدأتُ بدوري أرى إشاراتٍ في الموضع الذي كنت بالأمس لا أرى فيه سوى مصادفات: مصادفات تراجيدية أو موجِبَة العِبرة أو مسلية، لكني كنتُ فقط سأدمدم ببضع مقاطع تعبِّر عن الاندهاش، في حين أنني اليوم أنتفض، أضطرب وأرتعش. وأستعد حتى لتغيير مجرى حياتي المسالم.

صحيح أن أحداث الفترة الأخيرة لم تتركني لامبالياً.

وإن اقتصرَ الأمر على تلك القصة، قصة العجوز إدريس، وحدها!

لن يكون الاكتفاء بهزِّ كتفيَّ كما لو أن ذلك لا يعنيني، لن يكون سلوكاً حكيماً، بل قلة إحساس وعماء قلب.

جاء إدريس ملتجئاً إلى ضيعتنا جبيل(*) منذ سبع أو ثماني سنين. جاء يرتدي أسمالاً، ولا يحمل أمتعة تقريباً. وكان يبدو فقيراً بقدر ماهو عجوز. لم يُعرف على وجه الدقة أبداً من يكون ولا من أين جاء،

(*) وردت في النص «Gibelet»: وهي مدينة جبيل اللبنانية الساحلية، وقد سماها الصليبيون جيبله واستعادت اسمها جبيل على يد الأيوبيين في العام 1189 . م.

ولا من أي شيء يهرب. اضطهاد؟ دَين؟ ثأر عائلي؟ على حد علمي أنه لم يبُح بسرِّه لأحد. سكن في بيت متداعٍ استأجره بمبلغ زهيد.

هذا العجوز الذي لم ألتق به كثيراً والذي لم أتبادل معه قط أكثر من كلمتين بشكلٍ متواصل، حضر إذن إلى محلي الشهر الماضي، ضامًّاً إلى صدره كتاباً ضخماً عرضَ عليَّ بخَرَقٍ أن أشتريه. تصفَّحته. إنه ديوان شعر مبتذل لشعراء مغمورين، مكتوب بخط مرتجِف وغير منتظم، سيئ التجليد والصيانة.

«إنه كنز لامثيل له، قال العجوز مع ذلك، بقي لي من جدي. ما كنتُ أبداً لأتخلى عنه لولا الحاجة...».

لا مثيل له؟ لا بد أن نصف بيوت البلد لديها منه. ها هو كتاب سوف يظل عبئاً عليّ، حتى أموت، قلتُ لنفسي! ولكن كيف أَصرِف فقيراً مسكيناً داس على كبريائه وحيائه لكي يحصل على أسباب البقاء؟

«اتركه لي يا حاج إدريس، سأريه لزبائن ربما يثير اهتمامهم».

كنتُ أعرف كيف سأتصرف. تماماً مثلما كان سيفعل أبي لو كان في مكاني. إرضاءً لضميري أجبرتُ نفسي على قراءة بعض القصائد. ومثلما رأيتُ من النظرة الأولى، كانت أعمالاً قليلة الشأن، مع بعض الأبيات الجيدة هنا وهناك، لكنه بالمجموع من أكثر الأعمال التي يمكن أن توجد ابتذالاً وعاديةً، وأقلّها قابليةً للبيع. في أفضل الأحوال، لو أن لديَّ زبوناً مغرماً بالشعر العربي، ربما أحصل منه على ستة ميدنات(*)، والأرجح ثلاث أو أربع... لا، لديَّ استعمال أفضل لهذا المؤلَّف. بعد بضعة أيام من زيارة إدريس، جاء موظف عثماني كبير عابر ليشتري مني أشياء عديدة، وبما أنه أصرَّ أن أتلطَّف وأمنحه حسماً، أهديته هذا الكتاب كعلاوة، فرَضِيَ.

انتظرت أسبوعاً، ثم ذهبتُ إلى العجوز. يا إلهي كم كان بيته مظلماً ومقفراً! دفعتُ الباب ذا الخشب المتفتِّت، لأجد نفسي في حجرة عارية الأرض والجدران. كان إدريس يجلس فوق حصيرة بلون الطين. تربَّعتُ بجانبه.

(*) ميدنات، جمع ميدن، عملة عثمانية.

«مرَّ شخص مهم بمحلي وكان سعيداً حين عرضتُ عليه كتابك. هاهو المبلغ الذي يعود لك».

للعِلم إنِي لم أقل له شيئاً غير صحيح! لا أحتمل الكذب، حتى إذا غششتُ قليلاً بما أُغفِلُ قوله. لكني في النهاية لم أرمِ إلا للحفاظ على كرامة هذا الرجل العجوز، بمعاملته كواحد ممن يمدُّونَني بالسلع، وليس كطالِبِ إحسان! لذا أخرجتُ من صرة نقودي ثلاث قطع من فئة الميدن، ثم ثلاث قطع من فئة الخمسة، متظاهراً بتدقيق الحساب على أتم وجه.

فتح عينيه مدهوشاً.

«لم أتوقع هذا المقدار يا بني. ولا حتى النصف...».

حركتُ إصبعي في الهواء.

«يجب ألاَّ يُقال هذا الكلام لتاجر قط، يا حاج إدريس. فربما تغريه بأن ينهبك».

«ليس هناك ما أخشاه معك، يا بالداسَار أفندي! أنت صاحب الفضل عليّ».

كنت أستعد للنهوض لكنه استوقفني.

«عندي شيء آخر لك».

اختفى بضع لحظات خلف الستار، ثم عاد يحمل كتاباً آخر.

أيضاً؟ قلتُ في سري، ربما كان لديه مكتبة كاملة في الحجرة الأخرى. سُحقاً، في أي شيء ورَّطتُ نفسي؟

سارع في طمأنتي كما لو أنه سمع احتجاجي الصامت:

«إنه الكتاب الأخير الذي بقي لي، وأصر أن أقدمه لك أنت وليس لأحد غيرك!»

وضعه فوق راحتي كأنه يضعه فوق مِقرأ مفتوح على الصفحة الأولى.

يا لُطف الله!

الاسم المئة!

كتاب المازانداراني!

لو كنتُ أتوقع العثور عليه في كوخ كهذا!

«حاج إدريس، هذا كتاب نادر! لا يجوز أن تتخلى عنه هكذا!».

«لم يعد لي، أصبح الآن لك، احتفظ به! اقرأه! أنا لم أتمكن قط من قراءته».

رحت أقلب الصفحات بنهم، لكن المكان كان شديد الظلمة ولم أستطع أن أقرأ سوى العنوان.

الاسم المئة!

يا إله السماء!

وأنا خارج من بيته، كنتُ أحمل الكتاب الثمين تحت ذراعي، في ما يشبه حالة الثمل. هل يُعقل أن هذا الكتاب الذي يطمع به العالم بأسره، هو الآن ملكي؟ كم جاء أناس من أطراف الأرض بحثاً عنه، وكنتُ أجيبهم بأنه غير موجود، فيما هو على بعد خطوتين من محلي، في أشد البيوت بؤساً! وهاهو هذا الرجل الذي بالكاد أعرفه، يهديني إياه! هذا كله مقلِق وغير قابل للتصور! فاجأت نفسي وأنا أضحك بمفردي في الشارع مثل المعتوه.

كنت منتشياً إلا أنني مازلت غير مصدِّق، حين استوقفني أحد المارة:

«بالداسار أفندي!»

عرفت في الحال صوت الشيخ عبد الباسط، إمام جامع جبيل. تبقى معرفة كيف أمكنه هو أن يعرفني فيما هو ضرير منذ الولادة، وأنا لم أقل كلمة واحدة...

ذهبت نحوه، وتبادلنا التحية بالشكل المتعارف عليه.

«من أين أنت قادم حتى تمشي بهذا الخطوات الراقصة؟

«من بيت إدريس».

«باعكَ كتاباً؟»

«كيف عرفت؟»

«لأي سبب يمكن أن تذهب إلى هذا الرجل الفقير؟» قال وهو يضحك.

«صحيح»، اعترفتُ وأنا أضحك بالطريقة نفسها.

«كتاب زندقة؟»

«لماذا زندقة؟»

«لو لم يكن كذلك كان لَعَرَضَهُ عليَّ أنا!»

«للحقيقة، لا أعرف الكثير بعد عن مضمون هذا الكتاب. المكان مظلم جداً عند إدريس، وأنتظر أن أكون في بيتي لكي أقرأه».

مدَّ الشيخ يده.

«أرِني إياه!»

فوق شفتيه نصف المفتوحتين يرتسم دائماً تعبيرٌ يشبهُ ضحكةً تنتظر. لا أعرف أبداً متى يبتسم حقاً. أخذ الكتابَ، تصفَّحه خلال بضع ثوان أمام عينيه المغمضتين، ثم أعاده قائلاً:

«الجو مظلم جداً هنا، لا أرى شيئاً!»

وضحك هذه المرة دون تحفُّظ، ناظراً إلى السماء. ولم أعرف إذا كان التهذيب يقتضي مني أن أشاركه مرَحَهُ. واكتفيتُ بسعلةٍ خفيفة هي بين الضحكة المكبوحة وبين النحنحة.

«وماهو هذا الكتاب إذن؟» سأل.

تستطيع إخفاء الحقيقة عن المُبصِر، فالكذب مهارة ضرورية أحياناً. أما على رجلٍ مُطفأ العينين، فالكذب بؤس، نذالة، دناءة. كان عليَّ، بحسٍّ من الشرف وربما التطَيُّر أيضاً، أن أخبره بالحقيقة التي أحطتُها على أية حال بشروط حذِرة:

«ربما يكون هذا هو كتاب *الاسم المئة* المنسوب إلى «أبو ماهر المازاندراني» لكنني أنتظر أن أكون في بيتي لكي أتحقق من نسبته».

دقَّ الأرض بعصاه، مرتين، ثلاثاً، وهو يتنفس بصوتٍ عال.

«لماذا تكون هناك حاجة للاسم المئة؟ أنا، علَّموني منذ الطفولة

جميع الأسماء التي أحتاج إليها كي أصلّي، لماذا أحتاج إلى اسمٍ مئة؟ قل لي، أنتَ الذي قرأتَ هذا القدر من الكتب بجميع اللغات!»

أخرجَ مسبحةً من جيبه وراح يسبِّح بها بعصبية بانتظار جوابي. بماذا أجيب؟ لم تكن لديَّ أسباب أكثر منه دفاعاً عن الاسم المخبوء. شعرتُ مع ذلك بأنّ عليّ أن أشرح له:

«مثلما تعرف، يدَّعي البعض أن الاسم الفائق يحقِّق الأعاجيب...».

«أية أعاجيب؟ إدريس يملك هذا الكتاب منذ سنين، أية أعاجيب حققها له؟ هل جعله أقل فقراً؟ أقل عجزاً؟ من أية مصائب صانَهُ؟»

ثم ابتعد، دون أن ينتظر جوابي، وهو يكنس الهواءَ وغبارَ عصاه الساخطة.

حين عدتُ إلى محلي، كان همي الأول أن أخفي الكتاب عن ابنَيْ أختي. خاصةً عن بومة، لشدة اقتناعي بأنه إذا رآه، إذا لمسه، فسيدخل في حالة الرعشة في الحال. لذا دسستُهُ تحت قميصي، وحالما صرتُ داخل المحل، دسستُهُ أيضاً، دون علم أحد، تحت تمثال قديم وسريع العطب إلى أقصى حد، كنتُ متعلقاً به بشكل خاص، وأمنع أحداً من تحريكه، وحتى من نفض الغبار عنه.

حدث ذلك السبت الماضي، 15 آب. عاهدتُ نفسي بتخصيص يوم الأحد لفحص دقيق لكتاب المازندراني.

فور نهوضي - في ساعة متأخرة، مثل كل أيام الآحاد، بتوقيت الكُفَّار - عبرتُ الممشى الصغير الذي يصل غرفتي بالمحل، أخذت الكتاب وجلست إلى طاولتي وقد اعتراني ما يشبِهُ اضطرابَ الأطفال. كنتُ قد أغلقت الباب من الداخل كيلا يفاجئني ابنا أختي، كما أسدلتُ الستائر كيلا أشجِّع الزوار. كنتُ محاطاً إذن بالهدوء والطراوة. لكنني انتبهتُ وأنا أفتح الكتاب إلى أنه ليس لديّ ضوء كاف. لذا قررتُ أن أقرِّب مقعدي من النافذة الكبرى.

وبينما كنتُ أنقله، دقَّ الباب. أطلقت شتيمة وأصخت السمع، آملاً

أن تخمد عزيمة الزائر المزعج فيمضي في سبيله. للأسف دقَّ الباب ثانيةً. ليس بإصبع خجول، بل بقبضة اليد، بتَسلُّط وإلحاح.

«أنا قادم»، صرختُ. سارعتُ بإعادة وضع الكتاب تحت التمثال القديم قبل أن أفتح.

جعلني هذا الإلحاح أفكر بأن الطارق ربما يكون شخصية مرموقة، وكان كذلك. الفارس هوغ دي مارمونتيل، رسول البلاط الفرنسي. رجل واسع الثقافة، وعارف حاذق بالأشياء المتعلقة بالشرق، سبق أن جاء إليّ مرات عديدة خلال السنوات الأخيرة، وابتاع قدراً ضخماً من المشتريات.

قال إنه متجه من صيدا إلى طرابلس ومنها سيبحر إلى القسطنطينية، ولا يمكنه أن يتجاوز جبيل دون أن يطرق باب منزل آل أمبرياتشي النبيل. شكرته على كلماته وكذلك على اهتمامه، وبالطبع دعوته للدخول. أزحت الستائر وتركته يتجول وسط البضائع الطريفة مثلما يحب أن يفعل. تبعتُهُ ولكن من مسافةٍ كي أجيب عن تساؤلاته المحتملة، متجنِّباً أن أضايقه بشروح لم يطلبها.

تصفَّح أولاً نسخة من كتاب *الجغرافيا المقدسة* لـِ صموئيل بوشارت. «حصلت عليه منذ ظهوره، ولا أكفّ عن الغوص فيه. هاهو أخيراً كتاب يتحدث عن الفينيقيين، أجدادك... أقصد أجداد أهل هذه البلاد».

تقدم خطوتين ثم توقف على الفور.

«هذان التمثالان فينيقيان فعلاً، أليس كذلك؟ من أين جاءا؟»

قلتُ بفخرٍ بأنني أنا الذي وجدتهما وأخرجتهما من تحت التراب، في حقل قريب من الشاطئ.

«أشعر بحنان كبير إزاء هذين الشيئين»، اعترفت.

قال الفارس فقط: «آه!»، وقد أدهشه أن يستخدم تاجرٌ هذه التعابير للكلام عن سلعة معروضة للبيع. صمتُّ متضايقاً قليلاً، وانتظرتُ أن يلتفت نحوي ليسألني عن سبب هذا الحنان. حين التفتَ شرحت له بأن كلاً من هذين التمثالين دفن بجانب الآخر، وأنّ المعدن

صَدِئَ مع الزمن فالتحمت اليدان معاً. أحب أن أفكر الآن بأنهما عاشقان فرَّقَهُما الموتُ ووحَّدَتْهُما الأرضُ والزمن والصدأ على نحوٍ لايقبل التفريق. كل من يراهما يتكلم عن تمثالين، وأنا أحب أن أتكلم عنهما وكأنهما تمثال واحد - تمثال العاشقَيْن.

مدَّ يده ليمسكه، فرجوتُهُ أن يكون حذراً، لأن أقلَّ صدمة قد تفصل بينهما. فأمرني إذ اعتَبَر أني لم أُكلِّمْهُ بقدرٍ كافٍ من المراعاة، برفعِ تمثالي بنفسي. حملتُه بحذرٍ متناه لأقرِّبه من النافذة. ظننتُ أن الفارس سيتبعني، لكنني حين التفتُّ رأيتُهُ مايزال في المكان نفسه، وفي يديه كتاب *الاسم المئة*.

كان ممتقع اللون وامتقع لوني بالقدر نفسه.

«منذ كم من الوقت هو لديك؟»

«منذ الأمس».

«ألم تقل لي يوماً بأن هذا الكتاب غير موجود برأيك؟»

«كان هذا رأيي دوماً. لكني أخبرتُك أنّ هناك نسخاً مزيفة يتمُّ تداولها من وقت لآخر».

«هل هذه إحدى هذه النسخ المزيفة؟»

«دون شك، لكنني لم أجد الفرصة للتأكد من ذلك بعد».

«بأي سعر تعرضها؟»

كِدتُ أجيب: «إنها ليست للبيع!»، لكنني غيرت رأيي. لا يجوز أن تقول هذا أبداً لشخصٍ رفيع المقام. لأنه سيقول لك في الحال: «إذا كان الأمر هكذا سأستعيرها إذن منك». عندها، يجب أن تثق به حتى لاتُهينَه. ثمة احتمالات قوية بألاَّ ترى الكتاب ثانيةً، ولا الزبون أيضاً. لقد تعلمتُ ذلك مرات عديدة على حسابي.

في الواقع، قلتُ متلعثماً، هذا الكتاب يعود لعجوز مجنون يعيش في أكثر بيوت جبيل بؤساً. إنه مقتنع بأنه يعادل ثروة».

«كم؟»

«قلت لك ثروة، إنه معتوه!»

في تلك اللحظة، لاحظتُ أن ابن أختي بومة يقف خلفنا، يراقب المشهد صامتاً مذهولاً. لم أسمعه يدخل. طلبت منه الاقتراب لكي أقدمه لزائرنا الرفيع. تمنيتُ بهذا الشكل، تحويل الحديث للإفلات من الفخّ الذي راح ينغلق. لكن الفارس اكتفى بهزةٍ رأسٍ مقتضبة قبل أن يكرر:

«بكم هذا الكتاب، سينيور بالداسار؟ إنني مصغٍ إليك!»

أي رقمٍ أرتَجِل؟ كنتُ أبيع أكثر المؤلفات قيمةً بستٍّ مئة ميدَن. أحياناً، وبصورة استثنائية للغاية، يرتفع السعر حتى الألف للمؤلفات التي تثير هذا القدر من المنافسات...

«يريد ألفاً وخمسمئة ثمناً له! وهل أبيعك هذه النسخة المزيفة بهذا السعر؟»

حلَّ زائري كيس نقوده دون أن يقول شيئاً، وعدَّ لي المبلغ بقطع فرنسية. ثم أعطى الكتاب لأحد رجاله، الذي ذهبَ ودسَّهُ بين الأمتعة.

«أود أن آخذ أيضاً هذين التمثالين بالقبَّعتين المذهَّبتين. لكنني أفترض أن القليل الذي بقي لي من النقود لن يكفي لشرائه!»

«أما العاشقان فليسا للبيع، أقدِّمهما لك. اعتنِ بهما!»

اقترحتُ على مارمونتيل البقاء للغداء، لكنه رفض الدعوة بجفاف. شرح لي أحدُ تابِعيه أن على الفارس استئناف الطريق بأقصى سرعة إذا أراد الوصول إلى طرابلس قبل هبوط الليل. سيبحر مركبه منذ اليوم التالي باتجاه القسطنطينية.

رافقتهم حتى باب جبيل دون أن أحصل من الرسول على كلمة زائدة أو نظرة وداع.

حين عدت رأيتُ بومة يبكي وهو يشدُّ قبضتيه من شدة الغضب.

«لماذا أعطيته هذا الكتاب؟ لا أفهم!»

أنا أيضاً لا أفهم لماذا تصرفتُ على ذلك النحو. في لحظة ضعف، فقدتُ دفعةً واحدة، *الاسم المئة*، والتمثالَ الذي أحبه، واحترامَ الرسول. لديَّ من أسباب الشكوى أكثر مما لدى ابن أختي. لكن عليَّ أن أبرر نفسي مهما كان الثمن.

«ماذا تريد، حدثت الأمور هكذا! لم أستطع التصرف بشكل آخر! مهما كان فهذا الرجل هو رسول ملك فرنسا!».

راح ابن أختي المسكين ينتحب مثل طفل، عندها أمسكته من كتفيه.

«هدِّئ روعك، كان هذا الكتاب نسخة مزيفة، أنت وأنا نعلم ذلك».

تحرر من بين يديّ بشراسة.

«إذا كان نسخة مزيفة، فقد ارتكبنا عملية احتيال حين بعناه بهذا السعر. وإذا، بمعجزةٍ ما، لم يكن كذلك، كان يجب ألاً نتخلى عنه مقابل ذهب الأرض كله! من باعك إياه؟»

«العجوز إدريس».

«إدريس؟ وبأي ثمن؟

«أهداني إياه».

«فهو إذن لم يُرِدْكَ أن تبيعه بالتأكيد».

«حتى ولا لقاء ألفٍ وخمسمئة ميدن؟ سيتمكن بهذه النقود من شراء بيت وثياب جديدة وتوظيف خادمة، وربما حتى الزواج...».

لم يكن بومة راغباً بالضحك. ونادراً ما يرغب بالضحك.

«هل أفهم أنك تنوي إعطاء كل هذا المال لإدريس؟»

«نعم، كله، وحتى قبل أن أُدخِله في صندوقنا!»

نهضتُ في الحال، وضعتُ قطع النقود في صرة جلدية، وخرجت.

ماذا ستكون ردة فعل العجوز؟

هل سيلومني على بيع ما يُفتَرض أنه هدية؟

أم على العكس، هل سيرى في المبلغ الذي لا يصدَّق هديةً من السماء؟

وبينما أنا أدفع باب بيته المتداعي رأيت عند العتبة امرأةً من

الجوار، تُحيط جبينَها بيديها. سألتُها تأدُّباً قبل الدخول، إذا كان الحاج إدريس في بيته. رفعت رأسها وقالت فقط:

«توفي!»

إنني مقتنع بذلك، لقد كفَّ قلبُهُ عن الخفقان في اللحظة التي تخليتُ فيها عن كتابه لفارس مارمونتيل. لم أعد قادراً على طرد هذه الفكرة من رأسي!

ألمْ أتساءل كيف ستكون ردةُ فعلِ العجوز على ما فعلتُه؟ ها قد أصبحتُ أعرف ردة فعله!

هل الإحساس بالخطأ هو الذي يضلِّلُني؟ هاهي الوقائع حاضرةٌ للأسف، والتزامن حاسم أكثر مما يحتاج الأمر. لقد ارتكبتُ خطأً ثقيلاً ثقيلاً، وعليَّ أن أصلحه!

لم تخطرِ لي على الفور فكرةُ اللحاق بالكتاب حتى القسطنطينية. مازلتُ أساساً غير مقتنع بجدوى هذه الرحلة. لكني استسلمت لقناعةِ أنه ليس هناك شيء أفضل أفعله.

أولاً كان نحيب بومة، لكنني توقعتُ منه ذلك بشدة، وشعرتُ مُقَدَّماً بالغيظ، ولم يؤثِّر بكاؤه كثيراً على قراري، لاسيما أنّ ذلك الأخرق أراد السفر على الفور! وإذا صدَّقْنا كلامه، فإنّ كل ما حدث للتو هو عبارة عن إشارات أرسلتها السماء لي لكي أفتح عينيّ. معنى ذلك أنّ العناية الإلهية حين يئستْ من عدم تأثّري بِنُواحِه، ضحَّتْ بحياة ذلك الرجل المسكين بهدفٍ وحيد هو أن أفتح عينيّ.

«أفتح عينيَّ على ماذا؟ ما الذي يُفترض بي أن أفهمه؟»

«أنَّ الزمن يحثُّ الخطى! أنَّ السنة اللعينة على الأبواب! أنَّ الموت يحوم حولنا! أنّ خلاصَك وخلاصَنا كان بين يديك، كان بحوزتك *الاسم المئة*، ولم تحافظ عليه!»

«على أية حال، لم يعد بوسعي أن أفعل شيئاً. لقد ابتعد الفارس. هذا أيضاً من صنع العناية الإلهية».

«يجب اللحاق به! يجب السير في الحال!»

هززتُ كتفيّ. ما عدتُ حتى أريد الإجابة. ليس وارداً أن أتصرف بهذا الشكل الصبياني. نسافر الآن؟ نمضي الليل بطوله على ظهر الخيل؟ لكي نُذبَح على أيدي قطّاع الطرق؟

«أما عن الموت، فأنا أفضِّل الموت السنة القادمة مع أمثالي، بدلاً من استِباق نهاية الزمن بهذا الشكل!»

لكنّ الولد الفاسد لم يتراجع.

«إذا لم يعد بوسعنا اللحاق به في طرابلس، فيمكننا اللحاق به إلى القسطنطينية!»

فجأةً سمعنا من ورائنا صوتاً مبتهجاً.

«إلى القسطنطينية؟ لم تخطر لـ بومة في حياته فكرة بهذا الجمال!»

حبيب أيضاً انضمَّ إليه!

«عُدتَ إذن من تجوالك؟ كنتُ أعرف أنك أنت وأخيك إذا اتفقتُما يوماً على شيء، فستتَّفِقان على هلاكي!»

«أنا لا تعنيني قصصكما عن نهاية العالم، وهذا الكتاب الملعون لايهمني. لكنني أحلم بالمدينة الكبيرة منذ زمن طويل. ألم تقل لي بأنك حين كنت في عمري، أراد والدُكَ، جَدُّنا توماسو، أن تتعرف على القسطنطينية؟».

كانت الحجة عديمة القيمة، كانت خارج الموضوع كلياً. لكنه عرف كيف يؤثِّر بي من أهم نقاط ضعفي، التبجيل الذي أكنُّهُ لوالدي منذ وفاته، لكل ما قاله، لكل ما فعله. وأنا أستمع لحبيب، شعرتُ بغصَّةٍ في حلقي، جمُدت عيناي، وهمستُ:

«ما تقوله صحيح. ربما يجب أن نسافر».

في اليوم التالي، دُفن إدريس في المقبرة الإسلامية. لم نكن كثيري العدد في الدفن ـ ابنا أختي وأنا، وثلاثة أو أربعة أشخاص من

الجيران، والشيخ عبد الباسط الذي يؤمّ الصلاة، والذي أمسكني من ذراعي في نهاية المراسم، ليطلب مني إعادته إلى بيته.

«حسناً فعلتَ بقدومك، قال لي وأنا أساعده على تخطّي الجدار الصغير الذي يحدّ المقبرة. تساءلتُ هذا المساء عمّا إذا كنتُ سأضطرّ لدفنه وحدي. هذا المسكين لم يكن له أحد، لا ابن ولا بنت، لا ابن أخ ولا بنت أخ. لا وريث ـ وإذا كان له وريث، فمن المؤكّد أنه لم يكن سيورِّثه شيئاً. تَرِكَتُهُ الوحيدة، أورَثَها لك. كتاب الشؤم ذاك...».

دفعتني تلك الملاحظة في لجَّةٍ من التأمل. كنتُ قد رأيتُ في الكتاب هديةَ شكرٍ وليس إرثاً على الإطلاق؛ إلا أنه كان كذلك، بمعنى ما، ـ أو أصبح كذلك على أية حال. وسمحتُ لنفسي ببيعه! هل سيغفر لي العجوز إدريس في مستقره الجديد؟

مشينا لحظة طويلة صامتين فوق طريق صاعد كثير الحصى ولا ظلَّ فيه. عبد الباسط غارق في أفكاره، وأنا في أفكاري ـ بالأحرى تأنيب ضميري. ثم قال لي وهو يصحح وضع عمامته فوق رأسه:

«علمتُ أنكم ستغادروننا قريباً. أين تذهبون؟»

«إلى القسطنطينية، إن شاء الله».

توقف، شدَّ رأسه إلى الجانب كأنه يريد رصد أصوات المدينة البعيدة.

«استنبول! استنبول! من الصعب أن يُقال لمن لديهم عيون، بأنه لايوجد ما يُرى عبر العالم. ومع ذلك، فهذه هي الحقيقة، صدِّقني. لكي تعرف العالم، يكفي أن تستمع إليه. ما نراه في الأسفار، ليس أكثر من خداع بصر. ظلالٌ تُلاحِق ظلالاً. الطرقات والبلدان لا تُعلِّمنا شيئاً لانعرفه أو شيئاً لا نستطيع الاستماع إليه في دواخلنا عند سكون الليل».

ربما لا يكون رجل الدين مخطئاً، لكنني اتخذت قراري، سأسافر! سأسافر، رغم رفض عقلي وجسدي! لا أستطيع أن أمضي الشهور الأربعة القادمة، وبعدها الشهور الاثني عشر للسنة الكاشفة للغيب،

جالساً في محلي أستمع لِتَنَبُؤات، وأدوِّن إشارات، وأتلقّى مَلامات، وأجترّ مخاوفي وتأنيب ضميري!

قناعاتي لم تتغير؛ مازلت ألعنُ الغباوة والإيمان بالخرافات، مازلت مقتنعاً بأن قنديل العالم ليس على وشك الانطفاء...

غير أنني كيف يمكنني، وأنا الذي أشكّ بكل شيء، ألاّ أشكّ أيضاً بشكوكي؟

اليوم هو الأحد. الاثنين الماضي دُفن إدريس، وغداً عند الفجر ننطلق.

سنكون أربعة، أنا وابني أختي وأيضاً تابعي حاتم الذي سيُعنى بِكَذْنِ الدواب وبالمؤونة. سنأخذ معنا عشرة بغال، لا أقلَّ من ذلك. أربعة منها ستكون مَطايا فقط، والأخرى ستحمل الأمتعة. هكذا لن تحمل أيةُ دابة فوق طاقتها، وسنمضي إن شاء الله بسرعة جيدة.

تابِعي الثاني، خليل، الإنسان النزيه، إنما القليل الشطارة، سيبقى هنا للاهتمام بالمحل إلى جانب أختي الطيبة بليزانس التي لاتنظر إلى هذه الرحلة المرتجلة بعين الرضى. فراقها عن ولديها وأخيها يؤجج مشاعرها ويثير قلقها، لكنها تعرف أن اعتراضها لن يجدي نفعاً. مع ذلك، فقد جاءت هذا الصباح، وكنا جميعاً مأخوذين في حمّى الاستعدادات الأخيرة، لتسألني إذا لم يكن من الأفضل تأخير سفرنا بضعة أسابيع. ذكّرتُها بضرورة عبور الأناضول قبل فصل البرد حتماً. فلم تعد للإلحاح. تمتمتْ فقط بصلاة، وراحت تبكي بصمت. اجتهد حبيب في مضايقتها، بينما أنذَرَها الآخرُ، مُرَوِّعاً أكثر منه متأثِّراً، بأن تذهب وتغسل عينيها بماء الورد، لأن الدموع التي تُذرَف عشية السفر تجلب الشؤم على الرحلة.

حين كلمتُ بليزانس عن اصطحاب ولديها معي في الرحلة، لم تعترض. ولكن، كان لابد لوساوس الأم أن تظهر في النهاية. بومة وحدُهُ من يفكّر بأنَّ دموع الأم يمكن أن تجلب الشؤم...

كُتبت هذه الصفحات في بيتي بجبيل عشية سفري

كنتُ قد رتَّبتُ دفتري وحبري وأقلامي والمسحوق النَّشَّاف لأخْذِها معي في الرحلة. لكن عليَّ أن أضعها ثانيةً فوق هذا المكتب نفسه بدءاً من مساء هذا الأحد. ذلك أنَّ حادثة فظّة وقعت في نهاية بعد الظهر، وكادت تجعلنا نعيد النظر في الرحلة. الأمر يتعلق بمسألة تثير سخطي إلى أقصى درجة، بل تُشعرني بالذل، وكنتُ أود عدم الكلام عنها. لكنني عاهدتُ نفسي بأن أبوح لهذه الصفحات بكل شيء ولن أتهرَّب من ذلك قط.

وراء كل هذه البلبلة، امرأةٌ تدعى مارتا، يسمونها هنا بشيءٍ من الغمز بـِ «الأرملة». منذ بضع سنين تزوجتْ من شخص يَعرف الجميعُ أنه سوقيٌّ عديم التربية، وهو أساساً ينتمي لعائلة من السوقيين، جميعُ أفرادها نصَّابون مختلسون للأشياء الصغيرة، نهّابون، قاطعو طرق ويغرِقون السفن، جميعهم دون استثناء، كباراً وصغاراً، مهما عُدنا بالذكريات إلى الوراء! ومارتا الجميلة التي كانت آنذاك فتاةً شديدة التفتُّح، عفريتة، جَموحة، ماكرة، إنما ليست شريرة على الإطلاق، أُغرِمَتْ بأحدهم - ويدعى سيَّاف.

كان ممكناً أن يرغب بها أي رجل في هذه المدينة. أنا نفسي - ولماذا أُنكِر - كان ممكناً أن أرغب بها! والدُها كان الحلاَّق الذي أحلق عنده، وصاحِباً أُقَدِّرُه. حين أذهب إليه صباحاً للحلاقة، وأراها، أعود وأنا أدندن طرباً. كان في صوتها ومشيتها وأهداب عينيها، شيء لاأدري ماهو، شيء يسوط الرجلَ حياً. لم يكن ميلي خافياً عن والدها، وقد ألْمحَ لي بأن مصاهَرَتي تُسعِدُه وتُطريه. لكن الصبيَّة افتُتِنتْ بالآخر. وعلمنا ذات صباح بأنها هربت معه وأن كاهناً لا رَبَّ لهُ عقدَ قرانهُما. بعدها ببضعة شهور، توفي الحلاق من الأسى تاركاً لابنته

الوحيدة بيتاً وبستاناً وأكثر من مئتين من الليرات السلطانية الذهبية.

عندها، فكَّرَ زوج مارتا، الذي لم يعمل أبداً في حياته، أن ينخرط في التجارة الواسعة ويستأجر باخرة. أَقنَعَ زوجتَهُ بتسليمه مدخرات والدها، حتى آخر قرش منها، ومضى إلى ميناء طرابلس. ولم يره أحد بعد ذلك قط.

رُوي في البداية بأنه حقق ثروة من شحنة توابل، فأنشأ أسطولاً كاملاً، وهو يُزمِع أن يأتي ويتبختر أمام شواطئ جبيل. يبدو أن مارتا راحت آنذاك، مِلْؤها الفخر، تُمضي كل أيامها بانتظاره مقابل البحر مع صديقاتها. عبثاً، ـ لا أسطول ولا ثروة ولا زوج. وبعد وقت، بدأت تنتشر شائعات أقل مَدعاةً للفخر. أنه ربما هلك في حادث غرق أو أصبح قرصاناً قَبَضَ عليه الأتراك وشنقوه. كما رُوِيَ أيضاً أنه رتَّبَ لنفسه مأوىً شاطئياً في جوار شميرنا، وأنَّ له فيه زوجة وذُرِّيَّة، مما أذلَّ زوجتَهُ التي لم تحمل أثناء حياتهما المشتركة القصيرة، والتي يقال بأنها عاقر.

كان ذلك بالنسبة للمنكودة مارتا، التي تعيش وحيدة منذ ست سنين، ليست بالمتزوجة ولا بالحُرة، بلا موارد ولا أخ أو أخت، مراقَبَةً من جميع أفراد أسرة زوجها الداعرين خوفاً من أن تفكر بتلويث شرف الزوج المتجول، كان ذلك بمثابة محنة يومية. لذا راحت تصرخ بإلحاح يلامس الجنون، بأنها علمت من مصدر موثوق بأن سياف قد مات، وأنها بالتالي أرملة، أرملة حقاً. وعندما لبست السواد، هاجَتْ أسرةُ الميت المزعوم ضدَّها، متهمةً إياها بجلب النحس على الغائب. وبعد أن تلقَّت بضع ضرباتٍ رأى الجميعُ آثارَها فوق وجهها ويديها، استسلمت «الأرملة» وقبلت بارتداء ثياب ملونة من جديد.

لكنها لم تعترف بهزيمتها مع ذلك. يُقال إنها، في الأسابيع الأخيرة، أسرَّتْ لبعض صديقاتها بأنها عازمة على الذهاب إلى القسطنطينية لتتحقق من السلطات العليا إذا كان زوجها قد هلك فعلاً، ولن تعود من هناك دون فرمان سلطاني يثبت بأنها أرملة وحرة بأن تبدأ حياتها من جديد.

ويبدو حقاً أنها نفَّذت تهديدها. لم تحضر قدَّاس صباحِ ذاك

الأحد. ربما غادرت جبيل ليلاً حاملةً الثياب والحليّ. وسرعان ما سَرَتْ وشوشات تتَّهمني بالاسم. شيء مُغضِب، مُهين، وبالأخص ـ هل يجب أن أقسِم واضعاً يدي فوق الإنجيل؟ ـ بكل بساطة غير صحيح، غير صحيح، غير صحيح. لم أتبادل كلمة واحدة مع مارتا منذ سنين، منذ جنازة والدها على ما يبدو لي. ألقيتُ عليها التحية في الشارع على الأكثر، واضعاً إصبعي، خلسةً، على قبعتي. لا أكثر من ذلك. بالنسبة لي، طويت الصفحة في اليوم الذي علمتُ فيه بزواجها من ذلك الداعر.

مع ذلك، وطبقاً للشائعات، فقد اتفقتُ معها سراً لكي أرسلها إلى القسطنطينية، وباعتبار أنه يستحيل عليَّ أن أصحبها على مسمع ومرأىً من الجميع، فقد نصَحْتُها بالذهاب قبلي وانتظاري في مكان متفق عليه أُلاقيها فيه. وصل الأمر حتى الزعم بأنني لم أتزوج بسببها، الأمر الذي لا علاقة له بالحقيقة، كما سأشرح يوماً حين تتاح لي الفرصة...

مهما كانت القصة غير صحيحة، فإنها تبدو محتَمَلةً، ويبدو لي أن معظم الناس يصدِّقونها بدءاً بأشقَّاء زوج مارتا الذين يزعمون بأنهم مقتنعون بذنبي، ويشعرون بالإهانة بسبب ألاعيبي المزعومة، وعازمون على الانتقام لشرفهم. بعد ظهر هذا اليوم ظهر فجأةً في بيتي أكثرُهم هياجاً، المدعو رسمي، مُشهِراً بندقية ومُقسِماً بأنه سيرتكب الفعل غيرَ القابل للإصلاح. احتاج الأمر لبرودة دمي ودم تابِعي حاتم من أجل كبحه. طالبَني بتأخير سفري لإثبات حسن نيَّتي. صحيح أنني بهذا الشكل أكنِس جميع الشائعات والشكوك. ولكن لماذا يتوجب عليَّ تقديم دليل على شرفي لجماعةٍ من السَّفَلة؟ ثم حتى متى يُفترض أن أؤَجِّل السفر؟ حتى تظهر مارتا من جديد؟ وماذا لو أنها رحلت نهائياً؟

عارضَ حبيب وجابر كل تأجيل، وأظن أنني كنت سأفقد احترامَهُما إذا ضَعُفتُ. لكني أساساً لم أَمِلْ لحظةً للخضوع. كل مافي الأمر أنني حَسَبتُ الميزات والسيئات، كما تقتضي الحكمة، قبل أن أجيب بحزم «لا». عندها أعلَنَ لنا الرجلُ بأنه سيسافر معنا غداً. قال إنه مصرٌّ على التأكد بنفسه من أن الهاربة لاتنتظرنا في ضيعة صغيرة

من الجوار. استاء ابنا أختي، واستاءت أختي أكثر، لكنني جعلتهما يفكران بشكل عقلاني. «الطريق ملك للجميع! إذا قرر هذا الرجل السير في الاتجاه الذي نسير فيه، لانستطيع منعه من ذلك». قلت هذا بصوت عالٍ مشدداً على كل كلمة، لكي يفهم المتطفل بأنه إذا سار بالتزامن معنا، فإنه لايفعل ذلك برفقتنا.

لاشك أنني غاليتُ في تقدير دقة فهمِ الشخص، ويجب بالتأكيد عدم الاتِّكال على حسن تصرفه. لكننا أربعة وهو وحده. حضوره ملاصِقاً لنا يغيظني أكثر مما يُقلِقني. عسى ألا نضطر، أثناء رحلتنا، لمواجهة مخلوقات أكثر إثارة للخوف من هذا المتشدِّق ذي الشاربين الضخمين!

قرية آنفه، 24 آب 1665

باعتبار أنَّ ضواحي جبيل غير آمنة عند الغسق، انتظرْنا أن تصبح الرؤية واضحة لكي نجتاز الباب. كان المدعو رسمي حاضراً، مستعداً لاقتفاء أثرنا، يشدُّ لجام دابته لكي تصبر. يبدو أنه اختار لهذه الرحلة مطيةً عصبية آملُ أن تجعله يسأم بسرعة من السير معنا.

حالما أصبحنا على الطريق الساحلي، ابتعد الرجل عنا لكي يتسلق مرتفعاً هو امتدادٌ للجبل باتجاه البحر، ومن هناك راح يجيل ناظريه في الجوار ممسِّداً شاربيه بكلتا يديه.

وبينما كنتُ أراقبه بطرف عيني، تساءلتُ للمرة الأولى عن مصير تلك المسكينة. وخجلتُ فجأةً لأنني حتى الآن لم أفكر بها إلا لكي أذكر الغمَّ الذي سبَّبَهُ لي اختفاؤها. كان يجب أن أقلق على مصيرها. هل ارتكبتْ فعلاً يائساً؟ ربما يلقي البحر جثتها على الشاطئ يوماً. عندها يتوقف الهمس، تُذرَف دموع قليلة جداً وبعدها النسيان.

وأنا، هل سأبكي هذه المرأة التي كادت تصير امرأتي؟ كانت تعجبني. لقد رغبتُ بها حقاً ورصدتُ في الماضي ضحكاتِها واهتزازَ ردفيها وهي تمشي، وخصلات شعرها ووسوسةَ أساورها، كان بوسعي أن أحبها بحنان، أن أعانقها كل ليلة. كان بوسعي أن أتعلق بها، بصوتها، بيديها. كان ممكناً أن تكون هذا الصباح بجانبي، ساعة الرحيل. كان ممكناً أن تبكي هي أيضاً مثل أختي بليزانس، وتحاول أن تدفعني للعدول عن السفر.

أثملَتْني اهتزازاتُ مطيَّتي، فراح ذهني يبحر أبعد فأبعد. أرى الآن

قامةَ هذه المرأة التي لم أتأمَّلها منذ سنين، استعادت غمزاتها اللعوب كما في الزمن الذي لم تكن فيه سوى ابنة الحلاق. أحقد على نفسي لأنني لم أرغب بها بما يكفي لكي أحبها، لأنني تركتُها تقترن بتعاستها...

صعد شقيقُ زوجها المقدام مراراً، التلال التي تحاذي الطريق. دار حول نفسه، وحتى أنه نادى مرةً: «مارتا! اخرجي من مخبئك، رأيتُك!». لم يتحرك شيء. شاربا هذا الرجل أكبرُ من مخِّه!

كنا نحن الأربعة نتابع طريقنا بالإيقاع نفسه دون أن نُظهِر بأننا نلاحظ عدْوَ مطيَّتِهِ، أو قفزاته، أو صفْقَ رجليه. وعند الظهر، عندما أعدَّ لنا حاتم الطعام - ويتكوَّن من خبزٍ بلديّ مرقوق بجُبن المنطقة والمردقوش والزيت - عرضتُ على الدخيل أن يشاركنا وجبتنا. لم يستحسِن ابنا أختي ولا تابِعي، كرَمي؛ وأرى بأنهم محقُّون نظراً لسلوكِ هذا القليلِ التربية الذي استولى على ما قدمناه له وذهب إلى الجانب الآخر للطريق ليفترسه وحده مثل حيوان، وظهْرُهُ لنا. كان أكثر بريةً من أن يأكل معنا، لكنه لا يملك ما يكفي من الكرامة ليرفض أن نطعمه. شخص يدعو للرثاء!

سنمضي هذه الليلة الأولى في *آنفه*، وهي قرية على شاطئ البحر. قَدَّم لنا أحدُ الصيادين المأوى والعشاء. وعندما حللتُ صرتي لأقدم له هدية على سبيل الشكر، رفض، ثم أخذني جانباً وطلب مني أن أكشف له عما أعرفه عن الشائعات المتعلقة بالسنة القادمة. استعرتُ النبرة الأكثر حكمةً لكي أطمئنه. قلتُ له إنها ليست سوى شائعات كاذبة تنتشر من وقت لآخر حين يفقد الناسُ الشجاعة. يجب ألا نقع تحت تأثيرها! ألا يقول الكتاب المقدس: «لن تعرفوا اليوم ولا الساعة»؟

بدا مضيفي مرتاحاً لهذه الكلمات إلى درجة أنه أمسك يدي لكي يقبِّلها غير مُكتَفٍ باستضافتنا. تَوَرَّد خداي من الخجل. آهٍ لو علِمَ الرجلُ الطيب السببَ الذي دفعني للقيام بهذه الرحلة! ذاك الحكيم المزيف الذي ألعب دوره!

قبل النوم أرغمت نفسي على كتابة هذه المقاطع القليلة على ضوء سراج يطلق دخاناً زنِخاً. لست متأكداً من أنني عرضْتُ الشيء المهم. ولن يكون من السهل كل يوم أن أميِّز التافهَ من الجوهريّ، والحدَثَ الثانويّ من الحدثِ النموذجي، والدروبَ المسدودةَ من الطرقات الحقيقية. لكنني سأمضي مفتوح العينين.

في طرابلس، 25 آب

لاشك أننا تخلصنا اليوم من الرفيق غير المرغوب به، لكننا صادفنا إزعاجات أخرى.

هذا الصباح، كان رسمي بانتظارنا أمام البيت الذي نمنا فيه، شارباه واضحان، مستعداً للانطلاق. لا بد أنه أمضى الليلة في بيتٍ آخر من بيوت القرية، لدى أحد معارفه من قطّاع الطُّرق كما أفترض. حين بدأنا السير، لحقَ بنا لبضع دقائق، صعد فوق تلة مثل البارحة، لكي يتحرَّى الجوار. ثم شد اللجام عائداً باتجاه جبيل. مازال رفاق طريقي يتساءلون إذا كان الأمرُ مجرد تمثيلية، وإذا لم يكن الرجل يريد أن يفاجئنا في مكان أبعد. أنا أعتقد أنه لن يفعل. أعتقد أننا لن نراه ثانيةً أبداً.

وصلنا طرابلس عند الظهر. إنها زيارتي العشرون لها، لكنني لم أجتَزْ بوابتها قط دون أن يجتاحي التأثُّر. هنا وضع أجدادي أقدامهم للمرة الأولى فوق أرض المشرق منذ أكثر من خمسمئة عام. حاصر الصليبيون المدينة آنذاك دون أن يتمكنوا من دخولها. ساعدهم، *أنسالدو أمبرياتشو*، أحدُ أجدادي في بناء قلعة تساعدهم في القضاء على مقاومة المحاصَرين، ووضع مراكبَه في خدمتهم لمنع إمكانية الوصول إلى الميناء. ومكافأةً له على ذلك، مُنِحَ السيادة على جبيل.

بقيت هذه السيادة قرنين كاملين وقفاً على عائلتي. وحتى عندما دُمِّرت آخر دولةٍ إفرنجية، استطاع آل أمبرياتشي أن يحصلوا من

المماليك المنتصرين على حق الاحتفاظ بإقطاعيتهم بضع سنين أخرى. كنا من أوائل الصليبيين الواصلين، وآخر المغادرين. وأيضاً لم نغادر تماماً. ألستُ الدليل الحي على ذلك؟

عندما انتهت المهلة، وكان علينا أن نتخلى عن جبيل منطقةِ نفوذِنا، قرر مَنْ بقي من أفراد العائلة العودةَ إلى جنوة. «العودة» ليست الكلمة المناسبة، فقد ولدوا جميعاً في المشرق، ومعظمهم لم يطؤوا أرض مدينتهم الأصلية قط. سرعان ما أدّى ذلك إلى تَعَرُّض بارتولوميو، جدِّي آنذاك، للسقام والوهن. لأنه إذا كان آلُ أمبرياتشي في عصر أوائل الصليبيين، من أكثر العائلات شهرةً، إذا كان لهم فيما مضى، في جنوة، حيٌّ وفندق وعشيرة تَدين بالفضل لهم، وبرجٌ يحمل اسمهم وأضخمُ ثروة في المدينة، فقد حلَّت اليوم محلهم عائلاتٌ أخرى أصبحت أكثر شهرة، مثل آل دوريا وسبينولا وغريمالدي وفييتشي. اعتبر جدي القديمُ بأنه نُحِّيَ. بل شعر بأنه منفيّ. أراد حقاً أن يكون جَنَويًّاً، وكان كذلك باللغة واللباس والأعراف؛ لكنه جَنَويٌّ من الشرق!

هكذا، أبحرَ أفراد عائلتي من جديد، ورسوا في موانئ عدة مثل كافًا أو كاساندريا أو تشيُو، قبل أن يفكر أحدهم ويدعى أوغو، والد جدي، بالانكفاء إلى جبيل حيث أعادت له السلطاتُ ـ لقاء بعض الخدمات ـ جزءاً من إقطاعيته القديمة. اضطرت عائلتنا للشطب على مطامعها في السيادة والعودة إلى نزعتها الأصلية، التجارة. لكن ذكرى الزمن المجيد بقيت. فأنا، حسب الوثائق التي مازالت بحوزتي، أُعتَبَرُ الذكَرَ الثامنَ عشر المتحدر مباشرةً من الرجل الذي فتَحَ طرابلس.

عند ذهابي إلى حي أصحاب المكتبات، كيف لا أنظرُ بحبٍ إلى القلعة التي رفرفت عليها رايةُ آل أمبرياتشي في الماضي؟ هذا الأمر يُسَلِّي التجارَ أساساً، فهم عندما يرونني قادماً، يصرخون: «انتبهوا، جاء الجَنَويُّ كي يستعيد القلعة، اقطعوا عليه الطريق!» فيخرجون من حوانيتهم ويقطعون عليَّ الطريق بالفعل، ولكن لكي يستقبلوني بقبلات رنَّانة، ويقدموا لي، عند كل خطوة، قهوة وشراباً بارداً. إنهم أناس

مضيافون بطبيعتهم، لكن عليَّ أن أضيف بأنني أيضاً بالنسبة لهم زميل متفهِّم وأفضَلُ الزبائن. فعندما لا آتي للتزوُّد بالبضائع من هنا، يرسلون لي، بمبادرتهم الخاصة، القطع التي يمكن أن تثير اهتمامي والتي ليست من مجال اهتمامهم، أي، بالدرجة الأولى، بقايا الأشياء الثمينة، الأيقونات، والكتب القديمة المتعلقة بالعقيدة المسيحية. معظمهم مسلمون أو يهود، وزبائنهم مكوَّنون بشكل رئيسي من أبناء دين كلٍّ منهم، ممن يبحثون أولاً عما يتَّصِل بدينهم.

حين وصلتُ ظهر هذا اليوم إلى المدينة، توجهتُ مباشرةً إلى عبد الصمد وهو مسلم من أصدقائي. كان جالساً عند عتبة حانوته، محاطاً بأخوته وببعض أصحاب المكتبات الآخرين في شارعه. وبعد دائرة السلام والترحيب، وبعد أن قدَّمتُ ابنَيْ أختي لمن لا يعرفونهما، طُلِبَ مني أن أقول ما الذي أتى بي، فانعقد لساني. ثمة صوت يقول لي بأنني أُحسِنُ صُنعاً إذا لم أكشف عن شيء، إنه صوت العقل وكان عليَّ أن أستمع له. كنت أشعر حقاً بأنه ليس من الحكمة الإقرار بالسبب الحقيقي لزيارتي، وأنا محاط بهؤلاء الأشخاص المحترمين الذين يملكون جميعاً فكرةً رفيعة عني، ويعتبرونني إلى حد ما بمثابة عميدهم، إن لم يكن بالعمر والعلم، فعلى الأقل بالشهرة والثروة. لكن صوتاً آخر أقل حكمةً كان يطنُّ أيضاً في أذني ويقول لي: إذا كان لدى العجوز إدريس في بيته المتداعي نسخةٌ من الكتاب المشتُهى، فلماذا لايكون لدى أصحاب مكتبات طرابلس نسخة أيضاً؟ ربما تكون مزيفة أيضاً، لكنها ستُعفيني من السير إلى القسطنطينية!

بعد ثوانٍ طويلة تراكمت فيها كل النظرات عليَّ مُثقِلةً جبيني، انتهيتُ بالقول:

«ربما يكون لدى أحدكم بين كتبه رسالة المازاندراني التي يتكلم الناس عنها بكثرة هذه الأيام، *الاسم المئة*؟»

طرحتُ سؤالي بأكبر قدرٍ ممكن من الخفة واللامبالاة والسخرية. لكن الصمتَ خيَّمَ في الحال على الجماعة الصغيرة المحيطة بي، ويبدو لي أيضاً على الشارع وعلى المدينة بأسرها. جميع النظرات فرَّت في

اللحظة نفسها لكي تتجه نحو صديقي عبد الصمد الذي كفَّ هو أيضاً عن النظر إليّ.

تنحنح كما لو أنه يستعد للكلام، لكنه أصدر ضحكة، ضحكةً متقطِّعة قسرية، قطعها فجأةً لكي يشرب جرعة ماء، قبل أن يقول لي:

«زياراتك تسرُّنا دوماً!»

الأمر الذي يعني بأن هذه الزيارة انتهت. نهضتُ وأنا في غاية الارتباك، حييتُ بكلمةٍ أولئك الأقرب إليَّ في الجلسة. أما الآخرين فكانوا قد تفرَّقوا.

كنتُ كالصَّريع وأنا متجه نحو النزل الذي سنمضي الليل فيه. جاء حاتم ليقول لي بأنه ذاهب لشراء بعض المؤن، وهمس لي حبيب بأنه ذاهب للتنزه قرب الميناء، تركتُهما يذهبان دون كلمة. جابر وحده بقي بجواري، لكنني لم أتبادل معه أيضاً أدنى كلمة. ما الذي سأقوله له؟ «لعنك الله يا بومة، لقد تعرَّضتُ للإهانة بسببك!؟» بسببه وبسبب إفدوكيم وإدريس ومارمونتيل وكثيرين غيرهم، ولكن قبل كل شيء بسببي أنا نفسي. فعلى عاتقي أنا تقع مهمة الحفاظ على عقلي، على سمعتي وكرامتي.

أتساءل مع ذلك، لماذا تصرَّف أصحاب المكتبات بتلك الطريقة. موقف جاف، فظّ لمن يعرفُهم دوماً بشوشين ولَبِقين. كنتُ على الأكثر أتوقع ابتساماتِ استطرافٍ، ولم أتوقَّع عدوانيةً مشابهة مع أني صغتُ سؤالي بلطف! لا أفهم. لا أفهم.

بعد أن كتبتُ هذه السطور، استعدتُ هدوئي. لكن هذا الحادث جعلني في مزاجٍ شرير بقية النهار. ثرتُ ضد حاتم لأنه لم يجلب المشتريات التي أتمناها؛ ثم ثرتُ ضد حبيب لأنه عاد من نزهته بعد هبوط الليل.

أما بومة، المصدر الأول لخيبة أملي، فلم أجد ما أقوله له.

في الطريق، 26 آب

كيف أمكنني أن أبدو بهذه السذاجة؟

كان الشيء أمام عيني ولم أره!

حين استيقظت هذا الصباح، لم يكن حبيب حاضراً. نهض باكراً وهمس في أذن حاتم أن عليه أن يشتري شيئاً من سوق القلعة، وبعدها يلاقينا عند باب البسَّاطين، شمال شرقي المدينة. «أتمنى له أن يكون هناك قبلنا، صرختُ، لأنني لن أنتظره دقيقة واحدة». وأعطيتُ في الحال شارة الانطلاق.

الباب غير بعيدٍ عن النزل، وصلنا إلى هناك بسرعة. أجلتُ نظري في الجهات الأربع، لا أثر لحبيب. «امْنَحْهُ وقتاً كي يصل»، توسَّلَ تابِعي الذي أظهرَ على الدوام ضعفاً إزاء هذا الولد. «لن أنتظره طويلاً!» أجبتُ وأنا أطبطب بقدمي. لكن عليَّ بالضرورة أن أنتظره. ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ نحن على سفر طويل، ومهما كان لن أتخلى عن ابن أختي في الطريق!

بعد ساعة، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء، قال لي حاتم صارخاً بحماسٍ زائف: «هاهو حبيب، إنه يركض، يشير لنا، إنه ولد طيب، أخيراً، حماه الله، مُحِبٌّ دوماً ومبتسم. المهم ياسيدي ألا يكون قد حدث له مكروه...». كل هذا الهذر طبعاً لتجنيبه التوبيخ! لكني رفضتُ أن ألين بعد انتظاره ساعة! لم يكن وارداً أن أسلّم عليه أو أبتسم له، حتى لم أنظر إلى الاتجاه الذي أتى منه. صبرتُ دقيقة أخرى، الوقت اللازم لكي يصل إلينا، ثم تقدَّمتُ بوقار نحو باب المدينة.

كان حبيب الآن ورائي، كنت أشعر بحضوره، أسمعه يتنفس قريباً جداً من أذني. لكنني استمريت في إعطائه ظهري. قلت لنفسي بأنني سأعود للكلام معه بعد أن يقبّل يدي باحترام، ويعِدني بعدم التغيب مرة أخرى دون أذني! إذا أردنا متابعة هذه الرحلة معاً، يجب أن أعرف في كل لحظة مكان تواجد ابنَيْ أختي!

حين وصلت أمام الضابط حارس الباب، حييته بصيغة مهذبة، ذكرتُ هويتي ودسستُ في يده القطعة الفضية المناسبة.

«هذا ابنك؟» سأل الضابط مشيراً إلى الشخص التي يتبعني.

«لا، أنا ابن أخته».

«وهذه المرأة؟»

«زوجته»، قال حبيب.

«يمكنكم المرور!»

زوجتي؟

لم أقل شيئاً على الفور، ولم أخاطر حتى بنظرة إلى الخلف، كيلا أشيَ بمفاجأتي. يكفي أقلُّ تلعثم أمام الضابط العثماني، أقلّ ترددٍ مرتبِك، لكي نوضع جميعاً في السجن.

زوجتي؟

فضَّلتُ عبور الباب أولاً، والابتعاد عن الجمارك والجنود، ناظراً أمامي باستمرار. ثم التفتُّ.

إنها مارتا.

إنها «الأرملة».

ترتدي السواد ويبدو عليها الابتهاج.

لا، أعترف أنني لم أكن قد فهمتُ شيئاً حتى هذه اللحظة، لم يراودني شيء من الشك. ويجب أن أقول بأن حبيب عرف كيف يتصرف. هو الذي يستخدم شَيْطَنَتَهُ لكي يفتن النساء والرجال، لم يسمح بتسرُّب شيء طوال الأيام الأخيرة، لا ابتسامة مفهومة، ولا أدنى كلمة مزدوجة المعنى. بدا مستاءً مثلي من اتهامات رسمي. تلك الاتهامات التي لم تكن بلا أساس كما ظننتُ.

أفترض أن ابن أخي سيقول لي لاحقاً كيف ترتَّبت الأمور. ولماذا يقول لي؟ أستطيع أن أحزر الأشياء الأساسية. أحزر لماذا وَقَفَ على

نحو غريب في صَفِّ أخيه لتحريضي على القيام بهذه الرحلة إلى القسطنطينية. أتخيل أنه سارع آنذاك لإخطار «الأرملة» التي يُفترض أنها شعرت بأن الفرصة مؤاتية للهرب. عندها غادرت جبيل، ثم أمضت ليلةً في طرابلس عند قريبة لها أو في دير. كل هذا يبدو واضحاً حتى أنني لا أحتاج لسماع اعترافات بشأنه. لكني قبل أن توضَعَ ليَ الصورةُ بمجموعها أمام عينيّ، لم أر شيئاً.

ما العمل الآن؟ مشيت إلى الأمام مباشرةً حتى آخر النهار، ممتنع الوجه، دون كلمة. أعرف أن الحَرَد لا يحلُّ شيئاً. لكنني لا أستطيع التظاهر بأنني لم أُخدَع إلا إذا أردتُ التخلي عن كل سلطةٍ لي على جماعتي، وعن كل عزة نفس.

المُضجِرُ في الأمر هو أني سهلُ النسيان بطبعي، وطيب القلب، أنزع دوماً إلى المسامحة. اضطررت طوال ذلك النهار لبذل مجهود كيلا أتنازل عن موقفي. عليَّ أن أصمد يوماً آخر أو يومين حتى لو تألمتُ من ذلك أكثر من أولئك الذين أريد معاقبتهم.

لم يعودوا، أربعتُهُم، يجرؤون أن يتبادولوا الكلام من ورائي إلا بصوت منخفض، وهذا أفضل.

في قرية الخياط، 27 آب

اليوم أيضاً انضمّ إلينا رفيقٌ غير منتظر. لكنه هذه المرة رجل صالح.

أمضينا ليلةً مَقيتة. أعرف نزلاً على الطريق، لكنني لم أذهب إليه منذ وقت طويل. ربما زرته في فصلٍ أفضل فلم أحتفظ بذكرى أسراب البعوض والجدران المتعفّنة والمشققة، والروائحِ المنبعثة من مياه راكدة... في النهاية، أمضيتُ الليل بطوله مشوبِراً، أصفق بيدي كلما سمعتُ طنيناً مهدِّداً.

وحين كان علينا استئناف الرحلة، لم أكن قد نمت. ولاحقاً في

النهار، غفوتُ مراراً فوق مطيَّتي وكدتُ أقع، ولحسن الحظ، جاء حاتم ليسير قريباً جداً مني، لكي يسندني من وقت لآخر. إنه رجل طيب وهو أقل من أحقد عليه من جماعتي.

وقرابة الظهر، وكانت قد مضت علينا خمس ساعات ونحن نسير، وبينما رحت أبحث بعينيّ عن مكان ظليل نتناول فيه وجبتنا، وجدنا فجأةً أنّ طريقنا مسدود بغصنٍ ضخم كثير الأوراق. كان من السهل إبعاده أو الالتفاف عليه، لكني توقفت محتاراً. ثمة شيء غير لائق في وضعه بشكل مستقيم تماماً وسط الطريق.

أجَلتُ النظر في الجوار محاولاً أن أفهم، حين أقبل بومة يهمس في أذني بأنه يجدر بنا أن نسلك ذلك الدرب النازل، هناك إلى اليمين، لكي نصل إلى الطريق الرئيسية إلى مسافة أبعد قليلاً.

«إذا كانت الريح، قال، قد اقتلعت هذا الغصن من شجرته، ثم دفعته حتى هذا المكان وجعلته بهذه الوضعية، فمن غير الممكن أن يكون هذا سوى إنذار من السماء، ونكون مجانين إذا تحدَّيناها».

رحتُ أرغي وأزبد شاتماً التَّطيُّر، لكني عملتُ بنصيحته. صحيح أنني، بينما كان يكلّمني، لاحظتُ على امتداد الدرب الذي أرادني أن أسلكه، إلى اليمين، غابةً صغيرة ملائمة لِما أريد. ولمجرد رؤيتي لهذه الكثافة من الخضرة، من بعيد، خيل لي بأنني أسمع جريان نبعِ ماءٍ صغير بارد. وكنتُ جائعاً.

مع تقدُّمنا على تلك الدرب، رأينا أناساً يبتعدون على مطاياهم، وعددهم ثلاثة أو أربعة، كما بدا لي. لاشك أنهم فكروا بما فكرنا به، قلت لنفسي ـ الابتعاد عن الطريق وتناول وجبتهم في الظل؛ لكنهم كانوا يمضون بسرعة وهم يسوطون دوابهم كأنهم يفرُّون منا. حين وصلنا إلى الغابة، كانوا قد اختفوا عند الأفق.

أولُ مَن صرخ كان حاتم:

«قطّاع طرق! إنهم قطاع طرق!».

في ظل شجرة جوز كان يرقد رجل عُرّي من ثيابه ويبدو مثل الميت. ناديناه من بعيد حالما رأيناه؛ لم يتحرك. كان بوسعنا، من

مكاننا، رؤيةُ بقعٍ من الدم فوق جبينه ولحيته. رسمتُ إشارة الصليب. ولكن، عندما صرخَتْ مارتا: «يا إلهي! إنه ميت!»، وأعولَتْ، جلس الرجلُ وقد اطمئنّ لسماع صوتٍ أنثوي، وأخفى عريه بيديه برشاقة. شرح لنا بأنه كان حتى تلك اللحظة يخشى من عودة مهاجِميه، مدفوعين بندمٍ ما، إذا أمكن القول، بهدف الإجهاز عليه.

«وضعوا على الطريق غصناً، ففضّلتُ أن أسلك هذه الدرب، قائلاً لنفسي بأنه لا بد أن هناك خطراً في المرور من الطريق الرئيسية. لكنهم كانوا يكمنون هنا. كنت عائداً من طرابلس حيث ذهبت لشراء أقمشة، فأنا أعمل في مهنة الخياطة. اسمي عباس. لقد أخذوا مني كل شيء، حمارين بحمليهما، ونقودي وحذائي وثيابي أيضاً! لعنة الله عليهم! فليبقَ كل ما سرقوه مني مثل حَسَكةٍ في حلوقهم!»

التفتُّ نحو بومة.

«قلتَ إنه إنذار من السماء أليس كذلك؟ حسناً، دع عنكَ ضلالك! إنها حيلة قطاع طرق!»

لكنه رفض العدول عن كلامه:

«لو لم نسلك هذه الدرب، يعلم الله ماذا كان سيحلّ بهذا التعس! لقد ابتعد اللصوص بهذه السرعة حين رأونا!»

أيدَّ الرجلُ كلامه بينما هو يلبس قميصاً لي أعطاه إياه حاتم:

«السماء وحدها هي التي أرسلتكم إلى هنا، لحسن حظي! أنتم من أهل الخير، وهذا واضح على وجوهكم. الشرفاء وحدهم هم الذين يسافرون مع النساء والأبناء. هذان الشابان الجميلان ولداكما؟ رعاهما الله!»

كان يوجه الكلام لمارتا التي اقتربت منه لتمسح وجهه بمنديل مبلل بالماء.

«إنهما ابنا أخته» أجابت بتلعثُمٍ خفيف ونظرةٍ مقتضبة باتجاهي، كأنها تريد الاعتذار.

«بارك الله بكم، راح الرجل يردد، بارك الله بكم جميعاً، لن أدعكم تذهبون دون أن أهدي كلاً منكم ثوباً. لا تقولوا لا. إنه أضعف الإيمان.

لقد أنقذتم حياتي، بارك الله بكم! وستمضون الليلة القادمة عندي، وليس في مكان آخر!»

لم يكن بوسعنا أن نرفض خاصةً أننا بلغنا قريته عند هبوط الليل. ابتعدنا عن طريقنا لنوصله إلى بيته؛ فبعد ما حدث له، لم يكن بمقدورنا أن نتركه يسير وحده.

أظهرَ امتناناً شديداً، وأصرَّ، رغم الساعة المتأخرة، أن تُقدَّم وليمة حقيقية على شرفنا. حُملت إلينا أشهى الأطباق من جميع بيوت القرية، بعضها باللحم وبعضها بدونه. الخياط محبوب ومحترم من الجميع، وقد قدَّمَنا، أنا وابني أختي وتابِعي و«زوجتي»، في صورة مُنقِذيه الذين كانوا الأدواتِ النبيلةَ للعناية الإلهية، والذين سيبقى مديناً لهم طوال حياته.

لم يكن بوسعنا أن نحلم بمرحلةٍ أكثر ترميماً للقوى. لقد محتْ إزعاجاتِ بدايةِ الرحلة، وهدَّأتِ التوترَ بيني وبين رفاق طريقي.

عندما حلت ساعة النوم، أقسم مضيفي بصوت مرتفع بأن ننام أنا و«زوجتي» في غرفته، بينما سيقضي هو وزوجته الليل في الغرفة الكبيرة مع ولدهما وابني أختي وتابِعي وخادمتهما العجوز. وددت أن أرفض لكن الرجل غضب، وقال بأنه أقسم يميناً ولا أستطيع أن أكسر يمينه. فات الأوان طبعاً للكشف عن أن المرأة التي تسافر معي ليست زوجتي. لو فعلتُ لَصغرتُ في نظرهم، وفقدتُ احترام هؤلاء الناس الذين يرفعونني إلى الأوج. لا، لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك. الأفضل أن أتظاهَرَ فترةً أطول، حتى اليوم التالي.

وجدنا نفسنا أنا و«الأرملة»، في تلك الغرفة، مفصولين عن الآخرين بستار بسيط، لكننا وحدنا حقاً والليلَ بطوله. على ضوء الشمعة التي تركت لنا، كنت أرى عيني مارتا تضحكان. فيما عيناي لم تكونا كذلك. ربما توقعتُها أن تكون أكثر انزعاجاً مني. لم تكن كذلك، ولولا القليل لقهقهتْ. لم يكن ذلك لائقاً. وتملكني انطباعٌ بأنني مُحرَج عن اثنين.

بعد بضع حركات من التردد، انتهينا أخيراً بالاستلقاء على الفراش نفسه وتحت الغطاء نفسه، ولكن بكامل ثيابنا، وكل منا على حدة حقاً.

عندها مرت دقائق طويلة من ظلام صامت وتنفُّس متقاطع؛ ثم أمالت جارتي وجهها جانباً.

«يجب ألاً تحقد على حبيب. أنا السبب وراء إخفاء الحقيقة عنك، أنا التي جعلتُه يُقسم بألاّ يقول شيئاً، خفتُ أن ينكشف عزمي على الهرب، كان شقيق زوجي سيذبحني».

«حَدَثَ ما حدَث».

أجبت بجفاف. لم تكن لدي أية رغبة بالشروع في محادثة. لكنها استأنفت بعد صمت قصير مشترك:

«طبعاً، أخطأ حبيب حين قال للضابط بأنني زوجتك. لكن الموضوع هو أن المسكين فوجئ. أنت رجل محترم وهذا كله يسبب لك الحرج، أليس كذلك؟ أنا زوجتك؟ حَفظَكَ اللهُ من أمرٍ كهذا!»

«ما قيل قيل!»

أفلتُّ جملتي دون تفكير. فيما بعد فقط، عندما دوَّت كلمات مارتا وكلماتي معاً في رأسي، تبيَّنتُ المعنى الذي حملتْهُ جملتي. في الوضعية العجيبة التي وُضِعنا فيها، راحت كل كلمة تتحول إلى بلاطةٍ مُوحِلة. «ـ أنا، زوجتك؟ ـ ما قيل قيل!» كِدتُ أستَدرِك، أوضِّح، أصحح ما قلته... ولكن لِمَ؟ لن يؤدي ذلك إلا إلى تلطيخي بالوحل. عندها نظرتُ باتجاه جارتي لأحاول أن أحزر ما الذي فهِمَتْهُ؛ بدا لي أنَّ عليها سيماء الشَّيطَنة التي كانت تتَّسم بها في صباها. وبدوري ابتسمت، ورسمتُ في الظلام حركةَ تسليمٍ بالأمر الواقع.

ربما احتجنا لهذا التبادل لكي نستطيع النوم بكل طمأنينة، أحدنا بجانب الآخر، ليس قريباً جداً منه ولا بعيداً جداً عنه.

28 آب

عند الاستيقاظ كنتُ بمزاج ممتاز، و«زوجتي» كذلك. طاردَنا ابنا

أختي طوال النهار بنظراتهما المتحيِّرة والمرتابة. أما تابِعي فقد بدا لاهياً.

كنا قد خططنا للانطلاق عند الفجر، واضطررنا للعدول. فقد أخذ المطر بالهطول ليلاً، وفي الصباح بدأ يهطل مدراراً. كان نهارُ الأمس غائماً بألطف الغيوم بالنسبة للسائر على الطريق، لكننا كنا نحس تماماً بأن الغيوم لن تكتفي بالتظليل علينا. لم يكن لدينا خيار سوى البقاء قرب مضيفينا يوماً وليلةً آخرين. ليباركهم الله، إنهم يجعلوننا في كل لحظة نشعر كم يجدون حضورنا بينهم لطيفاً وخفيفاً.

عندما حلت ساعة النوم، أقسم الخياط من جديد بأننا طالما نحن تحت سقفه، فلن ننام أنا و«زوجتي المصون»، في أي مكان سوى غرفته. وللمرة الثانية استسلمتُ، بقدرٍ زائد من الطواعية ربما... تمددنا أنا ومارتا، أحدنا قرب الآخر، بطيبة خاطر. ونحن بثيابنا ومنفصلين. جارا سريرٍ لا أكثر، مثل البارحة. بفارق بسيط هو أننا بدأنا من الآن وصاعداً نثرثر بلا توقف عن أشياء متفرقة، عن استقبال مضيفينا، عن الطقس المتوقع في اليوم التالي. كانت «الأرملة» قد تعطرت بعطرٍ لم أشمُّه عشية الأمس.

كنت قد بدأت أكلمها قليلاً عن الأسباب التي دفعتي للقيام بهذه الرحلة حين ظهر حبيب فجأةً في غرفتنا. اقترب دون صوت، حافي القدمين، كما لو أنه أراد مباغتتنا.

«أتيت لأنام هنا، قال حين لاحظتُ حضوره. هناك الكثير من البعوض في الغرفة الأخرى، إنه يفترسنا».

تنهَّدتُ.

«حسناً فعلتَ بقدومك. البعوض لايستطيع الدخول إلى هنا، لأن الباب ضيق جداً...».

هل أظهرتُ غيظي كلّه؟ ألصقتْ جارتي رأسَها برأسي لتهمس لي بأخفض صوت ممكن:

«ما يزال طفلاً!»

مرة أخرى تبحث له عن عذر. ربما أرادت أن تُفهِمني أيضاً أن الغيرة التي يُظهِرُها حبيب غير مبررة. لأني أستطيع أن أفترض بأنه إذا تآمرَ معها لتخليصها من عائلة زوجها وتمكينها من الانضمام إلينا، فليس هذا من قبيل روح الفروسية فقط، بل لأنه يشعر بشيء إزاءها، وهي لم تثنِه رغم أنها تكبره بسبع أو ثماني سنين.

لقد شعر بالغيرة، هذا ما أعتقده حقاً. تمدد أول الأمر قرب الحائط ملتفًّاً في غطائه. وحتى لو لم يَقُل شيئاً، كنت أسمع تنفسه غير المنتظم - لم يكن نائماً. كان حضوره يستفزُّني. من جهة قلت لنفسي إن عليَّ منذ الغد أن أشرح له بوضوح أن ليلتيَّ بجانب «الأرملة» لم تكونا سوى ثمرة المؤامرات التي يعرف عنها، وأن عليه ألا يفكر بالسوء. ومن جهة أخرى، كنت ومازلت لا أرى لماذا عليَّ تبرير سلوكي أمام هذا الولد. لستُ أنا الذي أردتُ وضع نفسي في هذا الموقف المحرج! مؤكد أنني طيب القلب، ولكن لايجوز أن يُتعِبوا أعصابي أكثر مما يجب! إذا رغبتُ يوماً بمغازلة مارتا، فلن أطلب إذناً من ابني أختي، ولا من أي إنسان آخر!

استدرتُ نحوها، بتصميم، وهمستُ لها ليس بصوتٍ منخفض جداً:

«إذا كان طفلاً حقاً، سأُؤدِّبه كطفل!»

شممتُ عطرها بشكل أقوى حين اقتربت، وأخذتني رغبةٌ بالاقتراب أكثر. لكن حبيب سمعني؛ ربما لم يفهم ماقلته، لكنه على الأقل اكتشف وشوشةً، فدفع نفسَهُ زاحفاً مع غطائه، لكي يرقد عند قدمينا، مانعاً إيانا من أدنى حركة.

راودتني أثناء نومي رغبة بأن أناوله «سهواً» رفسة قوية. لكنني فضَّلت الانتقام بطريقة أخرى: أمسكتُ يد مارتا واحتفظتُ بها في يدي تحت الغطاء حتى الصباح.

قرب العاصي، 29 آب

لم تعد تمطر هذا الصباح، واستطعنا أن نستأنف طريقنا. كنت قد نمت قليلاً جداً من شدة ثورتي من سلوك ابن أختي غير اللائق.

ولكن، ربما كان من الأفضل أن ينتهي الليل هكذا. نعم، فحين فكرتُ وجدتُ بأنّ من الأفضل لي أن أقع في قبضة الرغبة من أن أعاني من وطأة تبكيت الضمير.

استأذنّا من مضيفينا الذين زادونا فضلاً بتحميل بغالنا بمؤن تكفي لعدة أيام من السفر. فلتمنحنا السماءُ الفرصةَ لكي نظهر لهم بدورنا حسن ضيافتنا!

بعد المطر، تكون الطريق جذابة. دونٍ شمس ولا حرارة فائقة ولاغبار. هناك طين دون شك، لكنه لا يلطّخ إلا حوافر الدواب. لم نتوقف إلا عندما بدأ يحل الظلام.

التففنا حول مدينة حمص لنتوقف، ليلاً، في ديرٍ بُني عند حافة العاصي؛ سبق أن نزلتُ فيه مرتين مع والدي أثناء رحلة إلى حلب، عند الذهاب والإياب، لكن أحداً هنا لم يتذكر ذلك.

بينما كنت أتنزه مساءً على ضفة النهر في حدائق الدير، جاء راهب شاب جاحظ العينين، يسألني بصوت محموم عن الشائعات المتعلقة بالعام القادم. وعبثاً لَعَنَ الشائعاتِ الكاذبة والخرافات، فلقد بدا حائراً مضطرباً. ذَكَرَ علاماتٍ مقلِقة رواها فلاحو الجوار، مثل ولادة عجل برأسين، والجفاف الفجائي لنبع قديم. كلّمني أيضاً عن نساءٍ سلكن سلوكاً غريباً لم يعرفه أحد من قبل، لكن كلامه بقي تلميحياً جداً، وأعترف بأنني لم أفهم جيداً ماكان يحاول أن يصفه لي.

بذلت جهدي لطمأنته بأفضل ما أستطيع، مشيراً، هذه المرة أيضاً إلى الكتب المقدسة وإلى عدم قدرة البشر الفانين على التنبؤ بالغد. لاأعرف إن كانت حججي قد منحته العزاء، لكن المؤكد أنني، تركتُ له،

وأنا أغادره، شيئاً من هدوئي الظاهر، لكي أحمل تحت جفنيَّ شيئاً من فزعه.

في الطريق، 30 آب

قرأت للتو الصفحات التي كتبتُها في الأيام الأخيرة، وأصابتني بالرعب.

كنت قد باشرت بهذه الرحلة لأكثر الأسباب نبلاً، تشغلني مسألةُ حياةِ العالَم الآخر وردٌ فِعلِ أشباهي على المآسي التي يتم التنبؤ بها. وها أنذا، بسبب هذه المرأة، أجد نفسي متورطاً في الدروب الصغيرة الموحلة التي يُسَرُّ فيها الأنذال الذين يلهون بالحسد والدسائس والدناءات - في حين أن العالم بأسره ربما يَفنى غداً!

الشيخ عبد الباسط على حق. ما فائدة أن أجوب العالم إذا كان الهدف هو أن أرى ما هو موجود سلفاً في داخلي؟

يجب أن أتمالك نفسي! أن أستعيد إلهامي الأول، ألاَّ أغمس قلمي إلا في الحبر الأكثر جلالاً، حتى لو كان الأكثر مَراراً.

2 أيلول

كثيراً مايتكلمون عن دُوار البحر، ونادراً مايتكلمون عن دوار المطايا، كما لو أن المعاناة على متن باخرة أقلُّ إذلالاً من المعاناة فوق ظهر بغلٍ متحرك، أو ظهر جمل أو حصان رديء.

مع ذلك فهذا ما أعاني منه منذ ثلاثة أيام، دون أن أوقف الرحلة. لكنني لم أكتب إلا القليل.

وصلنا مساء الأمس إلى المعرة، المدينة المتواضعة، ولم أشعر بأنني أحيا ثانيةً وبأنني عدتُ أحس بطعم الخبز إلا في حمى هذه الجدران نصف المتداعية.

ذهبت هذا الصباح للتسكع في حارات التجارة، حين وقع حادث من أغرب الحوادث. لم يسبق لأصحاب المكتبات هنا أن رأوني قط، لذا استطعت أن أسألهم بلا مواربة عن كتاب *الاسم المئة*. لم أجنِ سوى برطماتِ جهلٍ، لا أدري هل كانت صادقة أم متصنّعة. أمام الحانوت الأخير، الأقرب إلى الجامع الكبير، وبينما كنت أستعد للرجوع على عقبيّ، اقترب مني كُتُبيٌّ عجوزٌ جداً لم أكن قد سألته شيئاً بعد، حاسر الرأس، ليضع كتاباً بين يديّ. فتحت على صفحةٍ بشكل عشوائي، وبدافعٍ لم أفهمه حتى الآن، رحت أقرأ بصوتٍ جليّ هذه السطور التي وقعت عليها عيناي للوهلة الأولى:

يقولون إنَّ الدهرَ قد حان موتُهُ   ولم يبقَ في الأيام غيرُ ذَماءِ
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءهُ   فلا تسمعوا من كاذبِ الزُّعماءِ

إنه عمل لأبي العلاء، شاعر المعرة الضرير. لماذا وضعه هذا الرجل بين يدي؟ لماذا انفتح الكتاب على هذه الصفحة تحديداً؟ ومالذي دفعني لقراءتها وسط شارعٍ كثير العبور؟

مؤشِّر؟ ماهو إذن هذا المؤشر الذي يكذِّب جميع المؤشرات الأخرى؟

اشتريت من الكُتُبيّ العجوز كتابه الذي سيكون أثناء الرحلة، أكثر أصحابي عقلانيةً.

في حلب، 6 أيلول

اضطررنا، وقد وصلنا مساء الأمس، أن نمضي ذلك اليوم بطوله في مساومة قائد قافلة جشِعٍ ومحتالٍ. فقد زعم - من بين شطاراته العديدة - أن وجود تاجرٍ جَنَويّ غني وزوجته، يضطرُّه لتعزيز الحراسة المرافقة باستخدام ثلاثة رجال أقوياء إضافيين. أجبته بأننا

أربعة رجال مقابل امرأة واحدة، وأننا نستطيع الدفاع عن أنفسنا إذا هاجمنا اللصوص. عندها، أجال طرفه فينا، نظر إلى ابني أختي بساقَيْهما، ساقَيّ الرجُلَيْن النحيفين، وإلى تابِعي، الرجلِ المَدَنيّ حقاً، وتريَّث أكثر مما ينبغي عند كرشي الكبير، كرشِ التاجر المزدهر، قبل أن يمضي مُطلِقاً ضحكةً فظة. سوَّلتْ لي نفسي أن أدير له ظهري مرةً وإلى الأبد، لكنني تمالكتُ نفسي. لا خيار لي. سيحتاج الأمر أن أنتظر أسبوعاً أو أسبوعين، مخاطِراً بالتعرض لأولى موجات برد الأناضول، دون أن أكون واثقاً من العثور على قائد قافلةٍ أكثر دماثة. لذا ابتلعتُ كبريائي وتظاهرتُ بالضحك معه وأنا أربِّتُ على بطني، وقدمت له المبلغ الذي طلبه، اثنين وثلاثين قرشاً - وهو مبلغ لا يقل عن ألفين وخمسمئة ميدن!

وبينما راح يَرُوزُ القطعَ النقدية بين يديه، حاول أن يأخذ مني وعداً بمكافأته ببضع قطعٍ إضافية إذا وصلنا جميعاً إلى غايتنا سالمين مع بضاعتنا. ذكَّرتُهُ بأننا لا نحمل أية بضاعة، وليس معنا سوى ثيابنا ومؤونتنا، لكنني اضطررت أن أعِدَ بإظهار الامتنان إذا تمت الرحلة من أولها إلى آخرها على خير مايرام.

سننطلق بعد غدٍ الثلاثاء، عند الفجر، لكي نصل إلى القسطنطينية خلال أربعين يوماً إن شاء الله.

الاثنين، 7 أيلول

تمنيتُ بَعدَ المنغِّصات التي واجهناها أثناء الرحلة، وقَبلَ تلك التي سنواجهها أن أمضي يوم استجمام، ليس فيه سوى الراحة والانتعاش والتسكع والهدوء. لكن يوم الاثنين هذا كان قد خبَّأ لي شيئاً آخر مختلفاً تماماً: اللهاثَ، ورُعباً تلاه رعبٌ آخر، ولغزاً لم أسْتَبِنْهُ بعد.

استيقظتُ باكراً، غادرتُ النزل لكي أتوجه إلى حي المدبغة القديمة، بحثاً عن تاجر نبيذ أرمني احتفظتُ بعنوانه. لم أجد أية

صعوبة بالعثور عليه، واشتريت منه جرتين من نبيذ مالفوازي لأجل الطريق. وحين خرجت من عنده تملَّكني فجأةً شعور غريب. راح جماعة من الرجال على درج مدخل بيت مجاور، يتحدثون وينظرون خفيةً باتجاهي. وفي عين أحدهم التَمَعَ شيء ما، وكأنني رأيتُ شفرةً تلمع.

كنت كلما تقدمت في الحارات الصغيرة، يزداد شعوري بأنني مراقَب، ملاحَق، محاصَر. هل كان ذلك مجرد انطباع؟ ندمت الآن لأنني خاطرتُ في ذلك الطريق بمفردي، دون تابِعي ودون ابني أختي. ندمت أيضاً لأنني لم أرجع باتجاه دكان الأرمني فور شعوري بالخطر. ولكن فات الأوان، أخذ اثنان من أولئك الرجال يسيران أمامي، وحين التفتّ رأيت اثنين آخرين منهم يقطعان عليّ طريق التراجع. ولا أدري بفعلِ أيِّ سحرٍ خلا الشارعُ من حولي. لقد بدا لي قبل ثوانٍ بأنني في شارع يعبره مارة، ليس مزدحماً، ولكنه ليس خالياً كذلك. والآن، لم يعد فيه أحد، إنه صحراء. رأيت نفسي منذ الآن مطعوناً بسكين ثم مسلوباً. قلت في سري وأنا أرتجف بأن رحلتي تنتهي هنا. تمنيت أن أصرخ طالباً العون، لكن حنجرتي لم تُصدِر أي صوت.

وفيما أنا أنظر حولي يائساً بحثاً عن منفذٍ للهرب، لاحظتُ عن يميني باب بيت. أدرتُ قبضتَهُ بمجهودٍ أخير، فانفتح. لم يكن هناك سوى ممر مظلم. لا فائدة من الاختباء فيه، لأني أكون بهذا كمَنْ يختار المكانَ الذي سيُذبح فيه، بنفسه. لذا، اجتزت الممر، فيما دخَلَهُ الرجال الذين يطاردونني، بدورهم. وجدتُ في نهايته باباً آخر شبه مفتوح. لم أجد الوقت لأقرعه، فدفعته بكتفي وألقيتُ بنفسي بكل قواي في الداخل.

دار عندئذ مشهد لا أعرف بأية كلمات أصفه، وأجرؤ الآن أن أضحك منه، لكنه في وقتها جعلني أرتجف أقلّ قليلاً بالكاد مِنْ شَفْراتِ الجُناة.

كان في ذلك البيت دزينة من رجال راكعين حفاةً، يصلون. وأنا، في عدمِ رضايَ عن قطعِ احتفالهم، وعدم رضاي عن دوْس سجادة صلاتهم، تعثَّرتُ في اندفاعي برِجلِ أحدهم، فأطلقتُ شتيمةً خارجة من أعمق أعماق جَنَوة، وانْسَطَحْتُ على طولي تماماً. اصطَدمت الجرتان

أثناء السقطة، فتحطمت إحداهما وانسَفَحَ السائل الزنديق مقرقِراً فوق سجادة المسجد الصغير.

يا إله السماء! لقد شعرت بالخزي حتى قبل أن أشعر بالخوف. أن أُراكِم في بضع ثوانٍ، هذا القدر من انتهاك الحرمات والتدنيس والفظاظة والتجديف! ماذا أقول لهؤلاء الرجال؟ كيف أشرح لهم؟ بأية كلمات أعبّر لهم عن ندامتي وتأنيب ضميري؟ لم تعد لدي القوة حتى للوقوف. لذا، جاء أكبرهم سناً، الذي كان يؤمّ الصلاة في الصف الأول، وأمسكني من ذراعي ليساعدني على النهوض، قائلاً لي الكلمات المحيِّرة التالية:

«عذراً أيها السيد، إذا لم نهتمّ بك قبل إنهاء صلاتنا. ولكن تفضل بالدخول إلى هناك، خلف ذاك الستار، وانتظرنا!».

هل كنت أحلم؟ هل أسأتُ الفهم؟ ربما طمأنتني هذه النبرة الوِدِّية لو لم أكن أعرف ما هو العِقابُ الذي يُنزَل عادةً بتَعَدِّياتٍ من هذا النوع، ولكن ما العمل؟ لم أكن أستطيع العودة إلى الشارع، ولم أشأ كذلك أن أُفاقِم الوضع الذي أنا فيه بتشويش صلاتهم بالاعتذارات أو بالنواح. لم يكن لدي أي خيار سوى الدخول إلى خلف الستار. كانت هناك غرفة جرداء يأتيها الضوء من كوة صغيرة مُشرِفة على حديقة. أسندت ظهري إلى الجدار، وأرجعتُ رأسي إلى الخلف وصالبتُ ذراعيّ.

لم أنتظر طويلاً. حين انتهت الصلاة دخلوا جميعاً إلى حجرتي الضيقة وشكلوا نصف دائرة حولي. ظلوا فترةً يتأملونني دون كلمة، متشاورين بالنظر. ثم كلمني إمامُهُم مرة أخرى بالنبرة الودية السابقة نفسها:

«إذا قَدِمَ إلينا السيد بهذا الشكل لاختبارنا، فقد بات يعرف أننا مستعدون لاستقباله. وإذا كنت مجرد عابر سبيل، فليحاسبك الله على قدر نواياك».

لم أعرف ما أقول، فلزمت الصمت. لم يطرح عليّ الرجل أصلاً أي سؤال، وإنْ بدت في عينيه كما في أعين صَحبِهِ هوَّةٌ من الانتظار.

اتجهتُ نحو المخرج وعلى وجهي برطمةٌ غير مفهومة، وأفسحوا لي الطريق لكي أمضي. في الخارج كان الرجال الذي يلاحقونني قد فروا، واستطعتُ العودة إلى النزل دون عقبات أخرى.

بودّي كثيراً أن أستوضِح ما حدث. لكني فضلتُ ألاّ أقول شيئاً عن مغامرتي السيئة لجماعتي. يبدو لي أنه إذا عرف ابنا أختي إلى أية درجةٍ كنتُ عديم الحذر، لاهتزّت سلطتي عليهما واعتَبَرا أنّ من حقِّهما ارتكاب كل الحماقات دون أن أتمكن من لَوْمِهما على شيء.

سأحكي لهما لاحقاً. وبانتظار ذلك، يكفيني أن أدوِّن سري على هذه الصفحات. أليس هذا هو أساساً دور اليوميات؟

لماذا أستمر بكتابتها، بهذه الكتابة الغامضة، إذا كنت أعرف أن أحداً لن يقرأها؟ وإذا كنت أتمنى أصلاً ألاّ يقرأها أحد؟ لأنها تساعدني على توضيح أفكاري لنفسي وكذلك ذكرياتي، دون أن أضطرّ للكشف عن نفسي عن طريق البوح بها لرفاق رحلتي.

هناك أناس يكتبون مثلما يتكلمون، أما أنا فأكتب مثلما أصمت.

في الطريق، 8 أيلول

أيقظني حاتم في ساعة مبكرة جداً، وأنا أشعر بأنه ثمة حلم عليَّ إتمامه. لم أنم كفايتي، ولكن كان يجب الإسراع للانضمام إلى القافلة قرب باب أنطاكية.

في نومي رأيتُ رجالاً يطاردونني، وكلما اعتقدت بأنني أفلتُّ منهم أجدهم أمامي ثانيةً، يسدون طريقي ويكشرون عن أسنانهم التي تشبه أنياب الوحوش.

لم يفاجئني حلمٌ من هذا النوع بعد ما عشتُهُ بالأمس. لكن مافاجأني وشوّشني هو أنني حين استيقظت استمرَّ شعوري بأني مراقَب. ممَّن؟ مِنَ اللصوص الذين أرادوا سرقتي؟ أم من تلك الجماعة

الغريبة من الرجال الذين قطعتُ عليهم صلاتَهم؟ لا شك أنني غير مراقَب لا من هؤلاء ولا من أولئك، لكنني لا أستطيع منع نفسي من الالتفات باستمرار.

عسى أن تبتعد هذه البقية من الليل التي تلتصق بنهاري، كلما ابتعدتُ عن حلب!

9 أيلول

هذا الصباح، بعد ليلة قضيتُها تحت الخيام في حقلٍ مليء بآثار قديمة، تيجان أعمدة محطمة ومدفونة في الرمل وتحت العشب، جاء قائد القافلة يسألني بغتةً إذا كانت المرأة التي ترافقني هي حقاً امرأتي. أجبت بنعم، جاهداً بأن تَظهر عليَّ علامات الصدمة. عندها قدم اعتذاره مقسِماً بأنه لم يفكر بالسوء، لكنه لا يذكر إن كنتُ قد أخبرتُهُ بذلك.

أمضيتُ بقية النهار بمزاج سيء، أجترُّ أفكاري. هل يشك بشيء؟ هل تعرَّفَ أحدُ المسافرين الذين يقاربون المئة، على «الأرملة»؟ ليس هذا مستحيلاً.

ولكن ربما سمع قائدُ القافلة حديثاً ما، أو نظرة غرامٍ ما، بين مارتا وحبيب، وأراد تحذيري عبر سؤاله.

كلما مضيتُ في كتابة هذه السطور ازدادت شكوكي كثافةً، كما لو أنني وأنا أحكُّ هذه الأوراق، أحكُّ بريشتي أيضاً جراح كبريائي الشخصي...

لن أخطَّ اليوم كلمة واحدة أخرى.

11 أيلول

وقع اليوم حادث من تلك الحوادث الحقيرة التي وعدتُ نفسي

بالكفِّ عن التنويه عنها. ولكن بما أنه يقلقني ولا أستطيع مفاتحة أحد به، لذا أذكره ببضع كلمات...

توقفت القافلة لكي يستطيع كلّ مسافر أن يأكل وينام قيلولةً قصيرة قبل استئناف السفر عندما تصبح حرارة النهار ألطف. انقسمنا عشوائياً، بضعة مسافرين تحت كل شجرة، جلوساً أو ممدَّدين، عندما مال حبيب نحو مارتا وهمس في أذنها بشيء ما، فراحت تضحك بصوت مرتفع. كل من كانوا في الجوار سمعوها، التفتوا إليها ثم إليّ وقد ارتسمت على وجوههم تعابير الإشفاق. تبادل البعضُ بصوتٍ منخفض، مع جيرانهم ملاحظات لم أسمعها، جَعَلَتْهم يبتسمون أو يسعلون سعالاً خفيفاً.

هل أحتاج للقول إلى أية درجة أحرجتني تلك النظرات وجرحتني وأهانتني؟ مبدئياً وعدتُ نفسي بمحاسبة ابن أختي على سلوكه لكي أنذره بضبط نفسه على نحو أفضل. ولكن ماذا يمكنني أن أقول له؟ ماالذي فعله ويستحق عليه اللوم؟ ألستُ أنا الذي أتصرف كما لو أن الكذبة التي وحَّدَتْني بمارتا تمنحني سلطات وامتيازات ما؟

إنها بمعنى ما، تمنحني شيئاً من ذلك، بلى. لأن أفراد القافلة يعتبرونها زوجتي، ولا أستطيع تَرْكها تتصرف بخفّة دون أن يتأثَّر شَرَفي من ذلك.

حسناً فعلتُ بالبوح لدفتر يومياتي. أعرف الآن أن المشاعر التي تبلبلني ليست بلا مبرِّر. المسألة ليست مسألة غيرة، بل مسألة شرف واحترام نفس: لا يمكنني القبول بأن يَهمس ابنُ أختي علناً في أذن من يعتقد الجميعُ بأنها زوجتي، ويجعلها تقهقه ضاحكةً!

أتساءل إذا كانت كتابةُ هذا كله تثير أعصابي أم تهدّئني. ربما الكتابة لا توقظ الأهواء إلا لكي تطفئها بصورة أفضل، مثل الصيادين الذين يثيرون الطريدة أثناء الصيد من أجل تعريضها للسهام.

12 أيلول

إنني سعيد لأني لم أستسلم لرغبتي في تعنيف حبيب أو مارتا. كل ما كان ممكناً أن أقوله لهما، سيَبدو بأن الغيرة هي التي تُمليه. لكن الأمر، يشهد الله، ليس غَيْرةً! كنتُ سأحوِّل نفسي إلى أضحوكة وأجعلهما يتهامسان ويسخران مني. وفي حين أردتُ الدفاع عن احترامي، كنتُ سأجعله مَداساً.

فضَّلتُ التصرف بطريقة مغايرة تماماً. بعد ظهر هذا اليوم، دعوتُ مارتا للسير بجانبي، وأطلعْتُها على الأسباب التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة. يحتمل أن يكون حبيب قد قال لها كلمة عن ذلك، لكنها لم تُظهِر شيئاً، وكانت على العكس منتبهةً إلى شرحي، ولو أنها، على ما بدا لي، لم تكن شديدة القلق بشأن السنة القادمة.

أردتُ إعطاء حديثنا بعض الرسمية؛ لقد اعتبرتُ وجودَ مارتا معنا أمراً مفروضاً حتى الآن، أحياناً مُغيظاً أو محرجاً، وأحياناً مضحكاً ومسلّياً ويكاد يكون مصدراً للعزاء والسلوى. وبالثقة التي أوليتُها إياها اليوم، فإنني، بطريقةٍ ما، قَبِلتُ بها بين ذويَّ.

لا أعرف إن كنتُ قد أحسنتُ التصرف، لكنّ محادثتنا منحتني شعوراً بالرغد والارتياح. في نهاية المطاف، كنتُ الوحيد الذي يعاني من التوتُّرات التي تسيطر على مجموعتنا منذ مرحلة طرابلس. لستُ ممن يقتاتون على الشِّدة والحظ العاثر. أَنشُد سفراً بصحبة ابنَيْ أختٍ مُحِبَّيْنْ وخادِمٍ مخلص... أما بشأن مارتا فلا أعرف بعد ما الذي أتمناه في أعماقِ نفسي. هل أريدها جارةً مُراعِية؟ أم أكثر من ذلك؟ لا أستطيع الإصغاء فقط إلى رغباتي كرجلٍ مُتَوَحِّد، لكن كل يوم أمضيه في الطرقات سيدفعني للإصغاء إليها أكثر. أعرف أن عليّ أن أبذل جهوداً كيلا أحاصرها أكثر مما يجب باهتمامي الذي أعرف أن روحي وجسدي يؤيِّدانه.

منذ غادرْنا بيت الخياط لم أمضِ أية ليلة بمفردي معها. نمنا أحياناً تحت خيمة وأحياناً في نزل، إنما نحن الخمسة دوماً، أو مع

مسافرين آخرين أيضاً. إذا لم أفعل شيئاً لتغيير سير الأمور، فإنني أتمنى أن يجبَرَنا ظرفٌ آخر على التواجد معاً بمفردنا.

وللحقّ، أتمنى ذلك بلا توقف.

13 أيلول

غداً عيد الصليب، وحصلَتْ، بهذا الشأن، مشاجرة خطيرة مع قائد القافلة.

توقّفنا، لقضاء الليل، في خانٍ بأحد ضواحي الاسكندرونة، وكنت أتمشى قليلاً لتحريك ساقَيّ عندما سمعتُ بغتةً حديثاً دائراً. كان أحد المسافرين، وهو رجل عجوز جداً، حلبي كما توحي لهجته، وفقير جداً كما توحي ثيابه الممزقة، يسأل قائد القافلة عن الساعة التي سننطلق فيها غداً، لأنه يود المرور، ولو لحظة، إلى كنيسة الصليب حيث يعتقد أنه توجد قطعة من الصليب الحقيقي. تكلّمَ الرجل بخجل وقليل من التأتأة، الأمر الذي يبدو أنه استفزَّ عجرفةَ قائد قافلتنا فأجابه بالنبرة الأكثر احتقاراً بأننا سنتحرك مع أول خيوط الفجر، وأنه لا وقت لدينا نضيعه في الكنائس، وأنه إذا كان مصراً على رؤية قطعة خشب، فليس أمامه سوى أن يلتقط هذه ـ وأشار له إلى قطعة متعفنة من أرومة شجرة.

عندئذٍ اقتربتُ وقلت بصوت عالٍ بأنني مصرٌّ أن نبقى في الاسكندرونة بضع ساعات إضافية لكي أتمكن من حضور قداس عيد الصليب.

بوغت قائد القافلة عند سماعي، فقد ظنّ أنه بمفرده مع الرجل العجوز. لاشك أنه كان سيتجنب الكلام بتلك الطريقة أمام شاهد. لكنه، بعد تلعثم قصير، استعاد ثقته وأجابني بطريقةٍ كانت على أية حال أكثر تهذيباً من الطريقة التي استخدمها مع ذاك التعِس الآخر ـ بأنه من المستحيل تأخير موعد الانطلاق، وأن المسافرين سيشتكون. بل أضاف بأن هذا سيكبِّد القافلة بأسرها أضراراً، وألمحَ إلى أنه

سيتوجب عليّ دفع تعويض ضرر. عندها رفعتُ النبرة مطالباً بانتظاري حتى انتهاء القداس ومهدِّداً برفع شكوى للمندوب الجَنَوي في القسطنطينية، وحتى للباب العالي.

كنتُ أخاطر إذ أقول ذلك. فليس لدي إمكانية الوصول إلى الباب العالي، ولا يملك المندوب الجنوي نفوذاً هذه الأيام؛ فقد تعرَّض هو نفسه للمضايقة العام الماضي، وسيعجز عن حمايتي أو عن الحصول على ترضيةٍ لي. أحمد الله أنّ قائد القافلة لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك. لم يجرؤ على الاستخفاف بتهديداتي، وشعرتُ بتردده. إني متأكد من أنه كان سيسعى للتقليل من حدة الخلاف بيني وبينه لو كنا بمفردنا. لكنَّ هناك الآن مجموعة من المسافرين الهائجين بسبب أصواتنا المرتفعة، تَحلَّقتْ حولنا، ولن يستطيع التراجع أمامهم دون أن يفقد ماء وجهه.

فجأةً اقترب منه مسافر يلفُّ رأسه بلفحةٍ خضراء كما لو أننا وسط عاصفة رملية. وضع يده فوق كتف قائد القافلة، وبقي هكذا بضع لحظاتٍ ينظر إليه دون أن يقول كلمة - أو ربما قال له كلمة بصوت منخفضٍ لم أسمعه. ثم ابتعد ببطء.

عندها بصق خصمي أرضاً وأعلن بوجهٍ شبهِ مُهانٍ شبهِ متألِّم:

«بسبب هذا الرجل، لن ننطلق غداً!»

«هذا الرجل» هو أنا. كان قائد القافلة وهو يوجه إصبعه باتجاهي، يعتقد بأنه يشير إلى المذنب، لكن جميع من كانوا هناك فهِموا أنه يشير إلى المنتصر.

هل أنا مسرور من انتصاري؟ نعم، إنني مسرور مفتون ومفعم بالرضى وفخور. ليست المسألةُ مسألة شفقة، بل إنها مسألة حكمة دنيوية. في الأوقات العادية نادراً ما أذهب إلى القداس، ولا أحتفل بعيد الصليب، ولا أعطي لبقايا الأشياء المقدسة قيمة إلا بالقروش؛ لكنهم كانوا سيكفُّون عن احترامي إذا تركتُ رموز ديني وأمتي تتعرَّض للإهانة.

هذا شبيه بعلاقتي بمارتا. فكونُها زوجتي في الحقيقة أو في الظاهر فقط، مسألةٌ جعلت شرفي يرتبط بها، وواجبي أن أصونه.

14 أيلول، عيد الصليب

أفكر بلا انقطاع بحادث الأمس. نادراً ما تكون ردة فعلي بهذا العنف، وبطني منقبض، لكنني غير نادم على جسارتي.

حين أُعيد قراءة الحكاية التي صنعتُها مساء البارحة، يبدو لي أنني لم أقل بما فيه الكفاية كيف كان إيقاع ضربات قلبي. انقضت بضع ثوانٍ طويلة من مُكاسَرةٍ صامتة، تَساءل قائدُ القافلة أثناءها إن كنتُ أتمتّع حقاً بالحماية التي ادَّعيتُ أني أملكها، وتساءلتُ أنا أيضاً عن وسائل التملُّص من المجابهة دون أن أفقد ماء وجهي. كان عليَّ بالطبع أن أنظر إلى الرجل في عينيه، مُشعِراً إياه بأنني واثق مما أقول، ومتجنِّباً أن يستشعر بضعفي.

كما مرت أيضاً لحظة لم أعد أشعر فيها بالخوف. لحظة خلعتُ فيها روحَ التاجر لأتلبَّس روحَ المرَوِّض. تلك اللحظة، مهما بلغتْ من القِصَر، تُشعِرُني بالفخر.

هل إرادتي هي التي نجحتْ في تحقيق القرار؟ هل هو تدخُّل العربيّ الملثَّم؟ ربما عليَّ أن أشكره... بالأمس، لم أشأ الذهاب نحوه، حتى لا يظنَّ أحد أنني في وضعٍ صعب وأنَّ تَدَخُّلَهُ أنقذني. أما اليوم فقد بحثتُ عنه بعينيّ ولم أجده.

لا أكفّ عن التفكير به، وبما أنني لم أعد بصدد مُكاسَرَة، وبما أن هذا الدفتر ليس حلبة مصارعة، ولا يتحلق حولي ذاك الحشد من المتفرجين، أستطيع أن أكتب بأنني شعرتُ بارتياحٍ كبير حين تدخَّلَ ذلك الرجل، وأن انتصاري هو إلى حد ما انتصارَهُ، وأنني مدين له إلى حدٍ ما.

ما الذي قاله لقائد قافلتنا، فطَوَّعَهُ على ذاك النحو؟

كدتُ أنسى أن أكتب بأنني ذهبتُ مع ابني أختي وتابِعي

و«الأرملة» ودزينة من المسافرين الآخرين إلى كنيسة الصليب. ارتدت مارتا، للمرة الأولى، ثوباً بلون مختلف، هو الثوب الأزرق نفسه، ذو الياقة المحاطة بحاشية حمراء، والذي رأيتُها تلبسه في صباها حين تذهب إلى كنيسة جبيل أيام الأعياد مع والدها الحلاق. منذ انضمامها إلينا في هذه الرحلة، لم ترتدِ غير الأسوَد، من قبيل التحدي، لأنه اللون الذي منَعَتْها أسرةُ زوجها من ارتدائه. لا بدَّ أنها اعتبرتْ أن التحدي فقدَ موضوعَهُ في الوقت الحاضر.

طوال القداس، كان الرجال ينظرون إليها، بعضهم خلسةً، وبعضهم الآخر بإلحاح، الأمر الذي لم يُثِر لديّ - يشهد الله! - أي انزعاج ولا غيرة.

16 أيلول

هذا الصباح، جاء صائغ يهودي من حلب يدعى ميمون طليطلي، لمقابلتي. قال إنه سمع عن علمي الواسع، وبات يتحرَّق شوقاً للتعرف عليّ. سألتُهُ لماذا لم يتحرَّش بي من قبل؟ صمَتَ مُحرَجاً، ففهمتُ بأنه فضَّلَ أن ينتظر انقضاء عيد الصليب؛ صحيح أن بعض أخوتي في الدين حين يقابلون يهودياً في ذلك اليوم، يعتقدون أنَّ عليهم إظهار الكراهية له، كما لو أن الأمر هو فِعلُ انتقامٍ، وورع شديد، لا أكثر.

أفهمْتُهُ، بالكلمات المناسبة، أنني لستُ من هذا النوع. وشرحتُ له أنني إذا طلبتُ التوقف ليومٍ في الاسكندرونة، فلم يكن ذلك لأجل تغليب ديني على دين الآخرين، بلْ لفرض احترامي فقط.

«أحسنتَ صنعاً، قال لي، هكذا هو العالم...».

«هكذا هو العالم، كررتُ القول. لو كان مختلفاً، لأشهَرْتُ شكوكي وليس معتقداتي».

ابتسم وخفض صوته لكي يقول:

«حين تصبح العقيدةُ مُبغِضَةً، فليتبارك الشكاكون!»

ابتسمتُ بدوري وخفضت صوتي:

«جميعنا ضالُّون».

بالكاد تبادلنا الكلام خمس دقائق، لكننا أصبحنا أخوين. كان في وشوشاتنا ذلك التقارب الذهني الذي لا تستطيع أيٌّ ديانة أن تولِّده، ولاتستطيع أيٌّ منها أن تدمِّره.

17 أيلول

قرر قائد قافلتنا اليوم إخراجنا عن الطريق المعتادة، ليقودنا إلى شاطئ خليج الاسكندرونة. زعم أن عرّافةً منعته صراحةً من عبور مكانٍ معين يوم الأربعاء، تحت طائلة تعرُّضه للذبح، وأن التأخير الذي سبَّبْتُهُ أرغَمَهُ على تغيير الطريق. لم يُظهر المسافرون احتجاجاً - وماالذي كانوا سيقولونه أصلاً؟ الحِجة تُناقَش أما الخرافة فلا.

امتنعتُ عن التدخل حتى لا أخلق حادثاً جديداً. لكني أشكُّ بأنّ هذا الغشاش غيَّرَ طريق القافلة للقيام بصفقةٍ ما. لاسيما وأن لسكانِ القرية التي قادَنا إليها سمعة سيئة للغاية. فهم يعملون في إغراق السفن وقطع الطرق! كان حاتم وابنا أختي ينقلون لي كل أنواع الشائعات. فنصحتُهُم بالاحتراس...

نصب تابِعي الخيمة، لكني لم أتعجَّل الاستلقاء فيها. ذهبت مارتا لتتمدد في الداخل وحدها، عَرْضاً. وتمددنا نحن الرجال الأربعة، أحدنا قرب الآخر، ورؤوسنا في جانبها. سأشمّ عطرها وسأسمع تنفُّسها طوال الليل، دون أن أراها. أحياناً يكون حضور المرأة عقوبة!

وبانتظار أن يغلبني النوم، ذهبت للجلوس فوق حجر لأكتب بضعة سطور على ضوء نار جماعة من المخيِّمين، عندما لمحتُ ميمون. هو أيضاً لم تكن به رغبة بالنوم. ذهبنا نتمشى على الشاطئ، فهدير الأمواج مناسب للمسارزة. رويتُ له مغامرتي الغريبة في حلب بالتفصيل. لابد أن لديه تفسيراً، باعتباره من سكان هذه المدينة. وبالفعل، قدَّمَ لي تفسيراً أرضاني في الوقت الحالي.

«خاف منك أولئك الرجال أكثر مما خفتَ منهم، بدأ بهذا القول. إنهم يمارسون عبادتهم دون علم السلطات التي تضطهدهم. لأنَّ شُبهة التمرد والعصيان تحوم حولهم.

«مع أن الجميع في حلب يعرفون بوجودهم. أطلق عليهم خصومُهُم اسمَ «نافدو الصبر» للسخرية منهم. لكن هذا الاسم أعجبهم وهم اليوم يعترفون به. ووفق رأيهم، فإنّ الإمام المختبئ، الممثلَ الأخير لله على الأرض، هو الآن بيننا، ومستعد للكشف عن نفسه في الوقت المناسب، لكي يضع حداً لعذابات المؤمنين. ثمة جماعات أخرى تقول بمجيء الإمام في مستقبل بعيد، مستقبل غير محدد، في حين أن نافديّ الصبر مقتنعون بأن الأمر وشيكٌ، وأن المنقذ موجود بيننا في مكان ما، في حلب أو القسطنطينية أو في مكان آخر، يجوب العالم، يراقبه، ويستعد لتمزيق حجاب السر.

«ولكن، يتساءل هؤلاء، كيف يعرفونه إذا صادفوه؟ هذا مايتناقشون حوله باستمرار فيما بينهم، كما قيل لي. وبما أن الإمام متخفٍّ، وينبغي ألاً يكشفه أعداؤه، لذا يجب أن يكونوا مستعدين لأنْ يجدوه تحت أكثر أشكال التخفّي بُعداً عن التوقُّع. هو الذي سيَرث يوماً جميعَ ثروات الأرض، ربما يأتي في أسمالٍ؛ هو الحكيم بين الحكماء، ربما يأتي في مظهرِ شخص مختلٍّ عقلياً؛ هو الورع والمتفاني في إخلاصه، يمكن أن يرتكب أسوأ الانتهاكات. لهذا السبب يُجبر هؤلاء الرجالُ أنفسَهم على تبجيل المتسوِّلين والمجانين والماجِنين. وهكذا، فعندما دخلتَ عليهم وقت الصلاة، أطلقتَ شتيمةً وأرَقْتَ خمراً فوق سجادة صلاتهم، ظنوا أنك تريد امتحانهم. لم يكونوا متأكدين من ذلك طبعاً، ولكن في حالِ شاءت المصادفة وكنتَ «الإمامَ المنتظَر»، فلم يريدوا المخاطرة باستقبالك بشكل سيء.

« يُملي عليهم إيمانُهُم أن يظهروا الود لكل إنسان حتى لو كان يهودياً أو مسيحياً، لأن الإمام ربما يتبنى، من قبيل التخفّي، عقيدةً مختلفة. عليهم أن يكونوا ودودين حتى مع من يضطهدهم، لأن هذا أيضاً ربما يكون تستُّراً محتَملاً...».

لكنهم إذا كانوا بهذا القدر من المُراعاة للجميع، فلماذا

يُضطَهَدون؟ «لأنهم ينتظرون ذاك الذي سيُسقِط كل العروش ويلغي كل القوانين».

لم أكن قد سمعتُ من قبل عن أفراد هذه الجماعة الغريبة... مع ذلك، قال لي ميمون، إنهم موجودون منذ زمن طويل. «لكنّ المؤكّد أنهم يزدادون عدداً وتُقىً، كما يزدادون تهوُّراً أيضاً. فهناك تلك الشائعات حول نهاية الزمن، والتي يؤخذ بها ضِعاف العقول...».

آلمتني الكلمات الأخيرة. هل أصبحتُ أنا نفسي من «ضعاف العقول» الذين يوبِّخُهُم صديقي الجديد؟ أحياناً أقَوِّم نفسي، ألعن الخرافات وسرعة التصديق، أرسم على وجهي شبه ابتسامة احتقار، أو شفقة... بينما أطارد، أنا نفسي، *الاسم المئة*!

ولكن كيف عساني أحافظ على عقلي كاملاً حين تتكاثر الإشارات على طريقي؟ أليست مغامرتي الخديثة العهد في حلب، من أشد المغامرات إثارة للحيرة بهذا الشأن؟ أليس الأمر كأنّ السماء أو قوة خفية أخرى تسعى إلى ترسيخي في الضّلال؟

18 أيلول

أسرَّ لي ميمون اليوم بأنه يحلم بالذهاب إلى أمستردام للعيش هناك، في بروفانس ـ أوني.

ظننت أول الأمر أنه يتكلم كصائغ ويأمل أن يجد في تلك البلاد البعيدة أحجاراً أجمل ينقشها وزبائن أكثر ازدهاراً. لكنه كان يتكلم كحكيم، كرجل حر وأيضاً كإنسان مجروح.

«يقولون لي إنها المدينة الوحيدة في العالم التي يستطيع الإنسان أن يقول فيها «أنا يهودي» مثلما يقول غيره في بلاده «أنا مسيحي»، أو «أنا مسلم»، دون أن يخشى على حياته ورزقه وكرامته».

كنت أود أن أسأله أكثر، لكنه بدا متأثراً بالكلمات التي قالها، حتى

غصَّ حلقه وامتلأت عيناه بالدموع، فلم أقل شيئاً ومشى أحدنا بجانب الآخر بصمت.

وعندما رأيتُ أثناء الطريق، أنه هدأ، لاحقاً، قلتُ له ويدي فوق ذراعه:

«يوماً ما، إن شاء الله، ستصبح الأرض كلها أمستردام».

ابتسم ابتسامة مرة.

«إنه قلبك النقي هو الذي يوحي لك بهذه الكلمات. دويُّ العالم يقول شيئاً آخر، شيئاً آخر تماماً...»).

في طرسوس، فجر الاثنين 21 أيلول

أتكلم مع ميمون ساعات كل يوم، أبوح له بأشياء تتعلق بثروتي وبعائلتي؛ لكن هناك موضوعين ما زلتُ أنفر من مقاربتهما مواجهةً.

الأول يتعلق بالأسباب الحقيقية التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة. وبهذا الشأن قلت فقط إنني يجب أن أشتري كتباً من القسطنطينية، وأظهرَ دماثةً ولم يسألني ما هي. منذ لقائنا الأول، كانت شكوكنا هي التي قرَّبَتْ أحدَنا من الآخر، ونوعٌ من حب الحكمة والعقل؛ فإذا اعترفتُ له الآن بأنني ضعفتُ أمام معتقداتٍ مبتذَلة ومخاوف عاميَّة، سأفقد كل اعتبار في نظره. هل سأحفظ السر حتى نهاية الرحلة إذن؟ ربما لا. ربما تأتي لحظةٌ أستطيع فيها أن أبوح له بكل شيء دون إضرارٍ بصداقتنا.

الموضوع الآخر يخص مارتا. ثمة شيء منَعَني من كشف الحقيقة المتعلقة بها لصديقي.

وكعادتي، لم أقل شيئاً غير صحيح. لم تنطق شفتاي مرة واحدة بكلمة «امرأتي» أو «زوجتي»؛ وكنتُ أكتفي بعدم الكلام عنها، وعندما أحتاج لذكرها، أحافظ على أسلوبٍ غائم فأقول «جماعتي»، أو «أهلي» كما يفعل رجال هذا البلد بدافع الاحتشام الشديد.

بالأمس فقط يبدو أنني اجتزتُ هذا الخيط غير المرئي الذي يفصل بين «أنْ أدَعَهُ يعتقد مايريد» وبين «أنْ أجعَلَهُ يعتقد». وأشعر ببعض الندم على ذلك.

بما أننا كنا نقترب من طرسوس، وطن القديس بولس، جاء ميمون ليخبرني بأن لديه في المدينة قريباً عزيزاً جداً ينوي النوم عنده بدلاً من النزول في خان القوافل مع بقية المسافرين، وأنه يشرِّفه أن نقضي الليلة تحت السقف نفسه، «زوجتي» وأنا وابنا أختي وتابِعي.

كان يجب أن أرفض الدعوة، أو على الأقل أن أدعه يصرّ. لكن فمي أجاب في الحال بأنه ليس هناك ما يسرُّني أكثر. إذا فوجئ ميمون بهذا الاستعجال، فإنه لم يُظهر مفاجأته، بل ادَّعى، على العكس، بأنه سعيد بعربون الصداقة هذا.

ذلك المساء، توجَّهنا جميعاً ومنذ وصول القافلة، عند هذا القريب المدعو أليعازر، وهو رجل مسن قليلاً وغني جداً. يشهد بيته على ذلك. فهو من طابقين وسط حديقة مزروعة بشجر التوت والزيتون. ظننت أنه يعمل في تجارة الزيت والصابون، لكننا لم نتكلم عن الأعمال، بل عن الحنين فقط. لم يملّ الرجل من استظهار أشعار تُمَجِّد مسقط رأسه، مدينة الموصل. راح يتذكر، والدمع في عينيه، حواريها ونوافيرها وأشخاصها المثيرين للإعجاب، والحماقات التي ارتكبها وهو صبي؛ من الواضح أنه لم يجد أبداً ما يُعزِّيه على تَرْكِهِ لها والاستقرار هنا في طرسوس حيث كان عليه أن يدير عملاً مزدهراً أسَّسَه جدُّ زوجته.

بينما كانوا يعدون لنا الطعام، نادى ابنته وطلب منها أن تدلَّنا على غرفتنا أنا ومارتا. جرى عند ذاك مشهد فظ بعض الشيء، لكن من واجبي أن أرويه.

لاحظتُ أن ابني أختي، وخاصةً حبيب، كانا في حالة ترصُّد منذ أن أبلغتهما بدعوة ميمون. واشتدت الحالة منذ دخولنا البيت. لأنه كان واضحاً من النظرة الأولى أنه ليس بالمكان الذي نُكَوَّم فيه خمسة أو ستة في غرفة نوم واحدة. حين طلب أليعازر من ابنته أن تقود «ضيفنا وزوجته» إلى غرفتهما، اضطرب حبيب، وأحسست بأنه يتهيأ لقول شيء وقِح. هل كان سيفعل؟ أجهل ذلك. لكنه أعطاني هذا الانطباع في

لحظتها، ولقطع الطريق على الفضيحة، سارعتُ في استباق الأمور سائلاً مضيفي إذا كنت أستطيع أن أقول له كلمتين على انفراد. ارتسمت على وجه حبيب ابتسامة اطمئنان خفيفة، متوقعاً دون شك، أن خالَهُ بالداسار، الذي تاب أخيراً، سيجد عذراً ما كيلا يقضي ليلةً «محرِجةً» أخرى. فليسامحني الله، لم تكن تلك نيتي أبداً.

حين خرجتُ مع مضيفي إلى الحديقة، قلتُ له:

«ميمون أصبح مثل أخ لي، وأنت، قريبُهُ الذي يحبه كثيراً، أعتبرك أيضاً صديقاً. لكنني منزعج فقط من قدومي هكذا، دون سابق إنذار، بصحبة أربعة أشخاص غيري...».

«اعلم أن زيارتك تدفئ قلبي، وأن أفضل طريقة للتعبير عن صداقتك هي بأن تشعر، تحت سقف بيتي، كأنك في بيتك».

كان وهو يرصف هذه الكلمات الكريمة، يقيسني بشيء من الحيرة، متسائلاً دون شك عن السبب الذي دفعني لإنهاضه وأخذِهِ على حدة، لكي أقول له شيئاً بهذه التفاهة، ولا يبتعد كثيراً عن الآداب العامة؛ ربما فكَّرَ أنَّ لديَّ سبباً آخر يتعذَّر الاعتراف به ـ مرتبطاً حتماً بديانته ـ لعدم النوم عنده، فتوقَّعَ أن أصرَّ على الذهاب. لكنني سارعتُ في تسليم أمري، شاكراً إياه على ضيافته. وعدنا إلى الصالون متشابكيْ الذراعين، بابتسامةٍ رصينة على وجه كل منا.

كانت ابنة مضيفنا قد عادت إلى المطبخ؛ وفي هذه الأثناء جاء أحد الخدم يحمل مشروبات باردة وفاكهة مجففة. طلب منه أليعازر أن يترك كل شيء في مكانه ويذهب ليُري ابنيْ أختي غرفتَهُما في الطابق الأعلى. ثم عادت ابنته وحدها، وبعد بضع دقائق، طلب منها مجدداً أن تقودنا أنا و «زوجتي» إلى غرفتنا.

هكذا جرت الأمور. ثم تناولنا العشاء، وبعده ذهب الجميع سواي للنوم. ادَّعيتُ أنني أحتاج للتَّمَشِّي قليلاً في الخارج، وإلاَّ لن أستطيع النوم. رافقني ميمون وقريبه. لم أشأ أن يراني ابنا أختي أصعد مع مارتا إلى الغرفة نفسها.

غير أنني كنت أتعجَّل أن أكون بقربها. وبعد دقائق ذهبت إليها.

«عندما انسحبتَ مع مضيفنا، ظننتُ أنك ستعترف له بخصوصنا...».

تفَرَّستُ في وجهها، بينما هي تتكلم، لأعرف إن كانت تعبِّر عن اللوم أم الارتياح.

«أظن أننا كنا سنجرحه إذا رفضنا دعوته، أجبتُ. آملُ ألاّ تكوني غاضبة كثيراً...».

«بدأتُ أعتاد»، قالت.

لا شيءَ في صوتها أو قسَماتها نَمَّ عن انزعاجٍ أو ضيق.

«لننم إذن!»

أحطتُ كتفيها بذراعي وأنا أنطق بهذه الكلمات، كأنني أردتُ أخذها إلى نزهة.

ليالِيَّ بجانبها كانت كذلك إلى حد ما. نزهةٌ تحت الأشجار بصحبة شابةٍ، حيث تحدث رجفةٌ عند تَلامُس الأيدي. يجعلنا استلقاءُ أحدنا بجانب الآخر، خجِلَيْنْ ودودَيْن ومتَّزِنَيْنْ. أليس من الأشهى أن تُسرق قبلةٌ في وضعيةٍ كهذه؟

ياللطريقة الغريبة التي أُغازلها بها! لم أمسك يدها إلاّ في اللقاء الثاني، واصطبغتُ بالحمرة في الظلام. في هذا اللقاء الثالث أحطت كتفيها بذراعي، ومن جديد اصطبغتُ بالحمرة.

رفعتْ رأسها، حلَّت شعرها وفرشته بكامل سواده فوق ذراعي المكشوف. ثم نامت دون كلمة.

أرغب بتذوّق تلك المتعة الأوَّلية، أيضاً وأيضاً. هذا لا يعني أنني مصرٌّ على إبقائها بهذا القدر من الاحتشام. لكنني لا أملُّ من هذه الجيرة المتَّشحة بالغموض، من هذا التواطؤ الذي ينمو، من تلك الرغبة ذات الألم العذب، وباختصار من هذا الطريق الذي نسير فيه معاً، سعيدين خفيةً، ومؤكِّدَيْن كل مرةٍ بأنَّ العناية الإلهية وحدها هي التي

تدفع أحدنا باتجاه الآخر. تلك اللعبة تسحرني، لستُ متأكداً من أني أريد الانتقال إلى الجانب الآخر من التلّ.

أعلم أنها لعبة خطيرة. ففي أية لحظة يمكن أن تحيط النار بنا. كم كانت نهايةُ العالم بعيدةً تلك الليلة!

22 أيلول

ما الذي ارتكبتُه إذن ويستوجب اللوم إلى هذا الحد؟ ما الذي حدث ليلة الأمس في طرسوس، زيادةً عما حدث في الليلتين اللتين قضيناهما في قرية الخياط؟ لكنَّ أفراد جماعتي يتصرَّفون معي كما لو أنني فعلتُ ما لا يُفعَل! راح الجميع يتجنَّبون نظرتي. ابنا أختي لا يتكلمان في حضوري إلا بصوت منخفض. حتى حاتم الذي لاشك أنه يهروِل من حولي مثلما يهرول أي خادمٍ حول سيده، إلا أنَّ في مشيته وتعبيره وحركاته، شيئاً متصنِّعاً، شيئاً مفرط المجاملة، قرأتُ فيه لوماً صامتاً. مارتا أيضاً بدا أنها تفرُّ من صحبتي، كما لو أنها تخشى أن تبدو شريكةً لي.

شريكة في ماذا، يا إله السماء؟ ما الذي فعلتُهُ سوى أني لعبتُ دوري في هذه الكوميديا التي كتبَها أولئك الذين يتّهمونني أنفسُهُم؟ ماالذي كان عليَّ أن أفعله؟ أن أكشف لكل رفاق رحلتنا، ولقائد القافلة أولاً، أنَّ هذه المرأة ليست زوجتي، فتُقْصى وتُهان؟ أم أقول لعباس الخياط، ثم لميمون وقريبه، أنَّ مارتا هي زوجتي حقاً، لكنني لا أريد النوم بقربها، لكي يطرح الجميع ألف سؤالٍ مخاتِل؟ فعلتُ ما يجب على رجل شريف أن يفعله، وهو حماية «الأرملة» دون استغلالها. هل يُعتَبَر جرماً أن أجد في هذا الوضع الغريب شيئاً من العزاء، وشيئاً من المتعة المتناهية الدقة؟ هذا ما سأقوله لهم إذا أردتُ تبرير نفسي، لكنني لن أقول لهم شيئاً. دماء آل أمبرياتشي التي تسري في عروقي تفرض عليَّ أن أصمت. يكفيني أن أعرف بأني بريء، وأنَّ يدي المحِبَّة ظلت نقية.

بريء ربما لا تكون الكلمة الصحيحة. فعليَّ أن أعترف في ثنايا هذه الصفحات، دون أن أبرر لهؤلاء البليدين الذين يُكبِّلونني، بأني

سعيتُ قليلاً للمتاعب التي تحدث لي. لقد أسرفتُ في استغلال المظاهر، وهاهي المظاهر تعاملني بالمثل. هذه هي الحقيقة. فبدلاً من أن أسلك أمام ابني أختي سلوكاً نموذجياً، استسلمتُ للعبة مدفوعاً بالرغبة والملل وارتجاجات الطريق، والزهو- ما أدراني؟ مدفوعاً أيضاً، كما يبدو لي، بروح العصر، روح «عام الوحش». عندما نشعر أن العالم على وشك الغرق، يختلّ شيء ما، يغرق الناس إما في منتهى الإخلاص أو منتهى الفُسق. أما أنا، فأشكر الله لأني لم أصل إلى هذه الحدود القصوى بعد، لكنه يبدو لي بأني أفقد الإحساس باللباقة والاحترام رويداً رويداً. ألا يوجد في سلوكي مع مارتا لمسةٌ من الاختلال، تزداد في كل مرحلة وتجعلني أعتبر النوم مع امرأةٍ أزعُمُ أنها زوجتي، في سرير واحد، أمراً عادياً، مستغِلاً كرمَ مضيفنا وقريبه، بينما ينام تحت السقف نفسه أربعةٌ آخرون يعرفون بأنني أكذب؟ كم من الوقت أستطيع الاستمرار في طريق الهلاك هذا؟ وكيف سأستطيع استئناف حياتي في جبيل عندما يشيع الأمر؟

هكذا أنا! بدأت أكتب منذ ربع ساعة، وبدأتُ أحكُم للذين ينتقدونني. لكنها ليست سوى كتابات، خطوط متشابكة من الحبر، ولن يقرأها أحد.

بجانبي شمعة كبيرة. أحب رائحة الشمع، تبدو لي ملائمة للتأمل وملائمة للبوح. أجلس أرضاً، أستند للجدار، ودفتري فوق ركبتيّ. ويتناهى إلى سمعي، عبر النافذة المغطاة من ورائي، بستارٍ ينفخه الهواء، صهيلُ الأحصنة في الساحة، وأحياناً ضحكاتُ جنود سكارى. نحن في أولِ خانٍ على خاصرة جبل طوروس، على طريق قونية التي يجب أن نصلها في نحو ثمانية أيام إذا سار كل شيء على ما يرام. أمامي أفراد جماعتي ينامون، أو يحاولون النوم، منتشرين في جميع الاتجاهات. وبينما أنظر إليهم هكذا بعطف، لا يعود بوسعي أن أحقد عليهم؛ لا على ابني أختي اللذين صارا مثل ولديّ، ولا على تابِعي الذي يخدمني بتفانٍ حتى عندما يؤنِّبني على طريقته، ولا على هذه المرأة الغريبة التي تقلُّ غربةً شيئاً فشيئاً.

صباح يوم الاثنين هذا، كنتُ في حالة أخرى تماماً. رحت أرغي وأزبد مُتَهَجِّماً على ابني أختي، أهملتُ «الأرملة»، كلّفتُ حاتم بألف مهمة بلا فائدة، وابتعدتُ عنهم لكي أسير بهدوء فوق ظهر مطيتي بجانب ميمون الذي لم ينظر إليّ بشكل مختلف عن البارحة ـ هذا هو على الأقل، الانطباع الذي تولَّد لدي عندما تحرَّكت القافلة.

لحظة خروجنا من طرسوس، أشار مسافرٌ يسير أمامنا بإصبعه إلى بيتٍ مهدَّم قرب بئر قديم، مؤكِّداً بأن القديس بولس ولد في هذا المكان. همس ميمون في أذني بأنه يشك في ذلك بقوة، لأن تلميذ المسيح هذا جاء من أسرة غنية من قبيلة بنيامين التي كانت تملك مناسِج خيام من وبر الماعز.

«منزل أبويه يجب أن يُعادِل منزلَ قريبي أليعازر في الاتساع».

وعندما دُهشتُ من سعة معارفه بخصوص ديانةٍ ليستْ ديانتَهُ، أبدى تواضُعاً.

«كل ما في الأمر أني قرأتُ بضعة كتب لكي أَحدَّ من جهلي».

أنا أيضاً، وبدافع المهنة، كما بدافع الفضول الطبيعي، قرأتُ بضعة كتب عن مختلف الأديان الحالية، وأيضاً عن معتقدات الرومان واليونان القديمة. وصلنا في الحديث إلى مقارنة مزايا كل منها، دون أن ينتقد أيٌّ منا دينَ الآخر.

لكنني عندما قلت أثناء الحديث، بأنَّ أجمل تعاليم المسيحية في رأيي هي: «أحبَّ قريبك مثلما تحب نفسك»، لاحظتُ التردد على وجه ميمون. وبما أنني شجعته باسم صداقتنا وشكوكنا المشتركة، اعترف لي:

«للوهلة الأولى تبدو هذه الوصية كاملةً لا عيب فيها، وهي أساساً، وقبل أن يقولها يسوع المسيح بكلمات مماثلة، كانت موجودة في الإصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين، الآية الثامنة عشرة. إلا أنها تثير عندي بعض التردد...».

«ماذا تأخذ عليها؟»

«حين أرى ما يصنعه معظم الناس بحياتهم، حين أرى مايصنعونه بذكائهم، لا أرغب بأن يحبوني مثل أنفسهم».

أردت أن أجيبه لكنه رفع يده.

«انتظر، ثمة شيء آخر أكثر إثارة للقلق في رأيي. لن نستطيع أبداً منع بعض الأشخاص من تأويل هذا المبدأ بتعنُّتٍ أكثر منه بكَرَم: ماهو مناسب لك، مناسب للآخرين؛ إذا كنت تملك الحقيقة، فعليك أن تعيد الغَنَمات الضالة إلى الصراط المستقيم، وبكل الوسائل... ومن هنا تمَّ التعميد الإجباري الذي فُرِض سابقاً على أجدادي في طليطلة، ما أكثرَ ما سمعتُ هذه الجملة من فم الذئاب وليس من فم الخراف، لذا أحذر منها، فاعذرني...».

«كلامك يفاجئني... لا أعرف إن كان عليّ أن أصوِّب كلامك أم أخطِّئه، يجب أن أفكر... لطالما اعتقدتُ بأن هذه الجملة هي الأجمل...».

«إذا كنت تبحث عن أجمل جملة في كافة الأديان، أجمل جملةٍ خرجت من فم إنسان قاطبةً، فليست هذه هي. بل واحدة أخرى، لكنه يسوع هو الذي قالها أيضاً. لم يأخذها من الكتاب المقدس، بل استمعَ إلى قلبه فقط».

ما هي؟ انتظرتُ. أوقف ميمون مطيته قليلاً لكي يعطي القولَ الذي سيستشهد به فخامةً:

«من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر!»

23 أيلول

هل كان في الجملة التي ذكَرَها ميمون البارحة، تلميحٌ لمارتا؟ لم أتوقف عن طرح هذا السؤال على نفسي طوال الليل. ليس في نظرته أي لوم، بل ربمادعوةٌ رقيقة جداً للكلام. لماذا أستمر أساساً في الصمت، طالما أن كلمة المسيح تُجِلُّني في نظر صديقي، من القليل الذي ارتكبتُهُ، وكذلك مما أغفلتُهُ كذِباً؟

قررت إذن أن أقول له كل شيء، كل شيء، منذ هذا الصباح: من هي مارتا؟ لماذا هي معنا، العلاقات التي قامت بيننا وتلك التي لم تقُم. بعد الحادث الهزلي إلى حد ما، والذي وقع في بيت أليعازر، بات ملحًّاً عدم إخفاء شيء، وإلاّ فإن صداقتنا سوف تتأثر. ثم إنني سأحتاج في هذه المسألة التي تتعقَّد في كل مرحلة، لنصائح صديقٍ متَّزِنٍ ومُتَفَهِّم.

لم يُسرِف في تقديم النصائح لي رغم إلحاحي، باستثناء نصيحةِ عدم تغيير شيء مما أفعله وأقوله منذ بداية الرحلة؛ لكنه وعدني بأن يفكر بتركيز أكبر في الأمر، ويكلمني فيه إذا خطرت له فكرة تساعد على تجنيبي الهزّات التي تنذر بالوقوع.

ما يبهجني هو أنه لم يحقد عليّ بسبب الأشياء التي أغفلتُها في كلامي عن نفسي، كذباتي البيضاء. بالعكس، بدا أن الأمر يسلِّيه. حيَّا مارتا بمزيد من الاحترام، على ما بدا لي، وبإعجاب خفيّ.

لا شك أنها تبرهن عن شجاعة وهي تتصرف بهذا الشكل. أفكر دون توقف بنفسي، بحيرتي وكرامتي، في حين أنَّ كل ما يمكن أن أتعرَّض له هو بعض القيل والقال والنميمة العدوانية، أو الحاسِدة. هي التي يمكن أن تفقد كل شيء في هذه اللعبة، حتى حياتها. لا أشكُّ لحظةً بأنَّ شقيق زوجها لو وجدها في بداية الرحلة، كان سيذبحها دون أن يرفّ له جفن، ثم يعود إلى ذويه متبختراً. في اليوم الذي ستعود فيه مارتا إلى جبيل، ستجد نفسها في مواجهة الأخطار نفسها، حتى لو كانت تحمل الورقة التي تريدها.

هل سأمتلك، يومذاك، الشجاعة للدفاع عنها؟

25 أيلول 1665

قررتُ هذا الصباح، وقد رأيتُ مارتا في معزل عن مجموعتنا، وحيدةً، متفكِّرة، كئيبةً فوق مطيَّتها، قررتُ أن أعود إلى الخلفِ لأسير بمحاذاتها، كما فعلتُ قبل بضعة أيام. لكنني هذه المرة، لم أُرِد أن أقصَّ عليها مخاوفي وآمالي، بل أن أسألها وأستمع إليها. في البداية،

تهرَّبت وردَّت عليَّ أسئلتي. لكني أظهرتُ إلحاحاً لكي تحكي لي بنفسها عن حياتها في السنوات الماضية، وعما دفعها إلى هذا الطريق!

إذا توقعتُ لائحةً من الشكاوى، لم أتوقع أنَّ الاهتمام الذي أبديتُهُ لآلامها، سيَهدِم في هذه المرأة سدًّاً يفسح الطريق لكل هذا الغضب كي يتدفق. غضبٌ لم أعتقد بوجوده تحت نعومة ابتساماتها.

«يكلمونني بلا توقف عن نهاية العالم، قالت، ويعتقدون أنهم يخيفونني. انتهى العالم بالنسبة لي، في اليوم الذي خانني فيه الرجل الذي كنت أحبه. وبعد أن جعلني أخون والدي ذاته. منذ ذلك، لم تعد الشمس تشع بالنسبة لي، ولا يهمني كثيراً أن تنطفئ. وهذا الطوفان الذي يتنبّؤون به، لا يُخيفني أيضاً، إنه سيجعل جميع الرجال وجميع النساء متساوين في المصاب. فليأتِ الطوفان، ماءاً كان أو ناراً! لن يترتَّب عليَّ بعد ذلك ان أعدو في الطرقات لأستجدي ورقةً تأذن لي بالعيش، فرماناً لعيناً من فوق للمصادقة على أني أستطيع أن أحب رجلاً وأرتبط به مرة أخرى! لن يترتب عليّ بعد ذلك أن أركض، أو أنّ الجميع سيركضون في جميع الاتجاهات! نعم، الجميع! القضاة، الانكشاريون، الأساقفة، وحتى السلطان! يركض الجميع مثل قططٍ باغتَتْها نارُ صيفٍ اندلعتْ في عشب جاف! آهٍ، لو تَدَعُني السماءُ أرى ذلك!

«الناس خائفون من رؤية ظهور الوحش. أنا لستُ بخائفة. الوحش؟ لطالما كان هاهنا، قريباً جداً مني، التقيتُ كل يوم بنظرة احتقاره، في بيتي، في الشارع، وحتى تحت سقف الكنيسة. عانيتُ كل يومٍ من لسعته! ولم يكفّ عن التهام حياتي».

وتابعت مارتا كلامها بهذه النبرة، دقائق طويلة. نقلتُ كلامها مثلما حفظتُهُ، ليس حرفياً دون شك، إنما بأقرب صورة منه. رحت أقول في سري: يا إلهي كم عانيتِ أيتها المرأة، منذ ذلك الزمن غير البعيد جداً والذي كنتِ فيه ابنةَ حلاقي العفريتة واللاهية!

في لحظة ما، اقتربتُ منها لأضع يدي بحنان فوق يدها. عندها صمتت، وجهت لي نظرة امتنانٍ مقتضبة، ثم غطت وجهها لكي تبكي.

لم أفعل بقية النهار سوى التفكير بكلماتها، وملاحقتها بعينيّ.

اليوم، أكثر من أي يومٍ مضى، أشعر إزاءها بعطفٍ أبوي. عندي رغبة بأن أراها سعيدة لكنّي لا أجرؤ أن أعِدَها بالسعادة. أستطيع على الأكثر أن أقسِم بألا أسبِّب لها الألم قط.

يبقى أن أعرف إذ كان عليَّ، كي لا أسبب لها الألم، أن أقترب منها أكثر، أم أبتعد عنها...

26 أيلول

أخيراً حكيتُ اليوم لميمون عمَّا دفعني للقيام بهذه الرحلة، راجياً منه أن يبلغني، بصراحةِ صديق، بما يوحيه له كلامي من مشاعر. لم أكتم أمراً، الحاجّ الموسكوفي، و كتاب المازندراني، وعدد الوحش، وشطط بومة، ووفاة العجوز إدريس. كنتُ بحاجةٍ لعينِ صائغٍ، لايخدعها بَريقٌ كاذب، وتستطيع تمييز البريق الحقيقيّ. لكنه أجاب علَى تساؤلاتي بتساؤلات أخرى، مضيفاً أسباب قلقه، أو قلق ذويه على الأقل، إلى أسباب قلقي...

بدأ بالإصغاء إليّ بصمت. وإذا لم يفاجأ بأيِّ شيءٍ قلتُهُ له، فإنه، أمام كل جملةٍ، يغدو أكثر تَفَكُّراً، وكالمُضْنى. وحين انتهيت، أمسك يديّ بكلتا يديه.

«كلَّمْتَني مثل أخ. جاء دوري الآن لكي أفتح لك قلبي. أسباب سفري ليست شديدة الاختلاف عن تلك التي عرضتها. فأنا أيضاً أُسافر بسبب هذه الشائعات اللعينة، كارِهاً، ولاعِناً السذاجة والخرافة وحسابات الأعياد و«الإشارات» المزعومة. لكنني مضيتُ مع ذلك، ولم أستطع أن أفعل غير ذلك، وإلاّ لَماتَ والدي. أنت وأنا ضحايا غباوة أهلنا...».

والد ميمون، القارئُ المثابِر للنصوص المقدسة، مقتنع منذ سنين طويلة بأنّ نهاية العالم وشيكة. وحسب كلامه فقد كُتب حرفيًّا في

الزوهار، كتاب القبّالة، بأنه في عام 5408 ، سينهض الذين يرقدون في التراب. علماً أن هذا العام في التقويم اليهودي يُقابِل عام 1648 في تقويمنا.

«كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً، ولم تحدث نهاية العالم. ورغم كل الصلوات والصيام والحرمانات التي فرَضَها والدُنا على أمي وأخواتي وعليَّ أنا أيضاً، والتي كنا آنذاك نقبَلها بِوَرَعٍ، لم يحدث شيء. مذّاك فقدتُ جميع أوهامي. أذهب إلى الكنيس حين يجب عليَّ الذهاب، لكي أشعر بالقرب من أهلي، أضحك معهم حين يجب أن أضحك، أبكي حين يجب أن أبكي، حتى لا أبدو غريباً عن أفراحهم وأحزانهم. لكني لم أعد أنتظر شيئاً أو أحداً. بعكس أبي الذي لم يستمع لصوت العقل. غير وارِدٍ بالنسبة له أن يقرَّ بأن السنة التي تنبَّأ بها الزوهار، ليست سوى سنة عادية. إنه مقتنع بأنَّ شيئاً قد حدث ذلك العام، لم يُكشَف عنه، لكنه سينكشف لنا وللكون بأسره قريباً».

منذ ذلك الوقت لا يفعل والد ميمون شيئاً سوى رصد الإشارات، وخاصةً تلك المتعلقة بعام الانتظار المخيَّب، 1648 . لقد وقعت بالفعل بعض الأحداث الجسيمة في ذلك العام، ولكن هل من عام لم تقع فيه أحداث جسيمة؟ انتهت حرب ألمانيا بعد ثلاثين عاماً من المُذابح، وحلَّ السلام. أما كان يجب أن يُرى في هذا بدايةُ عهد جديد؟ في العام نفسه بدأت اضطهادات دامية ضد يهود بولونيا وأوكرانيا، قادها زعيم عصابة قوزاقيّ، ولم تتوقف حتى اليوم. في السابق، يقول والدي، كان هناك دوماً فترة استراحة بين كارثةٍ وأخرى؛ واعتباراً من ذلك العام اللعين أخذت الكوارث تتعاقب بلا انقطاع، لم نعرف قط هذا التتابع المتواصل للمصائب. أليست هذه إشارة؟

قلتُ له يوماً وقد طفح بي الكيل: «أبي، لقد اعتقدتُ دوماً بأن هذا العام يجب أن يكون عام بعثٍ، بأنه يجب أن يضع حداً لآلامنا، وأن علينا انتظاره بفرح وأمل!» أجابني: «هذه الآلام هي آلام المخاض، وهذا الدم هو الدم الذي يرافق الخلاص!».

«وهكذا، راح أبي منذ سبعة عشر عاماً يترصَّد الإشارات باستمرار. ولكن ليس بالورَع نفسِهِ دوماً. أحياناً، يقضي شهوراً دون

أن يتكلم عن الموضوع مرة واحدة، ثم يقع حدثٌ، مصيبةٌ في العائلة، أو طاعون أو مجاعة أو زيارةُ شخصيةٍ ما، فيعاوده الأمر في الحال. ورغم المشاكل الصحية الخطيرة التي تعرَّض لها في السنوات الأخيرة، فلم يكن يذكر البعث إلا كَرَجاءٍ بعيد. لكنه منذ بضعة أشهر لم يعد يعرف الهدوء. لقد قَلَبَتْهُ الشائعات التي تدور بين المسيحيين عن قرب نهاية الزمن، رأساً على عقب. نقاشات لا تنتهي داخل جماعتنا حول ماسيحدث أو ما لن يحدث، حول ما يجب أن نخشاه وما يجب أن نتمنى وقوعه. كلما مرَّ حاخام من دمشق أو القدس أو طبريا أو مصر أو غزة أو شميرنا، بحلب، يسرعون بالالتفاف حوله لكي يسألوه بورَعٍ حول مايعرفه أو مايتوقّعه.

«عندها، مؤخراً جداً، منذ بضعة أسابيع، صمَّمَ والدي، وقد سئم من سماع الآراء المتناقضة، أن يذهب إلى القسطنطينية لطلب رأي حاخام مسنّ جداً، يعود أصلُهُ إلى طليطلة مثلنا. وحسب رأي أبي، هو وحده من لديه الحقيقة. «فليَقُل لي بأن الوقت قد حان، وسأترك كل شيء لأكرِّس نفسي للعبادة؛ أو ليَقُل لي بأنه لم يحِن، وسأستأنف حياتي اليومية».

«وبما أنه لم يكن وارداً أن أدعه ينطلق في الطرقات وهو الذي يُجاوِز السبعين من العمر، وبالكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فقد قررتُ أنني أنا من سيذهب لرؤية الحاخام في القسطنطينية، ومعي جميع الأسئلة التي يتمنى والدي طرحها، وأعود بالأجوبة.

«هكذا وجدتُ نفسي، مثلكَ، في هذه القافلة، بسبب تلك الشائعات الخرقاء، في حين أننا أنا وأنت في أعماقنا، لا نستطيع إلا أن نضحك من سذاجة البشر».

أظهَرَ ميمون مراعاةً حقاً حين قارن موقفه بموقفي. إنهما غير متشابهين إلا ظاهرياً. فقد انطلق هو بدافع بِرِّهِ بوالده، ودون أن يغيِّر شيئاً من قناعاته؛ بينما سمحتُ أنا لغباوة المحيط بالوصول إليَّ. لكنني لم أقل له شيئاً من ذلك. لماذا أنتقِص من نفسي في عيني رجلٍ أحترمه؟ ولماذا ألحُّ على ما يميِّزنا بينما لا يكِفُّ هو عن وضع الأشياء التي تُقَرِّبنا في الموضع الأول؟

27 أيلول

كانت مرحلة اليوم أقل عسراً من سابقاتها. فبعد أربعة أيام على طرقات طوروس الصاعدة، والممرات الضيقة في الغالب، وصلنا هضبة الأناضول؛ وبعد خانات سيئة الإدارة، يعيث فيها انكشاريون أفظاظ هم من حيث المبدأ مكلَّفون بحمايتنا من قطَّاعِ الطرق، لكنَّ وجودهم كان بالأحرى يجبرنا أن نَلزَمَ مَقصوراتنا، بدلاً من أن يطَمْئِننا، شاء حظُنا أن نحطَّ رحالنا في نزلٍ لائقٍ لا يؤمُّهُ غير التجار العابرين.

إلا أنَّ ابتهاجنا بَهُتَ عندما نقَل لنا مدير النزل شائعات من قونية تفيد بأنَّ المدينة فريسة للطاعون وأنَّ أبوابها مغلقة أمام جميع المسافرين.

أسْدَتْ هذه الشائعات المُقلِقة معروفاً لي، أنَّها قَرَّبَتْني من أفراد جماعتي، الذين جاؤوا وأحاطوا بي منتظرين رأيي حول ما يناسب أن نفعله. اختار بعضُ المسافرين العودة على أعقابهم منذ الفجر وعدم الانتظار أكثر؛ لكنهم لحقوا بنا في طرسوس أو الاسكندرونة في الأكثر؛ أما نحن القادمين من جبيل، والذين قطعنا أكثر من نصف الطريق، فلا نستطيع التراجع عند أول خوف.

اقترح قائد القافلة أن نتقدم إلى الأمام قليلاً مع احتمال تعديل طريقنا لاحقاً إذا دعت الظروف. مازلتُ أنفر اليوم من هذا الشخص مثلما نفرتُ منه في اليوم الأول، لكن موقفه يبدو لي معقولاً. إلى الأمام إذن، وبرعاية الله!

28 أيلول

كان لي اليوم مع ميمون حديث وجَدَهُ من صُلْبِ الموضوع، مما يدفعني لتدوينه كتابةً.

كان قد قال لي للتو بأنَّ الناس ينقسمون اليوم بين المقتنعين بأن نهاية العالم قريبة، وبين الشكَّاكين ـ وأنا وهو بين هؤلاء. أجبتُهُ بأن

الناس ينقسمون أيضاً بين أولئك الذين يخشون نهاية العالم والذين يتمنون وقوعها. يتكلم أولئك عن الطوفان والكارثة، وهؤلاء عن البعث والخلاص.

كنت وأنا أقول هذا أفكِّر ليس فقط بوالد صديقي وجماعة حلب «نافِدي الصبر»، وإنما بمارتا أيضاً.

ثم تساءل ميمون إن كان الناس قد انقسموا في عصر نوح أيضاً بين مصفِّقين للطوفان ومُعادين له.

وأخذنا نضحك حتى جفل بغلانا.

29 أيلول

أقتطفُ من وقت لآخر وبشكل عشوائي بضعة أبيات من كتاب أبي العلاء الذي وضعه صاحب مكتبةٍ من المعرة بين يديّ منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع. اليوم اكتشفتُ هذه:

يرتجي الناسُ أن يقوم إمامٌ ناطِقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ
كَذَبَ الظَّنُّ لا إمامَ سوى العقلِ مُشيراً في صُبحِهِ والمساءِ

سارعتُ وقرأتُها لميمون، وتبادلنا صامتين، ابتسامات متواطئة.

مسيحيٌّ ويهوديّ يقودهما على طريق الشك شاعرٌ مسلم أعمى؟ لكنَّ في عينيه المطفأتين من النور أكثر مما يوجد منه في سماء الأناضول.

قرب قونية، 30 أيلول

للأسف لم تُكذِّب شائعات الطاعون. اضطرت قافلتنا للالتفاف حول المدينة لكي تذهب وتنصب خيامها غرباً في حدائق مرام. ثمة

حشد هنا، لأن عائلات عديدة من قونية هربت من الوباء والتجأت إلى هذا المكان وهوائه النقي وسط المناهل.

وصلنا إليه نحو الظهيرة، ورغم الظروف، يخيِّم فيه جوٌ... كنتُ سأقول جوّ «عيد»... ولكن لا، ليس عيداً بل جوَّ نزهةٍ خالي البال وقانِعاً. في كل الأرجاء بائعو شراب وعصير مشمش يرنُّون كؤوساً غسلوها في المناهل؛ وفي كل الأرجاء بَسْطات أطعمةٍ شهية مغرية يتصاعد منها الدخان، وتجذب الكبار والصغار. لكني لا أستطيع إبعاد ناظريّ عن المدينة القريبة التي أرى أبراج سورها وأستشفُّ قِبابها ومآذنها. هناك يتصاعد دخان آخر يغطي كل شيء ويجعله مكفهِرًاً. أشكر الله أنّ تلك الرائحة لا تصل إلينا، لكننا جميعاً نشمُّها بمنخريِّ الروح، وتُجَمِّد دماءنا. الطاعون، دخان الموت. أترك ريشتي لكي أرسم علامة الصليب. قبل أن أستأنف حكايتي.

تكلَّم ميمون الذي انضمَّ إلى جماعتي في وجبة الطعام، مطوَّلاً مع ابني أختي، وتكلَّم قليلاً مع مارتا. لم نستطع، في الجو المخيِّم حولنا، إلا أن نتكلَّم عن نهاية الزمن، وأتيحت لي الفرصة للتحقُّق من أنَّ بومة لايجهل شيئاً من تنبؤات الزوهار بشأن سنة 5408 اليهودية المقابلة لسنة 1648 في تقويمنا.

«في العام 408 من الألف السادسة، استظهرَ غيباً، سينهض أولئك الذين يرقدون في التراب. يسمُّون أبناءَ حِثّ».

«من هم أبناء حِثّ؟» سأل حبيب الذي كان يستمتع دوماً باستعراض جهله أمام عِلمِ أخيه الواسع.

«إنه الاسم الذي يُعطى عادةً للحثِّيين في الكتاب المقدس. لكن مايهمّ هنا، ليس معنى كلمة حث، بل قيمته العددية التي تعادل 408 تماماً في العبرية».

قيمة عددية! كم يثيرني هذا المفهوم كلما سمعتُه! يَشرع مُعاصِريَّ في حساب قيمة الحروف بدلاً من أن يفهموا معنى الكلمات، يرتِّبونها كما يلائمهم، يضيفون ويطرحون، يقسمون ويضربون، ويصلون في

النهاية دوماً إلى العدد الذي يدهشهم، يطمئنهم، أو الذي يملؤهم بالرعب. وهكذا ينحَلُّ فكر البشر، هكذا يضعف عقلهم ويذوب في الخرافات!

لا أعتقد أن ميمون يؤمن بهذا الهراء لكن معظم شركائه في الدين يؤمنون به، وكذلك معظم شركائي، ومعظم المسلمين الذين سنَحت لي الفرصة بالتحدُّث معهم في الأمر. حتى أن هناك أناساً مثقفين، حكماء، وعاقلين من حيث الظاهر، يتباهون بامتلاك هذا العلم الفقير، علم الناس المحدودي الذهن.

الشيء الذي زادَ كلماتي جِدَّةً فوق هذه الصفحات هو أنني لم أقل شيئاً أثناء النقاش نهاراً، وبالكاد رسمتُ على وجهي حركةَ عدم تصديقٍ حين سمعتُ «قيمة عددية». لكني تجنَّبتُ مقاطعةَ النقاش. هكذاً أنا. وطالما كنتُ هكذا، منذ الطفولة. عندما يدور نقاش حولي، ينتابني فضولٌ لمعرفة إلى أين سيُفضي، مَن سيعترف بخطئه، وكيف سيجيب كل واحد - أو سيتجنب الإجابة - على حجج الآخر. أراقب، أتلذذ بالأشياء التي أتعلَّمُها، أسجِّل في رأسي ردود فعل هؤلاء وأولئك، دون أن تتملكني رغبةٌ لا تُقهَر بالتعبير عن رأيي بصوتٍ مرتفع.

وظهر ذلك اليوم، أثارت بعضُ الملاحظات احتجاجاتٍ صامتةً لديّ، وأثار غيرُها اهتمامي أو مفاجأتي. كما حين لفَتَ بومة نظري إلى أنَّه في العام 1648 بالضبط نُشِر في موسكو *كتاب الإيمان الواحد، الحقيقي والأرثوذوكسي*، الذي أُشير فيه دون أي لَبْسٍ إلى عدد الوحش. ألم يكن هذا الكتاب هو وراء قيام الحاجّ إفدوكيم برحلته، وزيارته إلى جبيل، تلك الزيارة التي تلاها تقاطُرُ زبائنٍ مذعورين؟ ذلك العام إذن، هو العام الذي دخَلَ فيه الوحشُ حياتي، إذا أمكن القول. كان والد ميمون يقول له إن شيئاً لم نقدِّر قيمته قد حدث عام 1648 . نعم، أقرُّ بذلك، ربما بدأ شيء بالحدوث ذلك العام بالنسبة لليهود والموسكوفيين، وأيضاً بالنسبة لي ولأهلي.

«ولكن لماذا كان يجب الإعلان في العام 1648 تحديداً عن حدَثٍ يُفترَض أن يقع في العام 1666؟ ثمة لغز هنا يُفلِت مني!»

«أنا أيضاً لا أفهم»، أيَّدَني ميمون.

«بالنسبة لي، لا يوجد أي لغز»، قال بومة بهدوء مثير للغيظ.

تعلقَّت جميع النظرات بشفتيه طبعاً. وتَريَّث قبل أن يشرح بنبرةٍ متعالية:

«من عام 1648 إلى 1666 ، يوجد ثمانية عشر عاماً».

صمتَ.

«والمعنى؟» سأل حبيب وهو يمضغ علانيةً لقمةً كبيرة من فطيرة المشمش.

«ثمانية عشر، أتَفهم؟ ستة وستة وستة. الدرجات الثلاث الأخيرة باتجاه نهاية العالم».

حلَّ صمتٌ ثقيل، ثقيل، ثقيل. انتابني فجأةً شعورٌ بأن دخان الطاعون يقترب منّا، بأنه يغلِّفنا. بدا ميمون هو أكثرنا تَفَكُّراً، وكأنَّ بومة قد حَلَّ للتو لغزاً قديماً جداً. كان حاتم منهمِكاً حولنا، متسائلاً عمَّا بِنا، لأنه لم يلتقط سوى شذرات من الحديث.

كنتُ أنا من كَسَرَ الصمت:

«انتظرْ، بومة، ماتقوله هراء. لستَ مَنْ يجهل بأنّ ستة وستة وستة لم تكن تُكتَب في عصر المسيح والإنجيليين مثلما تكتب اليوم بالعربية، بل كانت تُكتب بالأرقام الرومانية. وسِتَّاتُكَ الثلاث لا معنى لها».

«وهل تستطيع أن تقول لي كيف تُكتب ست مئة وست وستون في عصر الرومان؟»

«تعرف ذلك جيداً. هكذا».

تناولتُ قطعة خشب مرميَّة، ورسمتُ في التراب DCLXVI .

انحنى ميمون وحبيب فوق العدد الذي رسمته. لم يتحرك بومة من مكانه، وحتى أنه لم ينظر، مكتفِياً بسؤالي إذا لم ألاحظ شيئاً خاصاً في العدد الذي رسمته. لا، لم أرَ.

«ألا تلاحظ أنَّ جميع الأعداد الرومانية موجودة في هذا الرقم، بالترتيب، وكل منها وَرَدَ مرةً واحدة؟»

«ليس جميعها، أجبتُ بسرعة. ينقص...».

هيا، تابع، إنك في الاتجاه الصحيح. ينقص رقم في البداية. إنه الـ M. اكتبْه! عندئذٍ يكون لدينا MDCLXVI . ألف وست مئة وست وستون. الأرقام الآن كاملةٌ، لم يعد يُضاف إليها أي رقم».

ثم مدَّ يده ومحا العدد حتى آخر أثر مدمدِماً بصيغةٍ محفوظة.

ملعونة! ملعونةٌ الأرقامُ ومن يتعاطون بها!

3 تشرين الأول

منذ غادرْنا ضواحي قونية، لم يعد المسافرون يتكلمون عن الطاعون، بل عن حكاية غريبة نشَرَها قائد القافلة نفسه، ولم أرَ، حتى اللحظة، أن من المفيد نَقْلَها. وإذا ذكرتُها حالياً، فلأنَّها انتهت للتو إلى خاتمةٍ نموذجية.

زعَمَ الرجلُ أنّ لعنةً نزلت منذ بضع سنين بقافلة، فتاهت في الطريق إلى القسطنطينية، وأنها منذ ذلك الوقت تطوف مستغيثةً على طرقات الأناضول. تلتقي من وقت لآخر بقافلة أخرى، فيطلب مسافروها الذين اختلطت عليهم الاتجاهات، إرشادهم إلى الطريق، أو يطرحون أسئلة أخرى، أشد الأسئلة بعداً عن التوقُّع؛ وأيُّ شخص يجيبهم، ولو بكلمة واحدة، يجلب على نفسه اللعنة ذاتَها فيهيم على وجهه معهم حتى نهاية الزمن.

لماذا حلت اللعنة على هذه القافلة؟ يقال إن مسافريها أكَّدوا لذويهم بأنهم ذاهبون إلى مكة للحج، بينما كانوا ينوون الذهاب إلى القسطنطينية. فحكمت عليهم السماء بالطواف دون الوصول إلى وجهتهم قط.

أكّد قائد قافلتنا بأنه التقى مرتين بالقافلة الشبح، لكنه لم يستسلم للخديعة. عبثاً هرع المسافرون التائهون وتجمَّعوا حوله، ابتسموا له، أمسكوه من أكمامه ولاطَفوه، لكنه تصرَّف كما لو أنه لا يراهم، وبهذه الطريقة نجح في تجنب السحر ومتابعة سفره.

بأي شيء يمكننا معرفة القافلة الشبح؟ سأل مرافقونا الأشدّ قلقاً. لا توجد أية طريقة لذلك، أجاب، إنها تشبه القوافل العادية في كل شيء، مسافروها يشبهون جميع المسافرين، ولهذا بالضبط يخطئ كثير من الناس ويقعون تحت تأثير السحر.

أظهر البعض لامبالاةً أمام رواية قائد القافلة، وبدا آخرون فزِعين وأخذوا ينظرون باستمرار إلى البعيد ليتحققوا من عدم وجود قافلةٍ مُريبةٍ في الأفق.

كنتُ بالطبعِ من أولئك الذين لم يُعطوا أي مصداقية لتلك الثرثرات؛ الدليل هو أني رأيت أنّ نقل حكاية قائد القافلة المبتذلة هذه، غير مفيد رغم انتشار هذه الحكايات منذ ثلاثة أيام بدءاً من رأس القافلة ونزولاً حتى ذيلها، وتعود صعوداً من ذيلها حتى رأسها.

أما اليوم، وفي ساعة الظهر، فقد التقينا حقاً بقافلة.

كنا قد توقفنا للغداء عند مجرى ماء. انهمكَ الخدم والحشم في جمع الأغصان وإعداد النيران، حين ظهرت قافلة فوق هضبة قريبة. خلال بضع دقائق كانت بقربنا. اخترقتْ قافلتَنا كلمات: «إنهم هم، إنها القافلة الشبح». كنا جميعاً كالمشلولين، وارتسمَ على جباهنا ظلٌّ غريب، ولم نتكلم إلا بصوتٍ منخفض وعيوننا تحدِّق بالواصِلين.

بدا لي أن هؤلاء راحوا يقتربون بأسرع مما يجب، في غيمة من الغبار والضباب.

عندما أصبحوا بقربنا نزلوا عن مطاياهم وركضوا باتجاهنا، مفتونين، بشكل واضح، من لقاء أشباههم والعثور على بقعة منعشة البرودة. اقتربوا بابتسامات عريضة واجتهدوا في السلام علينا بالعربية والتركية والفارسية والأرمنية. لم يكن أفراد جماعتنا مرتاحين، لكنَّ أحداً لم يتحرك، لم ينهض، ولم يَرُدَّ التحية. «لماذا لاتكلِّموننا؟ سألوا في النهاية. هل أسأنا إليكم عن غير قصد؟» غير أن أحداً منا لم يزِلَّ لسانُه.

كان الآخرون يستديرون مصدومين لكي يعودوا، حين أطلق قائدُ قافلتنا فجأةً ضحكةً هائلة، أجابتْها ضحكةٌ أشد منها من قائد القافلة الأخرى.

«عليك اللعنة، قال وهو يقترب فاتحاً ذراعيه. حكيتَ لهم أيضاً عن قافلتك الشبح. وصدَّقوها!»

راح الناس في كل موضع ينهضون، يتعانقون، يدعو أحدهم الآخر إليه طلباً للسماح.

ذلك المساء، لم يتكلم أحدٌ إلا عن ذلك، وأخذ كلُّ مسافرٍ يدَّعي أمام المحيطين به بأنه لم يصدق الحكاية أبداً. مع ذلك، بدا الجميع ممتقعي الوجوه حين اقترب مسافرو القافلة الأخرى، ولم يجرؤوا على توجيه الكلام لهم.

4 تشرين الأول

اليوم أيضاً، حُكيت لي حكاية، إلّا أنَّ هذه لا تجعلني أبتسم.

جاء رجل لرؤيتي ساعة الغداء، زاعقاً مُشوبِراً. يزعم بأنَّ ابن أختي اقترب من ابنته أكثر من اللزوم، وراح يهدِّد بتسوية المسألة دموياً. حاول حاتم وميمون نصحه، كما تدخَّلَ قائد القافلة أيضاً لإمساكه، لكنَّ رؤيتي مضطرباً بهذا الشكل قد أسعدتْهُ بالتأكيد.

رحتُ أبحث بناظريَّ عن حبيب، لقد اختفى. وكان هذا الاختفاء في نظري، اعترافاً بالذنب، ولعَنْتُهُ لأنه وضَعَني في هذا الموقف.

أثناء ذلك، لم يكن الرجل يفعل شيئاً سوى الصراخ وبشكل أقوى، ويتكلم عن ذبح المجرم وإسالة دمه أمام القافلة بكاملها لكي يعرف الجميع كيف يُغسَل الشرف الملوَّث.

استمر التجمهرُ بالازدياد من حولنا، وبعكس الشِجارِ مع قائد القافلة ذلك اليوم، لم يكن رأسي مرفوعاً هذه المرة، ولم تكن لدي رغبة بأن أخرج منتصراً. أردتُ فقط أن تتوقف الفضيحة وأن أستطيع متابعة هذه الرحلة حتى غايتها دون تعريض حياة ذويَّ للخطر.

لذا تنازلتُ واتجهتُ نحو ذلك الشخص ورحتُ أربِّت فوق ذراعه

وأبتسم له وأَعِدُهُ بأني سأرضيه، وأنَّ شرفه سيخرج من هذه المسألة نقياً نقاء قطعة سلطانيّ ذهبي. وبالمناسبة، فإنّ هذا السلطانيّ ليس نموذجاً للنقاء، فهو يَفسُدُ باستمرار كلما فرغت الخزينة العثمانية... لم أعقد هذه المقارنة بالمصادفة، فقد أردتُ أن يسمعني الرجل أتكلم عن الذهب، وأن يفهم بأني مستعد لدفع ثمن شرفه. صرخ بضع لحظات أخرى، ولكن بنبرة أخفض كما لو أنه لم يعد يُصدِر سوى صدى آخرِ صيحاته.

سحبتُهُ من ذراعه بعيداً عن الحشد. وعندما أصبحنا لوحدنا، جدَّدْتُ له اعتذاري، وقلت له بوضوح بأني مستعد لدفع تعويضٍ له.

وبينما كنت أجري تلك المساومة المُهينة، جاء حاتم وشدَّني من كمِّي لكي يرجوني بأنْ لا أرضَخ. وحين رآه الرجل عاد إلى شكواه، واضطررت أن آمُر تابِعي بأن يدعني أسوي الأمر على طريقتي.

ودفعتُ سلطانيّاً ومعه وعدٌ رسمي بإنزال عقاب شديد بابن أختي، ومنعه من مراودة الفتاة المعنيَّة، في المستقبل.

لم يمثُل حبيب أمامي إلاَّ في المساء. كان حاتم بجانبه وكذلك مسافر آخر رأيتُه بصحبتهما. أكد لي الثلاثة بأنني وقعتُ ضحية احتيال. وحسب قولهم، فإنَّ الرجل الذي أعطيتُهُ القطعة الذهبية، ليس والداً محزوناً، والشابة التي ترافقه ليست ابنته، بل عاهرة، وهذا أمر معروف في عموم القافلة.

ادَّعى حبيب أنه لم يزُر تلك المرأة أبداً، وهو يكذب عليَّ في هذا ـ بل أتساءل إذا لم يرافقه حاتم إليها أيضاً. وبالنسبة للباقي، فأعتقد أنهم يقولون الصدق. إلا أنني مع ذلك، وجَّهتُ لكل منهما صفعتين قويتين.

هناك في هذه القافلة ماخور متنقِّل إذن يتردد إليه ابن أختي بالذات ـ ولم أنتبه لذلك!

بعد كل هذه السنين في التجارة، ما زلت عاجزاً عن تمييز قوَّادٍ من والدٍ محزون!

ماذا يفيدني أن أتقصّى الكون إذا لم أعرف كيف أرى ماهو أمام أنفي؟

كم أعاني من كوني مجبولاً من طينةٍ بهذه الهشاشة!

5 تشرين الأول

ما حدث بالأمس هزّني أكثر مما تصوّرت.

أشعر بأنني ضعيف، منهَك، منذهل، تغطي عينيّ غشاوةٌ على الدوام، وكل أعضائي متألمة. ربما كان دُوار المطايا هو مايُعاودُني... أتألم عند كل خطوة، وهذه الرحلة تُثقِل عليَّ. إنني نادم لكوني باشرتُ بها.

كل أفراد جماعتي يحاولون التخفيف عني، دَفْعي للتفكير بعقلانية، لكنَّ كلماتهم وكذلك حركاتهم، كانت تضيع في ضبابٍ يزداد كثافةً. هذه السطور أيضاً يلفُّها الضباب، وأصابعي ترتخي.

يا ربّ!

في سكوتاري، الجمعة 30 تشرين الأول 1665

لم أكتب سطراً طوال أربعِ وعشرينِ يوماً. لاشك أنني كنتُ قاب قوسين من الموت. اليوم أخذتُ القلم ثانيةً في نزلٍ في سكوتاري، عشية اجتياز البوسفور للوصول أخيراً إلى القسطنطينية.

أحسستُ بأولى أعراض المرض بعد مرحلة قونية بقليل. دوار أرجعتُهُ سابقاً لتعب السفر، ثم للضيق الذي سبَّبَهُ لي سوءُ سيرة ابنِ أختي وكذلك لسهولة تصديقي. إلا أنَّ متاعبي بقيت محتَمَلة ولم أتكلَّم عنها لرفاق طريقي أو حتى لهذه الصفحات. إلى اليوم الذي أحسستُ فيه بعجزٍ عن إمساك الريشة، واضطررتُ فيه للابتعاد مرتين عن المجموعة لكي أتقيّأ.

تجمهَر أفراد جماعتي وبعض المسافرين الآخرين، وهم يتهامسون بحِكَمٍ من وحي الحالة التي أنا فيها، عندما أقبل قائد القافلة نحوي بصُحبة ثلاثة من جلاوزته. قرَّر أنني مصاب بالطاعون، لا أقلَّ من ذلك، وأنني أُصبت به بالتأكيد في نواحي قونية؛ وعليَّ الانفصال عن القافلة بسرعة. منذ الآن يجب أن أسير في الخلف تماماً، وعلى بعد أكثر من ستمئة خطوة من أقرب مسافر. إذا شفيت ضمَّني إلى القافلة من جديد؛ وإذا اضطررت للتوقف، أوكلني إلى الله ولن ينتظرني.

احتجَّت مارتا وكذلك فعل ابنا أختي وتابِعي وأيضاً ميمون وبعض آخر من المسافرين من حولنا. لكن كان يجب أن أنفِّذ. أنا نفسي لم أقل كلمة طوال النقاش الذي دام نصف ساعة. شعرتُ أني إذا فتحتُ فمي، سأعود مريضاً في الحال. لذا اتَّخذتُ هيئة الكبرياء الجريح بينما رحتُ أعدُّ في داخلي جميع الشتائم الجنوية وأتمنى أن يهلك الرجل مخوزَقاً!

دام هذا الحجْرُ أربعة أيام كاملة، حتى وصولنا إلى *أفيون قره حيزَر*، قلعة الأفيون السوداء، وهي ضيعة ذات اسم مثير للقلق، وتطل عليها بالفعل قامةُ سوداء لقلعةٍ شديدة القدم. حالما نزلنا في خان للمسافرين، جاء قائد القافلة إليّ ليقول بأنه أخطأ، ومن الواضح أني غير مصاب بالطاعون، وأنه لاحظَ بأني تعافيتُ وأستطيع العودة إلى صفوف القافلة منذ صباح اليوم التالي. راح ابنا أختي يستفزانه لكي يستدرِجاه للعراك، لكنني جعلتُهُما يصمتان. لا أحتمل أن يهاجَمَ أحدٌ يغيِّر ما في نفسه. كان يجب أن يُقال له مِن قَبْلُ كلَّ ما استحقَّ سماعه. لذا أجبتُ الرجلَ بدماثة، وقبلتُ دعوتَهُ بالعودة.

ما لم أقله له ولا حتى لأقربائي، هو أنني رغم المظاهر لم أُشْفَ أبداً. كنتُ أشعر في أعماقي بحمى منتشرة تسخُنُ وتسخُن مثل نارِ جمرِ الشتاء، وكنتُ مندهشاً من أنَّ مَنْ حولي لم يلاحظوا احمرار هذه النار فوق وجهي.

كانت الليلةُ التالية هي الجحيم. رحتُ أرتجف وأضطرب وألهث، وابتلت ثيابي وكذلك أغطيتي. في اختلاط الأصوات والأصداء التي تُعاوِد رأسي الضعيف، سمعتُ «الأرملة» تهمس عند رأسي:

«لن يسافر غداً. إذا استأنف المسير وهو في حالته، سيموت قبل بلوغ الأستانة».

الأستانة في لغة أهل جبيل، أحد الأسماء الكثيرة التي تعني استنبول أو إسلام بول، أو بيزنطة أو الباب العالي أو القسطنطينية...

وبالفعل، لم أبذل أي محاولة للنهوض في الصباح. لا شكّ أني استنفدتُ قواي خلال الأيام السابقة، وكان يجب أن تُترَك للجسد فرصة لإصلاح نفسه.

لكنني كنت أبعد من دخول طور النقاهة. ولا أحتفظ مما وقع لي في الأيام الثلاثة التالية، إلاّ بظلالِ صور. في رأيي أنني لامستُ الموت من مسافةٍ قريبةٍ إلى درجة أن بعض مفاصلي مازالت متيبِّسة حتى اليوم، مثلما كانت بالتأكيد مفاصل أليعازر حين قام من الموت. في هذه المعركة مع الموت فقدتُ بضع ليبرات من اللحم، مثلما يُلقى لحيوان ضارٍ بقطعة لحم من أجل تهدئته. وحتى الآن، لا أتكلّم عن الأمر دون أن أتلعثم، لا بدَّ أنه مايزال لديَّ بعض التيَبُّس في روحي، فالكلمات تأتيني بصعوبة.

مع ذلك، فإنَّ ما سيبقى في ذاكرتي من هذه الاستراحة الإجبارية في أفيون قره حيزَر، وقد تخلّت عني القافلة وطمِع بي الموتُ، ليس الألم ولا العوَز، لأنني كلما فتحتُ عينيّ قليلاً، كنتُ أرى مارتا جالسة إلى جانبي فوق ساقيها المثنيَّتَيْن، تُحدِّق في وجهي بابتسامةِ القلق الذي سَكَنَ. وعندما أغمض عيني، تبقى يدي اليسرى بين يديها الاثنتين، إحداهما تحتها وقد التصقت الراحةُ بالراحة، والأخرى فوقها تنزلق أحياناً ببطء فوق أصابعي في مداعبةٍ مؤاسية وتدلُّ على صبر لامتناهٍ.

لم تستدْعِ مُطَبِّباً ولا عطَّاراً، فقد كان من الممكن أن يُجهِزا عليَّ بأضمَنَ مما تَفعَلُ الحُمَّى. لقد عالجَتني مارتا بحضورها فقط، ببضع جرعات من الماء البارد، وبهاتين اليدين اللتين كانتا تستَبقِيانني فتمنعانني من الرحيل. ولم أرحل. كما قلت، طوال ثلاثة أيام حام الموتُ حولي. بَدَوْتُ فريستَهُ المقرَّرة. وفي اليوم الرابع ابتعد كأنه سئِمَ أو كأنه رقَّ لحالي.

لا أريد إعطاء الانطباع بأنَّ ابني أختي أو تابِعي قد أهملوني. لم يكن حاتم بعيداً قط، وكان الشابان يعودان بين نزهتينِ في المدينة، للسؤال عن حالتي، مهمومَين، منسَحِقي القلب - في سِنِّهما لا يكون الإخلاص أشد ثباتاً. حفظهما الله، لا ألومهما على شيء إلا على جرجرَتي في هذه الرحلة. لكنَّ امتناني يذهب بالدرجة الأولى إلى مارتا. لا، الامتنان ليست الكلمة المناسبة، بل إنه قمة الجحود من قِبَلي أن أكتفي بكلمة امتنان. ما دُفِع ثمنه دموعاً لا يُعوَّض بماءٍ مالح.

ما زلتُ لا أحسب بعد إلى أي حد هزَّتني هذه الفترة. نهاية العالم بالنسبة لكل كائن، هي قبل كل شيء نهايته الخاصة، وقد بدت لي نهايتي وشيكةً فجأةً. كنتُ أنزلق خارج العالم دون انتظار السنة المقدَّرة، عندما أمسكتني يدان. يدان ووجه وقلب، قلبٌ كنت أعرف أنه أهلٌ للتغييرات المفاجئة، للحب والعِناد المتمرِّد، ولكن ربما ليس لحنانٍ قويٍّ ومُطَوِّق بهذا الشكل. منذ تلك المرحلة التي وجدنا فيها نفسينا في السرير نفسه، زوجين في الظاهر، رحتُ أقول لنفسي بأنني سأستطيع يوماً، انسجاماً مع المنطِقِ المُحَتَّم للجسد، أن أموِّه الرغبة بالعاطفة لكي أَمضي بالأشياء إلى حدودها، مع احتمال أن أندم مع طلوع النهار. الآن أقول لنفسي بأنَّ مارتا هي حقاً زوجتي في الواقع أكثر مما هي في الظاهر، وأنَّ اليوم الذي سأتَّحد فيه معها، لن يكون بدافع اللعِب أو السُكْر أو احتدام الحواس، بل سيكون الفعلَ الأكثر دفئاً والأكثر شرعية، سواء أُجِلَّتْ، آنذاك، أم لا، من القَسَم الذي ربطَها سابقاً بزوجها الوغد.

أقول «آنذاك» لأن ذلك اليوم لم يأتِ بعد. أنا مقتنع بأنها تتمناه بقدر ما أتمناه، لكنَّ المناسبة لم تأت. لو كنا على طريق طرسوس، وعلينا أن نمضي الليلة القادمة في بيت قريبِ ميمون، سنتَّحد بجسدينا مثلما اتحدنا منذ الآن بروحينا. ولكن، علامَ ننظر إلى الوراء، أنا هنا، حيٌّ، على أبواب القسطنطينية، ومارتا ليست بعيدة. الحب يتغذى من الصبر مثلما يتغذّى من الرغبة، أليس هذا هو الدرس الذي تعلَّمْتُهُ منها في أفيون قره حيزَر؟

لم نستأنف مسيرنا إلا بعد مضي ثمانية أيام، بانضمامنا إلى

قافلة قادمة من دمشق، كان فيها، للمصادفة الغريبة، شخصان من معارفي، عطار وقسيس. توقفنا يوماً في كوتاهية، ويوماً آخر في إزميت، لكي نبلغ سكوتاري اليوم، أوَّلَ بعد الظهر. قرر بعض من معنا الركض نحو السفينة دون انتظار؛ أما أنا فقد فضَّلتُ عدم استنفاد قواي وإعطاء نفسي فرصةَ قيلولةٍ مُرَمِّمة لكي أجتاز بهدوء المرحلة الأخيرة من الرحلة غداً السبت. نكون قد أمضينا، انطلاقاً من حلب، أربعة وخمسين يوماً في الطريق، بدلاً من الأربعين يوماً المرسومة، وتسعة وستين انطلاقاً من جبيل. عسى ألاَّ يكون مارمونتيل قد غادر متوجهاً إلى فرنسا، حاملاً معه *الاسم المئة*!

في القسطنطينية، 31 تشرين الأول 1665

اليوم، كفَّتْ مارتا عن كونها «زوجتي». أخذت المظاهر تتماثل مع الواقع، بانتظار أن يتماثل الواقعُ يوماً مع المظاهر.

لا يعني هذا أني قررتُ، بعد تفكير مُرّ، وضع حداً لإرباكٍ دام شهرين، وبتُّ مع كل مرحلةٍ أكثر اعتياداً عليه بقليل. لكنَّ الأمور جرت اليوم بطريقةٍ توجَّب معها خداع الجميع بوقاحةٍ لكي يستمرّ الوهم.

حال اجتياز المضيق في زحامٍ من البشَر والحيوانات خِلتُ معه بأنَّ المركب سيغرق، رحتُ أبحث عن نزل يديره جَنَويٌّ يدعى بارينيلّي نزلنا عنده، أنا وأبي في زيارتنا الأولى إلى القسطنطينية منذ أربع وعشرين عاماً. مات الرجل ولم يعد البيتُ نزلاً لكنه بقي يعود للأسرة نفسها، ومازال أحد أحفاد المالك القديم يعيش فيه مع خادمة وحيدة لمحتُها بسرعة من بعيد.

حين قدَّمتُ نفسي لـِ بارينيلّي الشاب وذكرتُ اسمي، أثنى على آل أمبرياتشي، أجدادي الأمجاد، ثناءً مؤثِّراً، وألحَّ بأن ننزل عنده. ثم سألني عن الأفاضِل الذين يرافقونني. أجبتُ دون تردد كبير بأنهم ابنَيْ أختي هنا، وفي الخارج تابِعي الذي يهتمّ بالدواب؛ إضافةً إلى سيدة

محترمة من جبيل، أرملة جاءت إلى القسطنطينية لبعض الشكليات الإدارية، وتسافر بحمايتنا.

لا أنكر أني شعرتُ بانقباضٍ في قلبي. لكنه لم يكن وارداً أن أقدِّم إجابةً أخرى. تزدان الطريق أحياناً بالحكايا، مثلما يزدان النوم بالأحلام، ويجب أن يستيقظ المرء عند الوصول.

اليقظة بالنسبة لي تدعى القسطنطينية. اعتباراً من الغد، الأحد، سأذهب بثيابي الرسمية إلى سفارة ملك فرنسا، أو بالتحديد أكثر إلى كنيسة السفارة، بحثاً عن فارس مارمونتيل. آمل ألاَّ يكون قد حقد عليَّ جداً على السعرِ المرتفع الذي أخذته منه ثمناً لكتاب المازندراني. إذا احتاج الأمر سأُجري له حسماً جوهرياً مقابل السماح لي بنسخه. لاشكَّ أنَّ عليَّ، كي أقنعه بذلك، أن أُخرِج كل مهارتي كـَ جَنَويٍّ، كـَ تاجِرِ طرَفٍ، وكـَ مَشرِقيّ.

سأذهب للقائه وحدي، لا أثق كفايةً بابني أختي. كلمةٌ متهوِّرة أو على العكس ذليلة جداً، أو حركة نفاد صبر، وسَيَثور ذاك الشخصُ شديدُ الاعتداد، على نحوٍ يتعذَّر إصلاحه.

الأول من تشرين الثاني

يا رب، من أين أبدأ حكاية هذا اليوم؟

أمِن البداية؟ أفقتُ مذعوراً كي أذهب إلى حي بيرا لحضور قدَّاس السفارة...

أم من النهاية؟ قمنا بكل هذه الرحلة من جبيل حتى القسطنطينية، لأجل لا شيء...

في الكنيسة كان هناك حشد كئيب. نساء متشحات بالسواد، وهمسات مثقَلة. عبثاً بحثتُ بعينيّ في الحضور عن فارس مارمونتيل أو أي وجهٍ آخر معروف. وصلتُ ركضاً مع أول الصلاة، وبالكاد

وجدتُ الوقت لأكشف عن رأسي وأرسم شارة الصليب وأجلس في آخر صفٍّ من المؤخرة.

عندما انتبهتُ إلى الحزن الفائق الذي يخيِّم، جرَّبتُ نظرتين متسائلتين أو ثلاثاً باتجاه جاري الأقرب، لكنه أصرَّ بورَع ألاَّ يلحَظَ وجودي. لا يتعلق الأمر بصلاة جميع القديسين فقط، بل كأن واضحاً تماماً أن هناك حِداد حديث العهد، وفاة شخص من الأعيان، فاقتصرتُ على الحسابات. كنت أعرف أن السفير السابق، السيد دو لا هاي، كان منذ سنين في أسوأ حال؛ فقد سُجن خمسة شهور في قلعة الأبراج السبعة بأمرٍ من السلطان، وخرج منها مصاباً بمرض التحجُّر وضعيفاً إلى درجة أنَّ شائعةَ موتِهِ انتشرت مراراً. قلتُ لنفسي إنه هو. وبما أنَّ السفير الجديد يكون ابنه، فإنَّ الوجوم الذي راقبتُه لم يكن مفاجئاً قط.

عندما بدأ رئيس القداس، وهو راهب كبّوشيّ، رثاءه مادِحاً الشخصَ كريمَ النَّسَب، الخادمَ المخلص للملك العظيم، رجل الثقة المتمرِّس بالمهمّات الصعبة، وعندما ذكرَ، بكلمات مموَّهة، الأخطارَ التي يتعرَّضُ لها أولئك الذين يؤدون واجباتهم النبيلة في بلاد الكُفر زال كل شكٍّ عندي. لم تكن العلاقات بين فرنسا والباب العالي بهذا الجفاء، إلى درجة أنَّ السفير الجديد الذي مضى على تعيينه أربع سنين، لم يجرؤ حتى الآن على استلام مهامه خوفاً من تعرُّضه للمضايقات التي تَعرَّض لها والدُه.

أخذت كل كلمة من العِظة تُعزِّز لي فكرتي. إلى أن لُفِظ أخيراً، في مفترقِ جملةٍ طويلة، اسمُ المتوفى.

انتفضتُ بقوةٍ لفَتَتْ إليَّ جميعَ الوجوه، وسرتْ وشوشةٌ مخترِقةً مجلس المصلّين، وتوقَّفَ الواعظ بضع ثوانٍ، تنحنح ومطَّ رقبته لكي يرى إذا كان الشخص المحزون إلى هذا الحد، أحدَ الأقرباء القريبين من الفارس المتوفى.

مارمونتيل!

أن آتي إلى هذه الكنيسة تحديداً لكي أكلِّمه بعد القدَّاس، وأعرف بوفاته!

أن أمضي شهرين طويلين على الطرقات، عبر سوريا وكيليكيا وطوروس وهضبة الأناضول، وأن أشارِف على الموت على أمل وحيدٍ هو أمل اللقاء به واستعارة *الاسم المئة* منه لبضعة أيام. ثم أعلم بأنه والكتاب قد هلكا ـ نعم، لقد اختفى الرجل والكتاب، اختفيا في البحر!

عند انتهاء الصلاة، ذهبت لرؤية الراهب الكبّوشيّ الذي قال لي بأنه يدعى توماس دو باريس، وكان برفقة تاجرٍ فرنسي شهير جداً يدعى السيد روبولي. شرحتُ لهما أسباب اضطرابي، وحكيت لهما أن الفارس جاء عدة مرات إلى محلي المتواضع للحصول على بعض الأشياء لحساب صاحب الجلالة. بدا لي أنهما بدءا يكنّان لي تقديراً فيه إطراء، وسألاني بنوعٍ من القلق عن زيارة الفارس إلى جبيل، في شهر آب، وما قاله لي بخصوص رحلته البحرية الأخيرة، وما انتابَهُ من قلقٍ منذِر.

أظهَرَ الأب توماس حذَراً لامتناهياً، على عكس السيد روبولي الذي لم يلبث أن أسرَّ لي بأنه يرى أنَّ غرق الفارس لا يعود لسوء الأحوال الجوية، مثلما تدَّعي السلطات، بل هجوم قراصنة، نظراً لأنَّ عَرْض بَحرِ شميرنا كان هادئاً عندما وقعت المأساة. بل لقد بدأ يقول بأنه لا يعتقد أنّ القراصنة المذكورين تصَرَّفوا من تلقاء أنفسهم، عندما أسكَتَهُ القسُّ بتقطيبةٍ من حاجبيه. «لا نعرف شيئاً من كل هذا! قال بلهجة تقريرية. لتكن مشيئة الله، وليلقَ كلٌّ الأجر الذي يستحقه!»

مؤكّد أنه لم تعد هناك فائدة من التكهُّن في الأسباب الحقيقية للمأساة، أو ما فعلته سلطات السلطنة. على أية حال، لم يعد لكلّ ذلك أدنى أهمية في نظري. الرجل الذي أتيت لأراه، والكتاب الذي كنتُ أرجو استعادته أو استعارته منه، يستريحان الآن في مملكة نبتون، في أحشاء بحر إيجة، أو ربما أصبحا فعلاً في أحشاء أسماكه.

يجب أن أعترف بأني بعد أن أشفقتُ على مصيري، وبكيتُ على تجَشُّمي كل هذه المشاقّ لأجل لاشيء، بدأتُ أتساءل عن المعنى المحتمَل لهذا الحدث، والدروس التي يجب أن أستخلصها منه. وفاة

العجوز إدريس، ثم اختفاء مارمونتيل وكتاب *الاسم المئة*. ألا يتوجب عليَّ أن أتخلّى عن هذا الكتاب وأعود إلى جبيل كما تقتضي الحكمة؟

ليس هذا رأي ابن أختي بومة، القَيِّم على الإشارات. فهو يرى أن السماء أرادت حتماً أن تُلقِّنَنا درساً ـ إغراق مبعوثٍ ملك فرنسا من أجل شَدِّ أذُنِ تاجرٍ جَنَويّ، ياله من منطِق! ولكن لا بأس... أرادت السماء معاقبتنا إذن، معاقبتي بشكل خاص، لأنني أفلتُّ من يديَّ هذا الكتابَ بعد أن كان بحوزتي. ولكن، ليس الغرض أن أصرف النظر، بل بالعكس. علينا مضاعفة جهودنا، والاستعداد لتحمُّل عذابات أخرى وخيبات أخرى، لكي نستحقّ مجدداً المكافأة القصوى، الكتاب المخلِّص.

ما العمل إذن، حسب رأيه؟ أن نبحث أيضاً. أليسَ أكبرُ وأقدَمُ أصحاب المكتبات في العالم بأسره موجودين في القسطنطينية؟ يجب أن نسألهم واحداً واحداً، وننقِّب فوق رفوفهم، في مستودعاتهم، وسننتهي بالعثور عليه.

في هذه النقطة ـ هذه النقطة وحسب ـ لا أجده مخطئاً. إذا كان هناك مكان ربما نجد فيه نسخةً أصلية أو مزورة من *الاسم المئة*، فلن يكون سوى القسطنطينية.

على أية حال، فإن هذه الحقيقة لم تُؤَثِّر كثيراً على القرار الذي اتخذتُهُ بعدم الرحيل في الحال إلى جبيل. فبعد انقضاء الصدمة الأولى أمام النبأ غير المتوَقَّع، أقنعتُ نفسي بأنه لا فائدة من الاستسلام للوهن، ولا فائدة خصوصاً من مواجهة إزعاجات الطريق من جديد ـ وفي أوج فصل البرد! ـ بينما لم أتعافَ تماماً. لننتظر قليلاً، قلتُ لنفسي، لنتحَرَّ حوانيت تجار الكتب، وزملائي من تجار الطرائف، كذلك لنَترك لمارتا الوقت للقيام بإجراءاتها، ثم نرى.

ربما أُعيد لهذه الرحلة معنىً ما إذا أطلْتُها قليلاً. هذا ما قلته لنفسي قبل أن أقلب هذه الصفحة، وأدرك بأنَّ هذه حيلةٌ أُسكِتُ بها قلقي وأُخادِعُ اضطرابي.

3 تشرين الثاني

أفكر دون انقطاع بذلك المنكود مارمونتيل، وهذه الليلة رأيتُهُ في حلمي للمرة الثانية على التوالي! كم أشعر بالأسف لكوننا افترقنا ونحن على غير وفاق. لا بدَّ أنه لَعَنَ طمعَ الجَنَويِّ عندما طالبتُهُ بألفٍ وخمسمئة ميدن ثمناً لكتاب المازندراني. كيف كان سيَحزِر بأني كنتُ فقط متردداً في التخَلّي عن كتابٍ أهداني إياه رجل فقير؟ كانت نواياي نبيلة لكنه لم يستطع أن يستشِفَّها. ولن أستطيع أبداً إعادة الاعتبار لنفسي في نظره.

عسى أن يخفف الزمنُ من شدة ندمي!

زارني بعد الظهر في غرفتي، مضيفي الودود، السيد بارينيلّي. كان قد تحقَّقَ أولاً حين شقَّ الباب، من أني أفقتُ من قيلولتي. وبعد أن أشرتُ له، دخلَ بخجلٍ وهو يُفهِمُني بأنه جاء للاطمئنان عليّ بسبب الأخبار التي وصلته عني. ثم جلس بظهر مستقيم وعينين مسبلتين كأنه في عزاء. ثم دخلت خادمته وبقيت واقفة حتى رجوتُها بإلحاح أن تجلس. أسمعَني كلامَ عزاءٍ ملائمٍ على الطريقة الجَنَوية، بينما لم تكن هي تقول شيئاً، ولا تفهم شيئاً، مكتَفِيَةً بالإصغاء لسيِّدِها، متجِّهَةً بكلِّيَتِها نحوه، كما لو أنّ صوتَهُ أجملُ موسيقا. أما أنا، وفيما رحت أتظاهر بتقدير ما يقوله لي بشأن أحكام العناية الإلهية، كنتُ بالأحرى أجد عزائي في مراقبتهما معاً.

هذانِ الكائنان يثيران عطفي. لم أتكلم عنهما في هذه الصفحات بعد، نظراً لكثرة الأشياء التي كانَ عليَّ أن أقولها حول مارمونتيل. ولكنْ، منذ وجودنا هنا، وأنا أتكلّم عنهما بصوت منخفض مع أفراد جماعتي وخصوصاً مع مارتا، ونمزَح بلطفٍ بشأنهما.

قصتهما غريبة. سأكبّ على نقلها كما عرفتُها. فربما تُخَلِّصني لبضع ثوانٍ من الهموم التي ترهقني.

في الربيع الماضي، مرَّ بارينيلّي، وهو في طريقه إلى سوق الصاغة لبعض شؤونه، بسوق العبيد الذي يسمّى هنا إزير بازاري.

اقترب منه تاجر يمسك يدَ صبيَّةٍ وراح يمتدح له مزاياها. قال له الجنوي بأنه لا ينوي شراء عبدة، لكنَّ الآخر ألحَّ قائلاً:

«لا تشترِها إذا أشئت، ولكن على الأقلّ انظر إليها!»

ولكي ينتهي بارينيلّي من المسألة بأقصى سرعة، ألقى نظرةً على الفتاة، وهو مصمم على متابعة طريقه في الحال. ولكن عندما التقت نظراتهما تملَّكَه شعور بأنه عثر على شقيقةٍ أسيرة، كما قال. أراد أن يسألها من أين هي، لكنها لم تفهم لغته التركية ولا الإيطالية. شرح التاجر في الحال بأنها تتكلم لغةً لايفهمها أحد هنا. أضاف بأنَّ لديها عيباً آخر، عرَجٌ خفيف بسبب جرح في فخذها. ورفع لها ثوبها لكي يريه الجرح، لكنَّ بارينيلّي أنزله في الحال بيدٍ ثابتة قائلاً بأنه سيأخذها كما هي، دون حاجةٍ لرؤية المزيد.

هكذا عاد إلى بيته برفقة هذه العبدة التي استطاعت أن تقول فقط بأنَّ اسمها ليفا. ولغرابةِ الأمر فإن اسم بارينيلّي هو ليفيو.

ومنذ ذلك وهما يعيشان أكثر قصص الحب إثارةً للمشاعر. يمسك أحدهما بيد الآخر باستمرار، وينظر أحدهما باشتهاء في عيني الآخر. ينظر إليها ليفيو ليس كخادمته بل أميرته وزوجته المعبودة. كم مرة رأيته يرفع يده إلى شفتيها ليضع عليهما قبلة، ويقَرِّب كرسياً لكي يُجلِسها، أو يمرّر يده بحنان فوق شعرها، فوق جبينها، ناسياً عيوننا التي تنظر إليهما. جميع أزواج العالم وجميع العشاق يمكن أن يشعروا بالغيرة من هذين الكائنين.

ليفا ذات عينين مشدودتين ووجنتين بارزتين وشعر فاتح، مائل إلى الأشقر. جائز حقاً أن تكون من سكان السهوب. أعتقد أنها متحدِّرة من المغول الذين خطفوا بعض السبايا من الموسكوف. هي نفسها لم تستطع قط أن تشرح من أين هي ولا كيف أُسِرت. يؤكِّد لي عاشِقُها بأنها تفهم اليوم كل ما يقوله لها؛ ولدى رؤية الطريقة التي يقوله لها بها، لا يُدهِشني أن تَفهَم. ستنتهي بفهم الإيطالية إذا لم يتعلَّم بارينيلّي لغةَ السهوب.

هل سبق أن قلت بأنها حامل؟ يمنعها ليفيو الآن من صعود أو نزول السلالم دون أن يكون بجانبها يمسك ذراعها.

اكتشفتُ وأنا أراجِع ما كتبتُه بأنني أسميتُ ليفا «خادمته». وعدتُ نفسي ألاَّ أمحو أبداً ما كتبتُهُ، لكنَّ عليَّ أن أصحح كلامي. لم أشأ أن أدعوها «عبدة»، وترددت في وصفها بالمحظيَّة أو العشيقة. وبعد ماورويته للتو يبدو لي بديهياً أن أدعوها ببساطة «امرأته». بارينيلّي يعتبرها زوجته، ويعاملها بأفضل ما تُعامَل به الزوجات، وستكون غداً أمَّ أبنائه.

4 تشرين الثاني

أما أبنائي أنا فقد تفرَّقوا منذ الصباح عبر المدينة، كل منهم يطارد الأشباح التي تتسلَّط عليه.

ذهب بومة للتطفُّل على حوانيت تجار الكتب القديمة حيث سمع كلاماً غائماً عن جامع كتبٍ كبير، يُقال إنه يملك نسخة من *الاسم المئة*. لم يتمكن من معرفة المزيد.

ذهب حبيب مع أخيه، واجتازا القرن الذهبي على متن القارب نفسه، لكنهما لم يعودا في الساعة نفسها، أشكُّ أنهما ترافقا لوقت طويل.

ذهبت مارتا إلى قصر السلطان لكي تعرف إذا كان هناك رجل يحمل اسم زوجها وشُنِق كقرصانٍ قبل عامين؛ رافَقَها حاتم الذي يتكلم التركية جيداً، ويتدبر أموره أفضل منا جميعاً في الحيَل والخفايا؛ وحتى الآن لم يتمكنا من التقاط شيء يتعلق بهذه المسألة، وحصلا على بعض المعلومات المفيدة حول طريقة التصرُّف في ظروف مشابهة، وسوف يُعاوِدان الكَرَّةَ منذ الغد.

أما أنا فقد ذهبتُ مرة أخرى لرؤية الأب توماس في كنيسته في بيرا. لم أجد الفرصة ـ ولا الرغبة أساساً ـ لكي أعترف له بوضوح لماذا أثَّر بي اختفاء مارمونتيل إلى هذا الحد. كنتُ قد أشرتُ بتعابير غائمة إلى أشياء قيِّمة اشتراها الفارس مني وكان علينا أن نتكلم عنها أنا وهو، مرة أخرى في القسطنطينية. شرحتُ له هذه المرة مثلما

يشرح المرء لقسٍّ يعترف له، الأسباب الحقيقية لاضطرابي. أمسك بمعصمي ثوانٍ طويلة، كيلا أضيف كلمة واحدة، بينما راح يفكر أو يصلي في سره. ثم قال لي:

«الصلاة هي الطريقة الوحيدة لمخاطبة الخالِق بالنسبة لمسيحي. نُظهِر التواضع والطاعة، ونعبِّر له، إذا شئنا، عن شكاوى ورغبات، وننتهي بـِ آمين، لتكن مشيئته. وعلى العكس من ذلك، يبحث المتكبِّرُ في كتب السحَرة عن الصيغ التي تسمح له، حسب اعتقاده، بِتطويع مشيئة الرب أو تحويلها. يتخيلون العناية الإلهية مثل سفينةٍ يستطيعون، هم الزائلون المساكين، توجيه دفَّتِها وفق رغباتهم. الله ليس سفينة. إنه سيد السفن والبحار والسماء الهادئة والعواصف، ولا يسمح بأن تقوده صيَغُ سَحَرَة، لايسمح بأن يُسجن في الكلمات ولا في الأعداد. إنه غيرُ القابل للإدراك أو للتوقع. الويل لمن يزعم في نفسه القدرة على تطويعِه!

«قلتَ لي بأنّ الكتاب الذي اشتراه مارمونتيل منك، ذو فضائل خارقة...».

«لا يا أبتِ، صحَّحتُ، لم أفعل شيئاً سوى أني نقلتُ لك الحماقات التي تُروى؛ لو أنني كنتُ أؤمن بفضائل هذا الكتاب، لما تخلَّيتُ عنه».

«حسناً يا بنيّ، أحسنتَ صنعاً بتخلِّيكَ عنه، لأنك أنت سافرتَ في رعاية الله، وها أنتذا في القسطنطينية، أما الفارس الذي حمل في أمتعته هذا الكتاب المخلِّص كما يزعمون، فإنه لم يصل قط! رحمه الله!»

لو كنتُ أبحث عن تفاصيل الغرق لدى الأب توماس، فلن أعرف شيئاً جديداً؛ أما إذا كنت أبحث عن العزاء، فقد أغدقه عليّ، وباتت خطاي أكثر خفةً وأنا أغادر الكنيسة. كآبة الأيام الأخيرة تبدَّدت.

زوَّدتني فكرتُهُ الأخيرة خصوصاً، بإحساسٍ بالعزاء. وهكذا، فمنذ عودة بومة مساءً، وبعد أن تركتُهُ ينظر في الفرَص التي لدينا للحصول على نسخة جديدة من *الاسم المئة*، قلتُ بتنهيدةٍ، ناسِباً لنفسي، دون حشمةٍ، مُلكيَّةَ هذه الملاحظة الحصيفة:

«لا أعرف إذا كنا سنعود مع هذا الكتاب، لكن لحسن حظنا أننا لم نأتِ معه».

«وما السبب؟»

«لأنَّ الفارس الذي سافر ومعه هذا الكتاب...».

ابتسمت مارتا، والتمعت عينا حاتم، ولم يجد حبيب غضاضةً في الضحك واضعاً يده فوق كتف أخيه الذي ابتعد باحتقار وتكَدَّرَ وأجاب دون النظر إليّ:

«يتخيَّل خالُنا أنّ *الاسم المئة* هو عبارة عن شيء مقدَّس يجترح المعجزات. لم أتمكن قط من أن أشرح له بأنه ليس الكتابُ نفسه هو الذي ينقذ مالِكَهُ، بل الكلمة المخبأة داخله. لم يكن الكتاب الذي امتلكه إدريس سوى نسخة عن نسخة، ونحن أنفسنا ماذا جئنا نفعل في هذه المدينة؟ جئنا نستعير الكتاب من الفارس لكي ننسخه! إذن نحن لا نبحث عن الشيء، بل عن الكلمة الخبيئة».

«أية كلمة؟» سألت مارتا ببراءة.

«اسم الإله».

«تقصد: الله؟»

ولكي يجيبها بومة تبنى النبرة الأكثر فقهاً، الأكثر تحذلُقاً:

«كلمة *الله* ليست سوى إدغام لـِ الـ ـ إله، أي ببساطة الرب. إنه ليس اسماً إذن، بل مجرد تسمية. مثلما تقولين «السلطان». لكن للسلطان اسماً أيضاً، هو محمود أو مراد أو ابراهيم أو عثمان. مثل البابا الذي نسميه الأب المقدس، لكنَّ له اسماً أيضاً».

«لأن البابوات والسلاطين يموتون، قلتُ، فإنهم يُستَبدَلون. لو كانوا لايموتون، لو كانوا يبقون كما هم دوماً، لما بقيت لنا حاجة لإعطائهم اسماً ورقماً، وكان يكفي أن نقول «البابا»، «السلطان...».

«لستَ مخطئاً. إننا لا نحتاج لتسمية الله باسم آخر لأنه لايموت ولا يحل محله أحد قط. وهذا لايعني أنه لا يوجد له اسم آخر، اسم صميميّ لا يَكشف عنه لعموم الفانين، بل فقط لأولئك الذين يستحقون معرفته. هؤلاء هم المصطَفون الحقيقيون. ويكفيهم أن ينطقوا بالاسم الإلهي للتخلص من جميع الأخطار وإبعاد جميع البلايا. ستجيبوني بأنه إذا لم يكشف الله عن اسمه إلاَّ للذين اصطفاهم، فهذا يعني أنه لا يكفي

امتلاك كتاب المازندراني للحصول على امتيازٍ كهذا. لا شك في هذا. لقد امتلك إدريس الشقيّ هذا الكتاب طوال حياته، ويحتمل أنه لم يتعلم منه شيئاً. لكي يستحقّ المرء أن يعرف الاسم الأعلى، عليه أن يظهِر ورعاً استثنائياً، أو معرفة لا مثيل لها، أو مزيَّةً أخرى لايشاركه بها بقيةُ الفانين. ولكن، يحدث أيضاً أن يكرِّم اللهُ شخصاً لايميِّزه ظاهرياً، أيّ شيء عن الآخرين. يرسل له إشارات، يعهد إليه بمهمات، يكشف له عن أسرار، ويحوِّل حياته الكامدة إلى ملحمة مشهودة. يجب ألاَّ نتساءل لماذا اختير شخص معين وليس غيره. ذاك الذي يرى الماضي والمستقبل بنظرة واحدة، لا حاجة به لاعتباراتنا الحاضرة».

هل يعتقد ابنُ أختي نفسَه حقاً مختاراً من السماء؟ إنه الشعور الذي انتابني وهو يتكلم هكذا. ثمة شيء في هذا الوجه الذي مايزال طفولياً، وتحت هذا الزغب الفاتح، يشبه ارتجافاً يبعث القلقَ في نفسي. هل سأستطيع إعادة هذا الولد إلى أمه عندما يأتي اليوم المناسب؟ أم أنه هو الذي سيجرجرني أيضاً على الطرقات، مثلما فعل بنا جميعاً حتى الآن؟

لا، ليس جميعاً! ما كتبتُهُ للتو ليس صحيحاً! جاءت مارتا لأسبابها الخاصة؛ وجاء حبيب بدافع الروح الفروسية أو التَّغزُّل بالمرأة؛ وكل ما فعله حاتم هو أنه تبع سيده إلى القسطنطينية مثلما كان سيتبعني إلى أي مكان آخر. أنا وحدي الذي خضعتُ لأوامر بومة، وعليَّ وحدي يقع عبء إيقافه، لكني لم أفعل شيئاً. أستمع إليه بمُراعاةٍ في الوقت الذي أعرف فيه بأنّ حكمتَهُ جهلٌ وإيمانَهُ كُفْر.

ربما كان عليَّ أن أتصرَّف معه بطريقة أخرى، أن أُعارِضه، أقاطعه وهو يتكلم، أسخر منه، باختصار أن أعامله مثلما يعامل خالٌ ابنَ أخته الفتيّ، بدلاً من أن أظهر كل هذا التقدير لشخصه ولعلمه الواسع. الحقيقة هي أنه يُشعِرني بنوعٍ من التَّخَوُّف، بل من الرعب، الذي يجب أن أتجاوزه.

سواءٌ كان رسول السماء أم رسول الظلمات، يبقى ابن أختي، وسأرغمه على التصرف كما يجب!

5 تشرين الثاني

ذهبتُ إلى قصر السلطان مع مارتا بناءً على طلبها، وما لبثتُ أن غادَرْتُهُ بناءً على طلب تابِعي الذي رأى أنّ حضوري يجعل مهمته أكثر عسراً. ارتديتُ أجمل ثيابي لكي أنتزع الاحترام، فكانت النتيجة أنني أضرمْتُ من حولنا نار الطمع والجشع.

تمَّ إدخالنا إلى باحة القصر الأولى مع مئات من المُشتَكين الآخرين الذين خيَّمَ عليهم صمتٌ يعادل الصمتَ في مكانٍ للصلاة، لكنه صمت ناتج عن جِوارِ ذاك الذي يملك حقَّ التصرُّف بحياة وموت كلٍّ منهم. لم يسبق أن دخلتُ مكاناً مشابهاً، وكنتُ أتعَجَّل الابتعاد عن أفراد هذا الحشد الذين يدسّون بصوت منخفض، ويتحرَّكون بضجر وينضحون بالحزن والخوف.

أراد حاتم أن يلتقي في مستودع الأسلحة بكاتبٍ محكمةٍ وعَدَه بمعلومات معينة لقاء مبلغ صغير. لدى وصولنا إلى باب البناء الذي كان فيما مضى كنيسة القديسة إيرين، طلب مني تابِعي الانتظار في الخارج خوفاً من أن يعمَدَ الموظفُ، حين يراني، إلى زيادة المبلغ الذي طلبَه. لكن بعد فوات الوقت. لسوء الحظ أن الرجل خرج لشأنٍ ما، في تلك اللحظة بالذات، ولم يَفُتْهُ أن يقيسني من الأعلى إلى الأسفل. وحين عاد إلى مكتبه بعد بضع دقائق، تضاعفت مطاليبه خمس عشرة مرةً. لايُطلَب من جَنَويٍّ يرفل في النعيم، الشيء نفسَهُ الذي يُطلَب من فلاح سوري يرافق أرملةً مسكينة. الأسبرات العشر أصبحت مئة وخمسين، وفوق ذلك أتت المعلومات ناقصة. لأنه بدلاً من أن يسلِّم الرجلُ كل ما لديه، احتفظ بالشيء الأساسي أملاً بالحصول على مكافأة جديدة. هكذا أخبَرَنا بأن اسم سيَّاف، زوج مارتا، لم يَرِد بين أسماء المحكومين، وفقاً للسجل الذي رجع إليه، ولكنَّ هناك سجلاً آخر لم يستطع الوصول إليه بعد. كان علينا أن ندفع له ونشكر ونبقى في حالة عدم اليقين.

أراد حاتم أن يذهب أيضاً لرؤية شخص آخر داخل القصر، وراء باب النجاة. رجاني ألاَّ أرافقهما إلى أبعد من ذلك، واختفيتُ مستطرِفاً

الوضْع أكثر مما أنا متكَدِّرٌ منه، لكي أنتظرهما عند بائع قهوةٍ لاحظنا وجوده عند وصولنا. هذه الإجراءات تثير سخطي، وما كنتُ لأذهب قط لو لم تلحّ عليَّ مارتا. من الآن وصاعداً أُعفيتُ من هذه السُّخرة، وأتمنى لهما النجاح بأسرع ما يمكن وبأقلّ التكاليف.

خرجا بعد ساعة. الشخص الذي أراد حاتم رؤيته طلب منه العودة يوم الخميس القادم. هو أيضاً كاتب محكمة، إنما في قصر العدل حيث يتلقى عرائض استرحامٍ لا عدَّ لها، ينقُلُها إلى السلطان. أخذ قطعةً فضية من ثمن اللقاء المتَّفق عليه. وكان سيطلب قطعةً ذهبية لو ظهرتُ.

6 تشرين الثاني، يوم الجمعة

حدث اليوم ما كان يجب أن يحدث. ليس أثناء الليل وعن طريق عناقٍ مختَلَسٍ في سرير الارتباك. بل في أوج الصباح بينما كانت الطرقات في الخارج تعجُّ بالناس. كنا هي وأنا في بيت السيد بارينيلّي، هنا في القسم العلوي، ننحني فوق مشربية النافذة متأمِّلين رواح أهلِ غلاطة ومجيئهم، مثل امرأتين متَبَطِّلَتَيْنْ. الجمعة هنا يومُ صلاةٍ للبعض، ونزهةٍ وولائم وراحةٍ للبعض الآخر. ذهب أفراد جماعتنا كلٌّ إلى جهة، كما خرج مضيفُنا من جهته. سمعنا الباب ينطبق ثم رأيناه يتقدم بحذرٍ في الحارة تحتنا، متحاشياً في كل خطوة كومةَ أنقاض، هو وحسناؤه الحبلى، ذات العرج الخفيف، والمتشبثة بذراعه، والتي تعثَّرت فجأةً وكادت تقع على طولها لأنها تنظر إلى رجْلِها أكثر مما تنظر أين تضع قدمها. أمسك بها في اللحظة المناسبة، وبَّخَها بلطف ماراً بيده الحامِية فوق جبينها، وسحبَ بإصبعه خطاً وهمياً يبدأ من عينيها إلى قدميها. أشارت له برأسها بأنها فهمت، واستأنفا مسيرهما على نحو أبطأ.

ولدى مراقبتهما، ضحكنا، مارتا وأنا، ضحكةَ حسدٍ من خيبتهما. تلامست يدانا ثم انغلقتْ كل منهما على الأخرى، مثل يديهما. التقت نظراتنا، وبقينا هكذا أحدنا في مرآة الآخر، لحظةً طالت، كما لو أن الأمر لعبةٌ لا يريد أيٌّ منا أن يكون أوَّل من يحيد عنها. كان يمكن أن

يصبح المشهد مضحكاً أو طفولياً لو لم تسِل دمعةٌ، بعد لحظة، على خد مارتا الأيسر. دمعةٌ جَعَلَتْها الابتسامةُ التي لم تمَّحِ عن وجهها بعد، مفاجِئةً أكثر. نهضتُ عندئذٍ ودرتُ حول الطاولة المنخفضة حيث وضع فنجانا قهوتنا بالبخار الذي مازال يتصاعد منهما، لكي أقف خلفها وأحيط كتفيها وصدرها بذراعيّ، ضاغطاً قليلاً.

أرخت رأسها إلى الوراء، باعدت قليلاً بين شفتيها وأغمضت عينيها. وفي الوقت نفسه تنهدت تنهيدة استسلام. قبلتُها فوق جبينها، ثم بلطفٍ فوق جفنيها، ثم في زاويتي شفتيها من الجانبين، مقترباً بخجلٍ من فمها. فمها الذي لم أُحِطْهُ بأكمله، بل رحتُ أولاً أداعبه بشفتيّ المرتجفتين اللتين لم تكفّا عن لفظ «مارتا» وكذلك جميع الكلمات الإيطالية والعربية التي تعني «قلبي»، «حبيبتي»، «صديقتي»، «ابنتي»، ثم «أشتهيك».

وجد أحدنا نفسه في حضن الآخر. كان البيت صامتاً والعالم الخارجي يبتعد أكثر فأكثر.

نمنا سابقاً ثلاث مرات جنباً إلى جنب، لكنني لم أكتشف جسدها، كذلك لم تختبِر هي جسدي. في قرية الخياط عباس أمسكتُ يدَها، ليلةً كاملة، تحدِّياً، وفي طرسوس فردَتْ شعرها الأسود فوق ذراعي. شهران طويلان من الخجل والخطوات الأولى المترافقةِ عند كل منا، بالخوف والأمل ببلوغ هذه اللحظة. هل سبق أن كتبتُ كم كانت ابنة الحلاق جميلة؟ ماتزال بالقدر نفسه من الجمال، وفوق ذلك إنها إضافةً إلى الفُتوَّة اكتسبت الحنان، بل الحنان والهياج. لايتشابه أي عناقٍ مع العناق الذي سيليه. لابُدَّ أنَّ عناقها كان في الماضي شرِهاً وعابراً، متهتِّكاً ولاهِياً. لم أتذوَّقْهُ، لكنَّ المرء يستشفُّ نوع عناق المرأة من النظر جيداً إليها وإلى ذراعيها. نعم إنها اليوم هائجة بقدر ما هي حنونة، ذراعاها تطوِّقان مثل من يَسبَح نحو الخلاص، تتنفس كما لو أن رأسها مايزال تحت الماء، وكل مظهرٍ لاهٍ ليس أكثر من خداع.

«بِمَ تفكرين؟» سألتُها حين استعدنا شيئاً من أنفاسنا ومن هدوئنا.

«بمضيفنا وخادمته، يُفتَرَض أنّ كل شيء يفرِّق بينهما، لكنهما يعطياني الانطباع بأنهما أسعد الناس».

«نحن أيضاً نستطيع أن نكون أسعد الناس».

قالت «ربما!»، متنهِّدةً وناظِرةً إلى الناحية الثانية.

«لماذا ربما، وحسب؟»

انحنت فوقي كما لو أنها أرادت أن تسبر أغوار عيني وأفكاري عن كثب أكثر. ثم ابتسمت ووضعت قبلةً بين حاجبي.

«لا تقل كلمة أخرى. اقترب فقط!»

استلقت مجدداً على ظهرها، وشدَّتني إليها بعنفوان. جعلتني، أنا السمين كجاموس، أشعر بأني خفيف فوق نهدها مثل وليد.

«اقترب!»

أصبح جسدُها وطناً أليفاً لي، هضابه وثغوره، دروبه الظليلة ومراعيه، أرضه الواسعة والكريمة والتي تضيق فجأة إلي هذا الحد. أضمُّها، تضمُّني، تنغرز أظافرها في ظهري، تنغرز تاركةً فوق جلدي علامات أرقامٍ مدوَّرة.

همستُ لها أيضاً بلغتي، لاهثاً «أشتهيك!»، أجابتني بلغتها: «حبيبي!»، ثم كررت شبه باكية: «حبيبي!» وأجبتُها عندئذٍ: «امرأتي!»

لكنها ماتزال امرأة شخصٍ آخر، فلتنزل عليه اللعنة!

8 تشرين الثاني 65

أقسمتُ لنفسي بألاَّ أعود إلى القصر ثانيةً، وأن أدع حاتم يدير المكائد على هواه. لكني اخترتُ اليوم مرافقتهما، هو ومارتا، حتى الباب العالي، لكي أنتظرهما طيلة فترة الصباح عند بائع القهوة نفسه. إذا لم يكن لحضوري أي تأثير على الخطوات الجارية، فقد اكتسب من الآن وصاعداً معنىً جديداً. لم يعد الحصول على الورقة التي تُحَرِّرُها همّاً ثانوياً يُضاف إلى هَمِّ الرحلة الحقيقي، السعي وراء مارمونتيل

و*الاسم المئة*. فالفارس لم يعد موجوداً، ويبدو لي كتاب المازندراني اليوم سراباً ما كان عليَّ أن أركض وراءه أبداً. أما مارتا فإنها حاضرة فعلاً، ليس كَدَخيلة، بل كشخص يخصُّني أكثر من كل مَن يخصونني، كيف أستطيع أن أتركها لمصيرها في المتاهة العثمانية؟ لاأستطيع تصوُّر العودة بهدوء إلى البلد بدونها. وهي نفسها لا تستطيع العودة إلى جبيل ومواجهة عائلة زوجها المكوَّنة من السفَلة دون ورقة من السلطان تعيدها امرأةً حرة. ستُذبَح في اليوم التالي لعودتها. لقد ارتبط مصيرها الآن بمصيري. وبما أنني رجل شريف، فقد ارتبط مصيري أيضاً بمصيرها.

ها أنذا أتكلم عن الموضوع كما لو أنه واجب. إنه ليس واجباً وحسب، لكنَّ فيه واجباً إنكارُهُ وهم. لم أتَّحد بمارتا مصادفةً أو نتيجة دافع فجائي. لقد أنضجتُ رغبتي طويلاً، تركتُ حكمةَ الوقت تفعل فعلها، ثم نهضتُ يوماً من مقعدي، يوم الجمعة المباركة ذاك، ضممتُها بين ذراعيّ معبِّراً لها بأنني أريدها بكل كياني، وأعطتني نفسها. أي شخصٍ أكون إذا تخليتُ عنها بعد هذا كله؟ لماذا أحمل اسماً محترماً إذا تركتُ ابنَ صاحبِ نزلٍ مثل بارينيلّي يكون أنبل مني؟

بما أني متأكد بهذا الشكل من السلوك الذي عليَّ أن أتبنّاه، لماذا أناقش إذن، لماذا أحاجِجُ نفسي بهذا الشكل، كما لو أني أريد إقناع نفسي؟ هذا لأن الخيار الذي أختاره يأخذني إلى أبعد مما كنت أظن. إذا لم تحصل مارتا على ماتبحث عنه، إذا رفضوا إعطاءها وثيقة مكتوبة بأن زوجها ميت، لن تستطيع العودة إلى البلد بعد الآن، وأنا كذلك بالتالي. ماذا أفعل إذن؟ هل سأتخلى عن كل ما أملك، عن كل مابناه أجدادي، وأتيه عبر العالم كيلا أتخلى عن هذه المرأة؟

هذا كله يدوِّخني، ويبدو لي أنه من الحكمة أكثر أن أنتظر لأرى ما سيقدمه لي كل يوم.

خرج حاتم ومارتا وقت الطعام، منهكين ويائسين. لقد دفعا حتماً كل أسبر يحملانه، ووعدا بدفع المزيد، دون الحصول على شيء بالمقابل.

منذ دخولهما أكد لهما كاتبُ محكمةِ مَستودع الأسلحة بأنه عاد إلى السجل الثاني الخاص بالمحكومين، ثم أخذ منهما عدداً من القطع النقدية قبل أن يكشف لهما عمًا وجده فيه. وبعد أن دُفعت النقود أعلن لهما بأنّ اسم سياف لم يرد فيه. لكنه أضاف في الحال بصوت خفيض بأنه عَلِمَ بوجود سجل ثالث مخصص لأشنع الجرائم، وأنه يستحيل الرجوع إليه دون رشوة شخصيتين رفيعتين جداً. وطالبَ بدفع مئة وستين أسبراً على الحساب لهذا الغرض، لكنه اكتفى، من قبيل الشهامة، بالمئة والثمانية والأربعين التي يحملها زائراه، مهدِّداً بعدم استقبالهما ثانيةً إذا أظهرا هذا القدر من عدم الدّراية بالأمور.

9 تشرين الثاني 65

ما حدث اليوم يجعلني أرغب بمغادرة هذه المدينة بأسرع مايمكن، ومارتا نفسها ترجوني أن أفعل. ولكن إلى أين؟ دون هذا الفرمان لن تستطيع العودة إلى جبيل ثانيةً، ولا أمل لها بالحصول عليه خارج القسطنطينية.

اتجهنا، كما بالأمس، إلى قصر السلطان، لمتابعة الخطوات. وكما بالأمس جلستُ في المقهى بينما دخل تابِعي و«الأرملة» الغارقة في السواد، ساحةً أولى تدعى «ساحة الانكشارية»، وسط حشدٍ من المشتكين. وكما بالأمسِ قنعتُ بأن أنتظر ثلاث ساعات أو أربعاً، وهو احتمال لا يكدِّرني كثيراً لأنَّ بائع القهوة يستقبلني الآن أحَرَّ استقبال. إنه يوناني من كاندي ولا يفتأ يردد لي بأنه سعيد باستقبال جنويٍّ لكي نتمكن معاً من الكلام عن سيئات أهل ڤينيسيا. هؤلاء لم يفعلوا لي شيئاً أبداً، لكن والدي كان يقول لي دوماً بضرورة التشنيع عليهم، وأَدين لذكراه بألاَّ أغيِّر من ذلك قط. لكنَّ لدى صاحب المقهى أسباباً أفظع للحقد عليهم. لم يقل الأشياء بوضوح، لكنني حزرتُ من تلميحاتٍ مختلفة بأنَّ أحدهم قد أغوى أمَّه ثم هجَرَها، وبأنها ماتت من الحزن ومن العار، وأنه نشأ على كراهيةِ دَمِهِ. إنه يتكلم يونانيةً ممزوجة

بكلمات إيطالية وتركية، لكننا نتوصل إلى تبادل أحاديث طويلة تقطعها طلبات الزبائن، وهم غالباً من الانكشاريين الصغار جداً في السن الذين يبتلعون قهوتهم من فوق مطاياهم، ويجدُّون بعدها في قذف الفنجان الفارغ فيبذل صديقنا ما بوسعه لكي يلتقطه وسط الضحكات؛ يتظاهر أمامهم بأن الأمر يسلّيه، لكنه فور ابتعادهم يرسم إشارة الصليب ويلفظ لعنة يونانية.

لم نتناقش اليوم طويلاً. فبعد نصف ساعة، عاد إليَّ حاتم ومارتا ممتقعين ومرتجفين. أجلستهما وجعلتهما يشربان جرعات كبيرة من الماء البارد، قبل أن يتمكنا من قصِّ مغامرتهما السيئة.

اجتازا الساحة الأولى واتجها نحو الثانية، لكي يذهبا من جديد «تحت القبة»، عندما شاهدا قرب باب النجاة الفاصل بين الساحتين جمهرةً غير اعتيادية. كان هناك رأس مقطوع فوق حجَر. أشاحت مارتا بوجهها، لكن حاتم اقترب دون تردد.

«انظري، قال لها، هل عرفتِه؟»

أجبرت نفسها على النظر. إنه كاتب محكمة قصر العدل الذي ذهبا لرؤيته الخميس الماضي «تحت القبة»، وأعطاهما موعداً الخميس القادم! أرادا حقاً أن يعرفا لماذا أُنزِلت به هذه العقوبة، لكنهما لم يجرؤا على السؤال عن شيء، وشقَّا لنفسيهما طريقاً باتجاه المخرج وهما يتساندان ويخفيان وجهيهما خوفاً من تأويل حزنهما على أنه مؤشر على تواطؤ ما مع المعاقَب!

«لن أضع قدمي ثانيةً في هذا القصر»، قالت لي مارتا ونحن على متن القارب الذي يعيدنا إلى غلاطة.

تجنبتُ معارضتها كيلا أزيد معاناتها، لكن كان عليها أن تحصل على تلك الورقة اللعينة!

10 تشرين الثاني

أخذتُ مارتا عبر المدينة لكي أطرد من عينيها صورة الرأس

المقطوع. عندما غادر ميمون أفيون قره حيزر مع القافلة، ترك لي عنوان قريبٍ له ينوي النزول في بيته. قلت لنفسي بأنه ربما حان الوقت للاستفسار عن أخباره. وجدتُ بعض الصعوبة في العثور على المنزل مع أنه في غلاطة بالذات، على بعد بضع شوارع من مكان نزولنا. طرقتُ الباب، وبعد لحظة، أقبل رجل وفتحه قليلاً وطرح علينا أربعة أو خمسة أسئلةٍ حتى قبل أن يدعونا للدخول. وحين قرر أخيراً إفساح الطريق والنطق ببعض كلمات تهذيب باردة، كنتُ قد أقسمتُ في سري بألاّ أطأ أرض بيته. أصرَّ قليلاً، لكنَّ الأمر كان مَقضيّاً بالنسبة لي. علمتُ منه فقط بأنَّ ميمون لم يبق في القسطنطينية سوى بضعة أيام، وأنه استأنف سفره دون أن يقول إلى أين يذهب - لم يجِدْني قريبُهُ على الأقلّ، أهلاً لمعرفة ذلك. تركتُ عنواني، أقصد عنوان بارينيلّي، في حال عودة صديقي قبل مغادرتنا، وحتى لا أضطر أن أعود بنفسي للاستفسار عن الأخبار لدى هذا الرجل غير المضياف.

ثم اجتزنا قرن الذهب للذهاب إلى المدينة التي اشترت مارتا منها، بإلحاح مني، قطعتي قماش جميلتين، إحداهما سوداء ولكن بخيوط فضية، والأخرى من الحرير غير المغلي الذي تنتثر فيه نجوم زرقاء سماوية. «لقد أهديتَني الليل والفجر»، قالت لي. لو لم نكن وسط الناس لضممتُها بين ذراعيّ.

في سوق التوابل الجديد، صادفتُ جنوياً استقرَّ فيه منذ بضع شهور، وأصبح يملك إحدى أجمل المَعطَرات في القسطنطينية. صحيح أني لم أطأ قط أرض مدينة أجدادي، إلاَّ أنني لا أستطيع منع نفسي من الشعور بالفخر عندما أصادف مواطناً لي محترماً مقداماً وناجحاً. طلبتُ منه أن يعِدّ لمارتا ألطفَ عطرٍ تعطَّرت به سيدة قط. تركتُهُ يعتقد بأنها زوجتي أو خطيبتي، دون قول ذلك بشكل واضح على أية حال. انزوى الرجل في خلفية الدكان وعاد يحمل قارورة رائعة بلون أخضر غامق، منتفخة مثل باشا قبل القيلولة. تتضوَّع برائحة المَقْر والبنفسج والأفيون والعنبرَيْن.

حين سألتُ البائع عن الثمن الذي يجب أن أدفعه، تظاهرَ بأنه لايريد أخذ أي ثمن، لكنَّ ذلك لم يكن سوى نوع من تهذيب التجار. فلم

يلبث أن همس في أذني بسعرٍ كنتُ سأعتبره لامعقولاً لو لم أر عينيّ مارتا المدهوشتين أمام الهديّة التي أقدِّمها لها.

ألستُ أتصرف بِخُيَلاء إذ ألعب دور الخطيب السخيّ الذي يحلّ صرة نقوده بلا توقف، بحركةٍ مُتَباهِية، ويطلب الشيء قبل السؤال عن ثمنه؟ لا يهمّ، أنا سعيد وهي سعيدة، ولا أخجل من خيلائي!

توقفنا، على طريق العودة، عند خياطة من غلاطة، لكي تأخذ لها مقاساتها. وأيضاً عند حذّاء يعرض عند مدخل محله أحذيةً أنيقة. كانت مارتا تحتجّ كل مرة، لكنها ترخي لي القياد مدركةً تَشَبُّثي برأيي. لاشك أني لستُ زوجَها الشرعي لكنني كذلك أكثر من ذلك الرجل، وأقوم بجميع واجبات هذا العبء، كما لو أنها امتيازات. يترتّب على الرجل واجب إكساء المرأة التي ينزع عنها ثيابها، وتعطير المرأة التي يحضنها. مثلما يترتب عليه، مجازفاً بحياته، حماية الخطوة الهشة التي ارتبطت بخطوته. هاأنذا أتكلم مثل غلامٍ عاشق. هذا المساء، حان الوقت لأنْ أضع ريشتي وأنفخ فوق الحبرِ الذي يومِض...

14 تشرين الثاني

منذ أربعة أيام وأنا ألحّ على مارتا لكي تذهب مجدداً إلى القصر وتسكِت مخاوفها، واليوم فقط قبلتْ. هكذا مضينا مصطحبين حاتم، اجتزنا الخليج البحري الصغير وسرنا نحتمي بمظلةٍ من مطرٍ متقطِّع. ولكي أسلِّيها رحتُ أحدثها عن أشياء مختلفة بنبرة مرحةٍ وأُريها البيوت الجميلة والأزياء الغريبة للعابرين من حولنا، فنتغامز كيلا نضحك قبل الأوان. إلى أن بلغنا حرم القصر. عندئذٍ تجهَّم وجهها ولم أفلح في بسط أساريرها.

توقفت كعادتي عند صديقي بائع القهوة الكانديّ، وذهبت «الأرملة» نحو الباب العالي، وهي تتلفت عند كل خطوة لكي تلقي عليَّ نظرات وداع كما لو أننا لن نرى بعضنا ثانيةً. نظرات كانت تفتّت قلبي،

ولكن كان يجب أن تحصل على ذلك الفرمان اللعين لكي نكون حُرَّين ونستطيع أن نتبادل الحب! لذا ظهَرتُ لها أشد صرامةً مما أنا عليه في الواقع، وأشرتُ لها ببسالةٍ أن تمضي وتجتاز الباب. لكنها كانت عاجزة عن ذلك. راحت ترتجف أكثر مع كل خطوة، وتبطّئ سيرها. عبثاً شدَّ حاتم الشجاع من أزرها وحضَّها بصوتٍ منخفض، على المضيّ، لكنَّ قدميها لم تعودا تحملانها. واضطرَّ أن يسلِّم بالأمر ويعيدها نحوي، وهو يكاد يجرُّها جراً. راحت، بين شهقتين، تعتذر باكيةً منهارة، على الضعف الذي أظهرته.

«حالما أقترب من الباب، أشعر بأني أرى الرأس المقطوع، ولاأقدر حتى على ابتلاع لعابي».

خففتُ عنها قدر ما استطعت. فسألني حاتم إذا كان عليه أن يذهب هو. وبعد تفكير قلتُ له أن يذهب فقط إلى كاتب محكمة مصنع الأسلحة ليسأله عمَّا وجده في السجل الثالث، ويعود حالاً. هذا ما فعله. وكان جوابُ الموظف الجوابَ الذي أخشاه: «لاشيء في السجل الثالث. لكنني علمتُ أن هناك سجلاً رابعاً...». وطالَبَ بقرشين آخرين لقاء أتعابه. مصائب قومٍ عند قوم فوائد.

ذهبنا من هناك محبَطين مثقَلين إلى درجة أننا عجزنا عن تبادل ثلاث كلمات طوال طريق العودة.

ما العمل الآن؟ الأفضل أن أترك الليل يهدِّئ قلقي، هذا إذا استطعتُ النوم...

15 تشرين الثاني

باعتبار أنَّ الليل لم يقدِّم أي حل لمشكلتي، أردتُ تهدئة قلقي بالطرق الدينية. لكني نادم قليلاً على ذلك. لا يصبح المرءُ مؤمناً أو كافراً بالبداهة. حتى ساكن السموات العليّ سئمَ من تقلُّباتِ مزاجي.

ذهبتُ هذا الأحد إلى كنيسة بيرا، وطلبتُ من الأب توماس أن

يسمع اعترافي. اعتذر من الروّاد العديدين المحيطين به، مقدِّراً بأنَّ هناك أموراً ملحَّة حتماً، وأخذني نحو مكان الاعتراف لكي يسمعني أتكلَّم ـ بخَرَقٍ شديد ـ عن مارتا وعني. وقبل أن يمنحني الغفران، أخذ مني وعداً بعدمِ الاقتراب ثانيةً من «تلك المرأة» طالما لم تصبحِ زوجتي. ومنحني أيضاً، وسط توبيخاته، كلمات تشجيعية. سوف أتذكّر كلماته التشجيعية، لكني لست متأكداً من الوفاء بوعدي.

لم أكن في بداية القداس، أنوي الاعتراف أبداً. كنتُ جاثياً في الظل وسط سحابةٍ من البخور تحت أقواسٍ قوطية مهيبة، أجترُّ عذاباتي عندما انتابتني رغبةٌ بذلك. أعتقد تماماً أن ما دفعني إليه ليس فورة ورَعٍ بقدر ما هو فورة ضيق. اضطر ابنا أختي وتابِعي ومارتا، الذين رافقوني جميعاً إلى الكنيسة، أن ينتظروني فترة طويلة. لو فكرتُ، لأرجأتُ الاعتراف وذهبت إليه بمفردي. نادراً ما أعترف، والجميع في جبيل يعرفون ذلك. وكنتُ من وقت لآخر أقدِّم للخوري، لأجل استمالته، بعض كتب الصلاة القديمة، فيتظاهر بالاعتقاد بأنني قليل الوقوع في الخطيئة. لذا، كان اعترافي اليوم بمثابة اعتراف عمومي، رأيتُ ذلك جيداً في سلوك أفراد جماعتي حين خرجت. في عيني حاتم المقهقهتين، وعيون ابني أختي، الموبِّخة حيناً والفارَّة حيناً آخر، وعيني مارتا بشكل خاص، التي كانت تصرخ: «الخائن!». هي لم تعترف على حد علمي.

حين عدنا إلى البيت، وجدتُ من الضروري أن أجمعهم حولي بشكل احتفالي جداً، لكي أعلن لهم بأنني أنوي الزواجِ من مارتا فور حصولها على مخالَصةٍ من زواجها الأول، وأنني تكلّمتُ للتو عن ذلك مع الراهب الكبوشي. وأضفتُ دون إيمان شديد بما أقول، بأنه إذا تأكّد بأنها أرملة، في الأيام القادمة، سنتزوج هنا بالذات، في القسطنطينية.

«أنتم بالنسبة لي مثل أبنائي، وأريدكم أن تحبُّوا مارتا وتحترموها كأنها أمّكم بالذات».

انحنى حاتم فوق يدي، ثم فوق يد زوجتي المقبلة. عانقنا حبيب ببشاشةٍ مَنحتْ قلبي العزاءَ؛ ضمته مارتا طويلاً إلى صدرها، وأُقسم بأني لم أشعر هذه المرة بأية غيرة؛ إني مقتنع بأن أحدهما لم يقترب

من الآخر بهذا الشكل أبداً من قبل. أما بومة، فقد أقبل أيضاً ليعانقنا على طريقته الأكثر سريةً والأكثر غموضاً. بدا غارقاً في أفكار لن نعرف عنها شيئاً أبداً. ربما كان يقول إن هذا الانقلاب غير المتوقع إشارة إضافية، واحدة من اضطرابات الأرواح التي تسبق نهاية الأزمان.

في المساء، لحظة كتابة هذه السطور، شعرتُ بوخزة من تبكيت الضمير. لو أمكنني أن أعيش ذلك اليوم مرة أخرى، فإنني سأعيشه بطريقة أخرى. دون اعتراف أو إعلانٍ احتفالي. ولكن لا يهمّ! حدث ماحدث! والمرء لا يراقب حياته من عَلٍ أبداً!

16 تشرين الثاني

عند الاستيقاظ، كان تبكيت ضميري مايزال باقياً على حاله. ولكي أهدِّئه قلتُ لنفسي بأنَّ اعترافي خلَّصَني من عبءٍ كان يثقل عليّ. الأمر الذي ليس دقيقاً. لم يُثقِل فعلُ الجنس كاهلي إلا لحظةَ كنتُ جاثياً في الكنيسة، وليس قبل. قبل ذلك لم أسَمِّ ما حدث يوم الجمعة خطيئةً. وفي هذه اللحظة أحقد على نفسي لأنني أسميتُهُ هكذا. ظننتُ بأن الاعتراف يخَفِّفُ عني عبئاً، فإذا به على العكس، يُثقلُ علي.

فوق ذلك، مازالت الأسئلة التي تُقلقني قائمة: أين أذهب الآن؟ أين أقود جماعتي؟ ماذا أقترح على مارتا؟ نعم، ما العمل؟

جاء حاتم ليقول إنَّ أقلَّ الحلول سوءاً في رأيه، هو الحصول على شهادة مزورة من موظف ما، لقاء مكافأة ضخمة، تشهد بأن زوج مارتا قد أُعدِم. لم أردّ الاقتراح بهيئةٍ فزِعة مثلما يجدر برجل شريف أن يفعل. لقد شابَ من شَعري، في هذا العالم، قدرٌ أكثرُ مما يُبقي على إيماني بالنقاء والعدل والبراءة. وللحق، فإني أميل لاحترام شهادةٍ مزورة تُحرِّر مارتا، أكثر من شهادة حقيقية تُبقي علي عبوديَّتِها. إلا أنني، وبعد تفكير، قلتُ لا، لأن الحل لم يبدُ لي معقولاً. أن أعود إلى

جبيل وأتزوج هناك في الكنيسة على ذمة ورقةٍ أعرف أنها مزورة؟ أن أقضي بقية حياتي في خوف من أن ينفتح بابي فجأةً ويدخل الرجل الذي دفنتُهُ قبل الأوان لكي أعيش مع زوجته؟ لا أستطيع أن أقبل بهذا، لا!

17 تشرين الثاني

تفرَّغتُ هذا الثلاثاء لإحدى مُتَعي المفضَّلة للتسرية عن نفسي: أن أذهب بمفردي عبر شوارع المدينة وأنسى نفسي نهاراً كاملاً في سوق أصحاب المكتبات. لكني حين ذكرتُ بخجلٍ اسمَ المازندراني، لتاجرٍ سألني عمَّا أبحث عنه، قرب جامع السليمانية، قطَّب الرجلُ حاجبيه وأشار لي أن أخفض صوتي بسرعة، وتحقَّقَ من أنَّ أحداً آخر غيره لم يسمعني، ثم دعاني للدخول وأمر ابنه بالخروج لكي نستطيع الكلام دون شهود.

حتى عندما أصبحنا بمفردنا، لم يتكلم إلا بصوت منخفض جداً إلى درجة أنني كنت أحتاج لبذل مجهودٍ ثابت كي أسمعه. بحسب رأيه إنَّ السلطات العليا علمت مؤخراً ببعض التنبؤات المتعلقة بيوم الحساب القريب جداً؛ وأنَّ مُنَجِّماً قال للصدر الأعظم بأن جميع الموائد ستنقلب قريباً، وسترُفع وجبات الطعام عن الموائد، وستتدحرج أكبر العمامات على الأرض مع الرؤوس التي تحملها، وستنهار جميع القصور فوق ساكنيها. وخوفاً من أن تثير هذه الشائعات الذعر أو العصيان، أعطي أمر بمصادرة وإتلاف جميع الكتب التي تعلن نهاية الزمن الوشيكة. وأولئك الذين ينسخونها أو يبيعونها أو يروِّجون لها أو يشرحونها معرَّضون لأقسى العقوبات. كل هذا يحدث سراً، أكد لي الرجل الطيب الذي أشار لي إلى دكانٍ مغلق لجارٍ أُلقِي القبض عليه وأنزِلت به عقوبة دون أن يجرؤ أشقَّاؤه بالذات أن يستعلموا عن مصيره.

إنني شديد الامتنان لهذا الزميل على تفضُّله بتحذيري من الخطر، وعلى ثقته بي رغم أصلي الجنوي. لكنه ربما شعر بالثقة بسبب أصلي.

فلو أرادت السلطات وضعه تحت الاختبار أو التجسس عليه، فلن ترسل إليه جنويًّاً، أليس كذلك؟

ما علمتُهُ اليوم يضيء لي ما حدث معي في حلب، ويجعلني أفهم بصورة أفضل قليلاً ردة الفعل غير الاعتيادية لأصحاب مكتبات طرابلس عندما ذكرتُ أمامهم *الاسم المئة*.

يجب أن أكون أكثر تكتُّماً، أكثر يقظة، ويجب خصوصاً أن أتجنب من الآن وصاعداً، الطواف في المكتبات واسم هذا الكتاب على لساني. نعم يجب، هذا ما أقوله اليوم لنفسي، لكنني لستُ متأكداً من التزام هذا السلوك الحكيم طويلاً. فإذا دفعني كلامُ هذا الرجل الخيِّر، للحذر، فقد أجَّج أيضاً فضولي نحو هذا الكتاب اللعين الذي لايكفُّ عن ازدرائي.

18 تشرين الثاني

اليوم أيضاً ذهبتُ عند أصحاب المكتبات، حتى هبوط الليل. نظرتُ وراقبتُ ونقَّبتُ، دون استعلامٍ عن *الاسم المئة*.

اقتنيتُ عدداً من الكتب وخاصةً كتاباً نادراً كنتُ أبحث عنه منذ زمن طويل، *معرفة الأبجديات الخفيّة* المنسوب لابنِ وحشيَّة. إنه يحتوي على عشرات الكتابات المختلفة التي يستحيل فَكُّ رموزها لمن لم يتعلم ذلك. لو أنني حصلتُ عليه في وقتٍ أبكر، فربما استوحيتُ منه لكتابة هذه اليوميات. لكن الوقت تأخر، وأصبح لديَّ عاداتي وطرقي الخاصة في التنكُّر، ولن أغيِّر منها شيئاً.

كُتِبَ يومَ الجمعة 27 تشرين الثاني 1665

اجتزتُ للتو، دونما سبب، أسبوعاً طويلاً من الكوابيس، ومازال

الخوف في عظامي. لكني أرفض الرحيل. أرفض الذهاب مهزوماً مسحوقاً ومُهاناً.

لن أبقى في القسطنطينية أكثر من اللازم، لكني لن أرحل عنها قبل الحصول على تعويض عمَّا لقيتُهُ.

بدأت محنتي يوم الخميس 19 تشرين الثاني، عندما جاء بومة ليعلن لي بحماس أنه عرف أخيراً هوية جامع الكتب الذي يملك نسخة من *الاسم المئة*. كنتُ قد منعتُ ابن أختي من البحث عن الكتاب ثانيةً، لكني ربما فعلتُ ذلك برخاوة. وإذا كنتُ قد وجهتُ له اللومَ في ذلك اليوم، فإنني لم أستطع منع نفسي من الاستفهام منه حالاً عمَّا علِمَهُ.

جامع الكتب المقصود ليس شخصاً مجهولاً لي، إنه رجل نبيل من والاتشيا، فويفود(*) اسمه ميرسيا، جمع في قصره واحدةً من أجمل المكتبات في الامبراطورية بكاملها، وأرسل إلى أبي منذ زمن طويل مبعوثاً مكلفاً بشراء كتاب مزامير على الرَّق المزخرف والمزدان بالأيقونات بطريقة رائعة. قلتُ لنفسي بأنني إذا ذهبتُ إليه فسوف يتذكر ذلك وربما يقول لي إذا كان يملك نسخة من كتاب المازندراني.

ذهبنا إلى الفويفود آخر العصر، ساعة نهوض الناس من قيلولتهم. أنا وبومة فقط، وكلانا بالزيّ الجَنَويّ، وذلك بعد أن أخذت من ابن أختي وعداً بِأن يدعني أوجِّهُ المحادثةَ وحدي. لم أشأ إخافة مضيفنا منذ البداية بشأن كتابٍ هناك شكوك في نسبته كما في مضمونه. يجب مقاربة الموضوعِ مواربةً إذن.

كان مقر فويفود والاتشيا الفخم وسط البيوت التركية المحيطة به، يَغتَصب إلى حد ما، تَسمِيَتَهُ قصراً؛ وكان يدين بها حتماً لنوعية مالِكِهِ أكثر مما يدين بها لعمارته. إذ يعتقد الناظر إليه أنه دارُ إسكافيٍّ كُبِّرَ اثنتي عشرة مرةً، أو أنه عبارة عن اثنتي عشرة داراً لإسكافيين، اشتراها مالكٌ واحد وجَمَعَ بينها، بِسورِها الذي لا منفذ فيه أو يكاد، في الأسفل، وخَرْجاتِها الخشبية ومشربيَّاتها البنِّيَّة، في الأعلى. لكن

(*) فويفود: موظف كبير في بلاد البلقان وبولونيا.

الجميع يشيرون إليه باسم «قصر» إلى درجة أنَّ شبكة الحارات المحيطة به باتت تحمل اسمه. تحدَّثتُ عن إسكافيِّين لأنَّ هذا الحيّ هو حيّ إسكافيين ودبَّاغي جلود وكذلك مُجَلِّدي كُتُبٍ مشهورين، أفترض أنَّ جامعَ كتُبِنا هو أكثرُ زبائنهم انتظاماً.

استُقبِلنا عند الباب من قبل نصيرٍ من الوالاتشيين، يرتدي سترة طويلة من حرير أخضر، تُخفي على نحو سيء سيفاً ومسدساً، وحالما ذكرنا اسمنا وصفتنا، ودون حاجةٍ لتحديد غرض زيارتنا، أُدخِلنا إلى حجرة صغيرة جدرانها مغطاة بالكتب حتى أعلى الباب الوحيد. قلتُ: «بالداسار أمبرياتشو، تاجر طرائف وكتب قديمة، وابن أختي جابر». كنت أشكُّ بأن تكون مهنتي كلمةَ سرٍّ تنفتح لها كل الأبواب هنا.

وبعد قليل حضر الفويفود يتبعه نصير آخر يرتدي مثلما يرتدي الأول، ويده فوق مقبض سيفه. وحين رأى سيدُهُ شكلَنا، أشار له بالانصراف مطمئناً، وجلس فوق ديوان مقابلنا. وفي الحال جلبت خادمة لكل منا قهوةً وشراباً، وضعت كل شيء فوق طاولة منخفضة وخرجت وهي تغلق الباب.

بدأ مضيفنا اللبِقُ بسؤالنا عن متاعب الرحلة، ثم قال إنه تشَرَّفَ بزيارتنا دون أن يستفسر عن أسبابها. إنه رجل متقدم في العمر، في حوالى السبعين دون شك، نحيل له وجه ضامر مزدان بطوق من لحية بيضاء. ثيابه أقل ثراءً من ثياب رجاله، لاأكثر من قميص طويل أبيض مطرَّز وواسع فوق بنطال من القماش نفسه. كان يتكلم الإيطالية، وشرح لنا بأنه، أثناء سنوات منفاه، قضى بعض الوقت في فلورنسا في بلاط فرديناند، الدوق الأكبر، واضطر لمغادرته لأنهم أردوا إرغامه على التحول إلى الكاثوليكية. أطنَبَ في مدح آل مديسيس وكَرَمِهم قبل أن يرثي لضعفهم الحالي. تعلَّم بينهم حُبَّ الأشياء الجميلة وقرر تكريس ثروته من أجل الحصول على الكتب القديمة بدلاً من تكريسها للمؤامرات بين الأمراء.

«لكنَّ كثيراً من الناس في والاتشيا كما في ڤيينا مازالوا يعتقدون بأني أحيك المؤامرات ويتخيلون بأنَّ كتبي ليست سوى طريقة لتحويل الأنظار عن مؤامراتي، في حين أنَّ هذه الكائنات الجلدية تشغل ذهني

ليلاً نهاراً. اكتشاف وجود كتابٍ ما، ملاحقته من بلد إلى آخر، محاصرته أخيراً، الحصول عليه، امتلاكه، الاختلاء به لاستنطاق أسراره، والعثور أخيراً على مكان يليق به في بيتي، تلك هي معاركي الوحيدة، غزواتي الوحيدة، ولاشيء يمتعني أكثر من الحديث مع أناس عارفين في هذه الحجرة».

بعد مقدمته المشوِّقة جداً، شعرت بأنني أستطيع أن أقول له بالكلمات المناسبة السبب الذي ساقني إليه.

«لديَّ ولع حضْرَتِكَ نفسُهُ، لكنه أقل شأناً، لأنَّ ماتفعله أنت حُبَّاً بالكتب نفسها أفعله أنا من أجل التجارة. عندما أبحث عن كتاب، فإنني أفعل ذلك في معظم الأحيان لكي أبيعه ثانيةً لشخصٍ طلبَهُ مني. لكنّ هذه الرحلة إلى القسطنطينية وحدها كان لها دافع آخر. دافع غير مألوف لي وأتردد في الكشف عنه لمن يسألونني. أما معك أنت الذي استقبلتَني استقبالاً يليق بمقامك وأكبر من مقامي، والذي تُعَدُّ جامعَ كتبٍ حقيقياً ورجلاً جهبذاً، فلن ألجأ إلى أية مواربة».

وبالفعل، باشرت بالكلام، كما لم أتوقع أن أفعل، دون لفٍّ ولادوران، عن النبوءات المتعلقة بقرب ظهور الوحش عام 1666 ، وعن كتاب المازندراني وكيف عهد العجوز إدريس إليَّ بالكتاب، وكيف تخليت عنه لمارمونتيل، وماذا حدث للفارس في البحر.

وعند هذه النقطة الأخيرة، هزَّ الفويفود رأسه مشيراً إلى أنه سمع بالنبأ، ولم يبد ردة فعل حول ما تبقّى. لكنه حين بدأ بالكلام بعدي قال لي بأنه سمع مختلف التكهُّنات بشأن السنة القادمة، وذكر كتاب الإيمان الروسي الذي أغفلتُهُ طلباً للإيجاز.

«لدي نسخة من هذاالكتاب أرسلها البطريرك نيكون شخصياً الذي عرفته، أيام شبابي في نيجني نوفغورود. أعترف بأنه مؤلَّف مثير للارتباك. أما بخصوص كتاب *الاسم المئة*، صحيح أنه بيعت لي نسخة منه قبل سبع أو ثمان سنين لكني لم أعره أهمية كبيرة. اعترف لي البائع نفسه بأن النسخة ربما تكون مزورة. حصلت عليه بدافع الفضول فقط، لأنه أحد الكتب التي يحب جامعو الكتب الحديث عنها عندما يلتقون، مثل تلك الوحوش الخرافية التي يتكلم عنها الصيادون أثناء

ولائم الأصدقاء. أعترف بأني احتفظت به بدافع التَّباهي الخالص ولم أسعَ قط للغوص فيه. وكنت أصلاً سأعجز عن قراءته دون ترجمان لقلَّةِ معرفتي باللغة العربية».

«وتخليت عنه؟» سألتُهُ محاولاً ألاَّ أدع خفقان قلبي يسبِّب في ارتجاف لساني.

«لا، لا أتخلى عن أي كتاب قط. منذ زمن طويل لم تقع عيناي على هذا الكتاب لكنه يجب أن يكون هنا، في مكان ما، ربما في الطابق الثاني مع كتب عربية أخرى...».

عبرت ذهني فكرةٌ. كنتُ بصدد تدويرها في رأسي لكي أقدِّمها بشكل لائق، عندما باغتني ابن أختي خارقاً توصياتي.

«إذا أحببت، أستطيع أن أترجم لك هذا الكتاب إلى الإيطالية أو اليونانية».

نظرتُ إليه في الحال نظرة شجب. هذا لا يعني أنَّ اقتراحه كان لامعقولاً، وكنت سأقترح بنفسي شيئاً مماثلاً، لكن كان في تدخُّلِهِ نبرة فظَّة متباينة مع محادثتنا السابقة. خشيتُ أن يعاند مضيفي، ورأيتُ في عينيه بأنه يتردد قليلاً بشأن الجواب الذي سيعطيه. رحت أدق الأرض برجلي بسرعة، فأنا كنتُ سأسوق الأمور على نحو آخر.

ابتسم الفويفود لبومة ابتسامة تَسامُح.

«أشكرك على اقتراحك. وعلى أية حال فإني أعرف راهباً يونانياً يقرأ العربية تماماً، وعنده مايلزم من الصبر لترجمة هذا الكتاب وكتابته بخط جميل. إنه رجل في سني؛ لدى الشبان من نفاد الصبر أكثر مما يمكِّنهم من القيام بأعمال مماثلة. وإذا أردتما تصفُّح كتاب *الاسم المئة* ونسخ بعض السطور منه، فإني أستطيع إحضاره لكما، شريطة أن لا يخرج من هذه الحجرة».

«نكون ممتنين لك».

نهض، ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

«كان من الأفضل لو أنك صمتَّ كما وعدتني، قلت لابن أختي. حالما فتحتَ فمكَ اختصرَ الحديث. وهاهو يسمح الآن لنفسه بأن يقول: شريطة أن...».

«لكنه سيحضر لنا الكتاب، وهذا هو المهم. هذا هو ما جعلنا نقوم بالرحلة».

«هل سيكون لدينا الوقت لقراءته؟»

«سنتحقق مما إذا كان يشبه الكتاب الذي كان بحوزتنا. ثم إنني أعرف جيداً ما سأبحث عنه أولاً».

كنا نتشاجر بهذا الشكل عندما تناهت إلينا من الخارج أصوات مع وقع أقدامِ رجالٍ يركضون. نهض بومة لكي يذهب لرؤية ما يحدث، لكنني زجَرتُهُ.

«ابقَ جالساً! وتذكَّر بأنك في منزل أمير!».

ابتعدت الصرخات عن الحجرة، ثم اقتربت مجدداً بعد دقيقة ترافقها ضرباتٌ عنيفة تهزُّ جدران الحجرة، وروائحُ مُقلِقة. وبما أنني لم أعد متمسِّكاً بما قلته، شققتُ الباب وصرختُ بدوري. كانت النار مندلعة في الجدران والسجاجيد، ودخان كثيف يملأ البيت. ثمة رجال ونساء يركضون حاملين دلاء ماء، وصارخين في جميع الاتجاهات. ولحظة الخروج استدرتُ نحو بومة ووجدته مايزال في مكانه.

«لنبقَ جالسين، قال لي باحتقار، نحن في منزل أمير».

الوقِح! صفعتُهُ بأعنف ما أستطيع على ما قاله للتو وعلى أشياء أخرى كثيرة احتفظتُ بها في داخلي حتى ذلك الوقت. كان الدخان قد دخل الحجرة وبدأ يسبب لنا العطاس. عدونا نحو المخرج مجتازين ثلاث مرات سدوداً من الدخان.

وعندما وجدنا نفسينا في الشارع، وقد نجونا بحياتنا، ولكن بحروق صغيرة لا تُحصى في الوجه واليدين، لم نجد الوقت للتنفس قبل أن ينقضّ علينا خطرٌ آخر أفدح بكثير بسبب سوء فهمٍ كاد أن يودي بحياتنا.

كان مئات من أهل الحي قد تجمَّعوا لكي يتأمَّلوا النار، عندما أشار الحارسُ الذي فتحَ لنا الباب عند الوصول، بيده إلينا. الحركة التي أراد منها أن يقول لسيدِهِ أو لحارسٍ آخر بأننا لم نعد في المنزل وبأننا استطعنا أن نفرّ. لكنَّ المتسكِّعينَ فسَّروا هذه الحركة بطريقة

أخرى تماماً. بدأ هؤلاء الناس يلقون علينا الحجارة متخيِّلين بأننا المتسببون بالكارثة وأنَّ الحارس قد أشار إلى المذنبين. اضطررنا للركض هرباً من القذائف، مما بدا تأكيداً على أننا مشعِلو الحريق وأننا نريد الهرب بعد أن نفَّذنا فعلتنا. اندفعوا في أثرنا مسلَّحين بالعصيّ والسكاكين ومقصَّات الإسكافيين، ولم يعد وارداً بالنسبة لنا أن نوقف ركضنا لكي نحاول إقناعهم. لكننا كلما ركضنا أكثر بدونا مذعورين أكثر، وازداد هؤلاء الناس سُعاراً وازدادوا عدداً. أصبح الحي بأكمله الآن يركض في أثرنا. لم نكن نستطيع المضي بعيداً جداً. ربما يمسكون بنا في بضع خطوات. شعرت بأنني أحس بلهاثهم في مؤخرة عنقي.

ظهر أمامي فجاة جنديان انكشاريان. في الأوقات العادية، ولمجرد رؤية قلنسوتيهما المزدانتين بالريش الطويل المنسدل، ألقي بنفسي في أول حارةٍ إلى يميني أو يساري لكي أتجنب التقاطع معهما. لكن السماء هي التي أرسلتهما لنا في تلك اللحظة. كانا أمام حانوت إسكافي، واستدارا مذهولين إلى مصدر الجلبة وقد وضع كل منهما يده فوق مقبض سيفه. صرخت: «أمان! أمان!» وألقيت بنفسي في حضن أحدهما مثلما يلقي طفل بنفسه في حضن أمه. وبنظرة تحققتُ من أنَّ ابن أختي قام بالحركة نفسها. تشاور العسكريَّان بالنظر ثم سَحَبانا بقوة خلفهما، صارخين بدورهما في وجه الحشد: «أمان!»

توقف مطاردونا على الفور كما لو أنهم اصطدموا بجدار زجاجي. عدا شخصٍ واحد شاب راح يصدر أصواتاً مثل شيطان، ولابد أنَّ به اختلال. وبدلاً من أن يثبت في مكانه مثل الآخرين، استمر في اندفاعه، وألقى بذراعيه إلى الأمام محاولاً الإمساك بقميص بومة. صدر صفير. حتى أنني لم أر العسكري الذي أحتمي خلفه وهو يمتشق سلاحه ثم يضرب به. رأيته فقط وهو يمسح سيفه على ظهر المسكين الراقد عند قدميه. أصيب أسفلَ عنقه بحزٍّ كان من العمق بحيث ابتعد كتفه عن جسده مثل غصنٍ مُشَذَّب. لم تصدر عنه حتى تنهيدة أخيرة. بل مجرد الصوت المكتوم لجسدٍ يسقط فاقداً الحياة. بقيت لحظة طويلة أحدِّق بالجرح الذي يخرج منه الدم الأسود، فائراً من نبعٍ تحت ـ أرضيٍّ احتاجَ لبعض الوقت لكي ينضب. عندما استطعت أخيراً إبعاد ناظري، كان الحشد قد تبخَّر. لم يبق هنا سوى ثلاثة رجال يرتجفون على

قارعة الطريق. كان العسكريان الانكشاريان قد أمَراهُم بعدم الهرب مثل الآخرين لكي يشرحوا لهما ما حدث. أشاروا إلى ألسنةَ الحريق خلفهما، ثم أشاروا إليَّ أنا وابن أختي. قلتُ في الحال بأننا لا ذنب لنا في الأمر، وأننا من تجار الكتب الطيبين، وجئنا إلى فويفود والاتشيا لبعض الأعمال، ونستطيع تقديم الدليل على ذلك.

«هل أنتم متأكدون بأنهم المجرمون؟» سأل أكبر العسكريين الانكشاريين.

تردد الرجال الثلاثة في النطق بالإجابة، خوفاً من وضع رؤوسهم في الميزان. أخيراً تكلم أحدهم نيابةً عن الجميع:

«قالوا إن هذين الغريبين قد أشعلا النار في القصر. وحين أردنا أن نطرح عليهما أسئلةً فرّا كما لا يفرُّ سوى المذنبين».

وددتُ لو أجيب لكنَّ العسكريين الانكشاريين أسكتاني بحركةٍ منهما وأمرانا أنا وبومة بالسير أمامهما.

كنت أنظر من وقت إلى آخر من فوق كتفي. كان الحشد قد تجمَّع ثانيةً وراح يتبعنا ولكن من مسافة كافية. وفي الخلف، في موقع أبعد كان باستطاعة المرء أن يستشفَّ حمرة النار وجلبة رجال الإنقاذ. أما ابن أختي فكان يسير هادئاً دون أن يوجه إليَّ أدنى نظرة قلق أو تواطؤ. إنني على قناعة بأنَّ هذا الذهن الكبير كان منشغلاً بشيء بعيد تماماً عن مخاوفي المبتذلة، مخاوف إنسانٍ زائلٍ اشتُبهَ ظلماً بأنه ارتكب جريمة، ويقوده عسكريان انكشاريان عبر شوارع القسطنطينية نحو مصير مجهول.

قادنا حرسنا إلى منزل شخص يظهر أنه مهم، مرشد آغا. لم يسبق أن سمعت باسمه، لكنه أسمَعَني بأنه كان فيما مضى قائداً في الانكشارية، وبأنه شغل وظائف رفيعة في دمشق بهذه الصفة. كلَّمَنا أصلاً بالعربية، وهي عربية من الواضح أنه تعلَّمَها متأخراً وبلكنة تركية شديدة.

ما لاحظتُهُ لديه في المقام الأول هو أسنانه. كانت دقيقة ورثَّة إلى

درجة أنها بدت مثل صفٍّ من الإبَر السوداء. بدت لي هيئتها منفرة، إلا أنه بدا واضحاً أنها لا تسبب له الخجل أو الحرج. كان يكشف عنها تماماً مع كل ابتسامة، وكان يبتسم دون توقف. فيما تبقّى، كان شكله شكلَ رجلٍ محترم، مكرِشٍ مثلي، رماديٍ الشعر تحت قلنسوة بيضاء ذات حاشية فضية ودون بقع، لحيته مشذّبة وسلوكه مضياف.

حالما أُدخِلنا إليه رحَّب بنا وقال بأننا محظوظان لأن الانكشاريين قادانا إليه وليس إلى قاضٍ أو إلى برج الأسرى.

«هؤلاء الشبان مثل أولادي، إنهم يثقون بي ويعرفون أنني عادل ومتعاطف. لدي أصدقاء من المقامات العالية جداً، إذا كنتما تفهماني، ولم أُسئ قط استعمال علاقاتي لكي أتسبَّب بإدانة بريء. وبالمقابل ساعدتُ أحياناً في العفو عن مجرمٍ استطاع أن يستدِرّ شفقتي».

«أقسم لك أننا بريئان، إنه مجرد خطأ. سأشرح لك».

استمع إليّ بانتباه، هازّاً رأسه عدة مرات كما لو أنه يعبِّر عن تعاطفه. ثم طمأنني:

«تبدو رجلاً محترماً، اعلم أنني سأكون صديقاً وحامياً لك».

كنا في قاعة واسعة مؤثثة فقط بالسجاد والطنافس والمخدات. وحولنا، إضافةً إلى مرشد آغا وعسكريينا الانكشاريين، كان هناك نصف دزينة من رجال مسلحين جميعاً، بدوا لي للوهلة الأولى مثل عسكرٍ جُرِّدوا من رتبهم العسكرية. سمعت جلبة في الخارج، فخرج حارس ثم عاد يهمس في أذن مضيفنا الذي بدا عليه القلق فجأةً.

«يبدو أن الحريق يمتد. لم يعد عدد الضحايا يُحصى».

التفت نحو أحد الانكشاريين.

«هل رأى أهل الحي أنكم جئتم بأصدقائنا إلى هنا؟»

«نعم، تَبِعَنا بعضُ الرجال عن بعد».

ازداد قلق مرشد آغا أشد شيئاً فشيئاً.

«علينا أن نحترس طوال الليل. يجب ألاّ ينام أيٌّ منكم. وإذا سُئلتم أين هم أصدقاؤنا، تقولون إننا أخذناهما إلى السجن ليُحاكَما».

غمَزَنا غمزةَ مؤازرة، كشف عن إبَرِهِ السوداء وقال لنا بنبرة مطمئنة:

«لا تخشيا شيئاً، ثقا بي، لن يمسَّكُما أولئك الحفاة بعد الآن».

ثم أشار إلى أحد رجاله أن يجلب شيئاً من الفستق لكي نقضمه. فاختار العسكريان تلك اللحظة من أجل الانسحاب.

لكني يجب أن أوقف حكايتي لهذه الليلة هنا. كان نهاراً منهِكاً وبدأت ريشتي تَثقل بشدة. سأعود إليها فجراً.

كُتِب يوم *السبت* 28

قُدِّم لنا العشاء لاحقاً، ثم أشاروا لنا إلى غرفة من البيت يمكننا النوم فيها بمفردنا، أنا وابن أختي. لم يأتِني النوم طوال الليل، وعند الفجر، ولم أكن قد نمت بعد، انحنى مرشد آغا فوقي وهزّني.

«يجب النهوض حالاً».

جلست.

«ما الذي يحدث؟»

«تجمَّع الناس في الخارج. يبدو أنَّ نصف الحي احترق وأنَّ هناك مئات القتلى. ولقد أقسمت لهم بقبر أبي أنكما لستما هنا. وإذا أصرّا أيضاً، سأضطرُّ للسماح لبعضهم بالدخول للتحقق بأنفسهم. يجب أن تختبئا. تعالا!»

قادنا، أنا وابنَ أختي، عبر ممشىً، إلى خزانة جدارية فتح بابها بمفاتيح.

«هناك بضع درجات يجب نزولها. احذرا، لا يوجد ضوء. انزلا ببطء واستندا إلى الجدار. ثمة قاعة صغيرة في الأسفل، سألحق بكما إليها حالما أستطيع».

سمعناه يغلق باب الخزانة ويدير المفتاح مرتين في القفل.

وصلنا إلى الأسفل، وبحثنا باللمس عن مكان نجلس فيه، لكنَّ الأرض كانت موحلة ولم يكن هناك كرسي ولا طاولة. لم أستطع إلا الاستناد بظهري إلى الجدار، داعياً إلى الله ألاَّ يتركنا مضيفنا طويلاً في هذا الجحر.

«لو لم يأخذنا هذا الرجل تحت حمايته، لكُنَّا الآن في قعر زنزانة»، قال بومة فجأةً، وهو الذي لم يفتح فمه منذ ساعات.

لم أستطع في العتمة أن أرى إذا كان يبتسم.

«إنها اللحظة المناسبة للسخرية، قلت له. ربما تريد أن يلقي بنا مرشد آغا طعاماً للحشد المسعور؟ أو أن يسلِّمنا لقاضٍ يعجِّل في إدانتنا لتهدئة الرأي العام؟ لا تكن ناكراً للجميل بهذا الشكل! ولا تُظهِر مثل هذه العجرفة! لا تنسَ أنك أنت من أخذني بالأمس إلى ذلك الفويفود. وأنك أنت أيضاً من دفعني للقيام بهذه الرحلة! ما كان ينبغي أن نغادر جبيل أبداً!»

لم أكلِّمه بالعربية بل بالجَنَوية، مثلما أفعل عفوياً كلما أحسستُ بأنني أتعرَّض لمحنةٍ من محن الشرق.

يجب أن أعترف بأنني، مع مرور الساعات ثم الأيام، رحتُ أتبنَّى في سري خطاباً ليس مختلفاً جداً عن خطاب بومة الذي اتهمتُهُ بالسخرية ووَسَمْتُهُ بالنكران. هذا في بعض اللحظات على الأقل، لأنني في لحظات أخرى كنتُ أبارك حسن طالعي الذي وضع لي مرشد آغا في دربي. كنتُ أتَأرجَح باستمرار بين انطباعين. أحياناً لا أرى في هذا الرجل سوى الحكيم النبيل الأشيب والقلِق على مصيرنا وراحتنا، والذي يعتذر كل مرةٍ لأنه يسبب لنا رغماً عنه بعض الإزعاجات؛ وأحياناً أخرى لا أرى منه سوى ذلك الفم الأسود الشبيه بفم سمكة مفترسة. عندما أرى الوقت طويلاً وتبدو الأخطار التي تتهدَّدُنا بعيدة، أتساءل إن لم يكن من العبث بقاؤنا أسيرَيْ بيتِ شخصٍ مجهول ليس موظفاً مكلَّفاً بحفظ النظام ولا صديقاً. لماذا يفعل هذا لنا؟ لماذا يتخاصم مع أهل

الحي وحتى مع السلطات التي كان يُفتَرَض أن يسلِّمَنا لها منذ اليوم الأول؟ ثم يفتح باب الزنزانة، ينادينا للصعود إلى المنزل، عموماً أثناء الليل، ويجعلنا نشاركه وجبته ووجبة رجاله، مُجلِساً إيانا في مكان الشرف، مقدِّماً لنا أفضل قطع الدجاج والضأن قبل أن يشرح لنا أين وصلت قضيتنا.

للأسف، للأسف، يقول لنا، إن الخطر المميت يقترب. «أهل الحي يراقبون بابي باستمرار، مقتنعين بأنكما مازلتما مختبئين عندي. البحث عن المتسببين بالحريق جارٍ في المدينة بأسرها. ووعدت السلطات بإنزال عقابٍ يكون عِبرة...». إذا أُمسِك بنا لن نستطيع حتى أن نأمل بمحاكمة حقيقية. سوف يضعوننا على الخازوق نهاراً ويعرضوننا في الساحات. وطالما نحن مختبئان عند حامينا لن نخشى شيئاً. لكننا لا نستطيع البقاء هناك طويلاً جداً. جميع الأسرار تُفشى. أساساً، لقد أرسل القاضي كاتب محكمته في زيارة تفتيش. لابد أنه يشكّ بشيء.

أكتب الآن هذه الجُمل بيدٍ كفَّتْ عن الارتجاف. لكنني عشتُ الكابوس طوال تسعة أيامٍ وتسع ليالٍ دون أن يخفِّف حضورُ ابن أختي المشؤوم من شدَّتي.

لم تأتِ الخاتمة إلاّ بالأمس. فبعد أن جعلوني أخشى من احتمال قيام القاضي في أية لحظة، بتفتيش حسب الأصول، ومن أن إقامتي هذه تعرِّضني لخطرٍ يزداد أكثر فأكثر، جاء مضيفي ليُعلن لي أخيراً نبأً جيداً.

«استدعاني القاضي هذا الصباح. ذهبتُ إليه وأنا أتمتم بصلاتي الأخيرة. وحين بدأ بالقول بأنه يعلم بأنكما مختبئان عندي، وأنّ الانكشاريين اعترفوا له بذلك، ارتميتُ عند قدميه أتوسل له بالإبقاء على حياتي. عندها طلب مني النهوض وقال لي إنه يؤيّد سلوكي النبيل لأنني دافعتُ عن شخصين بريئين. لأنه هو ذاته مقتنع ببراءتكما. لو لم تكن الرؤوس حامية، لَطَلَبَ منكما الخروج مرفوعي الرأس. لكن الحذرَ واجب. قبل الخروج يجب الحصول على براءة حسن سلوك. وسيادتكَ

فقط، قلتُ له، تستطيع تزويدهما بوثيقة مماثلة. قال إنه بحاجة للتفكير وطلب مني العودة لرؤيته بعد ظهر هذا اليوم. ما رأيك؟».

أجبتُ بأن الخبر أذهلني، وأنه أكثر الأخبار تشجيعاً.

«علينا أن نقدم للقاضي هديةً تليق بمعروفٍ مماثل».

«بطبيعة الحال. ما المبلغ الذي يجب أن نقدمه له؟»

«يجب أن تفكر بالأمر بعناية. هذا القاضي شخص معتَبَر. إنه معتز بنفسه ولن يساوم. فقط سينظر إلى ما نقدمه له. إذا رآه كافياً، سيأخذه ويعطينا حسن السلوك. إذا رآه غير كافٍ، سيلقي به في وجهي، وسنذهب، أنا وأنت وابن أختك إلى الأبد!»

مرَّ بيده ببطء على عنقه من جهة إلى أخرى، وقمتُ غريزياً بالحركة نفسها.

كم من المال ينبغي أن أدفع لكي أنجو بحياتي؟ كيف يمكن الإجابة على سؤال من هذا النوع؟ هل هناك رقم أفضِّل أن أفقد حياتي وحياة ابن أختي فيما وراءه؟

«لا أحمل معي سوى أربعة قروش وستين أسبراً(*). أعرف أن هذا غير كاف...».

«أربعة قروش ونصف، هذا ما يجب أن توزعه على رجالي لتشكرهم على حمايتنا جميعاً وخدمتنا خلال عشرة أيام».

«هذا ما كنت أنوي أن أفعله. أريد أيضاً، فور وصولي إلى بيتي، أن أرسل أفخم هدية لك أنت الذي استضفتَنا وأحسنتَ إلينا».

«انْسَني، أنا لا أريد شيئاً. أنت هنا في بيتي نهاراً وليلاً ولم أدعك تفتح صرة نقودك. إنني لا أخاطر بحياتي لأحصل على هدايا. استقبلتكما هنا أنت وابن أختك لأنني كنت منذ الوهلة الأولى مقتنعاً ببراءتكما وليس لأي سبب آخر. ولن أنام مطمئناً قبل أن أعرف أنكما في أمان. ولكن يجب بالفعل العثور على الهدية المناسبة للقاضي، وويل لنا إذا ارتكبنا أقل خطأ في التقدير».

(*) أسبر: عملة فضية تركية، كانت تعادل جزءاً من مئة من القرش.

«بأية وسيلة يجب أن ندفع له؟»

«له شقيق، تاجر ناجح ومحترم. تكتب لصالحه صكاً بِدَيْنٍ تُقرُّ فيه بأنه سلَّمك بضاعةً لقاء مبلغ معين، وأنك تتعهد بأن تدفع له مستحقاته خلال أسبوع. وإذا لم يكن لديك المبلغ يمكنك استدانته».

«شريطة أن يقبَل دائنٌ أن يقرضني...».

«اسمع يا صديقي! اسمع نصيحة رجل شابَ شعر رأسه! ابدأ أولاً بإخراج نفسك من هذه الورطة والاحتفاظ برأسك فوق كتفيك. ولاحقاً تفكر بالدائنين. دعنا لانضيع الوقت، سأبدأ بتحرير الصكّ. هاتوا لي ماأكتب به!»

استعلَمَ عن اسمي الكامل، مكان إقامتي الاعتيادي، عنواني في هذه المدينة، ديني، أصولي، مهنتي الدقيقة، وانهمك في كتابة كل شيء بيدٍ ثابتة، تاركاً سطراً أبيض.

«كم أكتب؟»

ترددت.

«برأيك؟»

«لا أستطيع مساعدتك. لا أعرف كم تبلغ ثروتك».

كم تبلغ ثروتي؟ ربما تبلغ، إذا حسبنا كل ما يجب حسابه، مئتين وخمسين ألف ميدنٍ، أي ما يقارب الثلاثة آلاف قرش... ولكن، هل هذا هو السؤال الذي يجب طرحه حقاً؟ ألا تجدر بالأحرى معرفة المبلغ الذي يقبضه القاضي عادةً عندما يقدِّم خدمات من هذا النوع؟

مع كل رقم يخطر في ذهني، تنقبض حنجرتي. وماذا لو قال القاضي لا؟ ألا أستطيع إضافة قرش آخر؟ أو ثلاثة؟ أو اثني عشر قرشاً؟

«كم؟»

«خمسين قرشاً!»

لم يُبدِ الرجلُ رضىً شديداً.

«سأكتب مئة وخمسين!!»

باشر بالكتابة ولم أحتجّ. ثم جعل اثنين من رجاله يضعان توقيعهما كشاهدين، إضافةً إلى توقيعي أنا وابن أختي.

«الآن، صلِّ لكي يسير كل شيء على مايرام، وإلاً سنموت جميعاً».

غادرنا منزل مرشد آغا صباح الأمس مع الساعات الأولى، عندما كانت الحركة في الشوارع ماتزال خفيفة، بعد أن تحقَّق رجاله من أنَّ أحداً لا يراقبنا. تزوَّدنا بوثيقة حسن سلوك موجزة بعض الشيء، يُسمَح لنا بموجبها أن نسافر إلى أي مكان في الامبراطوية دون قلق. ثمة توقيع أسفل الوثيقة، لا يُقرأ فيه سوى كلمة واحدة، «قاضي».

عدنا نسير ملاصقين للجدران نحو منزلنا في غلاطة، وسِخَينْ، مَنْتوفَينْ، إذا لم نكن مثل شحاذين، فعلى الأقل مثل مسافرين أنهكتهما مراحل عديدة متلاحقة، وصادفا الموت أكثر من مرة في طريقهما. ورغم جواز مرورنا، خشينا أن تقوم بعض الدوريات بتفتيشنا، وخشينا أكثر من لقاء رجال الحي المشؤوم وجهاً لوجه.

لم نعرف الحقيقة إلا عند وصولنا إلى البيت: وُضِعنا منذ اليوم التالي للحريق خارج الشبهات. فعلى الرغم من أنَّ الفويفود النبيل كان متألماً ومنهكاً بسبب فقدان بيته وكتبه، فقد جمع أهلَ حيِّه لكي يقول لهم بأنهم اتهمونا خطأً؛ إذ حدثت الكارثة بسبب جمرات غليونٍ أوقعَتْهُ خادمةٌ فوق سجادة صوف. عانى عدة أشخاص من حاشيته من حروق سطحية إلى هذا الحد أو ذاك، لكنَّ أحداً لم يهلك. باستثناء الشاب المغفَّل الذي صرَعَهُ الانكشاريان أمامنا.

عانت مارتا وحبيب وحاتم من القلق بسبب اختفائنا فجاؤوا منذ اليوم التالي يتسقطون الأخبار، ووُجِّهوا طبعاً إلى منزل مرشد آغا الذي أكَّد لهم بأنه أنزلنا عنده ليلةً لكي ينقذنا من الحشد، وأننا سرعان ما ذهبنا. أوحى لهم بأننا ربما فضَّلْنا مغادرة المدينة لبعض الوقت خوفاً من اعتقالنا. تلقى حامينا شكراً حاراً من أفراد مجموعتي وأخذَ منهم وعداً بإطلاعه على المستجدَّات فور تلقِّيهم خبراً، لأنَّ صداقةً

كبيرة، كما قال، ولدت بيننا. وبينما كان الجانبان يتبادلان هذا الحديث اللطيف، كنا أنا وبومة، نتعفَّنُ في الزنزانة تحت أقدامهم، متصوِّرَيْن بأنَّ سجَّاننا يبذل مابوسعه لكي يجعلنا نفلت من براثن الحشد.

«سأجعله يدفع الثمن، قلتُ، أو لا يكون اسمي أمبرياتشو! سيعيد لي النقود، وهو الذي سيتعفَّن في السجن إذا لم يوضع على الخازوق».

لم يفكر أحد من ذويَّ بمعارضتي، لكنني عندما أصبحت بمفردي مع تابِعي، راح يتوسل إلي:

«سيدي، يُفَضَّل التخلي عن فكرة ملاحقة هذا الرجل!»

«مستحيل. حتى لو احتاج الأمر للذهاب إلى الصدر الأعظم!»

«إذا أخذ منك قائدٌ في حيٍّ شعبي صرة نقودك وسحب منك إقراراً بأنك استدنتَ مئة وخمسين قرشاً من أجل الإفراج عنك، فكم باعتقادك يجب أن تنفق في غرفة انتظار الصدر الأعظم حتى تنال رضاه؟».

أجبت:

«سأدفع مايتوجب دفعه، لكني أريد أن أرى هذا الرجل مخوزَقاً!»

تجنب حاتم أن يعارضني من جديد. مسح الطاولة أمامي، التقط فنجاناً فارغاً ثم خرج مسبل العينين. هو يعرف أنه لا يجب المساس بكبريائي الشخصي، لكنه يعرف أيضاً أن كل كلمة تُقال لي تحفر أخدوداً في روحي أياً كان ردي في لحظتها.

بالفعل، لم أعد هذا الصباح مثلما كنتُ البارحة. لا أفكر بالانتقام قبل مغادرة هذه المدينة. أريد الرحيل مع أفراد جماعتي. ولم أعد أريد هذا الكتاب اللعين. يبدو لي أنني كلما اقتربت منه مرة، تقع مصيبة. العجوز إدريس أولاً، ثم مارمونتيل، والآن الحريق. ليس الخلاص هو مايقدمه لنا هذا الكتاب، بل النكبات، الموت، الغرق، الحريق. لم أعد أريد هذا كله، إني ذاهب.

مارتا أيضاً ترجوني أن نغادر هذه المدينة دون إبطاء. وهي لن تضع قدمها في القصر مرة أخرى، فهي مقتنعة بأن الخطوات التي

ستمشيها فيه لن تجدي نفعاً. إنها الآن تودُّ الذهاب إلى شميرنا. فقد قيل لها يوماً بأنَّ زوجها استقر هناك. إنها مقتنعة بأنها هناك تستطيع الحصول على تلك الورقة التي تعيد لها حريتها. ليكن، سآخذها إلى شميرنا. إذا وجدتْ فيها ما تبحث عنه، نعود معاً إلى جبيل حيث أتزوجها وآتي بها لتعيش في بيتي. لا رغبة لي بأن أعِدَها بذلك منذ الآن، فما زالت تفصلنا عن غدٍ مشابهٍ صعوبات كثيرة جداً. لكني يحلو لي التَّعَلُّلُ بفكرةِ أنَّ العام القادم الذي يُقال بأنه العام الذي سيظهر فيه الوحش وتقع فيه مئات الكوارث، سيكون بالنسبة لي عامَ زفاف. لن يكون نهايةً للزمن، بل بدايةً أخرى له.

الدفتر الثاني

صوتُ سابَّاتاي

في الميناء، الأحد 29 تشرين ثاني 1665

بقي في دفتري عدد لابأس به من الصفحات البيضاء، لكنني أفتتحُ بهذه السطور دفتراً آخر اشتريتُهُ للتو من الميناء. لم يعد الدفتر الأول بحوزتي. إذا لم يقَدَّر لي أن أراه ثانيةً بعد كل مادوَّنتُهُ فيه منذ شهر آب، يبدو لي أني سأفقد رغبتي بالكتابة وشيئاً من رغبتي بالعَيْش. لكنه لم يضِع، بل لقد أُرغِمتُ ببساطة على تركه في بيت بارينيلّي حين غادرته هذا الصباح على عجل، ولديَّ أمل كبير باستعادته اعتباراً من هذه الليلة إن شاء الله. فقد ذهب حاتم لجلبه مع أشياء أخرى. أثق بشطارته...

أعود الآن إلى أحداث هذا النهار الطويل الذي تعرضت فيه لإهانات عديدة. بعضها توقعته وبعضها لم أتوقعه.

إذن وبينما كنت أستعد هذا الصباح للتوجه إلى كنيسة بيرا مع كل أفراد جماعتي، وصل موظف تركي رفيع المقام في موكب كبير. أرسل أحد أتباعه في طلبي دون أن يضع قدمه على الأرض. أخذ سكان الحي جميعاً يحيونه باحترام، ويرفع بعضهم غطاء رأسه، ثم يختفون في أول حارة.

عندما حضرت، حياني بالعربية من أعلى مطيته المُسرجة، ورددت تحيته. كلَّمني وكأنَّ أحدنا يعرف الآخر منذ تاريخ طويل ودعاني بصديقه وأخيه. لكنَّ عينيه المقطِّبتين كانتا تقولان شيئاً آخر تماماً. دعاني لتشريفه يوماً بزيارة إلى بيته، وأجبتُ بتهذيب بأنَّ الشرف سيكون لي متسائلاً عمن يكون هذا الشخص وماذا يريد مني. أشار إلى

أحد رجاله قائلاً بأنه سيرسله لي الخميس القادم لمواكبتي إلى منزله. لم تكن لديَّ أية رغبة بالذهاب إلى منزل شخص مجهول، وأجبتُ بحذر بسبب كل ما وقع لي في الأيام الأخيرة، بأنَّ عليَّ، للأسف، مغادرة المدينة قبل الخميس لمسألة عاجلة، غير أني سألبي دعوته في إقامةٍ قادمة لي في هذه العاصمة المباركة. وكنتُ أتمتم في سري: ليس في القريب العاجل!

فجأةً سحب الرجل من جيبه الصك الذي جعلني سجَّاني أوقِّع عليه بالخداع والإكراه. بَسَطَهُ مدَّعِياً بأنَّ اسمه مذكور فيه، وزعم بأنه يدهشه تفكيري بالرحيل قبل سداد دَيْني. قلت لنفسي بأنه شقيق القاضي إذن. لكنه ربما يكونٍ أيضاً أي شخصٍ قوي له صلة مشبوهة مع سجَّاني الذي أرسل صكّ دَيني زاعماً أنه دوَّن فيه اسم شقيق القاضي، وهو قاضٍ غير موجود دون شك إلا في روايات مرشد آغا. «آ، أنت شقيق القاضي»، قلتُ لكي أمنح نفسي وقتاً للتفكير، ولكي أقول لمن يستمعون إلينا بأنني لا أعرف حقاً من يكون هذا الرجل.

عندها أصبحت نبرته قاسية:

«أنا شقيقُ مَن أُريد! لكني لستُ شقيقَ جَنَويٍّ كلب! متى ستدفع لي دَيني؟»

انتهت الحفاوات على ما يبدو.

«هل تسمح بأن أرى هذا الصكّ؟»

«أنت تعرف جيداً ما هو مكتوب فيه!» أجاب متظاهراً بنفاد الصبر.

لكنه مدَّه إليّ دون أن يفلته، واقتربت لكي أقرأ.

«هذه النقود لا تصبح مستحِقَّة الدفع إلاّ بعد خمسة أيام.»

«يوم الخميس، الخميس القادم. تأتي إليّ مع كل المبلغ لاينقص أسبر واحد. وإذا حاولتَ الهرب حتى ذلك الوقت، سأجعلك تمضي بقية حياتك في السجن. سيراقبك رجالي من الآن وصاعداً في الليل والنهار. إلى أين كنت ذاهباً الآن؟»

«اليوم هو الأحد وكنت ذاهباً إلى الكنيسة.»

«تُحسِن صنعاً، اذهب إلى الكنيسة! صلِّ لأجل حياتك! صلِّ لروحك! وأسرِعْ بوجهٍ خاص في العثور على دائن مناسب!»

أمرَ اثنين من رجاله أن يبقيا للحراسة أمام باب البيت، وانصرف مع بقية طاقمه وهو يحييني على نحوٍ أقلّ تهذيباً بكثير من وقت وصوله.

«ماذا سنفعل الآن؟» سألت مارتا.

لم أفكر سوى لحظة.

«سنفعل ما كنا نستعد أن نفعله قبل وصول هذا الرجل. نذهب إلى القداس.»

لا أصلِّي كثيراً في الكنيسة. حين أذهب إلى هناك، أفعل ذلك لكي أستسلم لهدهدة الأصوات المنشِدة، والبخور والصور والتماثيل والأقواس والزخارف الزجاجية والذهبية، ولكي أبحر في تأملات لاتنتهي، هي بالأحرى أحلام، أحلامٌ دنيوية، وأحياناً حتى ملحدة.

أذكر جيداً أنني كففتُ عن الصلاة في الثالثة عشرة من عمري. سقط حماسي عندما لم أعد أؤمن بالمعجزات. يجدر بي أن أحكي في أية ظروفٍ تمّ الأمر ـ وسأفعل، ولكن لاحقاً. حدثت اليوم أشياء كثيرة جداً، ولا أملك مزاجاً يساعد على سردِ مُطَوَّلات. أردت فقط الإشارة إلى أنني اليوم صليت وأنني سألتُ السماءَ معجزةً. تمنيت وقوعها بثقة، بل كان لدي شعور ـ سامحني الله! ـ بأنني أستحقُّها. فلقد كنت على الدوام تاجراً نزيهاً بل وأكثر من ذلك كنت رجلاً صالحاً أفعل الخير. كم مرة ساعدتُ أشخاصاً فقراء تخلَّى هو نفسه ـ ليسامحني مرة أخرى!ـ عنهم! لم أغتصب قط مال الضعفاء، كما لم أُذلّ من أُعيلهم. فلماذا يَسمح بأن يتَكالَب عليَّ البعض بهذا الشكل، بأن يُدفَع بي إلى الإفلاس، وأن تُهَدَّد حريتي وحياتي؟

واقفاً في كنيسة بيرا، حدَّقتُ دون حشمة بصورة الخالق فوق المذبح، وهو متصدِّرٌ مثل زيوس إله القدماء بين خيوط الأشعة الذهبية، وطلبتُ منه معجزة. لا أعرف، في اللحظة التي أكتب فيها هذه

السطور، إذا كانت المعجزة قد وقعت، ولن أعرف ذلك قبل الغد، وليس قبل الفجر. غير أنَّ مؤشِّراً أول قد ظهر فيما يبدو لي.

سمعتُ بشرودٍ عظةَ الأب توماس المكرسة للميلاد والتضحيات التي يجب أن نقبل بتقديمها شكراً للسماء على إرسالها المسيح إلينا. إلى أن طلبَ من المصلِّين، في جُمَلِهِ الأخيرة، تكريس صلاةٍ حارة لمن يترتب عليهم، من بين الحاضرين، الإبحار في الغد، لكي تتم رحلتهم دون مخاطر ولا يثور البحر. التفتت بعض النظرات إلى رجل نبيل في الصف الأول يضع قبعة قبطان تحت ذراعه، وجَّهَ نحو رئيس القداس انحناءةَ عرفانٍ خفيفة.

في اللحظة ذاتها، فَرَضَ الحلُّ الذي كنتُ أبحث عنه، نفسَهُ في ذهني: الرحيل في الحال، حتى دون المرور بمنزل السيد بارينيلّي. الذهاب إلى السفينة مباشرةً، الصعود إليها، قضاء الليل فيها، من أجل الابتعاد بأسرع ما يمكن عن أولئك الذين يلاحقوننا. إنه عصر حزين ذاك العصر الذي لايملك فيه البريء حيلة أخرى سوى الهرب. لكن حاتم على حق، فإذا ارتكبتُ خطأ اللجوء إلى السلطات، فإني أخاطر بالتخلي عن ثروتي وحياتي لها. أولئك الأشرار يبدون شديدي الثقة من أنفسهم. ما كانوا لِيَتَبَختَروا بهذا الشكل لو لم يكن لهم شركاء في أعلى الدوائر. وأنا الغريب «الكافر»، «الجَنَويّ الكلب»، لن أحصل على حقي ضدهم أبداً. لو أنني عاندت، كنت سأعرِّض حياتي وحياة أقربائي للخطر.

عندما خرجت من الكنيسة، ذهبتُ لرؤية قبطان السفينة الذي يدعى بوفوازان، وسألته إذا كان يفكر، مصادفةً، بالتوقف قرب شميرنا. للحقّ أنني كنت، نتيجة الحالة التي وضعتني بها زيارةُ سجَّاني منذ هذا الصباح، مستعداً للذهاب إلى أي مكان. لكنني كنتُ سأخيف محدِّثي إذا جعلتُهُ يشعر بأنني أسعى للهرب. أسعدني أني علمتُ أنَّ السفينة تتوقف بالفعل عند شميرنا لتحميل بعض البضائع، وأيضاً لكي تُنزِل السيد روبولي التاجر الفرنسي الذي التقيت به بصحبة الأب توماس، والذي يشغل منصب سفير بالنيابة. اتفقنا على سعر من أجل الرحلة وأيضاً من أجل الطعام، يبلغ عشرة ريالات فرنسية، وهي تعادل ثلاث مئة وخمسين ميدَناً، يُدفَع نصفها عند الانطلاق ونصفها الآخر عند الوصول. أوصاني القبطان بشدة ألا أتأخر عند الانطلاق الذي سيتم مع

خيوط الفجر الأولى، وأجبتُهُ بأننا سنصعد منذ هذا المساء إلى السفينة كي لا يحدث أي تأخير.

هذا ما فعلناه. بعتُ البغال التي بقيت لي، وأرسلتُ حاتم بسرعة إلى بارينيلّي ليشرح له رحيلنا المتعجِّل ويجلب لي دفتري وبعض الأشياء الأخرى. ثم صعدت السفينة مع مارتا وابني أختي. وها نحن الآن على متنها. لم يعد تابعي بعد. أنتظره من لحظة إلى أخرى. فقد خطّطَ للدخول عند صاحب النزل من باب خفيّ، في الخلف، لمغافلة رجال سجّاننا. وأنا أثق بشطارته لكني أشعر بالقلق. تناولت طعاماً قليلاً جداً، خبزاً وبلحاً وثماراً مجففة. يبدو أنَّ هذه أحسن طريقة لتجنُّب دوار البحر.

مع ذلك، ليس دوار البحر هو الذي يخيفني في هذه اللحظة. لاشك أني أحسنتُ صنعاً بالصعود إلى السفينة بهذه السرعة وبعدم المرور ببيت بارينيلّي، لكني لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأنَّ بعض الأشخاص في هذه المدينة بدؤوا بالبحث عنا منذ بضع ساعات. ومهما كانوا قصيري الباع ولم يفكروا بالبحث جهةَ الميناء، فربما يتم إيقافنا كَجُناة. ربما كان عليَّ أن أعترف للقبطان حول أسباب عجلتي، حتى وإن كان ذلك لمجرّد أن يتكتّم بشأن حضورنا على متن السفينة، ويعرف بماذا يجيب إذا جاء شخص مريب بحثاً عنا. لكني لم أجرؤ أن أطلعه على مصائبي خوفاً من أن يعدِل عن قبولنا بين ركاب سفينته.

سيكون هذا الليل طويلاً. وإلى أن نغادر الميناء غداً صباحاً، فإنَّ أي ضجةٍ ستثير قلقي. يا رب، كيف انجرفتُ بهذا الشكل دون أن أقترف أي جرم، من حالة التاجر الشريف والمحترم إلى حالة الخارج عن القانون؟

بهذا الخصوص، وجدتُ نفسي وأنا أتكلم أمام الكنيسة مع القبطان، أقول بأني أسافر مع تابعي وابني أختي و«امرأتي». نعم، ففي حين أني وضعتُ، منذ وصولي إلى القسطنطينية، حداً لهذه الخدعة، هاأنذا، عشية سفري، أعيد طرح العملة الزائفة في التداول، إذا أمكن القول، وبالطريقة الأكثر طيشاً: هؤلاء الناس الذين أستعد للسفر معهم ليسوا أفراد قافلة حلب المجهولين، إذ يوجد بينهم جنتلمانات يعرفون اسمي وربما تكون لي أعمال معهم يوماً ما.

أمكنَ للقبطان أن يقول للأب توماس بأنه قَبِلَ أن يأخذني مع زوجتي. أتخيل موقف هذا الأخير. لا بدَّ أنه لم يصحِّح، لكنني أحزر ماأمكنه أن يفكر به.

ما الذي يدفعني للتصرف على هذا النحو؟ سيقول البسطاء إن الحب هو الذي يدفع بالمرء لمخالفة الصواب. دون شك، لكن هناك أشياء أخرى غير الحب، هناك اقتراب العام المقدَّر، ذلك الشعور بأنَّ أفعالنا لن يكون لها مآل، وأنَّ خيط الأحداث سينقطع، وأنَّ زمن العقاب لن يأتي، وأنَّ الخير والشر، المقبول وغير المقبول سيختلطان قريباً في الطوفان نفسه، وأنَّ الصيادين سيموتون في لحظة موت فرائسهم ذاتها.

لكنه آن أوان إغلاق هذا الدفتر... الانتظار والقلق هما اللذان جعلاني أكتب ما كتبتُهُ هذا المساء. ربما سأكتب غداً شيئاً آخر تماماً.

الاثنين 30 تشرين ثاني1665

إذا اعتقدت أن الفجر سيجلب لي الخلاص، فقد خاب ظني حقاً، وسأفشلُ في إخفاء قلقي عن رفاق رحلتي.

انقضى النهار كله في الانتظار، وأجد مشقة في أن أشرح لمن يسألني عن سبب بقائي على متن السفينة في حين يستفيد جميع المسافرين الآخرين وأعضاء الطاقم من التوقف لكي يذهبوا لتَقَصِّي السوق. التفسير الذي وجدتُهُ هو أنني أنفقتُ أثناء إقامتي أكثر مما كنتُ أتوقع، وأنني أصبحتُ بالتالي خالي الوفاض، وأنني لا أريد إعطاء ابني أختي أو «امرأتي» الفرصة لإنفاق المزيد أيضاً.

سبب تأخرنا هو أنَّ القبطان علم ليلاً بأنَّ السيد دو لاهيه وصل أخيراً إلى القسطنطينية لاستلام مهامه بعد خمس سنين من تعيينه خلفاً لوالده. وهذا بالنسبة لجميع فرنسيي هذا القطر، حدث مهمّ يرجى أنه سيساعد في تحسين العلاقات بين التاج الفرنسي وتاج السلطان. يدور كلام عن تجديد الامتيازات التي تمَّ التوقيع عليها في القرن الماضي

بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني[*]. أصرَّ قبطاننا وصاحب السفينة والسيد روبولي على الذهاب إلى السفير للترحيب به والتعبير عن آيات الاحترام له.

خلتُ هذا المساء أنني فهمتُ بأن السفير، وإثرَ تعقيداتٍ معينة، لم يطأ الأرض بعد، وأنَّ المباحثات مع سلطات السلطنة لم تصل إلى نتيجة بعد، وأنَّ سفينته، سيزار العظيم، ترسو عند مدخل الميناء، مما يدعو إلى الخشية من أننا لن ننطلق إلاَّ مساء الغد في أقرب تقدير، وربما حتى بعد غد.

هل يمكن ألاَّ يفكِّر مُطارِدونا، من الآن حتى ذلك الوقت، بالبحث عنا في الميناء؟ فرصَتُنا هي أن يعتقدوا بأننا سافرنا برّاً إلى جبيل، فيبحثوا عنا حول سكوتاري وعلى طريق إزميت.

ثمة احتمال أيضاً أن يلجأ هؤلاء المشبوهون إلى الخداع العنيف لإفزاعي وإرغامي على الدفع لهم، لكنهم يخشون بقدر ما أخشى من التعقيدات التي قد تنجم من حادث يقع في الميناء مع رعايا أجانب لن يتوانى السفراء والقناصلة عن حمايتهم.

عاد حاتم سالماً ولكن بخفي حنين. لم يستطع الدخول إلى منزل بارينيلّي لأنه مراقَب من الأمام والخلف. نجحَ على الأكثر في إيصال رسالة إلى مضيفنا يطلب منه فيها التكرُّم بحفظ أشيائنا عنده بانتظار أن نتمكَّن من استعادتها.

يؤلمني أن لا يكون دفتري معي، وأن أتخيل أنَّ عينَيْنِ نذلتين ربما تعرِّيانِ خصوصياتي. هل سيحميها الوشاح الذي أغلفها به؟ يجدر بي ألاَّ أفكر بالأمر أكثر من اللازم، وألاَّ أعكِّر دمي أو أندم. الأفضل أن أثق بالعناية الإلهية وبحسن طالعي وخاصةً ببارينيلّي الذي أكنُّ له أعظم المحبة وأريد الاعتقاد بأنه عاجز عن التصرف بعدم لباقة.

(*) سليمان القانوني: أشهر السلاطين العثمانيين، خلف والده سليم وكان حليف فرانسوا الأول.

في البحر، الأول من كانون الأول 1665

فوجئتُ عند استيقاظي بأكثر المفاجآت إنعاشاً: لم نعد في الميناء. أمضيت ليلةً من الغثيان والأرق ولم أجد النوم إلاّ عند اقتراب الفجر، لكي أستيقظ وسط النهار في عرض بحر مرمرة.

سبب هذا الإبحار هو أنَّ السيد روبولي عدَلَ أخيراً عن سفره لكي يبقى بعض الوقت قرب السفير ويضعه في صورة الأحداث التي جرت في غيابه عندما كان يقوم بمهامه بالنيابة. وهكذا رأى صاحبُ سفينتنا أنه لا فائدة من مزيد من التأخير، خاصةً أنه هو نفسه ليس ملزماً بالذهاب لتحية السيد دو لا هيه، وأنه لم يفكر بادئ الأمر بالقيام بذلك إلاَّ بصحبة السيد روبولي.

ما أن انتبهتُ إلى أننا أبحرنا، حتى تلاشى دوار البحر لدي، بينما كان يتفاقم عادةً مع الابتعاد عن الميناء.

إذا واتتنا الريح وبقي البحر هادئاً، قيل لي بأننا سنكون في شميرنا في أقل من أسبوع. لكننا في كانون الأول وسيكون من المدهش حقاً أن يبقى البحر راكداً.

بما أنني الآن أكثر صفاءً سأدوِّن هنا، مثلما تعهَّدتُ، الحادث الذي وضع مسافةً بيني وبين الدين، وجعلني أشكُّ بالمعجزات خصوصاً.

قلت إنني كففتُ عن الإيمانِ بها في الثالثة عشرة من عمري. وكنتُ حتى ذلك الوقت أُشاهَد دوماً وبيدي مسبحة وسط نساءٍ بالثياب السوداء، وكنت أحفظ غيباً فضائل جميع القديسين. زرتُ أكثر من مرة كنيسة إفريم، وهي مكان متواضع حُفر في صخرة، عاش فيه سابقاً ناسكٌ من أشد الناس تُقىً يُمَجِّد الناسُ اليوم في جبيل معجزاته التي لاتُحصى.

ذات يوم، في حوالى الثالثة عشرة من عمري، لدى عودتي من إحدى زيارات الحج تلك، وبينما كانت لائحةٌ طويلة من المعجزات

مايزال يتردد صداها في أذنيّ، لم أستطع منع نفسي من أن أقصّ على والدي قصة المشلول الذي استطاع نزول الجبل على قدميه، وقصةَ مجنونةِ قريةِ إبرين التي عاد إليها صوابُها فور ملامسة جبينها للصخرة الباردة التي هي مسكن القديس. أحزنني جداً الفتورُ الذي كان يظهره والدي حيال قضايا الإيمان، خاصةً منذ أن أوحت لي سيدةٌ تقية من جبيل بأنه إذا ماتت أمي باكراً بهذا الشكل - لم يكن لي وقتها من العمر سوى أربع سنين، وهي لم تكن تزيد كثيراً عن العشرين - فهذا لأنه لم يُصَلِّ قرب سريرها بالورع المطلوب. لذا حقدتُ على والدي وأردتُ إعادته إلى جادة الصواب.

استمع إلى قصصي موجبة العِبْرة دون أن يبدي شكاً ولا دهشة. وجه عديم التأثر ورأس يهزه دون كلل. عندما أنهيت كل ما في جعبتي لذلك اليوم، نهض وهو يطبطب بشكل خفيف على كتفي كي أبقى في مكاني، وذهب إلى غرفته ليحضر كتاباً رأيته مراراً بين يديه.

وضعه على الطاولة قرب المصباح وراح يقرأ لي باليونانية قصصاً مختلفة تروي كلها معجزات شفاء. أغفَل أن يحدد لي القديس الذي قام بهذه المعجزات، مفضِّلاً، كما قال، أن يجعلني أحزر ذلك بنفسي. أعجبتني تلك اللعبة. كنت أشعر أنني أتمتع بكفاءة كافية للتعرف على أسلوب صانع المعجزات. ربما القديس أرسين؟ أو بارتولومي؟ أو سمعان العمودي؟ أو ربما بروزربين؟ سوف أحزر!

الحكاية الأكثر سحراً والتي جعلتني أهلل هي التي جاء فيها أنَّ رجلاً اخترق سهمٌ رئته واستقرَّ فيها؛ وبعد أن قضى ليلةً قرب القديس، حَلِمَ بأنَّ هذا قد لمسه، وفي الصباح كان قد شفي. كانت يده اليمنى مغلقة وحين فتحها وجد فيها السهم الذي انغرس في جسده. حكاية السهم هذه جعلتني أعتقد بأنه ربما يكون القديس سباستيان. قال والدي لا. طلبت منه أن يدعني أحزر أيضاً لكنه لم يشأ إطالة اللعبة أكثر، وأعلن لي ببرود أن صاحب معجزات الشفاء هو... أسكليبيوز. نعم، أسكليبيوز إله الطب اليوناني في مصحِّهِ إبيدور الذي توجه إليه عدد لا يحصى من الحجاج خلال قرون. الكتاب الذي يحوي هذه الحكايا هو الكتاب الشهير بيرييجيس أو *وصف اليونان* الذي كتبه بوزانياس في القرن الثاني من تقويمنا.

عندما كشف لي والدي عن حقيقته، هزني الأمر حتى أعماق إيماني.

«إنها أكاذيب، أليس كذلك؟»

«لا أعرف. ربما كانت أكاذيب، لكنَّ الناس آمنوا بها بما يكفي لكي يعودوا، عاماً بعد عام، للاستشفاء في معبد أسكليبيوز.»

«الآلهة المزيفة لا تستطيع اجتراح المعجزات!»

«دون شك، يجب أن يكون لديك إدراك.»

«أنت، هل تؤمن بذلك؟»

«ليست لدي أدنى فكرة.»

نهض وذهب كي يعيد كتاب بوزانياس من حيث أخذه.

منذ ذلك الوقت لم أحجّ إلى كنيسة إفريم، كذلك لم أعد أصلّي كثيراً، دون أن أصبح مع ذلك كافراً حقيقياً. أنظر اليوم إلى كل من يصلّي ويجثو ويركع، نظرةَ والدي نفسها، المتحررة من الوهم، النائية، الخالية من الاحتقار ومن الاحترام، لكنها الحرة من كل يقين. ويروق لي الاعتقاد بأن الله يفضِّل من جميع مخلوقاته، أولئك الذي عرفوا كيف يصبحوا أحراراً. ألا يشعر والدٌ بالرضى عند رؤية أبنائه يخرجون من الطفولة لكي يصبحوا رجالاً، حتى لو خدَشْتُهُ مخالبهم الوليدة قليلاً؟ لماذا يكون الله والداً أقل رفقاً؟

في البحر، الأربعاء 2 كانون الأول

اجتزنا الدردنيل ونتجه جنوباً. البحر هادئ وأنا أتنزه فوق جسر السفينة، ومارتا تمسك بذراعي مثل سيدة من فرنسا. ينظر إليها رجال الطاقم خلسةً بما يكفي فقط لإشعاري إلى أية درجة يحسدونني، مع بقائهم في غاية الاحترام بحيث شعرت بالفخر بسبب سلوكهم دون غيرة منه.

اعتدت على حضورها يوماً بعد يوم، وبشكل خفي، إلى درجة أني لم أعد أسميها «الأرملة»، كما لو أنَّ هذا اللقب لم يعد يليق بها. وهذا

رغم أنَّ هدف سفرنا إلى شميرنا هو الحصول على دليلِ تَرَمُّلِها. إنها مقتنعة بأنها ستحصل على ما تريد؛ أما أنا فإنني أكثر تشككاً. أخشى أن نقع بين أيدي موظفين مرتشين يختلسون كل النقود الباقية لدينا قرشاً وراء قرش. في تلك الحالة، يكون من الأفضل اتباع النصيحة التي قدَّمها لي حاتم والحصول على شهادة وفاة مزورة. مازلت لاأحب هذا الحل لكني لا أستبعده كملجأ أخير إذا انسدَّت جميع المسالك الشريفة. ليس وارداً على أية حال أن أذهب إلى جبيل وأتخلى عن المرأة التي أحبها، وواضح أننا لا نستطيع العودة إلى البلد معاً دون ورقةٍ، حقيقيةً كانت أم مختَلَقة، تسمح لنا بالعيش تحت سقفٍ واحد.

ربما لم أقل بعد كفايةً في هذه الصفحات بأنني الآن عاشقٌ كما لم أكن أيام شبابي قط. هذا لا يعني أني أريد إحياء الجراح القديمة التي أعرف أنها عميقة ولم تندمل بعد رغم مرور السنين - أريد فقط أن أقول بأنَّ زواجي الأول كان زواج عقل، أما الزواج الذي أطمح له مع مارتا فهو زواج عاطفة. زواج عقل في التاسعة عشرة، وفي الأربعين زواج عاطفة؟ تلك هي حياتي، ولا أشتكي. فأنا أُجِلُّ كثيراً الشخص الذي كان عليَّ أن أشتكي منه، ولا أستطيع لومَهُ على كونه أراد تزويجي من فتاةٍ جَنَويَّة. لقد حافظ أجدادي على لغتهم وأعرافهم وتعلُّقهم بأرضهم الأولى لأنهم تزوجوا دوماً نساءً جنويَّات. لم يخطئ والدي في هذا، وعلى أية حال، لم أكن لأخالفه. حظُّنا العاثر هو وقوعنا على ألفيرا.

كانت ابنة تاجر جنويٍ من قبرص، في السادسة عشرة، وكان والدها، مثل والدي، مقتنعاً بأنَّ قَدَرَها هو أن تصبح زوجتي. كنتُ بشكل ما، الشاب الجنوي الوحيد في هذا الجزء من العالم، وبدا اتحادُنا كأنه أمر طبيعي. لكنَّ ألفيرا كانت، من تلقاء نفسها قد وعدت شاباً من قبرص بتزويجه نفسها، وهو يوناني أحبَّتْهُ على نحوٍ مُهين وأراد أبواها إبعادها عنه بأية طريقة. رأتْ فيَّ منذ اليوم الأول مضطَهِداً لها، أو على الأقل شريكاً لمضطهِديها، في حين أنني كنتُ مرغماً على هذا الزواج بقدر ما كانت. كنتُ أكثر طواعية، وأسلم نيةً، وبي فضولٌ لاكتشاف تلك الملذات التي يقال بأنها فائقة، كنت أيضاً أستمتع بطقوس الاحتفالات، لكني كنتُ أمتثل للأوامر الأبوية نفسها.

كانت هي أشد كبرياءً من أن تخضع، أكثر افتتاناً بالشاب الآخر من أن تستمع أو تنظر أو تبتسم لي. كانت ألفيرا في حياتي فترةً حزينة لم يختزلها سوى الموت المبكر. لا أجرؤ على القول بأنّ هذا أمدَّني بالارتياح. ففيما يتعلق بها، لا شيء بالنسبة لي يذكّر بالارتياح والسلام والصفاء. كل هذه المغامرة السيئة لم تترك لي سوى وقاية عنيدة ضد الزواج واحتفالاته، وضد النساء أيضاً. أصبحتُ منذ العشرين من عمري أرملاً ورضيت بأن أبقى كذلك. لو أنني كنتُ أكثر ميلاً للصلاة، لَعِشْتُ في دير. لكنَّ ظروف هذه الرحلة وحدها هي التي جعلتني أعيد النظر في مخاوفي الراسخة. لكنني إذا كنتُ أستطيع تقليد حركات المؤمنين، فأنا أبقى، في هذا المجال أيضاً، رجلاً شكّاكاً...

كم يشقُّ عليَّ ذكر هذه القصة القديمة! كلما فكرت بها أتألم من جديد. لم يُسَوِّ الزمنُ شيئاً، أو أنه سوَّى الشيء اليسير...

الأحد 6 كانون الأول

نتعرض منذ ثلاثة أيام للعاصفة والرعد والرياح الماطرة والغثيان والدوار. قدماي تخوران تحتي مثل قدمي غريق. أبحث عن سندٍ على الأسوار الخشبية وعلى الأشباح التي تمرّ. أتعثَّر بدلوٍ، تُنهِضني ذراعان غريبتان على قدميّ، أسقط مجدداً في اللحظة التي تليها، في المكان نفسه. لماذا لم أبقَ في بيتي، أسطِّر، في هدوء محلّي، أعمدةً مستقيمة في سجلّي؟ أيّ جنونٍ دفعني للسفر؟ أي جنونٍ، بوجهٍ خاص، دفعني لركوب البحر؟

لم يُغضِب الإنسانُ الخالقَ بأكل الثمرة المحرَّمة، بل بركوب البحر! أيُّ زهوٍّ أن يمضي المرء هكذا، جسداً ومالاً، فوق الهادر اللامتناهي، أن يخطَّ دروباً فوق اليمّ، وهو يحكُّ بطرفِ مجاذيف الأقنان ظهر الوحوش المختبئة فيها، بهيموث، راحاب، لوياثان، عبَدون، ثعابين، وحوش، تنِّينات! تلك هي غطرسة البشر التي لا ترتوي، خطيئتهم التي تتجدد بلا توقف رغم العقاب.

ذات يوم، يقول سفر القيامة، بعد نهاية العالم، عندما يُصرَع الشر أخيراً، لن يعود البحر سائلاً، وسيصبح قارّة زجاجية يستطيع الناس السير فوقها دون أن يبتلوا. لن يعود هناك عواصف ولا غرق ولاغثيانات. لاشيء سوى جسم كريستالي أزرق عملاق.

بانتظار ذلك، مايزال البحر بحراً. شهدنا صباح هذا الأحد لحظة هدنة. ارتديت ثياباً نظيفة واستطعتُ أن أكتب بضعة السطور هذه. لكنَّ السماء اتَّشحت بالسواد من جديد واختلطت الساعات واضطرب البحارة والمسافرون على متن سفينتنا المزهوّة.

بالأمس، وفي أوج العاصفة، جاءت مارتا والتصقت بي. رأسها فوق صدري، وردفها لصقَ ردفي. بات الخوف شريكاً، صديقاً، وبات الضبابُ صاحب نزلٍ متعاطفاً. تعانقنا، رغب أحدنا بالآخر، اتحدت شفاهنا، وراح الناس يطوفون من حولنا دون أن يرونا.

الثلاثاء 8

بعد الانفراج القصير يوم الأحد، عدنا ثانيةً لنعيش وسط التقلُّبات الجوية. لا أعرف إن كانت «تقلُّبات جوية» هي التعبير المناسب، فالظاهرة غريبة للغاية... قال لي القبطان بأنه خلال عشرين عاماً من الإبحار في كل البحار، لم يرَ هذا أبداً. وبالتأكيد ليس في بحر إيجة على أية حال. هذا النوع من الضباب الدَّبِق الذي يركد ثقيل الوطء ولاتزيحه الريح. بات الهواء سميكاً وتلوَّن بلون الرماد.

تتعرَّض سفينتنا باستمرار للهزّ واللطم والدفع، لكنها لا تتقدم، كما لو أنها مخوزقة على أسنان مذراة. انتابني فجأةً شعور بأنني في لا مكان ولا أذهب إلى أي مكان. ومن حولي لا يتوقف الناس عن رسم شارات الصليب، وشفاههم تضطرب. لا يجدر بي أن أخاف، لكنني خائف مثل طفلٍ في بيت خشبي أثناء الليل وقد انطفأت آخر شمعة وراحت ألواح الخشب تَصِرّ. أبحث بعينيَّ عن مارتا. إنها جالسة،

ظهرها باتجاه البحر، تنتظر أن أنتهي من الكتابة. أسرع بترتيب محبرتي وأدواتي لكي أذهب إليها وأمسك يدها وأحتفظ بها طويلاً في يدي مثل تلك الليلة في بيت الخياط حيث نمنا في السرير نفسه. كانت آنذاك متطفِّلةً في رحلتي، فيما هي الآن بوصلتها. الحب تَطَفُّلٌ دوماً. المصادفة تصبح واقعاً والعاطفة تتحول إلى عقل.

تزداد سماكة الضباب أكثر، وينبض الدم في صدغيّ.

الأربعاء 9

إنه الغسق عند الظهر، لكن البحر لم يعد يهزّنا. كل شيء هادئ فوق المركب، لا يتبادل الناس التساؤلات، وحين يتكلمون، فبصوتٍ منخفضٍ وخائف كما لو أنهم يجاورون ملكاً. طيور قطرس تطير منخفضةً فوق رؤوسنا، وكذلك طيور أخرى سوداء الريش، أجهل اسمها وتطلق صيحات كريهة.

فاجأتُ مارتا وهي تبكي. لم تشأ أن تقول لي السبب، وزعمتْ أنه التعب وعذابات السفر. وعندما ألححتُ، اعترفت:

«منذ أن ركبنا البحر، ثمة شيء ما يقول لي بأننا لن نصل إلى شميرنا أبداً.»

هل هو نذير داخلي؟ أم صدى قلقها وكل مصائبها؟

جعلتُها تصمت بسرعة، وضعتُ يدي بسرعة فوق فمها كما لو أنه مايزال بمقدوري منعَ جملتها من الانطلاق في الأثير نحو آذان السماء. رجوتُها ألاّ تلفظ جملة مشابهة فوق مركبٍ بعد الآن أبداً. ما كان عليَّ أن ألحّ لكي أجعلها تتكلم. ولكن - يارب! كيف كان بوسعي أن أحزر بأنها تفتقر إلى هذا الحد للإيمان بالخرافات؟ لا أعرف إذا كان يجب أن أحترمها على ذلك أم أخاف منها.

حاتم وحبيب يتوشوشان بلا توقف، تارةً رصينين وتارةً لاهيين، ويصمتان ما أن أمرّ بجانبهما.

أما بومة فيتنزه فوق المركب من الصباح حتى المساء، غارقاً في تأملات لا يُسبَر غورها، صامتاً منهمكاً، وعلى زاوية فمه تلك الابتسامة الجافية التي ليست ابتسامة. ومايزال زغب لحيته مبعثراً، بينما بدأ شقيقه الأصغر بحلاقة ذقنه قبل ثلاث سنين. ربما أنه لا ينظر إلى النساء كفايةً. إنه أصلاً لا ينظر إلى شيء، لا إلى الناس ولا إلى الأحصنة ولا إلى الزينات. إنه لا يعرف سوى جلد الكتب. لقد مرَّ بجانبي مراراً دون أن يراني.

لكنه جاء مساءً يطرح عليَّ أحجيةً:

«هل تعرف كنائس الرؤيا السبع؟»

«لقد قرأتُ أسماءها، هناك أفسُس وفيلادلفيا وبرغامُس، على ماأظن، وسارِدِس وثياتيرا،...

«هذه هي، ثياتيرا، هي التي نسيتُها.»

«انتظر، هذه ليست سوى خمس!»

لكن ابن أختي راح، دون انتظار، يستظهر، كما لو أنه يحدِّث نفسه:

«أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضِّيْقةِ وفي ملكوت يسوع المسيح وصبرِهِ كنتُ في الجزيرة التي تُدعى بَطْمُسَ من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح. كنتُ في الروح في يوم الرب وسمعتُ ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوقٍ قائلاً: الذي تراه اكتبْهُ في كتابٍ وأرسِلْه إلى السبع الكنائس: إلى أُفَسُسَ وإلى شميرنا وإلى بَرْغامُسَ وإلى ثِياتيرا وإلى سارِدِسَ وإلى فيلادلفيا وإلى لاودِكِيَّةَ.»

يا ربّ! لماذا نسيتُ شميرنا؟

الجمعة 11

كان حدْسُ مارتا خاطئاً، فقد وصلنا إلى شميرنا.

بما أنني الآن أقف فوق أرضٍ ثابتة، أستطيع أخيراً أن أكتب هذا

دون أن ترتجف يدي: طوال الرحلة، كان لديَّ انطباعُها نفسُه. بل وأكثر من انطباع، كان قناعةٌ فظيعة وانقباضاً في الأحشاء بذلتُ جهدي بشجاعة لأخفيه عن الآخرين. نعم، كان لدي انطباعُ مَن يُسافر للمرة الأخيرة. وربما يكون هذا آخر سفر أقوم به، لكنه ما كان لينتهي قبل مرحلة سميرنا. تساءلتُ فقط كيف ستحدث النهاية. أول الأمر، عندما ثارت العاصفة، اقتنعتُ بأننا سنهلك غرقى. ثم، وكلما هدأ البحر والسماء وفي الوقت نفسه أظلَما، أصبحت مخاوفي أكثر غموضاً وأصبح الاعتراف بها أصعب. لم تعد لديَّ المخاوف العادية لجميع الذين يبحرون، لم أكن أجوب الأفق لترقُّب القراصنة أو العاصفة أو الوحوش التي يتكلمون عنها. لم أكن أخشى النار ولا الوباء ولاالتيارات المائية ولا السقوط عن ظهر المركب. لم يعد هناك أفق ولاظهر مركب. لم يعد هناك سوى ذلك الغسق الذي لا ينقطع، سوى ذلك الضباب الدبِق، تلك الغيمة المنخفضة، غيمة نهاية العالم.

إني مقتنع بأن جميع رفاق رحلتي كان لديهم الشعور نفسه. كنتُ أستشفُّ ذلك من نظراتهم التي هي نظرات محكومين مُنْكِرين، وكذلك من وشوشاتهم. كما أني رأيتُ بأية عَجَلَةٍ نزلوا من المركب.

حمداً لله، إننا الآن على أرض شميرنا. صحيح أنه الغسق، لكنه غسقٌ في وقته. منذ دخولنا الخليج، انكشفت السماء. وغداً سنرى الشمس.

في شميرنا، السبت 12 كانون الأول 1665

نمنا في دير الكبُوشيين وحلمتُ بالغرق. طوال مدة الإبحار أمضيتُ أيامي في الخوف، لكنني حين أنام كنتُ أحلم بنفسي فوق الأرض الثابتة، في بيتي في جبيل.

استقبَلَنا رجالُ الدين بتهذيب ولكن دون هِمَّة. مع أنني استشهدتُ بالأب توماس من باريس، بتعسُّفٍ إلى حد ما، هذا صحيح. لو أنني طلبتُ منه رسالة توصية لَكَتبَها لي. حدثت الأمور بسرعةٍ إلى درجة أني

حتى لم أخبره بسفري الوشيك. لم أشأ أن يعرف مطارديَّ في القسطنطينية عندما يتوجهون إلى الكنيسة، إلى أين ذهبت، من فمه. كان باستطاعتي دون شك أن أرجوه ألاَّ يقول شيئاً، لكنني عندها سيتوجب عليَّ أن أشرح له لماذا أُطارَد، وأدفعه للكذب من أجل حمايتي... باختصار، أتيت دون توصية، وتصرَّفتُ كما لو أنَّ لديَّ توصية. حتى أنني أسميتُ الأب توماس «نَجيِّي»، وهو وصفٌ ليس بكاذب وإن كان مفرِطاً ومتبجِّحاً بعض الشيء.

لكنني اليوم لا أريد الكلام عن هذا بشكل خاص. أردتُ متابعة تسلسل مذكراتي الزمني، الكلام عن الليلة الماضية وعن حلمي أولاً، قبل الوصول إلى الجوهري، إلى الأشياء الغريبة التي تحدث في هذه المدينة والتي تُنقَل لي من كل صوب. مصادري عديدة. الأساسيّ منها راهب كبوشيّ عجوز جداً هو الأب جان باتيست دو دوي الذي يعيش منذ عشرين عاماً في المشرق، والذي عاش من قبل خمسة عشر عاماً في جنوة ويحتفظ بحنين إليها ويجلُّها كما لو أنها مسقط رأسه. يقول إنه إطراء له أن يتحدث مع سليل آل أمبرياتشي الأماجد، ويفتح لي قلبه كما لو أنه عرفني منذ الطفولة. لكني أعتمد أيضاً على، فيما سأورده بعد قليل، على أجانب آخرين صادفتُهم اليوم، وكذلك على أناسٍ من البلد.

الجميع يؤكدون أنَّ رجلاً من هذه المدينة، يهودياً يدعى سابَّاتاي، أو شابتاي أو أيضاً شابتيه، أعلن نفسه مسيحاً، وأنه يعلن نهاية العالم في عام 1666، وفي شهر حزيران تحديداً، على ما أظن. الأغرب هو أنّ معظم أهل شميرنا، حتى بين المسيحيين أو الأتراك وحتى بين من يسخرون من الشخص، يبدون مقتنعين بأنَّ نبوءته ستتحقق. حتى الأب جان باتيست شخصياً، الذي يؤكد بأنَّ ظهور مسيح دجال هو إشارة تؤكد على نهاية الزمن الوشيكة.

يقولون لي بأنَّ اليهود ماعادوا يريدون العمل، أنهم يقضون أيامهم بالصلاة والصوم. دكاكينهم مغلقة، ويجد المسافرون مشقة كبيرة في العثور على صرَّاف. لم أستطع التحقق من الأمر، اليوم أو مساء الأمس، لأنه يوم سَبْتِهِم، لكني سأرى ذلك غداً الذي هو يوم الرب

بالنسبة لنا وليس بالنسبة لليهود أو للأتراك. سأتوجه إلى حيِّهم الواقع على سفح التل باتجاه القصر القديم، في حين يقيم الأجانب الموجودون هنا، الإنكليز والهولنديين خصوصاً، عند شاطئ البحر، إلى جانبَيْ الشارع الكبير المحاذي للميناء. عندها أستطيع أن أرى إذا كان ماقيل لي صحيحاً.

13 كانون الأول 65

يتكلم اليهود عن معجزة، وبالنسبة لي، أنا الذي طالما عشتُ في بلدٍ عثماني، إنها كذلك: مسيحهم المزعوم سليمٌ لم يصبه أذى، رأيتُه بأم عيني يخرج إلى الشارع حراً، وينشد بأعلى صوته! مع أن الجميع هذا الصباح ظنوا بأنه ميت.

استُدعِي إلى القاضي الذي يسنُّ القانون في سميرنا، والذي اعتاد أن يبطش بأعنف الأشكال عندما يتهدَّد النظام العام. وما يحدث في شميرنا هو بالنسبة للسلطات أكثر من تهديد، إنه تحدٍّ غير مسبوق، كيلا نقول إهانة. لم يعد أحد يعمل، وليس اليهود فقط. لم تعد هناك حركة بيع أو شراء في هذه المدينة التي هي إحدى المدن التي يوجد فيها أكبر عدد من التجار الأجانب. لم يعد حمَّالو الميناء يريدون تحميل أو تنزيل البضائع. أُغلقت الدكاكين والورشات، وتجمهَرَ الناس في الساحات للحديث عن نهاية الزمن وزوال الامبراطوريات. يقال إنَّ وفوداً بدأت تصل من أبعد البلدان للسجود أمام قدمي المدعو سابَّاتاي الذي لا يسميه أنصارُهُ مسيحاً فقط بل ملك الملوك.

أقول «أنصاره»، وليس «اليهود»، لأن هؤلاء منقسمون جداً. الغالبية تعتقد أنه هو حقاً المنتَظَر الذي بشَّرَ به الأنبياء، لكنَّ بعض الحاخامات يرون فيه نصَّاباً ومُنتَهِكَ حرمات لأنه يسمح لنفسه بلفظ اسم الله دون ترميز، وهو الشيء الممنوع عند اليهود. يقول أنصاره بأنه لايمكن أن يكون هناك شيء ممنوع على المسيح، وأنَّ هذا الانتهاك هو المؤشر الحقيقي على أنَّ هذا الـ سابَّاتاي ليس مؤمناً عادياً بين المؤمنين. يبدو أنّ الصراع بين هذين الشقَّيْنْ مستمر منذ

شهور دون أن ينتشر الأمر خارج طائفتهم. لكنَّ الخلاف أخذ شكلاً آخر منذ بضعة أيام. فقد اندلعت أحداث في الشارع، واتهم يهودٌ يهوداً آخرين بالكفر أمام جمهرةٍ من مسيحيين وأتراك لم يفهموا شيئاً.

وبالأمس وقع حادث خطير، ساعة الصلاة، في كنيس كبير يسمونه هنا الكنيس البرتغالي. اجتمع هناك خصوم سابَّاتاي ولم يريدوه أن يأتي، لكنه أتى محاطاً بأنصاره وأخذ يحطِّم باب المبنى بضربات فأس. بعد هذا الحادث قرر القاضي استدعاءه. علمتُ بالأمر في ساعة مبكرة جداً هذا الصباح، من فم الأب جان باتيست المهتمّ بهذه الأحداث عن كثب. هو الذي شجَّعني على المكوث أمام مقر القاضي لكي أشاهد قدوم سابَّاتاي، وأخبره بما رأيت. لم أدعه يرجوني، ففضولي يشتدّ أكثر كل يوم، وأشعر بأنَّ حضوري شاهداً على اضطراباتٍ بهذه الخطورة، هو أشبه بالامتياز. إنه امتياز وأيضاً إشارة - لماذا أبقى خائفاً من هذه الكلمة؟- نعم إشارة. ما الاسم الآخر لما يحدث؟ خرجت مسافراً من جبيل بسبب جميع الشائعات عن عام الوحش، وفي الطريق لحقت بي امرأةٌ حدَّثَها الناسُ دوماً عن شميرنا لأنها المكان الذي شوهد فيه زوجها للمرة الأخيرة! وحبَّاً بها وجدت نفسي في هذه المدينة، وها أنذا أكتشف أن نهاية العالم قد أُعلن عنها الآن وهنا. لم يبقَ بيننا وبين عام 1666 سوى بضعة أيام، وأنا بصدد فقدان شكوكي مثلما يفقد آخرون إيمانهم. سوف أُسأل: وهل ذلك بسبب مسيح دجَّال؟ لا، بل بسبب ما رأيتُه اليوم وما لم يعد عقلي يساعدني على فهمه.

لا يمكن مقارنة مقر القاضي بقصور القسطنطينية، لكنه من بعيد أكثر المباني مهابةً في سميرنا. ثلاثة طوابق من الأروقة اللطيفة المقنطَرة، وبوابة لا يمر الناس أمامها إلاَّ خافضي الرؤوس، وحديقة واسعة ترعى فيها خيول الحرس. فالقاضي ليس قاضياً وحسب، لكنه أيضاً ممثل الحاكم. وإذا كان السلطان هو ظل الله على الأرض، فالقاضي هو ظل السلطان في المدينة. هو المسؤول عن إبقاء الرعايا في حالة خوف سواء كانوا أتراكاً أو أرمن، يهوداً أو يونان، وحتى لو كانوا أجانب. لا يمضي أسبوع دون أن يُعاقَب رجل شنقاً أو خوزقةً أو بقطع رأسه، أو خنقاً بكل احترام، إذا كان الشخص عالي المقام، وقرر الباب العالي ذلك. لذا لا يأتي الناس أبداً للتسكع قرب المقر.

وهذا الصباح بالذات، كان المتسكِّعون جمهرةً في الجوار، منتشرين في شوارع الحي، يرقبون مستعدين للتفرُّق عند أول إنذار. بينهم العديد من اليهود بقلنسوات حمراء، يتحدثون بورعٍ بصوت منخفض، ولكن كان هناك أيضاً كثير من التجار الأجانب ممَّن جاؤوا مثلي لحضور المشهد.

فجأةً سُمعت جلبة. «ها هو!» قال لي حاتمٍ وهو يشير لي بإصبعه إلى رجل أصهب اللحية، يرتدي معطفاً طويلاً وغطاء رأس مرصع بالأحجار الكريمة. يحتذي خطاه زهاء خمسة عشر شخصاً من جماعته، بينما يتبعهم نحو مئة شخص آخر عن بعد. كان يمشي بخطى بطيئة لكنها ثابتة، كما يليق بشخصٍ رفيع المقام، وفجأةً بدأ ينشد بصوتٍ مرتفع وهو يحرِّك يديه كما لو أنه يعِظُ الحشد. ومن خلفه راح بعض تلامذته يتظاهرون هم أيضاً بالغناء، لكنَّ أصواتهم لم تكن تخرج من حناجرهم، ولم يكن يُسمع إلاَّ صوته. من حولنا، راح بعض اليهود يبتسمون من الرضى وهم ينظرون بطرف أعينهم إلى مجموعة صغيرة من الجنود الانكشاريين الذين يقومون بالحراسة. مرَّ ساباتاي قريباً جداً منهم دون أن ينظر إليهم وهو يتابع إنشاده بشكل أقوى. كنتُ متأكداً من أنهم سيحتجزونه ويسيئون معاملته، لكنهم اكتفوا بابتسامات عريضة مستطرِفة، كما لو أنهم أرادوا أن يقولوا له: «سوف نرى كيف ستغني عندما ينطق القاضي بحكمه!»

كان الانتظار طويلاً، وراح بعض اليهود يصلون وهم يهزون جذوعهم، وبدأ بعضهم يبكون. أما التجار الأوروبيين، فقد بدا بعضهم قلقاً وبعضهم الآخر ساخراً أو مُحتَقِراً، كلٌّ حسب نفسيته. حتى بين أفراد مجموعتنا الصغيرة، لم نسلك جميعنا السلوك نفسه. فقد كان بومة شديد الإشراق، شديد الفخر لتحققه من أن مَسار الأحداث يؤكد منذ الآن تنبؤاته بشأن العام القادم؛ كما لو أنه سيحظى بمعاملة متميزة عند نهاية العالم لأنه كان نافذ البصر! وفي تلك الأثناء، كان أخوه قد نسي المسيح الدجال ونهاية العالم ولم يعد لديه مِن هَمّ سوى أن يرمق بطرف عينه يهوديةً شابة تستند بارتخاء إلى الحائط على بعد بضع خطواتٍ منا، وقد خلعت الحذاء من إحدى قدميها وطَوَتْها. راحت من وقت لآخر تلقي نظرة على ابن أختي وتبتسم مخفِيَةً أسفل وجهها.

أمامها رجل ربما يكون زوجها أو والدها، يلتفت أحياناً مقطِّباً كما لو أنه يشكّ بشيء إلا أنه لا يرى شيئاً. حاتم وحده يتابع، مثلي، مناورات الغزل هذه التي يعرف كلٌّ منا بأنها لا تؤدي إلى شيء، لكن القلب كثيراً ما يتغذى من رغباته ذاتها، بل إنه يفرغُ بعد إشباعها.

أما مارتا فقد أظهرت كثيراً من التعاطف إزاء الرجل الذي ذهب لكي يُحاكَم، ثم مالت عليَّ لتسألني إذا لم يكن زوجها بالذات قد اقتيد، منذ بضع سنين قبل شنقه، إلى قاضي سميرنا هذا نفسه، وفي هذا المبنى نفسه. أضافت هامسةً: «رحمه الله!» وهي تفكر حتماً، مثلي: «عسى أن نستطيع الحصول على الدليل!»

سمعت فجأةً جلبة أخرى: خرج المُدان! لكنه لم يُدَنْ. لقد خرج حراً يتبعه جميع ذويه. وعندما رآه أولئك الذين ينتظرونه، وهو يخرج مبتسماً ويشير إليهم، بدأوا يصرخون: «أظهرتْ عدالةُ الأزليّ قدرتَها!» أجابهم ساباتاي بجملة مماثلة ثم راح ينشد كما فعل عند الوصول، وهذه المرة تجرَّأت أصوات أخرى أن تعلو دون أن تغطي على صوته مع ذلك، لأنه كان يصرخ حتى أخذ يلهث واحمرَّ وجهه.

لم يعرف جنود الحراسة الانكشاريون ماذا يقولون. في الأحوال العادية كانوا سيتدخلون رافعين سيوفهم. لكن هذا الرجل خرج حراً من عند القاضي، فكيف يمكنهم إيقافه؟ سيرتكبون هم أنفسهم ذنب عصيان الأوامر. بل لقد قرروا، بأمرٍ صرخَ به قائدهم، العودة للاحتماء بحديقة القصر. كان لحركة الانسحاب هذه أثر فوري على الحشد. راحوا يصرخون بالعبرية والأسبانية: «عاش الملك ساباتاي!» ثم مضوا في موكب وهم ينشدون بصوت أقوى شيئاً فشيئاً، باتجاه الحي اليهودي. ومنذ ذلك الوقت والمدينة بأسرها تعيش حالة غليان.

هل قلت أعجوبة؟ نعم أعجوبة، وأي اسم آخر أطلق على الأمر؟ في هذا البلد قُطِعت رؤوسٌ لسبب أقلُّ بثلاثين مرةً عما رأيتُهُ اليوم! لقد استمرت حتى بعد هبوط الليل مواكبٌ تسير في جميع الاتجاهات تدعو السكانَ من كل التَّبَعيات تارةً إلى المُتَع وتارةً إلى التوبة والصوم! معلنةً قدوم زمن جديد، زمن نهاية العالم. أطلقوا على العام الجديد ليس اسم «عام الوحش»، بل «عام الغفران التام». ما السبب؟ أجهل ذلك. مايظهر

بالمقابل واضحاً هو أنهم يَبدون سعداء لانتهاء هذا الزمن الذي قالوا بأنه لم يجلب لهم سوى الإذلال والاضطهاد والعذاب. ولكن، أيَّ شيءٍ سيكون عليه الزمن القادم؟ كيف سيكون العالم ما بعد نهاية العالم؟ هل يفترض أن نموت كلنا قبل ذلك في كارثة ما لكي تحدث القيامة؟ أم أن ذلك سيكون فقط بداية عصر جديد، مملكة جديدة، مملكة الله المُقامة على الأرض، بعد أن برهنتْ جميعُ الحكومات البشرية، قرناً بعد قرن، على جَورها وفسادها؟

لدى الجميع في سميرنا هذا المساء، شعور بأنَّ هذه المملكة على الأبواب، وأنَّ الممالك الأخرى، بما فيها مملكة السلطان، سوف يُقضى عليها. هل هذا هو السبب الذي دعا القاضي لإطلاق سراح ساباتاي؟ هل يريد مراعاة السيد القادم، مثلما يفعل كبار الأعيان في معظم الأحيان عندما يشعرون أن الرياح تغيِّر اتجاهها؟ قال لي تاجر إنكليزي اليوم، بنبرة تقريرية، إنّ اليهود دفعوا مبلغاً كبيراً للقاضي لكي يطلق سراح «مليكهم» سالماً دون أذى. يصعب أن أصدق ذلك. عندما يعلم الباب العالي بما حدث اليوم في سميرنا، فإنَّ رأس القاضي هو الذي سيسقط! لن يخاطر أيُّ رجل فَطِن هذه المخاطرة! هل عليَّ إذن أن أصدّق ما قاله لي تاجر يهودي وصل حديثاً من أنكون بأنّ القاضي التركي عندما وجد نفسه في حضرة ساباتاي، بهَرَهُ ضوء غريب وأصابه الارتعاش؛ وبعد أن استقبله دون أن ينهض، وخاطَبَهُ بنبرة مهينة، فقد رافقه نحو المخرج مقدِّماً له آيات الاحترام والتبجيل، متوسلاً إليه أن يغفر له سلوكه عند الاستقبال. هذا أيضاً يصعب عليَّ تصديقه. إنني في حيرةٍ من أمري، ولا شيء مما أسمعه يرضيني.

ربما أرى الأمور بصورةٍ أوضح في الغد.

الاثنين 14 كانون الأول 1665

اليوم أيضاً تسوِّل لي نفسي أن أحكي بأعلى صوتي عن الأعجوبة، لكني لا أريد الإساءة لهذه الكلمة باستعمالها بمعناها المبتذل. لذا سأحكي بالأحرى عن اللامتوقَّع، اللامنتَظَر وعن المصادفات المباركة:

عثرتُ للتو في أحد شوارع سميرنا على الرجل الذي أحب الحديث معه أكثر من أي شخص آخر.

نمتُ قليلاً الليلة الماضية. كل ما يحدث يشوشني إلى أقصى درجة، وأنا أدور وأدور حول نفسي باستمرار، داخل رأسي وأيضاً في سريري، أُسائل نفسي ما الذي يجب أن أصدقه، ومن الذي يجب أن أصدقه، وكيف أستعدُّ للانقلابات الوشيكة.

أذكر أني كتبتُ عشية سفري، بأنَّ عقلي قد يهتزّ. وَحَقِّ الشيطان، كيف لا يهتز؟ مع ذلك فإني أجتهد بلا توقف في حلِّ خيوط اللغز، بصفاء، بالقدر الذي أستطيعه من الصفاء. لكني لم أعد أستطيع حبْسَ نفسي في قلعة العقل مغمض العينين، وراحتاي تضغطان فوق أذنيّ، مردداً لنفسي بأن كل هذا غير صحيح، أنَّ العالم بأسره مخطئ، وأنَّ الإشارات لا تصير إشاراتٍ إلاً لأننا نترصّدها.

لا أنكر أنه منذ مغادرتي جبيل وحتى نهاية إقامتي في القسطنطينية، لم يحدث معي شيء فوق عادي، لا شيء يتعذَّر تفسيره بأنه من الطوارئ التي تحدث في الحياة. وفاة مارمونتيل التي حدثت بعد وفاة إدريس؟ هزتني هاتان الوفاتان في وقتهما، لكنه من طبيعة الأشياء أن يتوفى رجل عجوز وأن يغرق مركب. هذا أيضاً شأن الحريق في قصر جامع الكتب الوالاتشي النبيل. فمن الشائع حدوث كوارث من هذا النوع في المدن الكبيرة حيث تقام كثير من الأبنية الخشبية. صحيح أنه في كلٍ من هذه الحالات كان الأمر يتعلق بكتاب المازندراني. في الأحوال العادية كان الأمر سيدغدغني ويثير اهتمامي، وكنتُ سأرتجل حكمةً للمناسبة، ومن ثَمَّ أعود إلى همومي كتاجر.

أثناء رحلتي في البحر تزعزعت قلعة عقلي، أقولها بجلاء تام. وبجلاء تام أعترف أيضاً بأنه لم يقع أي حادث يُذكَر يمكنه تبرير ذلك. مجرد انطباعات غائمة جداً: تلك النهارات المظلمة على نحو غير عادي؛ تلك العاصفة التي ثارت بشكل فجائي وسكنت بالشكل الفجائي نفسه، وكل أولئك الناس الذين كانوا يتحركون صامتين في الضباب، كما لو أنهم لم يعودوا سوى أرواح جوَّالة.

ثم وضعت قدمي على معبر سميرنا، بخطى قليلة الثقة، آمِلاً أن أستعيد رشدي، وأعود، في هذه المدينة التي يحب الكثيرُ من التجار الأوروبيين الإقامة فيها، التاجرَ الجنويّ الذي كنتُهُ دوماً.

الأحداث التي تقع منذ وصولي، لا تدع لي للأسف، المجال لاستعادة رشدي. لم أعد أستطيع الكلام عن ظروف عَرَضيَّة، أو أن أتصرَّف كما لو أنَّ المصادفة المحضة هي التي قادتني، في نهاية هذه الرحلة التي سبَّبَها الخوفُ من العام الآتي، إلى المكان ذاتِهِ الذي ستُعلَن فيه نهايةُ الزمن، إلى سميرنا، في حين أنني لحظة مغادرتي جبيل، لم أفكر بالذهاب إلى هذه المدينة إطلاقاً! اضطررت لتغيير مسار رحلتي بسبب امرأةٍ ما كان يُفتَرَض تَواجُدُها في الرحلة. كما لو أن مارتا مكلَّفةٌ بأخذي إلى حيث ينتظرني قَدَري، إلى حيث راحت كل أحداث الطريق الطارئة تأخذ معناها أخيراً.

كل حدث من الأحداث التي قادتني إلى هنا، يبدو الآن، إن لم يكن إشارة، فعلى الأقل علامة حدٌّ على خط سيري المتعرج الذي رسمته لي العناية الإلهية، والذي سرت فيه من مرحلةٍ إلى أخرى معتقداً بأنه دليلي. هل عليَّ الاستمرار في التظاهر بأني أتَّخذ القرارات بنفسي؟ هل عليَّ، باسم العقل وحرية الاختيار، الادِّعاء بأنَّ إرادتي هي التي دفعتني للمجيء إلى سميرنا، وأنَّ المصادفة هي التي أنزلتني هنا، تماماً في اللحظة التي تُعلن فيها نهاية الزمن؟ ألستُ أسمّي جلاءً ما ليس سوى عماء؟ سبق أن طرحتُ هذا السؤال على نفسي، ويبدو لي أني سأطرحه أكثر من مرة دون أن آمُل بإجابة...

لماذا أقول كل هذا، وأجادل نفسي بهذا الشكل؟ دون شك لأن الصديق الذي وجدته اليوم قال لي الكلام الذي كنت سأقوله قبل بضعة أشهر، وخجلتُ أن أعارضه وأنا أنظر في عينيه، فأكشف له عن سخف عقلي.

ولكن، قبل أن أذكر هذا اللقاء بشكل مطوَّل أكثر، ربما عليَّ أن أتحدث عن أحداث هذا النهار.

كما البارحة وقبل البارحة، لم يعمل أهل سميرنا كثيراً. منذ الصباح سرت إشاعة بأنَّ ساباتاي أعلن هذا الاثنين سَبْتاً جديداً يجب

مراعاة حرمته مثل السبت الآخر. لم يستطع أحد أن يقول لي إذا تكلمَ عن يوم الاثنين هذا فقط أم عن جميع أيام الاثنين القادمة. لَفَتَ تاجر انكليزي صادفتُهُ في الشارع، نظري إلى أن أسابيع العمل ستُختَصر جداً بين يوم الجمعة عطلة الأتراك، والسبت عطلة اليهود، والأحد عطلتنا، والآن اثنين ساباتاي. كما قلتُ سابقاً لا أحد يفكر بالعمل حالياً على أية حال، باستثناء تجار الحلويات الذين تُعتَبر أيام الابتهاج غير المتوقع هذه، نعمةً لهم. يتسكع الناس بلا توقف. ليس اليهود فقط، ولكن بشكل خاص هم، ويذهبون من عيد إلى عيد، من موكب إلى موكب، ويتناقشون بورع.

بينما كنت أتنزه بعد الظهر بجوار الكنيس البرتغالي، شهدت مشهداً غريباً في ساحة صغيرة. تجمَّع حشدٌ حول امرأة شابة سقطت أرضاً أمام باب بيت، وقد انتابتها تشنجات. راحت تنطق كلاماً متقطعاً لم أفهم منه سوى بضع كلمات متفرقة، «الأزلي»، «المأخوذون»، «مملكتكِ»، لكن الناس بدوا منتبهين إلى كل نَفَس، وشرح شخصٌ ورائي باختصار لجاره: إنها ابنة إلياكيم حابير. إنها تنطق بوحي إلهي. ترى الملك ساباتاي جالساً على عرشه. ابتعدتُ بينما كانت الفتاة ماتزال تنطق بالوحي. لم أشعر بالارتياح، كأني دخلتُ بيت شخصٍ محتضِر دون أن أكون من العائلة ولا حتى من الحي. ثم إنَّ القدَر ينتظرني في مكان آخر. دلفتُ وأنا أغادر الساحةَ، صفّاً من الحارات، بخطئ حازمة كما لو أنني أعرف، دون ظلِّ شك، إلى أين أذهب ومع من لديَّ موعد. نَفَذْتُ إلى شارع أعرض تجمهَرَ فيه أناس ينظرون جميعاً في الاتجاه نفسه. وصل موكب وعلى رأسه ساباتاي الذي رأيته للمرة الثانية إذن خلال يومين. هذه المرة أيضاً كان ينشد بصوت مرتفع. ليس مزموراً ولاصلاة ولا تهليلاً، بل ولغرابةِ الأمر، أغنية حب، أغنية عاطفية أسبانية قديمة. «صادفتُ مِليزِلدا ابنة الملك، مشرقةً وجميلة.» كان وجه الرجل أصهب مثل لحيته، وكانت نظرته تلمع مثل نظرة شاب عاشق.

من كل بيوت الشارع، أخرج الناسُ أثمن سجاداتهم وألقوا بها على قارعة الطريق أمام قدميه، فلم يطأ الرمل أو الحصباء مرة واحدة. ورغم أننا في كانون الأول، فليس هناك برد شديد ولا مطر، بل شمسٌ مُنصِفة محتجبة قليلاً، تغمر المدينة وأهلها في ضوءٍ ربيعي. لم يكن

ممكناً حدوث المشهد الذي حضرتُهُ تحت المطر. كانت السجادات ستبتلُّ بالوحل، والأغنية العاطفية الأسبانية ما كانت ستوحي إلاَّ بالدموع والحنين. وبدلاً من ذلك فإن نهاية العالم، في هذا اليوم الشتائي اللطيف، لا تترافق بأيّ حزن، ولا بأيٍّ ندم. بدت لي نهايةُ العالم لثانية، كأنها بدايةُ أبديةٍ مديدة من الأعياد. نعم، رحتُ أتساءل، أنا المتطفِّل - ولكن كان في حي اليهود اليوم متطفلون آخرون كثيرون غيري - إذا لم أخطئ حين خِفْتُ من اقتراب العام المقدَّر. قلت لنفسي أيضاً إنَّ هذه الحقبة التي اعتدتُ أن أقرِنها بالخوف، عرفتُ فيها الحب، وأعيش فيها بكثافةٍ أكثر من أية حقبة أخرى. بل قلت لنفسي بأنني أشعر بنفسي اليوم أكثر شباباً من ما قبل عشرين عاماً، إلى درجة الاقتناع بأنَّ هذا الشباب سيدوم بلا نهاية. حين وصل صديقٌ أفسدَ من جديد العلاقةَ بيني وبين نهاية العالم.

ميمون. لعنة الله عليه، بركة الله عليه.

آخر شريكٍ لحيرةِ عقلي، حفَّار قبرِ أوهامي.

اندفع كل منا يعانق الآخر. أنا سعيد لأني أعانق أفضلَ صديقٍ يهوديٍ لي، وهو سعيد بالفرار من كل يهود الأرض واللجوء إلى ذراعي شخصٍ «مُشرِك».

كان يسير في آخر الموكب بهيئة غائبة ومثقَلة. ما أن لمحني حتى خرج من الصف دون أدنى تردد، وسحبني بعيداً.

«لنذهب من هذا الحي! يجب أن أكلِّمك!»

نزلنا التل بسرعة باتجاه الكورنيش الكبير حيث توجد محلات التجار الأجانب.

«يوجد صاحب مطعم فرنسي استقرّ حديثاً قرب الجمارك، قال لي ميمون، هيا نتناول العشاء عنده ونشرب من نبيذه.»

في الطريق بدأ يحكي لي عن مآسيه. قرر والده، في فورة حماس مفاجئة، بيع كل مايملك لقاء سعر زهيد، لكي يأتي إلى سميرنا.

«سامحني يا صديقي بالداسار، ثمة أشياء أخفيتُها عنك أثناء أحاديثنا الطويلة. كانت ماتزال سرية، ولم أشأ خيانة ثقة ذويَّ. الآن،

لسوء حظنا، انفضح كل شيء على الملأ. أنت لم تسمع باسم ساباتاي تسيفي أبداً قبل وصولك إلى سميرنا. ربما في القسطنطينية فقط...»

«لا، اعترفتُ له، ولا حتى هناك. فقط في سميرنا.»

«أنا التقيت به الصيف الماضي في حلب. بقي هناك بضعة أسابيع، وحتى أن والدي دعاه إلى منزلنا. كان مختلفاً حقاً عن الشخص الذي تراه اليوم. محتشماً، يتكلم بتواضع، لم يدّع أنه ملك ولا مسيح، ولايتبختر في الشوارع وهو يغني. لذا لم تثِر زيارته إلى حلب اضطراباً خارج طائفتنا. أما عندنا فكان ذلك بداية جدلٍ مازال مستمراً. فقد كان الناس في محيط ساباتاي قد بدأوا منذ فترة يتهامسون بأنه المسيح المنتظر، وأنَّ نبياً من غزة يدعى ناثان أشكينازي اعترف به، وأنه سيظهر قريباً. انقسم الناس ومازالوا منقسمين. تلقينا من مصر ثلاث رسائل تؤكد جميعها بأنَّ هذا الرجل هو المسيح دون شك، بينما كتبَ من القدس أحدُ أكثر الحاخامات تبجيلاً، يقول لنا بأنَّ هذا الرجل محتال وأنه يجب الحذر من كلامه ومن كل حركة من حركاته. كانت جميع العائلات منقسمة، وعائلتنا أكثرها انقساماً. فمنذ اللحظة الأولى التي سمع فيها والدي عن ساباتاي، لم يعد يعيش إلا في انتظار ظهوره. أما أنا، ابنه، وولده الوحيد، فلم أصدق الأمر لحظةً واحدة. سينتهي كل ذلك إلى مآل سيء. أهلنا الذين يعيشون منذ قرون في التكتُّم والتحفُّظ ودون أن يرفعوا صوتهم، يبدأون فجأةً بالصراخ بأنَّ مليكهم سيحكم العالم بأسره قريباً، أنَّ السلطان العثماني سيركع أمامه ويعرض عليه عرشه بالذات. نعم، إنهم يقولون بصوت عالٍ أشياء بهذا السخف، دون أن يفكروا لحظة واحدة بأنَّ غضب السلطان قد ينفلت علينا. كَفاك خوفاً من السلطان، يقول لي والدي الذي أمضى حياته وهو يخاف ظِلَّ أدنى موظف مبعوث من الباب العالي! لم الخوف من السلطان؟ لقد ولّى عهده، وسيبدأ عما قريب عصر نهاية العالم!

«أراد والدي السفر إلى القسطنطينية حتماً ، كما قلتُ لك، وأنا الذي سافرتُ بدلاً منه، خوفاً من ألاَّ يقدر على تحمُّل مشاقّ الطريق. وعَدَ بأن ينتظرني، وأنا وعدتُ بالعودة بآراء أكبر الحاخامات ممن يحظون بالإجماع باحترام أفراد طائفتنا.

«أنا وفيتُ بوعدي، أما والدي، فلا. فمنذ وصولي إلى العاصمة، بدأتُ بزيارة أكثر الرجال علماً واحداً بعد الآخر، وحرصتُ على تدوين كل كلمة من كلامهم. لكنَّ والدي لم يكن صبوراً ولم ينتظرني. علمتُ يوماً أنه غادر حلب بصحبة حاخامَيْن وبعض الوجهاء. مرت قافلتهم بطرسوس بعد أسبوعين من قافلتنا، ثم سلكت الطريق الساحلية حتى سميرنا.

«قبل أن يغادر البيت، عرض كل ما نملكه بسعر رخيص. «لماذا فعلتَ هذا؟ سألتُهُ. أجابني: «ما شأننا ببضع حجارة في حلب إذا كان عصر نهاية العالم قد بدأ؟» «وماذا إذا لم يكن هذا الرجل هو المسيح؟ وإذا لم يكن عصر نهاية العالم قد بدأ بعد؟ أجابني والدي: «إذا لم تشأ مشاركتي فرحي، فلستَ ابني بعد الآن!»

«نعم، باع كل شيء، ثم جاء يلقي بالنقود تحت قدمي ساباتاي الذي أسماهُ ملكاً عرفاناً له! نعم يا بالداسار. لقد سُمِّي والدي ملكاً، وعلينا الاحتفاء بهذا الحدث. لم أعد ابن إسحق الصائغ، بل ابن الملك آزا! تدين لي بالتبجيل»، قال لي ميمون وهو يبتلع جرعة كبيرة من نبيذ فرنسا.

انتابني بعض الارتباك لكوني لم أعرف إلى أية درجة يجب أن أُشرِك نفسي في تَهَكُّماته.

«ربما يجب أن أضيف بأنَّ ساباتاي عيَّن اليوم ما لا يَقِلُّ عن سبعة ملوك، والبارحة دزينة منهم. ليس هناك مدينة استقبَلَتْ هذا القدر من الملوك في الوقت نفسه!»

بدت الأحداثُ الغريبةُ جداً التي شهدتُها للتو، حين قُدِّمت بهذه الطريقة، مسرحيةً هزلية مؤسفة بالفعل. هل عليَّ أن أصدق ماقاله لي ميمون؟ أم هل كان عليَّ، بالعكس، أن أعارضه وأشرح له لماذا تزعزع يقيني، أنا نفسي الذي لم أعد منذ وقت طويل أؤمن بالمعجزات، والذي أحتقر، بيني وبين نفسي، من يؤمنون بها.

لا، لم أحاججه، لم أعارضه. خجلتُ من الاعتراف له بأني أنا نفسي هزَّني هذا القدر من المصادفات غير القابلة للتفسير، وهذا القدرُ من الإشارات، دون أن أكون يهودياً ودون أن أنتظر ما ينتظرون.

خجلتُ من أن أقرأ في عينيه الخيبةَ والاحتقار أمام هذا السُّخف الذي وصلتُ إليه. وبما أني أيضاً لم أشأ أن أقول عكس ما أفكر به، فقد اكتفيتُ بالاستماع إليه.

أتمنى أن يكون على حق. آمُل بكل كياني، أن يكون 1666عاماً عادياً بأفراحٍ عادية ومتاعب عادية، وأنني سأجتازه مع ذويَّ من رأس سنة إلى رأس سنةٍ أخرى، مثلما اجتزتُ قبله حوالى أربعين رأسِ سنةٍ أخرى. لكني لا أستطيع الاقتناع بذلك. لم تكن أيٌّ من تلك السنين الأربعين مثل هذه، لم يسبق أيّاً منها هذا الكمُّ من الإشارات. كلما اقترب أكثر انحلَّ نسيج العالم أكثر، كما لو أنَّ خيوطه ستكون مادةً لنسيج جديد.

سامحني يا ميمون، يا صديقي العاقل، إذا كنتُ أنا من ضلَّ، كما أسامحك لو أنك أنتَ من ضلّ. سامحني أيضاً لأني تظاهرتُ بتأييدك ونحن نأكل عند صاحب المطعم الفرنسي ذاك، لكي أجيبك، دون علمكَ، ليلاً، على هذه الصفحات. وكيف أتصرف بطريقة أخرى؟ الكلمات التي ننطق بها تُعلَّم في القلوب، أما تلك التي تُكتَب فإنها تُدفن وتبرد تحت غلاف من الجلد الميت. وخصوصاً كلماتي التي لن يقرأها أحد.

15 كانون الأول 1665

لم يبق من هذه السنة سوى سبعة عشر يوماً، وتكتسح رياحُ الشائعات مدينةَ سميرنا من الجمارك حتى القلعة القديمة. بعضها متشائم: ربما أمرَ السلطانُ شخصياً بتقييد ساباتاي واقتياده إلى القسطنطينية تحت حراسة مشددة؛ لكنّ المسيح المزعوم كان مايزال في بيته مساءً، مكرَّماً من قبل ذويه، ويقال بأنه سمَّى سبعة ملوك جدد من بينهم شحاذ من المدينة يدعى أبراهام لورو. وشائعات أخرى تتحدث عن شخصٍ غريب ظهر أمام باب كنيس، وهو عجوز ذو لحية حريرية طويلة، لم يره أحدٌ من قبل. وحين سُئل عن هويته أجاب بأنه النبي إيليا، ودعا الناس للالتفاف حول ساباتاي.

ومايزال هناك، حسب كلام ميمون، العديد من الحاخامات وأيضاً

من تجار الطائفة الأغنياء، ممن يغتابون هذا الأخير، لكنهم ما عادوا يجرؤون على مهاجمته علناً، ويفضِّلون الانزواء في بيوتهم خوفاً من اعتبارهم كفّاراً من قِبَل العامَّة. بل لقد غادر بعضُهُم سميرنا براً باتجاه مغنيزيا.

دعوتُ ميمون ظُهرَ هذا اليوم لتناول العشاء عند صاحب المطعم الفرنسي نفسه. البارحة هو الذي دفع. ونظراً لأنَّ والده باع ثروتهم بِرُخْص، فلا بدَّ أنه افتَقَرَ، أو سيفتَقِر قريباً، لكني لم أشأ أن أُشعِره بذلك كيلا أهينه، وقبلتُ بأن يدفع ثمن طعامي. يقدم هذا المكان أفضل طعامٍ في الامبراطورية، وذُهِلتُ لاكتشافه. يوجد في هذه المدينة صاحِبا مطعمين فرنسيين آخرين، استقرا منذ زمن طويل. لكنَّ هذا هو الأكثر رواجاً. إنه لا يتردد في امتداح نبيذه الذي لا يتردد الأتراك في شربه. ويتجنب بالمقابل تقديم الجامبون، ويزعم بِكَياسة، أنه هو نفسه لا يقدِّرهُ كثيراً. لا أندم أني عدتُ إلى مائدته، وسأعود إليها طالما مكثتُ في سميرنا.

أخطأتُ فقط بإطلاع الأب جان باتيست على اكتشافي. فقد لامَني لأني أضع قدمي تحت سقفِ شخصٍ هوغونوتيّ(*)، وأشرب نبيذ الهرطقة. لكننا لم نكن وحدنا حين نطقَ بهذه الكلمات المضحكة، وأظنّ بأنه قال ما يحتاج سامعوه لسماعه. لقد عاش في المشرق مدة كافيةً لكي يعرف بأنَّه ليس للنبيذ الجيد من لونٍ سوى لونِ نبيذه الخاص، وليس له من مذاقٍ سوى مذاقه.

16 كانون الأول

دعوتُ مارتا ظهر هذا اليوم عند السيد موانو حزقيال ـ هذا هو اسم صاحب المطعم الهوغونوتي. لست متأكداً من أنها ثمَّنت الطعام، لكنها ثمَّنَت الدعوة، وكادت تفرط بشرب النبيذ. أدركتُها في منتصف الطريق بين السكر والنشوة.

(*) الهوغونوتيون، هم بروتستانتيون فرنسيون من أنصار الإصلاح.

عند عودتنا إلى الدير، وجدنا نفسنا بمفردنا ساعة القيلولة. تعانقنا على عجل، وفعلنا ذلك دون أي حذر. كانت أذناي تترصدان باستمرار، خوفاً من أن يباغتنا واحد من ابني أختي أو أحد الآباء الكبوشيين. لم أكن أخشى شيئاً من تابعي، فقد كان يعرف كيف لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً عند اللزوم. لم يقلّل هذا القلقُ من سعادتنا، بل على العكس. يبدو لي أنَّ كل ثانية راحت تطلب بوزنها من المتعة، أكثر من الثانية التي قبلها، كما لو أنها ستكون الأخيرة، بحيث راح عناقُنا يشتد قوةً وولهاً وعنفاً ولهاثاً. فاحت من جسدينا رائحة النبيذ الحار وتعاهدنا على سنين من السعادة سواءٌ عاش العالمُ أم مات.

كنا منهكين حتى قبل قدوم أحد بكثير. غفتْ وكنت أرغب بأن أفعل مثلها، لكن ذلك سيكون إمعاناً في قلة الحذر. سوَّيتُ لها ثوبها فوق جسدها برفق، ثم خبأتُها حتى الرقبة تحت غطاء محتشم، قبل أن أخط هذه السطور فوق دفتري.

لم يرجع ابنا أختي قبل منتصف الليل. ولم أر الأب جان باتيست ثانيةً بسبب زوّارٍ جاؤوه البارحة، وأمضى النهار كله بصحبتهم حتماً. جزاهم الله خيراً، جميعاً. لابدَّ أنهم اجتَنوا كمية من الشائعات الجديدة. أنا لم أجتَنِ سوى طَلِّ نبيذٍ فوق ثغرِ امرأةٍ مفتونٍ. لو أنَّ العالم يستطيع أن يتجاهلنا مثلما تَجاهَلْنا اليوم! لو أننا نستطيع أن نعيش ونتبادل الحب هكذا في الظل، يوماً بعد يوم، ناسين كل النبوءات! ونسكر بالنبيذ الهرطوقيّ وبالحب المُدان!

يارب! أنت وحدك تستطيع أن تعمل على ألاّ تتحقق مشيئتُكَ!

17 كانون الأول

اليوم غادرتُ دير الكبوشيين لأقيم في منزل تاجر إنكليزي لم ألتق به قبل اليوم أبداً. أيضاً واحد من الأشياء الغريبة التي تحدث لي كما لو

أن الغاية منها هي ألاً أنسى بأننا نعيش أوقاتاً غير عادية. ها أنذا أقيم إذن في منزل غريب كما لو أنه منزلي، وأكتب صفحاتي هذا المساء فوق مكتب من خشب الكرز البريِ الذي يلتمع بالورنيش الأحمر الجديد، في ضوء شمعدان من الفضة المصمَتة. مارتا تنتظرني. لديها هنا غرفتها الخاصة التي تنفتح على غرفتي، وهذه الليلة ومثلها الليالي القادمة، سأنام بقربها، في سريرها، وليس في أي مكان آخر.

حدث كل شيء بسرعة كبيرة، كما لو أنَّ المسألة قد تمَّ التفاوض عليها مقدَّماً من قبل العناية الإلهية، وأنَّه لم يبق علينا سوى الاجتماع هنا على الأرض للمصادقة عليها بمصافحة. مكان الاجتماع هو بطبيعة الحال طاولة صاحب المطعم الهوغونوتيّ الذي أصبحتُ من الآن وصاعداً، أذهب إليه كل يوم، بل أكثر من مرة في اليوم. مررتُ هذا الصباح فقط لتناول كأس نبيذ وبضع حبات زيتون قبل الذهاب إلى الدير للعشاء. كان هناك رجلان يجلسان إلى طاولة، قدَّمَني صاحب المطعم لهما. أحدهما إنكليزي والآخر هولندي، لكنهما بدَيا صديقين حميمين في حين أنَّ أُمَّتيهما، كما هو معروف، غير متفقتين. سبق أن سنحت لي الفرصة لأقول للسيد موانو ما النشاط الذي أمارسه، واتَّفقَ أنَّ الرجل الإنكليزي الذي يحمل اسم كورنيليوس ويلر، يتاجر أيضاً، بالأشياء الطريفة. الآخر، الهولندي، قس بروتستانتي اسمه كوإنِن ـ وهو رجل طويل القامة شديد النحافة، ذو رأس صلعاء وعظميَّة مثل رأس كبار العجائز.

علمتُ في الحال بأنَّ زميلي يستعد لمغادرة سميرنا في آخر النهار إلى إنكلترا، ومركبه يرسو على رصيف الميناء. اتُّخذ قرار الرحيل على عجل لأسباب عائلية لم تُفَصَّل لي، فلم توضع أيّة ترتيبات بشأن البيت. مضى علينا بالكاد ربع ساعة ونحن جالسون إلى المائدة، وكنت أتحدث بلباقة مع القس عن ماضي آل أمبرياتشي وعن جبيل وساباتاي والأحداث الجارية، فيما لم يكن ويلر يقول الكثير، وبدا كأنه بالكاد يسمع ما نرويه، لشدةِ ما كان غارقاً في همومه. خرج من غفلته لكي يسألني بغتةً إذا كنت أقبل بالنزول في بيته لبعض الوقت، قائلاً بنوعٍ من التفخيم:

«في حال سيادة الفوضى التي قد تحدث قريباً، أحبُّ أن أعرف بأنَّ روحاً نبيلةً تسهر على بيتي.»

ولأنني لم أشأ إبداء الموافقة بأسرع مما يجب، فقد أخبرتُهُ بأني أقيم في سميرنا لفترة قصيرة، لشأنٍ عاجل يجب تسويته، وأني ربما أحزم حقائبي أنا أيضاً بين يومٍ وليلة. لكني دون شك لم أعارض بإقناعٍ كافٍ، لأنَّ الرجل ارتأى أنه لا ضرورة لأنْ يردّ على حجتي، وسألني فقط إذا كان يضايقني أن أسير بضع خطوات برفقة القس وبرفقته لكي يُريني «منزلي الجديد».

أظنُّ أني أشرت إلى أنَّ حيّ الأجانب ليس سوى شارع وحيد يحاذي الشاطئ. تصطفُّ من طرفِهِ إلى طرفِهِ الآخر، وعلى الجانبين، محلات ومستودعات وورشات وحوالى مئة بيت وبعض أصحاب المطاعم ممن توطدت سمعتهم وأربع كنائس منها كنيسة الكبوشيين. المقرات المطلة على البحر تثَمَّن أكثر من تلك المطلة على التلّ والقلعة القديمة والأحياء التي يعيش فيها أهل البلد من ترك ويونان وأرمن أو يهود. ومنزل ويلر ليس الأكبر ولا الأكثر أمناً لأنه يقع في أقصى الشارع، ولأن البحر يدقُّ تقريباً على بابه. وحتى عندما يكون هادئاً كما هو اليوم، فإن هديره مسموع. وعندما يضطرب لاشك أنَّ هديره يصم الآذان.

أجمل ما في هذا البيت هو الحجرة الواسعة التي أمكث فيها الآن، والتي تصطفُّ الغرف حولها والمزدانة بمجموعة تماثيل كبيرة وصغيرة وأجزاء من أعمدة قديمة ومن الموزاييك، وكلها نبَشَها ويلر نفسه الذي يُجري تنقيباته الخاصة ويتاجر بهذه اللُقى على نطاق واسع.

ما أتأمله من حولي ويعطيني الإحساس بأني أسكن في حرَمِ معبد يوناني أو مدينة قديمة، ليس بالتأكيد سوى بقايا البقايا، ليس سوى قطع مصدوعة توجد في ثلاث نسخٍ وأربع. ليس هناك أدنى شك بأنَّ أجمل اللقى قد سيقت إلى لندن حيث باعها مضيفي بسعر الذهب. أفضلُ له! أعرف بالخبرة أنَّ أهل هذا البلد لا يريدون اقتناء هذه التماثيل أبداً؛

ومن لديهم الإمكانات لاقتنائها لا يحبونها، وغالبية الأتراك يحتقرونها إذا لم يستبسلوا في تشويهها بحجة التقوى.

كان لدى ويلر عندما أبحرَ اليوم، ورغم أن رحيله تمَّ على عجل، عدد كبير من الصناديق يضمّ أكبرُها وأثقلُها، كما قال لي بنفسه، تابوتاً حجرياً مزيناً بنقوش بارزة اكتشفه في فيلادلفيا. بعد قبولي دعوته لم يكن وارداً بالطبع تركه يذهب إلى الميناء بصحبة القس بمفرده. وكان هذا لحسن حظه، فقد اكتشفنا بوصولنا إلى رصيف الميناء أنَّ الحمالين يرفضون التحميل مهما كان السعر الذي يعرض عليهم. ما السبب؟ لم أستطع معرفة ذلك، لكنَّ عنادَهم يُسهِم بشكل واضح في الجوّ العام المصنوع من تشوُّش الأذهان واختلال المواقف، والتهيُّج الكوني، وأيضاً الإفلات من القصاص. ناديتُ حاتم وابني أختي وأيضاً أربعة عشر ساعداً ـ بما فيها سواعد القس ومرافق ويلر ـ، وأمكَنَ تحميل الصناديق. التابوت الحجري وحده عاندَ أمام قوانا، واضطررنا لرشوة البحارة لكي يشتركوا بدورهم ويرفعوه أخيراً إلى المركب بمساعدة الحبال.

بعد أن شكَرنا الرهبان الكبوشيين على استقبالهم، وقدَّمنا هديةً سخية من أجل إصلاح كنيستهم التي عانى سورُها، كما قيل لي، من آخر هزة أرضية، جئتُ للإقامة هنا مع كل جماعتي.

ترك لنا ويلر في المنزل خادمة شابة نظرتها مائلة، قال لي عنها بأنها تعمل في خدمته منذ وقت قليل جداً ويشكُّ بأنها تسرق أدوات المطبخ والطعام، وربما النقود والثياب أيضاً، لم يكن يعرف، وأنَّ عليَّ ألاَّ أتردد إذا رغبتُ بصرفها. لماذا لم يفعل ذلك بنفسه؟ لم أسأله، لم أرها كثيراً بعد. عبَرَت البيتَ مرتين، حافية القدمين، مطرقةً تلفُّ رأسها بشالٍ من الضامة الحمراء والسوداء.

تقاسمنا الغرف. هناك ست منها عدا غرفة الخادمة المبنية فوق السطح والتي يصل المرء إليها بسلَّم. شغل حاتم الغرفة التي يشغلها مرافِقُ مضيفنا عادةً. حصل كل من ابني أختي على غرفته، وكذلك مارتا وأنا، حفظاً للمظاهر، لكنني لا أنوي النوم بعيداً عنها مطلقاً.

إني ذاهب إليها أصلاً، دون مزيد من الإبطاء.

18 كانون الأول

بقيت في بيت ويلر غرفة سادسة اقترحتُها هذا الصباح على ميمون.

فهو يعيش منذ وصوله إلى سميرنا مع والده لدى المدعو إسحق لانيادو الذي تعود أصوله إلى حلب، وهو من تلامذة ساباتاي المتحَمِّسين وجارٌ قريب جداً للمسيح المزعوم، مما يجبر صديقي على التكتُّم بشكل دائم. فاتحَني بالأمر متسائلاً بتنهيدات قوية إذا كان باستطاعته احتمال سبتٍ طويل آخر بصحبتهم.

مع ذلك فقد ردَّ دعوتي. «علينا البقاء بالقرب من ذوينا عندما يَضِلّون»، قال لي. ولم أزِد من الإلحاح.

مازال جو الفوضى الخفيفة هو السائد في المدينة. يتبدد الخوف من القوانين كما لو أنَّ المملكة المقبلة هي مملكة المغفرة والعفو وليست مملكة النظام. لكنَّ هذا الإفلات من القصاص لا يُطلِق الأهواءِ ولا الفِتَن ولا يتسبب بسفك الدماء أو عمليات النهب. الذئب يسيرُ بقرب الحمل دون أن يحاول التهامه، مثلما قيل في مكان ما من الكتابْ المقدس. هذا المساء، نزل قرابة المئة من اليهود رجالاً ونساءً، في موكبِ طَوافٍ من حيِّهِم حتى الميناء، وهم ينشدون «مليزيدا، ابنة الملك» والمشاعل بأيديهم. وهم بذلك يتحدُّون في آن واحد قوانينَهم ذاتها التي تحظِّر عليهم إشعال النار مساء الجمعة، وقوانين البلاد التي تمنح التجار الأجانب وحدهم حقَّ الخروج ليلاً والاستضاءة بالمشاعل. وعند وصولهم قرب منزلي، التقوا بزمرة من الانكشاريين يتعقَّبون ضابطهم، خفتت الأصوات بضع لحظات لكي تعلو من جديد بشكل أقوى، ومضت كل جماعة في طريقها دون أن تهتم بالأخرى.

كم من الوقت ستدوم حالةُ السُّكر هذه؟ يوماً؟ ثلاثة أيام؟ أربعة؟ يؤكد الذين يؤمنون بِ ساباتاي: ستدوم قروناً وقروناً. سيبدأ عما قريب كما يقولون عصر جديد لن يوقفه شيء. ما أن يبدأ عصر القيامة فإنه لن يتوقف بعد ذلك. لن تنتهي القيامة بالموت. الذي سينتهي هو الذل والمهانة والأسر والنفي والتشتُّت.

وأين أنا في كل ذلك؟ وما الذي عليَّ أن أتمناه؟ يلوم ميمون والده لأنه ترك كل شيء ليلحق بمسيحه. ألم أفعل أنا ما هو أسوأ؟ ألم أهجر مدينتي وتجارتي وحياتي الهادئة بسبب شائعات القيامة، وحتى دون رجاء بالخلاص؟

هؤلاء الناس، هؤلاء الضالون الذين يعبرون ليلة السبت حاملين لمشاعلهم، ألستُ أماثِلُهم جنوناً حين أتحدَّى، كما أنا فاعل، قوانين الدين وأيضاً قوانين البلاد، وأحلُّ بمعرفةِ جماعتي، في سرير امرأةٍ ليست امرأتي وربما أنها ماتزال امرأة رجل آخر؟ كم من الوقت سأستطيع الاستمرار في الأكذوبة؟ وكم من الوقت خاصةً سأبقى دون عقاب؟

إذا كان احتمال العقاب يراودني في بَعَض اللحظات، فإنه لايجعلني أحيد عن رغباتي. تُقلِقُني نظرةُ الإله أقلّ مما تقلقني نظرةُ الإنسان. الليلة الماضية أخذتُ مارتا بين ذراعيَّ وللمرة الأولى دون أن أضطرّ لرصد النوافذ والأبواب، دون أن تبقى أذناي في حالة رصد مستمر لصوتِ خطيً. ثم رحتُ أنزع عنها ثيابها ببطء، وببطء حللتُ الشرائط وفككتُ الأزرار وأرخيتُ عنها كل أقمشتها كي تنزلق أرضاً، قبل أن أنفخ على الشمعة لأطفئها. أخفت عينيها بذراعها المرفوعة والمثنيَّة، عينيها فقط. قدتُها بيدي إلى السرير ومدَّدتها فوقه وتمددت قريباً جداً منها. كانت تفوح من جسدها رائحة العطر الذي اشتريناه معاً من ذلك الجَنَويّ في القسطنطينية. همستُ في أذنها بأني أحبها وسأحبها دوماً. وحين شعرت بنفح كلماتي في أذنها أحاطتني بذراعيها وجذبتني نحو جسدها الدافئ هامسةً بكلمات الفرح والاستعجال والقَبول والاستسلام.

ضممتُها بجُموح عاشق وصفاء زوج. هل كنتُ سأحبها هكذا لو لم يكن يسود من حولَنا، في هذه المدينة وفي العالم، ثَمَلٌ كلّيّ؟

19 كانون الأول

جاء القس الهولندي لزيارتي منذ ساعة مبكرة صباحاً، قائلاً بأنه

يريد فقط الاطمئنان على أني مرتاح في بيت صديقه. وحين أجبتُهُ بنوع من الحماس بأني أعيش فيه كأنه بيتي، وجد من الضروري أن يجيبني بأنّ عليّ ألاّ أنسى قط بأنه ليس ملكاً لي. ملاحظة تافهة انزعجتُ منها إلى درجة أني أجبتُهُ بجفاف بأني أردتُ فقط التعبير عن امتناني، وأني لم أنزل في هذا البيت إلا لتقديم خدمة، وأني كنتُ على مايرام في دير الكبوشيين وأستطيع العودة إليه تماماً. اعتقدتُ أنه سيأخذ قبعته وينصرف، أو ربما ينذرني أنا وجماعتي كلها بالرحيل، لكنه بعد لحظة تردد أطلق ضحكةً صغيرة، اعتذر وتنحنح متذرِّعاً بسوءِ فهم عزاهُ إلى عدم معرفته بالإيطالية ـ مع أنه يتكلمها بالجودة التي أتكلّمها بها ـ باختصار، لقد عدَّلَ موقفه دون لَبْس بحيث أني، حين أراد النهوض بعد بضع دقائق، وضعتُ يدي فوق ذراعه راجياً إياه ألا يلقي بالاً للأمر وأن ينتظر كصديقِ القهوةَ التي تعدها لنا «زوجتي».

بعد هذه المقدمة الخرقاء بعض الشيء، باتت نبرة حديثنا مختلفة تماماً، ولم ألبث أن لاحظتُ بأني أتحدث إلى عالمٍ مُتَبَحِّر وحكيم. هكذا علمتُ منه بأن شائعات سرت منذ شهور في مدنٍ مختلفة من أوروبا بشأنِ أسباط إسرائيل التائهة والتي ربما ظهرت في فارس وجنَّدت جيشاً لايُحصى عدده. يُزعَم أنها استولت على الجزيرة العربية، هزمت القوات العثمانية وتقدمت حتى المغرب. وفي ذلك العام عدلت قافلة الحجاج عن السفر إلى مكة خوفاً من لقائها في الطريق. وفقاً لما يقول كوإنِن الذي لايصدق هذه الشائعات مطلقاً، فإنَّ هذه الأسباط قد انتشرت انطلاقاً من ڤيينا التي تحاصرها قوات السلطان، ثم من ڤينيسيا التي هي منذ ثلاثين عاماً في حالة حرب ضد الباب العالي، والتي تمدُّ نفسَها بالشجاعة حين تتخيَّل أنَّ حلفاء غير متوقَّعين يستعدون لأخذ المسلمين من الخلف.

قال لي القس بأنَّ المسافرين الذين يتوقفون في سميرنا يحملون له كل شهر رسائل بهذا المعنى من هولندة وفرنسا والسويد وخاصةً من إنكلترا حيث يترقَّب أشخاصٌ عديدون كل الأحداث الخارقة للعادة التي قد تعلن نهاية الزمن والظهور الثاني للمسيح. ولا يمكن لما يحدث في هذه المدينة بهذا الخصوص إلاَّ أن يثير تَلَهُّفَهُم.

عندما قلتُ له بأنني أنا نفسي أتابع هذه التطورات بفضول كبير وأن الفرصة أتيحت لي مرتين لرؤية المسيح المزعوم بأم عيني، وأنَّ هذه الظواهر تشوّشني أنا نفسي، لكنَّ يهودياً من أصدقائي يُظهِر تشكُّكاً أكثر مني، عبَّر كوإنِن عن رغبته الشديدة بلقائه. وعدتُ بنقل دعوته لميمون حالما أستطيع.

أشرتُ وأنا أذكر أشد الأشياء إرباكاً لي خلال الأيام الأخيرة، إلى الحدَث المستغلِق في نظري، عندما أخلى القاضي يوم الأحد الماضي سبيل ساباتاي، ولم يُتخذ أي إجراء من قبل السلطات لوقف التجاوزات وإعادة الناس إلى العمل. أجاب القس بأن القاضي، وفقاً لمعلومات جديرة بالثقة، تلقى مبلغاً معتبراً من بعض التجار اليهود الأغنياء المؤمنين بساباتاي، كيلا يُمسّ هذا الأخير بأذى.

«لا أجهل، قلتُ، إلى أي حد يمكن للوجهاء العثمانيين أن يرتشوا، ولا لأية درجة يمكن أن يحرِّكهم الجشع. أما في الوضع الحالي، فالفوضى هي التي تَحلّ. حالما تعرف القسطنطينية بما يحدث هنا، ستسقط رؤوس. هل تعتقد أن القاضي مستعد للمخاطرة بحياته مقابل بضع قطع من الذهب؟»

«يا صديقي، لن نفهم كيف يسير العالم إذا تخيلنا أنّ الناس يتصرفون دوماً بتعقُّل. الخَرَقُ هو المبدأ الذكوري للتاريخ.»

أضاف أنه في رأيه إذا أطلق القاضي سراح ساباتاي فليس السبب أنه ارتشى فقط، بل أيضاً لأنه قدَّر أنَّ هذا الرجل الذي يأتي إليه وهو ينشد المزامير، مجنون. ربما يشكِّل خطراً على طائفته لكنه لايهدد حكم السلطان بشيء. هذا ما نقله للقس جندي انكشاري مكلَّف بحماية التجار الهولنديين. وربما هذا ما همسَ به القاضي في أذن الانكشاريين لكي يعذروا تَسامحَهُ.

على صعيد آخر تماماً، لاحظتُ أن ابن أختي بومة أطلق لحيته وشعره. ما كنتُ لألاحظ ذلك لو لم يرتدِ قميصاً أبيض فضفاضاً جعله يشبه بعض الدراويش. يغيب طوال النهار وحين يعود مساءً لايتكلم. ربما عليّ أن أسأله لماذا يرتدي هذا الزي المضحك.

20 كانون الأول

جاء ميمون لاجئاً إلى بيتي. استقبلته بذراعين مفتوحين وأنزلته في الغرفة الأخيرة الشاغرة التي كانت في جميع الأحوال مخصصة له. كان قد رفض دعوتي حتى الآن، لكنَّ حادثاً وقع اليوم جعله يغير موقفه، ومازال أثره عليه.

طلب منه والده أن يأخذه إلى ساباتاي. ليست تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها إليه، إلا أنه كان يتدبر أمره بحيث يبقى دوماً على حدة، ضائعاً إلى الخلف بين جمهور المريدين، يراقب من بعيد شهادات الولاء ومظاهر الفرح. هذه المرة طلب منه أبوه الذي أصبح «ملكاً»، أن يقترب من وليِّ نعمتهم ويحصل على بركته. أطاع صديقي واقترب مسبَل العينين، قبَّلَ يد «المسيح» خلسةً وتراجع في الحال خطوةً إلى الخلف لكي يفسح المكان للآخرين. لكنَّ ساباتاي أمسكه من كمِّه، جعله يرفع ناظريه وطرح عليه سؤالين أو ثلاثة بنبرة صداقة. ثم طلب منه، رافعاً صوته فجأةً، ومن أبيه وحاخامَينْ من حلب كانا معهما، أن ينطقوا باسم الله فائق الوصف. نفَّذَ الآخرون في الحال، أما ميمون فقد تردد مع أنه أقلُّهم تُقىً. يحدث له أحياناً ألا يطبِّق تعاليم الدين حرفياً، وأن يتمتم بالصلاة في الكنيس دون أدنى ورع، كما لو أنَّ قلبه يظلُّ منفصلاً عما تعتقده شفتاه. أما ارتكاب تجاوز مثل هذا، لا! تَجَنَّب إذن أن يذكر اسم الله ظانَّاً بأنَّ ساباتاي سيكتفي بإطاعة الثلاثة الآخرين له. لكنَّ في هذا عدم معرفة به. فقد أخذ المسيح المزعوم، وهو مستمر في إمساك ميمون من كمِّه، يشرح للمجتَمِعين بأنَّ ماكان ممنوعاً لم يعد ممنوعاً في هذه الأوقات الجديدة، وأنَّ الذين يؤمنون ببدء العهد الجديد، عليهم ألاَّ يخشوا من التجاوز، وأنَّ من يصدِّقونه يجدر بهم أن يعرفوا أنه لن يطلب منهم شيئاً لا ينسجم مع إرادة الخالق الفعلية، خاصةً إذا بدا ذلك مخالِفاً لإرادته الظاهرة.

اتجهت كل النظرات الآن نحو صديقي، بما فيها نظرة والده بالذات الذي قال له بأن يثق «بمليكنا المسيح»، ويفعل ما يطلبه منه.

«ما كنتُ لأصدِّق قط بأنَّني سأعيش إلى اليوم الذي يطلب فيه مني والدي، الذي رباني على احترام قوانيننا، بأن أخْرِقها بأسوأ طريقة.

إذا حدث مثل هذا الشيء، إذا اختلطت التقوى بالتجديف بهذا الشكل، فهذا يعني أنَّ نهاية الزمن قريبة بالفعل.»

تاه في التأمل والكآبة، واضطررتُ أن أهزَّه لكي يستعيد مجرى قصته.

«وماذا فعلتَ؟»

« قلتُ لساباتاي بأنَّ ما يطلبه مني خطير، وأني بحاجة لتلاوة بعض الصلوات قبل تنفيذه. ثم انسحبتُ دون استئذانه. وحالما أصبحتُ في الخارج، سرتُ مباشرةً إلى هنا».

أقسَمَ لي بأنه لن يدخل الحي اليهودي طالما لم يهدأ «هذا الجنون». استحسنتُ موقفه وعبَّرتُ عن فرحتي البالغة باستقباله تحت سقف بيتي.

تحدثتُ بعد ذلك عن زيارة القس الهولندي وأطلعتُهُ على رغبته بلقائه. لم يرفض، لكنه قال بأنه يتمنى ألاَّ يذهب إليه قبل بضعة أيام، كونه ليست لديه أية رغبة حالياً بالحديث عما جرى إلى غريب.

«مازال ذهني مضطرباً تماماً، وأسبح في التشوش ولا أريد أن أقول ما أندم عليه غداً.»

أجبتُهُ بأنه لا يوجد ما يدعو للعجلة، وأننا، أنا وهو، نُحسِنُ صنعاً إذا بقينا بعيدين عن كل هذه الضوضاء.

الاثنين 21 كانون الأول 1665

هل يوجد في بلاد العثمانيين موظفون نزيهون إذن؟ ما زلتُ لا أجرؤ على تأكيد ذلك، لكنَّ مجرَّد قدرتي على طرح السؤال أمرٌ غير لائق!

تصرّ مارتا منذ بضعة أيام على القيام بالخطوات التي قمنا بها في القسطنطينية على أمل أن تكون أقلَّ عقماً. هكذا ذهبتُ لرؤية كاتب محكمة سجن سميرنا المدعو عبد اللطيف، الذي قيل لي بأن لديه سجلاً

بجميع الأحكام التي أُصدرت في هذا الجزء من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة. تركني الرجلُ أصوغ التِماسي، دوَّنَ ملاحظات، وطلب بعض الإيضاحات قبل أن يقول بأنه يحتاج إلى أسبوع من البحث قبل أن يعطيني جواباً شافياً. الأمر الذي استدعى إلى ذهني بالطبع الذكرى المزعجة لكاتب المحكمة الآخر ذاك، الذي يعمل في مستودع أسلحة القصر السلطاني، والذي ابتزَّ منا مبلغاً بعد الآخر بحجة العودة لسجلات مختلفة. لكني كنتُ مصمماً على الدفع دون عبوس شديد، وإن لم يكن ذلك إلا لأثبت لمارتا بأنني لن أتراجع أمام أية تضحية. لذا سألتُ الرجل بالصيغة الدارجة، «كم يكلف التعويض عن أتعاب مُخبِريه». كانت يدي قد أصبحت في كيس نقودي. وبحركة واضحة أشار لي الرجل بإخراجها منه.

«لماذا تدفع إذا لم تحصل على شيء؟»

خشيتُ أن أثير سخطه إذا ألححت، فانسحبتُ واعداً بالعودة خلال أسبوع، وراجياً الخالق أن يجزيه بقدر أفضاله، وهي عبارة لا يستاء منها أي رجل شريف.

رويتُ لمارتا وحاتم اللذين ينتظراني في الخارج، المشهد مثلما فعلتُ للتو، كلمة كلمة. قالت إنها واثقة؛ ربما تحنو السماءُ أخيراً على مصيرها. بدا تابعي أكثر شكّاً؛ تَسامُحُ الأقوياء بالنسبة له لا يكون أبداً سوى وعدٍ بكارثةٍ قادمة أكبر.

سنرى. كنتُ سأوافقه على رأيه في الأوقات العادية، لكنني اليوم لستُ بلا أمل. تحدث أشياء كثيرة غريبة. رياح الغرابة تكتسح العالم... لم يعد هناك شيء يجب أن يفاجئني، أي شيء.

23 كانون الأول 1665

أرتجف، أغمغم.

هل سأكون قادراً على رواية الأحداث كما لو أنها وقعت لشخص آخر، دون أن أطلق صرخات عند كل سطر، ودون أن أصيح قائلاً إنها أعجوبة؟

ربما كان عليَّ أن أنتظر ركود الانفعالات في داخلي، فوق أرضية روحي، مثلما يركد الثفل في فنجانٍ من القهوة. أن أترك يومين، أسبوعاً. ولكن عندما تبرد أحداث هذا اليوم، ستقع أحداث ساخنة غيرها...

لأحافظ إذن، طالما ماأزال قادراً على ذلك، على ما قررتُهُ سابقاً. لأكتب عن آلام كل يوم عَرْضاً مع تاريخ اليوم، دون إعادة قراءة، ثم أقلب الصفحة لتكون مستعدة لاستقبال الاندهاشات المقبلة. إلى اليوم الذي ستبقى فيه بيضاء. النهاية، نهايتي أنا أو نهاية العالم.

أعود إلى البداية...

بعد ظهر هذا اليوم، وبعد التغلب على تردد ميمون، ذهبتُ معه إلى منزل القس كوإنِن الذي رحب بنا بذراعين مفتوحين وقدَّم لنا حلويات تركية لذيذة مع القهوة، ثم بدأ يتحدث عن ساباتاي بعبارات معتدلة محاولاً أن يقدِّر ردود فعل صديقي بطرف عينه. ذكر أول الأمر تقريظاً شديداً نطقَ به المسيح المزعوم لِيسوع، فقال بأن روحه مرتبطة بروحه على نحو لا يقبل التفريق. «من الآن وصاعداً، سأعمل على أن يأخذ مكانه بين الأنبياء»، كما قال أمام شهود. أكد ميمون بأنَّ ساباتاي لم يتكلم عن يسوع إلا باحترام وحب، وأنه يذكر، بحزنٍ، الآلامَ التي فرضت عليه.

قال القس بأنه مندهش ومفتون بهذا الكلام، معرباً عن أسفه على ألاَّ يظهر ساباتاي حكمة مشابهة عندما يتكلم عن النساء.

«أليس صحيحاً أنه وعد بمساواتهن مع أزواجهن، وتخليصهن من لعنة حواء؟ هذا ما نُقِل لي من مصدر موثوق. وإذا صدَّقناه، فإنَّ على النساء في المستقبل أن يعشن كلياً على هواهنّ، دون إطاعة أي رجل.»

أكَّد ميمون الذي سُئل بالنظر، الأمرَ دون همةٍ كبيرة.

تابع القس:

«بل لقد قال ساباتاي بأنه ماعاد يجب الفصل بين الرجال والنساء بعد الآن، لا في البيوت ولا حتى في الكنائس، وأنَّ بوسع كل

إنسان في المملكة التي يريد إقامتها، أن يذهب في المستقبل مع من يريد دون أي شرط ولا خجل.»

«هذا لم أسمعه مطلقاً، قال ميمون بحزم. ولم أسمع شيئاً من هذا القبيل.» ووجَّهَ لي نظرةً تعني: بالداسار ياصديقي، لماذا جعلتَني آتي إلى هذه المَهلَكة؟

عندها نهضتُ فجأة.

«لديك أشياء جميلة حقاً في هذا البيت. هل تسمح لي كَتَاجِر أن ألقي عليها نظرة؟»

«طبعاً!»

كنتُ آمل أن ينهض صديقي بدوره ويستفيد من التنويع الذي اختلقتُهُ للابتعاد عن موضوع بهذا الإحراج، وإيقاف ما كان بصدد التحوُّل إلى عملية استجواب. لكنه بقي في مكانه خوفاً من إغضاب مضيفنا. صحيح أننا إذا قفزنا معاً وفي اللحظة نفسها، لَبَدا التَّهرُّب واضحاً ومبتذلاً بعض الشيء. هكذا استمر الحديث من دوني، أنا الذي لم أُفَوِّت منه كلمة، ولم أتحرَّ الأثاث والكتب والتُّحَف إلاَّ بنظرة فارغة.

كان ميمون يشرح لِ كوإنِن من ورائي بأنَّ غالبية الحاخامين لايصدِّقون ساباتاي، لكنهم لا يجرؤون على الإفصاح عن ذلك لأنَّ صفوف الرعاع مخلصة له كلياً. وعلى أولئك الذين يرفضون الاعتراف به ملكاً مسيحاً، الاختباء أو حتى مغادرة المدينة خوفاً من إساءة معاملتهم في الشارع.

«هل صحيح أنَّ ساباتاي قال بأنه سيتوجَّه خلال بضعة أيام إلى القسطنطينية للاستيلاء على تاج السلطان والجلوس في مكانه على العرش؟»

بدا ميمون مروَّعاً من هذه الفكرة، فرفع نبرته:

«هل للأشياء التي أقولها أية قيمة في نظرك؟»

«طبعاً، أجاب القس محيَّراً بعض الشيء. من جميع الرجال الصالحين الذين سألتُهُم، أنت أكثرهم دقة وأكثرهم حكمة ونفاذ بصر...»

«ثِق بي إذن إذا قلتُ لك بأنَّ ساباتاي لم يُعرِب، في أية لحظة، عن طموحات شبيهة.»

«مع ذلك، فإنَّ من نقل لي هذا الكلام هو أحد القريبين إليه.»

خفض صوته ولفظ اسماً لم أستطع التقاطه. فقط سمعتُ ميمون يضطرم:

«هذا الحاخام مجنون! كل من ينطقون بمثل هذا الكلام مجانين! سواء تعلَّق الأمر بأنصار ساباتاي الذين يتخيَّلون أنَّ العالم ملك لهم، أو بخصومه الذين يريدون هلاكه بأيّ ثمن. إذا وصلت حماقات مشابهة إلى أسماع السلطان غداً، سيُذبَح اليهود جميعاً وكذلك سكان سميرنا جميعاً!»

رأى كوإنِن بأنه يقول الصواب، ثم تابع في موضوع آخر:

«هل وصلت رسالة من مصر حقاً...»

لم أسمع بقية السؤال. تجمَّد نظري أمامي فوق رفٍّ منخفض، وراء منضدة صغيرة من زيلاندا، ثمة تمثال صغير. تمثال صغير أعرفه! تمثالي! تمثال العاشقين الباقي بأعجوبة! انحنيت ثم قرفصتُ لأمسك به، لأداعبه وأديره إلى جميع الجهات. لا يوجد أي شك ممكن! هذان الرأسان المخروطيان المغلّفان بورقة ذهبية، وذلك الصدأ الغريب الذي وحَّد بين اليدين، الذي صهرهما معاً فيما وراء الموت... لا يوجد في العالم كله شيء يشبهه!

انتظرتُ بضع لحظات، ابتلعتُ لعابي مرتين أو ثلاثاً، كيلا يخونني صوتي.

«من أين حصلت على هذا أيها الموقَّر؟

«آ، التمثالان الصغيران؟ ويلر هو الذي أهداني إياهما.»

«هل قال لك بأنه أخرجهما من تحت الأرض بنفسه؟» قلتُ ببراءة.

«لا، كنتُ في زيارة عنده عندما جاء رجل يدقّ بابه لكي يبيعه أشياء معينة يحملها فوق طُنبُرِه. اشترى منه كورنيليوس كل ما معه تقريباً، وبما أنني أبديتُ اهتماماً بهذين التمثالين المصنوعين كَنَذْرٍ

والقادمين ربما من زمن قديم، فقد أصرَّ أن يهديني إياهما، لا بدَّ أنَّ أشياء من هذا النوع مألوفة لك أنتَ تاجر الطرائف الكبير.»

«يمرُّ عليَّ منها بالفعل، لكنَّ هذا لا يشبه أي شيء آخر.»

«لا بدَّ أنك مهتم بهذه الأشياء أكثر مني. ما الشيء الخاص في هذا؟»

لم يبدُ القسُّ مهتماً بصورة خاصة بما أرويه. كان يستمع لي ويسألني فقط بما يلزم من التهذيب حتى لا يبدو غير مكترث، وهو يقول في سره دون شك، بأنَّ ردود أفعالي هي ردود الأفعال العادية لرجل مولع بتجارته، وينتظر أن أستأنف جولتي بصمتٍ لكي يعود إلى الموضوع الوحيد الذي يهمه اليوم: ساباتاي. عندها اقتربتُ منه حاملاً «العاشقين» بحذر.

«ما يميِّز هذا التمثال هو أنه مكوَّن، كما ترى، من شخصين جمع بينهما الصدأ. تلك ظاهرة نادرة، ويمكنني التعرف على هذا الشيء بين ألفٍ أخرى. لهذا السبب، أستطيع أن أؤكد لك بثقة أنَّ التمثال الذي أمسكه أمامك كان قبل أربعة شهور في محلي في جبيل. قدَّمتُهُ مجاناً لفارس مارمونتيل، رسول ملك فرنسا، الذي كان قد اشترى مني للتو كتاباً نادراً بسعر مرتفعٍ جداً. أبحر إلى طرابلس حاملاً هذا الشيء، وغرق قبل الوصول إلى القسطنطينية. وها أنذا أعثر مجدداً على تمثالي فوق هذا الرف.»

نهض كوإنِن. لم تعد رجلاه تتحملان الثني. كان ممتقعاً كما لو أنني اتهمتُه بالسرقة أو القتل.

«كنتُ قد حذَّرتُ كورنيليوس ويلر من أولئك اللصوص الذين يرتدون ثياب الشحاذين ويبيعونك على عجل أشياء ذات قيمة. جميعهم أشقياء بلا ذمة ولا شرف. والآن لدي إحساس بأني شريك في آثامهم وأني أحدُ مخبِّئي الأشياء المسروقة. لقد تَلوَّثَ بيتي! فليعاقبكَ الله ياويلر!»

اجتهدتُ في طمأنَتِهِ، لم يكن لديه هو أو لدى الإنكليزي ما يأخذانه على نفسيهما لأنهما لا يعرفان مصدر التمثال. في الوقت نفسه سألتُهُ

بِرقّة عما كان البائع يحمله إضافةً إلى تمثالي «العاشقين». أردتُ بالطبع أن أعرف إذا كان كتاب *الاسم المئة* قد نجا. ألم يبحر في المركب نفسه، في الحقائب نفسها؟ أعرف أنَّ الكتاب أكثر زوالاً من تمثال معدني، ومغرِّقو السفن الذين تَسَبَّبوا بهلاك المركب وذبحوا الرجال للاستيلاء على الثروات المحمَّلة، كان بوسعهم تماماً الإبقاء على تمثال مغطى بطبقة ذهب، وإلقاء كتاب من فوق المركب إلى البحر.

«اشترى كورنيليوس أشياء كثيرة من هذا الرجل.»

«كتب؟»

«كتاب، نعم.»

ليتني كنتُ أتوقع جواباً بهذا الوضوح!

«كتاب باللغة العربية بدا مذهولاً به.»

قال لي كوإنِن بأنه لم يظهر على صديقه، طوال تواجُد البائع، أنه يعير الكتاب أهمية. ولكن ما أن انصرف الرجل سعيداً بتمكُّنه من التخلُّص من هذا القدر من البضاعة، لم يعد الانكليزي يتمالك نفسه؛ راح يقلِّب الكتاب بين يديه، وهو يقرأ ويعيد قراءة الصفحة الأولى.

«بدا شديد السعادة بما حصل عليه إلى درجة أنني حين سألتُهُ عن عمر التمثالين، أهداهما لي على الفور. ولم يشأ أن يسمع شيئاً رغم احتجاجاتي، وأمر مرافقه أن يلفَّ الهدية ويذهب لإيداعها في بيتي.»

«ألم يقل لك شيئاً عن الكتاب نفسه؟»

«شيئاً قليلاً. قال بأنه كتاب نادر، وأنَّ زبائن عديدين يطلبونه منه منذ سنين، متخيِّلين بأنه سيمنحهم لا أدري أية قدرات وأية حماية إلهية. نوع من تعويذة. أذكر أني قلتُ له بأنَّ مؤمناً حقيقياً لا يحتاج لهذه الأساليب المحتالة، وأنه يكفي أن يفعل الإنسان الخير ويردد الصلوات التي علمنا إياها مخلِّصنا، لنَيْلِ حظوة السماء. أيَّدَني ويلر وأكَّد لي بأنه هو نفسه لا يؤمن بهذا الهذر، لكنه سعيد كتاجر لأنه حصل على شيء مطلوب جداً يستطيع بيعه بسعر جيد.»

بعد أن قال كوإنِن هذا، عاد إلى شكاواه متسائلاً ما إذا كانت السماء ستغفر له على قبوله، في لحظة غفلة، هديةً مَصْدرُها مريب. أما

أنا فقد وجدتُ نفسي، ومازال في هذه اللحظة ـ غارقاً في معضلةٍ ظننتُها انقضَتْ. إذا لم يختَفِ كتابُ *الاسم المئة*، ألا يجب أن أندفع في إثره؟ هذا الكتاب جنِّيَّةُ بحرٍ لا يستطيع مَن سمع غناءها نسيانَها. أنا فعلتُ أكثر من سماع غنائها، أمسكتُ الجنية بين ذراعي، داعبتُها، امتلكتُها لحظة قصيرة قبل أن تفلت مني وتذهب إلى عرض البحر. غاصتْ وظننتُها ابتُلِعت إلى الأبد، لكن الجنية لا تغرق في البحر. بالكاد بدأتُ أنساها حتى ظهرت من جديد، قريباً جداً مني، لكي تشير لي، لكي تذكِّرني بواجباتي كعاشقٍ مسحور.

«أين هذا الكتاب الآن؟»

«لم يكلمني ويلر عنه ثانيةً أبداً. لا أعرف هل أخذه معه إلى أنكلترا، أم أبقاه في سميرنا، في بيته.»

في سميرنا؟ في بيته؟ أي في بيتي؟

من ذا الذي يستطيع أن يلومني إذن إذا رحتُ أرتجف وأغمغم وأنا أكتب هذه السطور؟

24 كانون الأول

لا شيء مما فعلتُهُ اليوم يشكل جريمة تستحق العقاب؛ لكنَّ ذلك كان دون شك إفراطاً في استغلال الضيافة. أن أفتش البيت الذي وُضِع في عهدتي، رأساً على عقب، كما لو أنه مغارة مخبِّئ مسروقات! ليُسامحني مضيفي الإنكليزي، كان يجب أن أفعل ذلك، كان يجب أن أحاول العثور على الكتاب الذي جعلني أجوب الطرقات. ودون أوهام أصلاً. كنتُ سأفاجأ لو أنَّ زميلي ترك هذا العمل في مكانه بعد أن فهم أهميته. لن أتمادى حتى الافتراض بأنه قرر الرحيل فجأةً تاركاً بيته وأملاكه في حراسة الشخص المجهول الذي أمثله، بسبب *الاسم المئة*. لكني لا أستطيع استبعاد هذه الفرضية للوهلة الأولى.

قال لي كوإنِن بأنّ كورنيليوس ويلر ينتمي إلى عائلة من أصحاب المكتبات ممن يملكون محلات منذ زمن طويل في سوق سان بول القديم

بلندن. لم أزر في حياتي هذا السوق ولا هذه المدينة، لكنَّ هذه الأماكن تبدو أليفةً لمن يتاجرون مثلي بالكتب. مثلما يُفتَرَض أن يبدو اسمُ آل أمبرياتشو في جبيل لبعض أصحاب المكتبات وجامعي الكتب من لندن أو أوكسفورد ـ هذا على الأقل ما أحب أن أعتقده. كما لو أنَّ خيطاً غير مرئي يربط، فيما وراء البحار، بين أولئك المولَعين بأشياء مشتركة؛ تقول لي روحُ التاجر بأنَّ العالم يكون أكثر دفئاً بكثير إذا أصبحت الخيوط لا تُعَدّ وأصبح النسيج أكثر سماكةً وأشدَّ تراصّاً.

غير أنني في الوقت الحاضر لا تُبهجني معرفةُ أنَّ أحداً في الجانب الآخر من العالم، يتطلَّع مثلي لامتلاك الكتاب نفسه، وأنَّ هذا الكتاب هو الآن على متن مركبٍ مبحِرٍ إلى إنكلترا. هل سيغرق مثل مارمونتيل الشقي؟ يشهد الله أنني لا أتمنى له ذلك. تمنيتُ فقط لو أن هذا الكتاب مايزال في هذا البيت بقدرة سحرية غامضة. لم أجده، ورغم أنني لا أستطيع القول بأنني بحثتُ في جميع الأماكن، فأنا مقتنع بأنني لن أجده.

اشترك جميع أفراد جماعتي في البحث عن الكنز، عدا بومة الذي تغيب النهار بطوله. كثيراً ما يتغيب هذه الأوقات الأخيرة، لكني تجنبتُ أن أعاتبه اليوم على ذلك. كنتُ مسروراً بألاَّ يعرف أننا نبحث عن كتاب المازندراني، وألاَّ يعرف خصوصاً مكان الشيء الذي يطمع به أكثر منَّا جميعاً. ذلك أنَّ بمقدوره أن يجرَّنا في أثره حتى إنكلترا! أساساً، لقد أخذتُ وعداً من جميع أهل البيت ألاَّ يقولوا له كلمة واحدة عن ذلك كله. حتى أنني هدَّدتُهم بأسوأ عقاب إذا عصوا أمري.

بعد الظهر، وبينما كنا جميعاً نستريح في الصالون، منهَكين بالقدر نفسه من الخيبة ومن التعب، قال حبيب: «حسناً لن نحصل على هدية الميلاد هذه!» ضحكنا، وفكرتُ أنَّ ذلك سيكون هديةً جميلة حقاً للجميع، عشية الميلاد هذه.

كنا مانزال نضحك عندما دُقَّ الباب. إنه خادم كوإِنِن يحمل لنا تمثال العاشقين مغلَّفاً في شالٍ أرجواني. «لا يمكنني الاحتفاظ بهذا الشيء تحت سقفي بعد ما عرفتُهُ بالأمس»، تقول الكلمة المُرافقة.

أعتقد أن القس لم يكن ينوي إهداءنا هدية الميلاد، لكنَّ إرساليته

بدت لنا كذلك. لاشيء كان يمكنه أن يسعدني أكثر سوى كتاب *الاسم المئة*.

ولكن كان يجب إخفاء التمثال في الحال، وأخذ وعد من الجميع أيضاً بالتزام الصمت. وإلاّ فإنَّ ابن أختي سيحزِر كل شيء عند رؤيتِه.

كمِ من الوقت أستطيع إخفاء الحقيقة عنه؟ ألا يجدر بي بالأحرى أن أتعلَّم كيف أقول له لا؟ هذا ما كان عليَّ أن أقوله منذ المرة الأولى التي طلب مني فيها القيام بهذه الرحلة. بدلاً من أن أسير في هذا المنحدر الزَّلِق دون ما يمسكني فيه سوى مصدات التواريخ، ربما خلال أسبوع، عامُ الـ...

27 كانون الأول

وقع طارئ غير مشرِّف جداً منذ قليل. أدوِّنه في هذا الدفتر بهدفٍ وحيد هو تهدئة نفسي، ولن أعود للكلام عنه قط.

كنتُ قد انسحبتُ إلى غرفتي باكراً جداً لإجراء بعض الحسابات، ونهضتُ في لحظةٍ معينة لكي أذهب للتحقق من أن بومة قد عاد، لأن غيابه تكرر في الآونة الأخيرة أكثر مما يجب وأصبح مقلِقاً نظراً لحالته النفسية وحالة المدينة.

بما أني لم أجده في غرفته، وفكرتُ أنه ربما ذهب إلى الحديقة لحاجةٍ ليلية، خرجتُ بدوري ورحت أتمشى جيئةً وذهاباً عند العتبة. كان الليل لطيفاً، لطيفاً على نحوٍ يدعو للدهشة بالنسبة لشهر كانون الأول، وعلى المرء أن يصغي لكي يسمع الأمواج مع أنها قريبة.

سمعت فجأةً صوتاً غريباً، يشبه حشرجة أو صرخةً مكتومة. كان مصدره السطح حيث توجد غرفة الخادمة. اقتربتُ دون ضجة وصعدت السلم ببطء. الحشرجات مستمرة.

سألتُ: «مَن هنا؟» لم يجب أحد. وتوقفت الأصوات. ناديتُ الخادمة باسمها: «نسمة! نسمة!» وسمعتُ صوت حبيب: «هذا أنا ياخالي. كل شيء على ما يرام. يمكنك العودة للنوم!»

العودة للنوم؟ لو قال شيئاً آخر لربما أظهرتُ تَفَهُّماً، وربما أغمضتُ عينيّ كوني أنا نفسي لستُ ممن لا يُعابُ سلوكهم في الآونة الأخيرة. ولكن أن يكلمني هكذا كأنني خرِفٌ أو أبله؟

دخلتُ الغرفة مثل مجنون. إنها غرفة صغيرة ومظلمة جداً، لكني ميَّزتُ القامتين، وشيئاً فشيئاً تعرفتُ عليهما. «تقول لي أنا أن أعود للنوم...» أمطرتُهُ بسيلٍ من الشتائم الجَنَوية وصفعتُهُ بكل قوة. الوقِح! أما الخادمة فقد تركتُها حتى الصباح لكي تحزم أشياءها وتنصرف.

الآن وقد هدأ غضبي قليلاً، أقول لنفسي بأنَّ ابن أختي هو الذي يستحق العقاب أكثر من تلك المسكينة. لا أجهل إلى أيّ حدٍ بوسعهِ أن يكون مُغْوِياً. لكنَّ المرء لا يعاقِب أبداً مثلما يجب أن يعاقِب، بل مثلما يستطيع أن يعاقب. أن أطرد الخادمة وأوبِّخ ابن أختي، أعرف أنَّ هذا ليس عدلاً. ولكن ماذا أفعل غير ذلك؟ هل أصفع الخادمة وأطرد ابن أختي؟

أشياء كثيرة تحدث في بيتي وما كانت لتحدث لو أنني أتصرف بطريقة أخرى. أتألم وأنا أكتب هذا، لكني ربما كنتُ سأتألم أكثر إذا لم أكتبه. لو لم أسمح لنفسي بالعيش على هواي مع امرأةٍ ليست امرأتي. لو لم أتعامل مع قوانين السماء وقوانين البشر بهذا القدر من الحرية، لما كان ذاك هو سلوكه، ولما عانيت.

ما كتبتُهُ للتو صحيح، لكن الصحيح أيضاً هو أنَّه لو لم تكن القوانين المذكورة بما هي عليه من القسوة، لم احتجنا، مارتا وأنا، للتحايل عليها. لماذا أكون الوحيد الذي يشعر بذنبِ انتهاك القوانين في عالمٍ يحكم التعسُّفُ كلَّ شيءٍ فيه؟ ولماذا أكون الوحيد الذي يعاني من تبكيت الضمير؟

يوماً ما يجب أن أتعلم كيف أكون ظالماً دون شعور بالندم.

الاثنين 28 كانون الأول 1665

عدتُ اليوم لرؤية عبد اللطيف، ذاك الموظف العثماني، كاتب محكمة سجن سميرنا، ويبدو لي أني لم أخطئ بوصفه بالنزاهة. بل أنه أكثر نزاهة مما ظننتُ. عسى ألاّ تَنقض الأيامُ القادمة كلامي!

ذهبتُ إليه بصحبة مارتا وحاتم، وبكيس نقود مزوَّد بما يكفي من المال لتلبية المطالب الاعتيادية. استقبلني بتهذيبٍ في المكتب المعتم الذي يشاركه فيه ثلاثة موظفين آخرين كانوا يستقبلون في الآونة نفسها أيضاً «زبائنهم» الخاصين. قال بصوتٍ منخفض وهو يشير لي جالساً بأن أنحني نحوه، وبأنه بحث في جميع السجلات المُتاحة دون أن يجد شيئاً بخصوص الرجل الذي يهمُّنا. شكرتُهُ على تعبه وسألتُهُ وأنا ألمس صرة نقودي، كم كلَّفَهُ بحثُه. قال لي وهو يرفع صوته فجأةً: «مئتي أسبر!» وجدتُ المبلغ كبيراً دون أن يكون لامعقولاً أو غير متوقع. على أية حال لم أكن أنوي المجادلة ووضعتُ له القطع في باطن يده. شكرني بالصيغة المتعارف عليها ونهض لكي يرافقني، الأمر الذي فاجأني بالتأكيد. هذا الرجل الذي استقبلني دون أن يتكرَّم بالنهوض ودون أن يدعوني للجلوس، لماذا ينهض الآن ويمسكني من ذراعي كأنني صديق منذ وقت طويل، أو مُحسِن؟

عندما أصبحنا في الخارج فتح لي يدي وسكب لي فيها كل قطع النقود التي أعطيته إياها للتو وأطبق لي أصابعي فوقها قائلاً: «أنت لاتَدين لي بهذه النقود، لم أحتج سوى للنظر في سجلّ، وهذا جزء من العمل الذي أتقاضى أجراً عليه. هيا، ليحفظك الله ويجعلك تجد ماتبحث عنه.»

مكثتُ مذهولاً ورحت أتساءل إذا كان الأمر تبكيتَ ضميرٍ حقيقياً أم مكراً عثمانياً إضافياً يرمي للحصول على مزيد من النقود، وإذا كان عليَّ بالتالي أن ألحّ أم أنصرف شاكراً بكلمة امتنانٍ لا غير، مثلما يدعوني هو. لكنَّ مارتا وحاتم اللذين راقبا المشهد المثير للدهشة، راحا يرتِّلان بأعلى صوتيهما كما لو أنهما شهدا معجزةً للتو. «بارك

الله بك! ياأفضل الرجال! أكثر خدم مولانا السلطان استحقاقاً! رعاك الله أنت وذويك!».

«يكفي! صرخ الرجل. هل أقسمتم على هلاكي؟ انصرفوا من هنا، وعسى ألا أراكم ثانيةً أبداً!».

ابتعدنا حاملين تساؤلاتنا معنا.

29 كانون الأول 1665

رغم إلحاح هذا الرجل عدت لأراه اليوم. بمفردي هذه المرة. كنتُ بحاجة لأفهم لماذا تصرف بتلك الطريقة. لم أكن أعرف كيف سيستقبلني، بل كان لديّ، طوال الطريق المؤدية من حي التجار الأجانب حتى القلعة، حدس بأني سأجد مكانه شاغراً. عادةً، لا يتذكر الإنسان حدسَهُ أو يتكلم عنه إلاّ عندما يتحقق. أما حدسي فقد كان خاطئاً، لأن عبد اللطيف كان في مكانه. ثمة امرأة متقدمة في السن تكلمه، وأشار لي بأن أنتظر لحظة ريثما ينتهي منها. حين ذهبت، خربش بضع كلمات فوق دفتره ثم نهض وسحبني إلى الخارج.

«إذا جئتَ لكي تعطيني المئتي أسبر تلك، فعبثاً جئت.»

«لا، قلتُ له، أتيت فقط لأشكرك أيضاً على تعاونك. البارحة راح صديقاي يرتِّلان ولم أستطع أن أعبِّر لك عن كامل امتناني. أقوم بإجراءات منذ شهور، وفي كل مرة أعود مطلِقاً الشتائم، عذراً. وبفضلك ذهبتُ من هنا وأنا أشكر السماء والباب العالي في حين أني لم أقترب من هدفي أكثر. من النادر جداً في أيامنا هذه أن يلتقي المرء برجل نزيه. أفهم أن تكون ردةُ فعل صديقيَّ على تلك الشاكلة. لكنَّ تواضُعَكَ لم يُطِقْ حماسَهُما، فأسكتَّهُما.»

لم أطرح السؤال الذي يقف على طرف لساني. ابتسم الرجل، تنهَّد ووضع يده فوق كتفي.

«أزِلْ عنكَ الوهمَ، ليس التواضع هو الذي جعلني أُسكِتُ صديقيك، بل الحكمة والحذر.»

تردد لحظة كمنْ يبحث عن كلماته. ثم جال بنظره في الجوار ليتأكد من أنَّ أحداً لا يراقبه.

«في مكانٍ يَقبَلُ فيه معظمُ الأشخاص المالَ الوسِخ، يبدو من يصرّ على رفضه تهديداً للآخرين واحتمالَ فضْحٍ لهم، فيفعلون كل شيء للتخلص منه. وهم أساساً لم يجدوا حرَجاً لكي يقولوا لي ذلك: إذا أردت الحفاظ على رأسك فوق كتفيك، يجب أن تفعل مثلنا، لا تُظهِر نفسك أسوأ ولا أفضل منا. وبما أني لا أريد الموت، لكني كذلك لا أريد التلوث أو إنزال العذاب على نفسي، أفضِّل التصرُّف مثلما تصرَّفتُ معكم. أبيع نفسي داخل المبنى، وأشتريها ثانيةً خارجه.»

أيُّ عصر غريبٍ هو عصرنا، الخير مضطرٌّ للتنكُّر فيه تحت بَهارِجِ الشر!

ربما جاء الزمن الذي يجب أن ينتهي فيه الزمن...

30 كانون الأول 1665

سافر ساباتاي هذا الصباح إلى القسطنطينية دون أن يُعرَف أي مصير ينتظره. أبحر على متن قايق(*) يصحبه ثلاثة حاخامات، واحد من حلب وواحد من القدس، والثالث قيل لي بأنه من بولونيا. ذهب في الرحلة أيضاً ثلاثة أشخاص منهم والد ميمون. تمنى صديقي الانضمام إليهم كي يبقى قريباً من والده، لكنّ المسيح المزعوم اعترض.

يبدو البحر هائجاً وغيوم سوداء تسدّ الأفق، لكنّ جميع هؤلاء الرجال صعدوا إلى القايق وهم يغنون، كأنّ حضور سيدهم إلى جوارهم يُبطِل العواصف وهياج الأمواج.

منذ ما قبل رحيلهم كانت الشائعات عديدة ينقلها لي ميمون باستمرار من أعلى المدينة لكي أشاركه مخاوفه وحيرته. يزعم أنصار ساباتاي بأنه ذاهب إلى القسطنطينية ليقابل السلطان ويعلمه بأن الزمن

(*) زورق طويل وضيق يسير بالمجداف يستعمل خاصةً في البوسفور.

الجديد قد حلّ، زمن الافتداء والخلاص، ويُلزِمه بالخضوع له دون مقاومة؛ ويضيفون بأنّ الخالق سيعلن أثناء هذه المقابلة عن مشيئته بمعجزةٍ مدوِّية، بحيث لا يستطيع السلطانُ المُروَّع إلاّ الارتماء على ركبتيه وتسليم التاج لذاك الذي سيصبح ظلَّ الله على الأرض، بدلاً منه.

على العكس من ذلك يزعم خصومُ ساباتاي بأنه لم يذهب فاتحاً إطلاقاً، بل بأنَّ السلطات العثمانية نفسها هي التي أمرته، بصوت القاضي، بمغادرة سميرنا خلال ثلاثة أيام والتوجه إلى القسطنطينية حيث سيُعتَقَل لدى وصوله. فرضيةٌ مقبولة، بل إنها الفرضية الوحيدة المقبولة. فأيُّ رجلٍ عاقل يمكنه الاعتقاد بتلك المقابلة المعجزة التي يضع خلالها أقوى سلطانٍ في العالم، تاجَهُ عند قدميّ رجلٍ أحمرِ الوجه يدندن؟ لا، لا أعتقد بذلك، وميمون كذلك. لكنَّ معظم الناس في الحي اليهودي هذا المساء، يعتبرون الأمر كأنه حاصلٌ بالتأكيد. أولئك الذين لديهم شكوك يخفونها ويتظاهرون بأنهم يتهيَّؤون منذ الآن للملذات.

يبدو على بومة الاعتقاد أيضاً بأن العالم على شفا الانقلاب. العكس كان سيدهشني. حالما يكون هناك تخيير بين أمرين، يميل ابنُ أختي للأمر الأكثر حماقة بينهما. أصرُّ، الأكثر حماقة، لكنه قادر دوماً على المحاججة وعلى دفعنا للتفكير إذا لم يوقعنا في حيرة.

«إذا كانت السلطات، يقول، تنوي إيقاف ساباتاي ما أن يضع قدمه على البر، لماذا تركَتْهُ يذهب هكذا، حراً، على المركب الذي اختاره، بدلاً من إرساله إلى سجنه تحت حراسة مشددة؟ كيف يمكن لها التأكد من المكان الذي سينزل فيه؟»

«ماذا تريد أن تقول لنا يا بومة؟ أنَّ السلطان سيرضخ ببساطة حالما يأمره الرجل بذلك؟ لقد فقدتَ عقلكَ بالتأكيد أنت أيضاً.»

«لم يعد أمام العقل سوى يومٍ واحد يعيشه. سيبدأ العام الجديد، العهد الجديد، وما كان يبدو معقولاً سيبدو عما قريب مضحكاً، وماكان يبدو لا معقولاً سيفرض نفسه على أنه البداهة نفسها. أولئك الذين انتظروا اللحظة الأخيرة لكي يفتحوا عيونهم، سيعمي الضوءُ عيونهم.»

ضحك حبيب هازئاً ورفعتُ كتفيّ ملتفتاً نحو ميمون طالباً

موافقته. لكن صديقي كان كالغائب. كان دون أدنى شكٍّ يفكر بأبيه، أبيه العجوز والمريض والتائه. كان يراه يبحر في ذلك القايق دون حركة وداعٍ له، دون نظرة، وراح يتساءل إذا لم يكن يمضي بهذا الشكل نحو المهانَة أو الموت. لم يعد يعرف أيَّ شيءٍ يصدِّق، ولا أيَّ شيءٍ يتمنى خاصةً. أو بالأحرى بلى، كان يعرف، لكنَّ هذا لم يعد يمنحه الكثير من العزاء.

منذ أن أقمنا معاً تناقشتُ معه بما يكفي لكي أعرف معضلته بدقة. إذا كان والده على حق، إذا كان ساباتاي هو الملك المسيح، إذا تحققت المعجزة المنتظرة، إذا خرَّ السلطان على ركبتيه معترفاً بأن الزمن القديم قد انتهى، وممالك هذا العالم ولَّت، وإذا لم يعد الأقوياء أقوياء والمتغطرسون متغطرسين، وإذا لم يعد المتواضعون مُذَلِّين، إذا أمكن لكل هذا الحلم المجنون أن يصبح حقيقةً بمشيئة السماء، فكيف لا يبكي ميمون من الفرح به؟ ولكن ليس هذا ما سيحدث، يكرر لي القول. فساباتاي لا يوحي له بأية ثقة وأي خشوع وأي توقُّع كما لا يوحي له بأي نوع من الفرح.

«مازلنا بعيدين عن أمستردام المأمولة»، يقول لي ضاحكاً كيلا يبكي.

31 كانون الأول 1665

يا رب، إنه اليوم الأخير!

منذ هذا الصباح وأنا أدور في دوائر دون أن أستطيع الأكل أو الكلام أو التفكير. أجترُّ أسباب جزعي وأقلِّبها. سواء صدَّقنا ساباتاي أو لم نصدقه، فما من شك بأنَّ ظهوره في هذا الوقت بالذات، عشية السنة المقدَّرة، في هذه المدينة التي أسماها يوحنا واحدةً من الكنائس السبع المعنية في المقام الأول في رسالة الرؤيا، لا يمكن أن يعود كلياً لمجموعة مصادفات. ما وقع لي خلال الأشهر الأخيرة لا يمكن كذلك

تفسيره دون رجوعٍ لاقترابِ الزمن الجديد، زمن الوحش أو الافتداء، وللإشارات التي تنبئ به. هل عليَّ أن أعدَّها مرة أخرى؟

بينما ينام أفراد جماعتي قيلولتهم، جلستُ إلى طاولتي لكي أكتب ما يوحي لي به هذا اليوم. فكرتُ بكتابة وصية، ثم توقفتُ عند تلك السطور المنتهية باستفهام، وكنتُ قد تركتُ يدي لحظةٍ طويلة معلَّقة في الهواء دون أن أقرر البدء بتعداد تلك الإشارات التي علَّمَتْ شهورَ حياتي وحياة ذويَّ. في النهاية رتبتُ أدوات كتابتي متسائلاً إذا كانت ستتاح لي الفرصة ثانيةً لِغَطِّ قلمي في الحبر. خرجتُ أتمشى في الشوارع شبه المقفرة، ثم على طول الشاطئ المهجور أيضاً، حيث هدَّأني صوتُ الأمواج والرياح عندما دَوَّخَني.

حين عدتُ إلى بيتي تمددتُ بضع دقائق فوق سريري شبه جالسٍ كون رأسي بقي مرفوعاً فوق الوسائد المكدَّسة. ثم نهضتُ بمزاجٍ ممتاز، مصمماً على عدم ترك يومي الأخير ـ إذا كان الأخير بالفعل ـ يمرّ في الكآبة والخوف.

خططتُ لمشروع اصطحاب أسرتي بكاملها عند صاحب المطعم الفرنسي. لكنّ ميمون اعتذر قائلاً بأنّ عليه الذهاب إلى الحي اليهودي لمقابلة حاخام وصل للتو من القسطنطينية، وربما يخبره عما ينتظر ساباتاي وجماعته هناك. قال بومة بأنه سينزوي في غرفته لكي يتأمل حتى الفجر مثلما يجدر بكلٍّ منا أن يفعل. كذلك حبيب الذي مازال في حداده أو حرَدِهِ، لم يشأ الخروج. ودون أن يثبِّط عزمي شجعتُ مارتا على مرافقتي، فلم ترفض. بل بدت مفتونةً كما لو أنّ تاريخ اليوم ليس له تأثير عليها بأي شكلٍ كان.

طلبتُ من السيد موانو ببساطة أفضل ما لديه، أكثر طبقٍ يفخر به كطباخ، مع أفضل نبيذٍ من مخزونه، كما لو أنّ تلك هي آخر وجبة لنا، فكرتُ بذلك دون أن أقوله ودون أن يوقعني هذا الاحتمال في ارتباكٍ يفوق الحد. أعتقد بأنني أذعنتُ للأمر.

حين عدنا وبدا الجميع نياماً، ذهبتُ إلى غرفة مارتا وأغلقتُ

بابها من الداخل بالمزلاج. ثم أقسمنا على النوم متعانقين حتى الصباح - أو حتى يقع الأمر صبيحة عام الوحش، فكرتُ بين الهزل والرعب. إلاّ أنَّ رفيقتي غفت بعد العناق، وأنا جافاني النوم. أبقيتُها لحظة طويلة بين ذراعي، ربما ساعة، ثم أبعدتُها بلطف، نهضتُ ثم تدثّرت وتناولت أدوات كتابتي من جديد.

كنتُ ماأزال أعِدُ نفسي بتقييم نتائج الشهور الأخيرة، بتعداد الإشارات على أمل أن يجعلني صفُّها فوق الورقة أكتشف فجأةً معنى الأشياء. ولكني أعدل عن ذلك للمرة الثانية اليوم. اكتفيتُ بتدوين النشاطات التافهة التي قمتُ بها بعد الظهر وعند المساء، ولن أكتب الآن شيئاً آخر.

في أية ساعةٍ من الليل نحن الآن؟ أجهل ذلك. سأذهب وأنسلُّ قرب مارتا متعهِّداً بعدم إيقاظها، وآملاً أن تهدأ أفكاري لكي يأتي النوم.

الجمعة 1 كانون الأول 1666

بدأ عام الوحش، وهذا صباح مثل غيره. الضوء نفسه خلف الدرفات، والأصوات نفسها في الخارج؛ وسمعتُ صياح ديكٍ في الجوار.

مع ذلك لايسمح بومة للحيرة بأن تأخذ طريقها إليه. يزعم أنه لم يقل قط بأنَّ العالم سيختفي بين يوم وليلة. صحيح أنه لم يؤكد ذلك بوضوح أبداً، لكنه كان يتصرف أمس كما لو أنَّ أبواب الجحيم على وشك أن تنفتح. يُحسِن صنعاً بتخلّيه عن هذه الهيئة المحتقِرة واعترافه بأنه يماثلنا جميعاً في الجهل. لا يخطر هذا في ذهنه ويستمر دوماً في التنبؤ على طريقته.

«سيحلُّ العهد الجديد بإيقاعه الخاص»، يعلن ابنُ أختي وسيطُ الوحي.

ربما يستغرق الأمرُ يوماً أو أسبوعاً أو شهراً أو حتى العامَ كله - الشيء اليقيني، يؤكد، هو أنَّ الإشارة قد أعطِيَتْ، وأنَّ تحوُّرَ العالم جارٍ

وأنَّ كل شيء سوف يترسَّخ قبل نهاية 1666. يدَّعي هو وأخوه بأنهما لم يخافا قط، وأنني أنا فقط، خالُهُما، الذي كنتُ مرعوباً، فيما كانا بالأمس، من الصباح إلى المساء، يتنفسان بصعوبة ويرسمان الدوائر في سيرهما بنظرات فرائس مطارَدة.

نقل لي ميمون الذي أمضى مساء الأمس ونهار اليوم في الحي اليهودي، أنَّ طائفتهم التي تعيش في القسطنطينية باتت في الأسابيع الأخيرة مُعلَّقةً إلى الأنباء التي تصلها من سميرنا، وأنَّ الجميع، من أغنياء وفقراء، متعلمين وجهلة، قديسين وفاجرين، ينتظرون قدوم ساباتاي برجاء لا حدَّ له. ينظفون البيوت والشوارع، يزيِّنونها كأنهم يعدُّونها لزفاف، وتنتشر شائعةٌ في سميرنا وأماكن أخرى، كما يبدو، بأنّ السلطان يتأهب لوضع عمامته وتاجه عند قدميّ المسيح الملك لقاء الحفاظ على حياته ومنحه مكاناً في المملكة القادمة، مملكة الله على الأرض.

الأحد 3 كانون الثاني 1666

يستبسِلُ الواعظُ في كنيسة الكبوشيين ضدَّ من يعلنون نهاية العالم ومن يفسِّرون الأرقام، وضدَّ كل من يستسلم للخديعة. ويؤكّد بأن العام الذي بدأ سيكون مثل غيره من الأعوام، ويسخر من مسيحِ سميرنا. يبتسم المصلون من تهكُّماته لكنهم يرسمون إشارة الصليب بفزعٍ كلما ذكر الوحش أو القيامة.

4 كانون الثاني

وقع ظهر هذا اليوم حادث بسببي وكان يمكن أن تنتج عنه أسوأ النتائج. لكني أشكر الله لأني تحليتُ بما يكفي من حضور الذهنِ لأُجلِس المركب الذي بدأ ينقلب.

كنتُ قد ذهبت لنزهةٍ مع مارتا وحاتم وقادتنا خطانا قرب الجامع الجديد حيث يوجد أصحاب مكتبات عديدون. انتابتني فجأةً رغبةٌ بسؤالهم عن كتاب *الاسم المئة*. كان يجب أن تدفعني مغامراتي السيئة السابقة في طرابلس ثم في القسطنطينية، إلى الحذر، لكنّ رغبتي بامتلاك هذا الكتاب كانت أقوى، وأعطيتُ نفسي، بكل سوء نية، أفضل الأسباب لكي أتخلى عن حذري. قلتُ لنفسي بأنه في الجو السائد في سميرنا، وحتى إذا هدأ الفوران بعد رحيل ساباتاي، فربما تُقبَل الآن بعضُ الأشياء التي كانت في وقتٍ ما مشبوهةً أو ممنوعة. أقنعتُ نفسي أيضاً بأنَّ مخاوفي مفرطة على أية حال، بل غير مبررة دون ريب.

الآن أعرف أنها لم تكن كذلك. فبالكاد نطقتُ اسم المازندراني وعنوان الكتاب حتى أصبحت معظم النظرات هاربةً، والأخرى مرتابةً، وبدت بعضها مهدِّدةً. لم يُقَل لي شيء محدد ولم يُفعَل شيء ضدي. حدث كل شيء على نحوٍ صامت لايُدرَك ولا يمكن إثباته؛ إلا أنني توصلتُ اليوم إلى يقينٍ بأنَّ السلطات حذَّرت أصحاب المكتبات بوضوح ضد هذا الكتاب وضد كل شخصٍ يبحث عنه. في سميرنا والقسطنطينية كما في طرابلس أو حلب وفي جميع مدن الامبراطورية.

وخوفاً من اتهامي بالانتماء إلى أخويةٍ سرية تطمح لهزِّ عرش السلطان، غيَّرتُ الحديث في الحال واندفعتُ في وصفٍ دقيق وعجيب لجلدِ الكتاب «كما وُصِف لي»، زعمتُ، مؤكّداً أن هذا هو كل ما يهمني كتاجر. أشكّ بأن تغييري للحديث قد خدع من كنتُ أخاطبهم. إلاَّ أنَّ أحدهم، وهو تاجر ماهر، ركض ليجلب لي من دكانه مؤلَّفاً محاطاً بتجليدٍ يشبه ما وصفتُه ـ من الخشب المُدَمْشَق بعنوان مرصَّع بالصدف ومفَصَّلات دقيقة جداً تشبه مفصَّلات الصناديق. سبق أن حصلتُ في محلي على مؤلَّف مجلَّد بهذه الطريقة غير الاعتيادية إطلاقاً، لكنه لم يكن *الاسم المئة* بالطبع...

يتكلم المؤلَّف الذي حمله لي صاحب المكتبة اليوم، عن الشاعر التركي يونس إمري المتوفى في القرن الثامن للهجرة، القرن الرابع عشر من تاريخنا. ما أن تصفَّحتُهُ قليلاً حتى لاحظتُ أنه ليس ديوان شعر وحسب، بل مزيج من قصائد وشروح وطُرَف من سيرته الذاتية. تحريتُ الجلد خاصةً، ومررتُ بأصابعي فوقه عدة مرات لكي أتحقق من

أنه مرصّع بدقة دون أية وعورة. واشتريتُهُ بالطبع. لم يكن وارِداً، مع كل أولئك الناس الذين كانوا يراقبونني، أن أكذّب الكلام الذي قلتُهُ قبل قليل. قام صاحب المكتبة الذي باعني إياه بستة قروش، بصفقة جيدة. ولكن أنا أيضاً. فقد تعلمتُ درساً يستحقّ وزني ذهباً، بستة قروش: لن أتكلم ثانيةً أبداً عن الكتاب المئة في بلدٍ عثماني!

الثلاثاء 5 كانون الثاني 1666

مساء الأمس، وقبل أن أنام بالضبط، قرأتُ بضعة مقاطع من الكتاب الذي ابتعته البارحة. سبق أن سمعتُ باسم يونس إمري، لكني لم أقرأ له شيئاً قبل الآن. منذ عشرات السنين وأنا أقرأ قصائد من كل البلدان وأحفظ أبياتهم أحياناً، لكني لم أقرأ شيئاً مشابهاً قط. لا أجرؤ أن أقول أن هذا هو الأعظم، لكنه بالنسبة لي الأكثر إدهاشاً.

زعزعتْ ذبابةٌ نسراً
أوقعتْهُ أرضاً وجعلتْهُ يعضُّ التراب
إنها الحقيقة الدقيقة
أنا نفسي رأيتُ التراب

تسلّقت السمكة شجرة الحور
لكي تأكل قطراناً بالخلّ
أنجب اللقلقُ جحشاً
أي لغةٍ سيتكلّم؟

كنتُ سعيداً عند اليقظة لاكتشافي هذا الكتاب، لكنَّ الليل نصحني بعدم الاحتفاظ به، بل بإهدائه لرجلٍ يستحقه ويقدِّر لغته أكثر مني ـ عبد اللطيف، كاتب المحكمة النزيه. أدين له بدينٍ عليَّ الوفاء به ولا أعرف

جيداً الوسيلة الأكثر ملاءمةً. لن أقدّم له حلية ولا قطعة قماش قيّمة تدفعه مبادئه لرفضها، ولا قرآناً مزخرفاً لا يتقبّله المسلمُ بشكل حسنٍ من يدِ شخص جَنَويٍّ. ليس هناك ماهو أفضل من كتابٍ دنيوي، قلتُ لنفسي، ممتع القراءة، يتجول فيه من وقت لآخر باستمتاع، ويذكُره بامتناني.

ذهبتُ في الصباح قاصداً القلعة، أحمل هديتي تحت ذراعي. بدا الرجل مندهشاً في البداية. بل إنني شعرتُ أنه حذِرٌ بعض الشيء، كأنه يخشى أن أطلب منه مقابل ذلك خدمةً ما تُحرِجه أمامَ ضميره. عايَرَني بنظره ببطء إلى درجة أنني بدأتُ أندم على فعلتي. لكنَّ وجهه ما لبث أن استرخى، فعانقني ودعاني صديقَهُ ثم نادى رجلاً طيباً يجلس قرب الباب لكي يجلب لنا قهوة.

وعندما نهضتُ بعد بضع دقائق لكي أنصرف، رافقني إلى الخارج وهو يمسكني من ذراعي. كانت ماتزال تبدو عليه إمارات التأثر الشديد من حركتي التي لم يتوقعها إطلاقاً. قبل أن أتركه سألني للمرة الأولى أين أقيم عادةً وأين يقع منزلي في سميرنا، ولماذا أهتم بمصيرِ زوج مارتا. أجبتُهُ دون مواربة بأنّ هذا الشخص هجرها منذ سنين، وأنها لم تعد تعرف أخباره، ولا تعرف بالتالي إذا كانت ماتزال متزوجة أم لا. بدا عبد اللطيف أكثر أسفاً لأنه لم يستطع فعل شيءٍ لتبديد هذا الشك.

على طريق العودة، بدأتُ أعيد التفكير بالاقتراح الذي عرضه عليّ حاتم منذ بضعة أسابيع، القاضي بتزويد مارتا بمُصَدَّقة مزورة تشهد بموت زوجها. إذا احتاج الأمر للجوء يوماً لوسائل مشابهة، فليس هذا الصديق الجديد، هذا الإنسان الشديد الاستقامة، هو الذي أستطيع طلب مساعدته.

أردتُ حتى الآن استكشاف طرقٍ أقلّ خطراً. ولكن كم من الوقت يجب أن نصبر أيضاً؟ كم كاتب محكمة، كم قاضياً، كم جندياً انكشارياً عليَّ استجوابهم ورشوتهم، وحتى دون نتيجة؟ ليس الإنفاق هو مايُقلِقُني، فقد وهبني الله مالاً وفيراً. ولكن سيتوجب علينا العودة إلى جبيل، ويجب الحصول على وثيقةٍ ما تُعيد لِ «الأرملة» حريتها. ليس وارداً أن تقع من جديد تحت رحمة أسرة زوجها!

حين وصلتُ إلى «بيتي»، برأسٍ مايزال يطنّ، ووجدتُ أنّ كل أفراد جماعتي ينتظرونني للجلوس إلى المائدة، نويتُ للحظة أن أسأل كلاً منهم إذا لم يكن يفكر بأنّ الوقت قد حان للعودة إلى البلاد. لكنني طفتُ بنظري من حولي وفي الحال أجبرتُ نفسي على الصمت. ميمون يجلس إلى يميني ومارتا إلى يساري. لو اقترحتُ عليها هي العودة إلى البلاد، سيكون ذلك كأني أتخلى عنها، أو أسوأ من ذلك، كأني أسلمها لمضطهِديها بمعصمين مقيَّدين؛ ولو اقترحت عليه هو الذي يسكن الآن في بيتي، فكيف أقول بأن الوقت قد حان لمغادرة سميرنا؟ سيكون الأمر كأني أقول بأني سئمتُ من استضافته، كأني أطرده.

رحت أفكر بأني كنتُ محِقّاً حين لزمتُ الصمت، وأني لو فتحتُ فمي دون تفكير لندمتُ على ذلك حتى آخر يومٍ في حياتي. التفت بومة نحوي وقال فجأةً:

«يجب أن نذهب إلى لندن، فهناك يوجد الكتاب الذي نبحث عنه.»

انتفضتُ. لسببين، الأول هو الطريقة التي نظر ابن أختي بها إليَّ وهو يتكلَّم ـ كأنه سمع السؤال الذي ابتلعتُه وردَّ عليه. أعرف أن هذا ليس سوى انطباع، انطباع كاذب، انطباع أخرق. يُفتَرَض ألاَّ يكون هناك ما يسمح لهذا المُلْهَم باستشفاف أفكاري! مع ذلك كان في نظرته وفي نبرة صوته خليط من الثقة والسخرية سبَّب لي الضيق. السبب الثاني لمفاجأتي هو أني أخذتُ وعداً من الجميع بعدم قول شيء عن التمثال المستعاد وعن احتمال أن يكون كتاب المازندراني بحوزة ويلر. من الذي أفشى السر؟ طبعاً حبيب. نظرتُ إليه ونظر بدوره إليَّ مباشرةً بوقاحة وتحدٍّ. كان يجب أن أتوقع ذلك بعد ما حدث في اليوم التالي لعيد الميلاد، الصفعة التي تلقَّاها والخادمة المطرودة، كان يجب أن أتوقع انتقامه!

التفتُّ نحو بومة وأجبتُ ساخطاً بأني لا أنوي بأية حال اتباع نصائحه مجدداً، وأنني، يوم أغادر سميرنا، سأغادرها لكي أعود إلى بيتي في جبيل وليس إلى أي مكان آخر، «لا إلى لندن ولا البندقية ولا البيرو ولا الصين ولا بلاد البلغار» صرختُ.

لم يخاطر أحدٌ من حولي في مخالفتي. أسبل الجميع، بما فيهم

حبيب، نظراتهم علامة الخضوع. لكني أخطئ إذ أعتقد بأنّ هذا النقاش قد أُغلِق. الآن وقد عرف بومة أين يوجد الكتاب، فسوف ينكّد عليَّ مثلما يجيد ذلك.

7 كانون الثاني

أمطرت طوال النهار حباتٍ باردة ودقيقة، تخِز مثل رؤوس الدبابيس. أمضيتُ النهار دون أن أخرج مرة واحدة ودون الابتعاد كثيراً عن المجمَر. أشعر بألم في صدري ربما بسبب البرد، وقد اختفى أساساً عندما دفَّأتُ نفسي. لم أكلم أحداً في الأمر، ولا حتى مارتا، ولماذا أسبِّب لها القلق؟

منذ الثلاثاء لم نعد نتكلم عن عودتنا ولا عن وجهتنا القادمة، لكنّ بومة طرح الموضوع ثانيةً هذا المساء لكي يقول بأننا إذا قمنا بهذه الرحلة الطويلة في سبيل العثور على كتاب *الاسم المئة*، فليس معقولاً أن نعود إلى جبيل دون أن نحصل عليه ثم نقضي بقية العام المشؤوم في تضَجُّرٍ وارتعاش. كدتُ أجيب بنبرة أمس الأول ذاتها، لكنّ المناخ كان مسترخياً لا يَحتَمِل كلاماً سلطوياً، لذا فضَّلتُ سؤال البعض عن السلوك الذي يجب تبَنِّيه.

بدأتُ بميمون الذي امتنع في البداية عن التدخُّل في مسألة عائلية، وعندما ألححتُ، نصحَ ابني أختي بتهذيب أن يثقا بسنِّي وتقديري للأمور. هل كان يمكن لضيفٍ محترم أن يجيب بطريقة أخرى؟ لكنه استجلبَ لنفسه الردَّ التالي من بومة: «يحدث أن يكون سلوك الابنُ في عائلةٍ ما، أكثر حكمةً من سلوك أبيه!» بقي ميمون مذهولاً لحظة قصيرة قبل أن ينفجر ضاحكاً بقوة. حتى أنه طبطبَ على كتف ابن أختي كمَن يقول له بأنه فهم التلميح، وأنه يقدِّر حضور ذهنه ولا يحقد عليه بسبب ذلك. لكنه لم يقل كلمة واحدة أخرى طوال السهرة.

أما من جهتي، فقد استفدتُ من هذا التبادل ثم من الضحك لكي

أتجنب الخوض في نقاش جديد مع بومة في موضوع إنكلترا، لاسيما أني شعرتُ مجدداً بذلك الألم في صدري، وأردتُ عدم تعريض نفسي للهياج. مارتا لم تعبِّر أيضاً عن أي رأي. لكنها عندما ردَّ حبيب على أخيه: «إذا كان هناك شيء يجب أن نعثر عليه، فإننا سنعثر عليه هنا في سميرنا. لا أعرف لماذا، هكذا، أشعر بذلك. يكفي أن نصبر!»، أيَّدتْهُ بابتسامة كبيرة وبِقول «حفظكَ الله، لقد قلتَ كل ما يجب أن يُقال!»

أما أنا الذي أصبحُ كل يومٍ أكثر شكاً، فإني أقول في سري بأنّ سلوك حبيب يُفسَّر، كما على الدوام، بالدوافع العاطفية. لقد تغيَّب اليوم طوال النهار والبارحة أيضاً. انتهى حرَدُه ولا بدَّ أنه يقتفي من جديد أثرَ إحدى الحسناوات.

8 كانون الثاني

ما علِمتُهُ اليوم يحوِّل مجرى حياتي. يقول البعض بأنَّ الحياة تتخذ مجراها الدائم، عندما يتَحوَّل هذا المجرى. دون شك...

لم أكلِّم أحداً في الأمر بعد، وخصوصاً مارتا المعنيَّة الأولى. سأكلمها عنه في النهاية، طبعاً، ولكن ليس قبل أن أفكر طويلاً، بمُفَردي، دون أن أدع أحداً يؤثِّر عليّ، وقبل أن أقرر ما هو السبيل الذي يجب السير فيه.

إذن، وأنا أنهض من قيلولتي بعد ظهر هذا اليوم، جاء حاتم ليقول لي بأن صبياً يريد رؤيتي. كان يحمل لي ملاحظة من طرف كاتب المحكمة عبد اللطيف يسألني إذا كنت أستطيع تشريفه بزيارة إلى منزله الذي سيرشدني ابنُه إليه.

يسكن غير بعيد عن القلعة في بيتٍ أكثر تواضعاً مما افترضتُ، لكنه يتقاسمه، كما فهمتُ، مع ثلاثة من أشقائه مع عائلاتهم. تَسوده حركة دائمة لِصِبيةٍ يتعاركون ونسوةٍ حافيات تلاحقنهم ورجال يرفعون أصواتهم لفرض طاعتهم.

بعد انتهاء المجاملات، قادني عبد اللطيف إلى حجرة أكثر هدوءاً في الأعلى، حيث أجلسني بجانبه على الأرض.

«أظن أني أعرف مكان الرجل الذي تبحثون عنه.»

أحضرت لنا إحدى بنات أخوته المشروبات الباردة. وانتظر أن تنصرف وتغلق الباب وراءها لكي يتابع.

أخبرني عندئذٍ أنَّ المدعو سياف قد اعتُقِل فعلاً في سميرنا منذ خمس أو ست سنين، من أجل قضية اختلاس، لكنه لم يبق سوى عام في السجن. ثم أقام منذ ذلك الوقت في الجزر، في شيّو حيث وجد وسيلة للنجاح عن طريق المتاجرة بأشياء علمها عند الله.

«إذا لم يعد هناك مَن يتعرَّض له، فهذا يعني أنه يتمتع بنوع من الحماية...بل يبدو أنّ سكان البلد يخشونه.»

صمت صديقي بضع لحظات ليستعيد أنفاسه.

«ترددتُ قليلاً قبل أن أطلب منك المجيء، لستُ مخوَّلاً بتزويد تاجرٍ جَنَويّ بهذه المعلومات. لكني كنت سأحقد على نفسي إذا تركتُ رجلاً خيِّراً يبدِّد وقته وماله بحثاً عن شخصٍ داعر.»

عبرت له عن امتناني بكل العبارات العربية والتركية التي خرجت على لساني، عانقته طويلاً وقبَّلتُهُ فوق لحيته كأخٍ. ثم استأذنتُ بالانصراف دون أن أدعه بأية حال يستشفُّ البلبلة التي أوقعني فيها للتو.

ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ وماذا على مارتا أن تفعل؟ لقد قامت بهذه الرحلة بهدفٍ وحيد هو الحصول على مايثبتُ وفاة زوجها. لكن العكس هو ما أثبِت. الرجل حيّ بالفعل وهي لم تعد أرملة. هل نستطيع الاستمرار بالعيش تحت سقفٍ واحد؟ هل سنستطيع يوماً العودة سويةً إلى جبيل؟ هذا كله يسبب لي الدوار.

عدتُ من بيت عبد اللطيف منذ ساعتين بالكاد، وادَّعيتُ أمام جميع أفراد جماعتي الذين كانوا ينتظروني بقلق، أنه أراد فقط أن يريني إبريقاً قديماً من الذهب تملكه عائلتُه. لم يبدُ على مارتا أنها صدَّقتني،

لكني لا أشعر أني مستعدٌ بَعدُ لإخبارها بالحقيقة. سأخبرها غداً حتماً، أو بعد غدٍ على أبعد تقدير. لأنها ستسألني بالتأكيد عن رأيي بالسلوك الذي يجب اتباعه، وأشعر في الوقت الحاضر أني عاجز عن إبداء النصح لها. إذا راودتها الرغبة بالذهاب إلى شيّو، فهل يجب أن أثنيها عن عزمها؟ وإذا أصرّت، فهل يجب أن أذهب معها؟

كنت أتمنى أن يكون ميمون هنا هذا المساء، وكنت سأسأله رأيه مثلما فعلتُ في طرسوس وفي مناسبات عديدة أخرى. لكنه وعد بقضاء السبت مع الحاخام القادم من القسطنطينية، ولن يعود قبل ليلِ السبت أو الأحد.

حاتم أيضاً رجل يُجيد النصح ويجيد الحكم على الأمور. أراه منشغلاً في الطرف الآخر للحجرة بانتظار أن أُنهي كتابتي لكي يأتي ويكلّمني. لكنه تابعي وأنا سيّده، وأكره أن أظهر أمامه متردداً ومتحيراً إلى هذا الحد.

9 كانون الثاني

أخيراً قلتُ الحقيقة لمارتا أبكَرَ مما توقعْت.

مساء أمس، استلقينا في السرير وأخذتُها بين ذراعيّ. عندما شدَّت نفسها إلي برأسها وصدرها وساقيها، أحسستُ فجأةً بأني أستغلّها. اعتدلتُ عندئذٍ واستندتُ إلى الجدار، أجلستُها هي أيضاً ووضعتُ يديها بدفءٍ بين يديّ.

«علمتُ اليوم شيئاً عند كاتب المحكمة، وكنتُ أنتظر أن نكون وحدنا أنت وأنا لأخبركِ به.»

بذلتُ جهدي لكي أتكلم بالنبرة الأكثر حيادية، ليست نبرة الأخبار السارة، ولا نبرة العزاء. يبدو لي من غير اللائق أن يُعلن المرء بنبرة مليئة بالغمّ أنَّ رجلاً ما لم يمُت. رجل اعتادت بالتأكيد أن تكرهه، لكنه كان زوجها، كان حبَّها الكبير الذي أحاطها بذراعيه قبلي بكثير.

لم تُظهِر مارتا مفاجأةً أو فرحاً أو خيبةً أو اضطراباً، لا شيء.

فقط كفَّت عن الحركة، لبثت جامدةً مثل تمثال من الملح. وصمتت بالكاد تتنفس. كانت يداها ماتزالان بين يديّ، ولكن لأنها نسيتهما.

أنا نفسي لبثتُ جامداً صامتاً أراقبها، إلى أن قالت دون أن تخرج من خدَرِها:

«ماذا يمكن أن أقول له؟»

بدلاً من أن أجيبها على ما ليس سؤالاً حقيقياً، نصحتُها بأن تدعَ ليلةً تنقضي قبل اتخاذ أدنى قرار. لم يبدُ أنها تسمعني، أدارت لي ظهرها ولم تقل شيئاً آخر حتى الصباح.

عندما نهضتُ لم تكن في السرير. انتابتني لحظةُ قلق، لكني حالما خرجتُ من الغرفة رأيتُها في الصالون تفرك قبضات الأبواب وتمسح الغبار عن الرفوف. ثمة أشخاص يفقدون القدرة على الوقوف حين يستبدّ بهم القلق، بينما ينشغل آخرون على العكس، ويُكثرون من الحركات حتى الإنهاك. اعتقدتُ، الليلة الماضية، أنّ مارتا تنتمي إلى الصنف الأول. من الواضح أني أخطأت، فليس خدَرُها أكثر من حالة عابرة.

هل اتخذت قرارها؟ أجهل ذلك في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور. لم أطرح عليها السؤال خيفة أن تظن نفسها ملزمةً بما قالته لي ليلاً. يبدو لي أنها لو قررت الرحيل حقاً، لَبدأت بتوضيب أشيائها. لا بدَّ أنها ماتزال مترددة.

لن أستعجلها، سأدعها تتردد.

10 كانون الثاني

كم كانت عذبةً تلك الليالي الأولى التي كان أحدنا يتمدد خلالها، قرب الآخر، كأننا نستجيب لتقلُّبات العناية الإلهية، فتمثِّل هي بأنها امرأتي، وأتظاهر أنا بتصديقها. والآن وقد أحبَّ أحدُنا الآخر لم نعد نمثِّل وبات السرير حزيناً.

إذا تكلَّمتُ كشخصٍ زالتْ أوهامه، فهذا لأن قرار مارتا تمَّ اتخاذه، ولا أجد حجةً لكي أثنيها عنه. ماذا يمكن أن أقول لها؟ بأنها تخطئ بالذهاب لرؤية زوجها في حين أنه يقيم قريباً جداً من هنا، وهي التي قامت بهذه الرحلة تحديداً لأجل تسوية هذا الموضوع وتبديد شكوكها؟ وأنا مقتنع في الوقت ذاته بأن لقاءهما لن يثمر عن شيء جيد. إذا قرر هذا الشخص تطبيق قوانينه على زوجته الشرعية، لن يستطيع أحد الاعتراض، وبشكل خاص هي و أنا.

«ماذا تنوين أن تقولي له؟»

«سأسأله لماذا رحل، لماذا قطع عني أخباره، وهل ينوي العودة إلى البلاد.»

«وإذا أرغمكِ على البقاء بقربه؟»

«إذا كان متمسكاً بي إلى هذا الحد، لِمَ هجرني.»

هذا الجواب لا قيمة له! رفعتُ كتفيّ، انسحبتُ حتى طرف السرير، أدرتُ ظهري، وصمتُّ.

لتكن مشيئته! أردد بلا توقف: لتكن مشيئته! لكني أصلِّي أيضاً كيلا تكون مشيئَتُهُ أقسى مما يجب مثلما هي في بعض الأحيان.

13 كانون الثاني

أتسكَّع في الشوارع وعلى الشواطئ، بمفردي أحياناً، وغالباً بصحبة ميمون. نتكلم عن أشياء متفرقة، عن ساباتاي، عن البابا، عن أمستردام، عن جنوة، عن البندقية وعن العثمانيين، ـ عن كل شيء، عداها. لكني حالما أعود إلى المنزل أنسى كلماتنا الجميلة ولا أدوِّن شيئاً. لم أكتب سطراً منذ ثلاثة أيام. وضع يوميات رحلة يتطلَّب العناية بهموم عديدة، وأنا لم يعد لي سوى همٍّ واحد. أتهيَّأ بخشوعٍ لفكرةِ فَقْدِ مارتا.

منذ أن أعلنت لي قرارها بالذهاب إلى زوجها، لم تقل لي شيئاً. لم تذكر أي تاريخ ولم تهتمّ بإجراءات السفر إلى شيّو. هل ماتزال

مترددة؟ ولم أطرح عليها أي سؤال كيلا تشعر بأني أستعجلها. أكلمها أحياناً عن والدها، عن جبيل وعن بعض الذكريات اللطيفة، مثل لقائنا المباغت عند حاجز طرابلس، أو عن ليلتنا عند الخياط عباس، حماه الله!

لم أعد أحضنها ليلاً. هذا لا يعني أنها عادت في نظري زوجة شخصٍ آخر، لكني لم أشأ أن تشعر بالإثم. حتى أنني فكرت بأن أكفّ عن النوم في غرفتها وأعود إلى غرفتي التي قلّما استعملتُها في الآونة الأخيرة. غيَّرتُ رأيي بعد يومٍ من التأرجُح. لو فعلتُ ذلك لارتكبتُ خطأً في التقدير لا يُغتَفَر. لن يكوِّن سلوكي سلوك عاشقٍ فروسي مستعد للتضحية بنفسه كيلا يحرج حبيبته، بل فراراً، هجراً. وسوف ترى مارتا فيه دعوةً للعودة إلى بيت الزوجية دون إبطاء.

لذا أستمر في النوم بقربها. أقبلها فوق جبينها وأمسك يديها أحياناً، دون أن أقترب منها أكثر مما يجب. أشتهيها أكثر من السابق، لكني لن أفعل شيئاً يمكن أن ينفِّرها. أفهم رغبتها بأن تكلِّم زوجها وتطرح عليه أسئلةً تدور منذ سنين في رأسها. إلاَّ أنه ليس هناك مايجبرها على الذهاب في الحال. فالرجل مقيم في شيّو منذ سنين، ولن يرحل غداً ولا بعد غد ولا خلال أسبوع ولا خلال شهر. لا، لا شيء يدعو للعجلة. مازال باستطاعتنا أن نلتقط بعض الفُتات من فوق المائدة قبل إخلائها.

17 كانون الثاني

أمضت مارتا السهرة في غرفتها، تبكي وتبكي. أتيت مراراً لأمسح على جبينها وشعرها وظاهر يديها. لم تقل لي شيئاً، لم تبتسم لي، لكنها أيضاً لم تهرب من مداعباتي.

عندما تمددنا في السرير، كانت ماتزال تبكي. شعرتُ بأني أعزَل. وكيلا أبقى صامتاً، رحتُ أتفوَّه بعباراتٍ تافهة لا تقدم لها أي عزاء ـ «سترين، سيُسوَّى كل شيء!» ـ ماذا يمكن أن أقول غير ذلك؟

عندما التفتت نحوي فجأةً لكي تقول لي بنبرة حانقة ومحزِنة في آن واحد:

«ألا تسألني عمّا بي؟»

لا، ليس لدي أي حق بسؤالها عما بها. أعرف جيداً لماذا تبكي، على الأقل، أعتقد بأني أعرف.

«تأخرت دورتي»، أعلنت لي.

كان خداها بلون الشمع وعيناها مستديرتان من الذعر.

احتجتُ لثوانٍ لا عَدَّ لها لكي أفهم ما تحاول قوله لي.

«أنت حامل؟»

يفترض أني تلونتُ بلون الجثة الذي تَلَوَّنتْ به

«أظن. مضى عليّ أسبوع تأخير.»

«لا يكفي أسبوع للتأكد.»

وضعتْ يدها فوق بطنها المسطَّح.

«أنا متأكدة. الطفل هنا.»

«لكنك قلتِ لي مع ذلك بأنك لا تحملين.»

«هذا ما قيل لي دوماً.»

كفت عن البكاء لكنها بقيت متبلِّدةً ويدها فوق بطنها تَجسّه. مسحتُ أسفل عينيها بمنديلي، ثم جئت وجلستُ بقربها على حافة السرير وأمسكتها من كتفها.

حاولتُ جهدي أن أواسيها لكني لم أكن مع ذلك أقلّ منها حيرة ولاأقلّ إثماً. لقد خرقنا جميع قوانين الله والبشر حين عشنا كزوج وزوجة، مقتنعين بأنّ لهوَنا لن يفضي إلى نتيجة بسبب عقم مارتا المفترَض الذي كان يجب أن يبدو لنا بمثابة نقمة، ورأينا فيه على العكس نعمةً من السماء، وعداً بالإفلات من العقاب.

لكن الوعد لم يتحقق، وهاهو الطفل هنا.

أنا الذي أحلم بأن يكون لي وريث، هاهي السماء تمنحني إياه في أحشاء المرأة التي أحبها!

ومارتا التي عانت كثيراً من كونها عاقراً أو من ظنها بأنها كذلك،

هاهي تحمل بطفل ليس في سرير الرجل الداعر الذي تاهت معه في صباها، بل تحت سقف رجلٍ خيِّر يحبها وتحبه!

كان من المفترض أن نشعر بالفرح الأكمل، كان من المفترض أن تكون تلك هي اللحظة الأجمل في وجودنا، أليس كذلك؟ لكن العالم يَفرض علينا أن تكون ردَّةُ فعلنا غير ذلك. علينا أن نعتبر الطفل لعنة، عقاباً. علينا أن نستقبله في حداد ونتأسَّف على زمن العقم المبارك.

إذا كان هذا هو العالم، أقول أنا: فليَهْلِكْ! وليكسحه طوفان من الماء والنار، أو لتودي به نفخةٌ من الوحش، فليَزُلْ، وليَبِدْ، فليهلك!

في الصيف الماضي، عندما كانت مارتا فوق مطيَّتِها بجانبي في جبال الأناضول، قالت لي بأنها لا تخشى نهاية العالم، بل أنها على العكس تنتظرها، ترجو قدومها، لم أفهم غضبها جيداً. الآن أفهمه، أشاركها به.

لكنها هي التي أصابها الوهن.

«يجب أن أذهب للقاء زوجي في جزيرته بأسرع ما يمكن.»

«لكي يظن بأن الطفل طفله؟»

أشارت برأسها بالإيجاب، وداعبت جبيني ووجهي بهيئة بائسة.

«لكن هذا الطفل طفلي!»

«تريد أن يُسمّى لقيطاً؟»

«وأنتِ تريدين أن يُسمَّى ابن الداعر؟»

«تعرف جيداً أن الأمر يجب أن يسير على هذا النحو. ليس بيدِنا شيء!»

أنا الذي أُعجِبتُ بمارتا التي تجرأت أن تتمرد على القدر، لم أستطع إخفاء خيبة أملي.

«يقال إنّ الطفل الذي تحمل به الأمهات يمدُّهنّ بالشجاعة، أما أنتِ فقد جعلكِ الطفل في أحشائكِ جبانة.»

ابتعدت عني.

«تقول إني أفتقر للشجاعة؟ أنا ذاهبة لأضع نفسي بين يدي رجلٍ لم يعد يحبني، رجل سيهينني ويضربني حتى آخر حياتي. كل هذا كيلا يُسمَّى ابني في المستقبل لقيطاً. هذه هي الأم التي تسميها جبانة؟»

ربما لم يكن يجب أن ألومها، لكني أفكر بكل كلمة قلتُها. تجيبني بأنها تستعد للتضحية بنفسها؟ التضحية بالنفس شيء ينطوي على شجاعة مثلما ينطوي على جبن. الشجاعة الخالصة هي أن يواجه المرء العالم ويدافع عن نفسه ضد هجماته، خطوةً خطوة، ويموت واقفاً. أمَّا أن يعرِّض المرءُ نفسَهُ للضربات، فهذا في أفضل الأحوال هروب مشرِّف.

لماذا عليَّ أن أقبل بأن تذهب المرأة التي بدأتُ أحبها لكي تعيش مع شقيٍّ حاملةً الطفل الذي خلقناه معاً، الطفل الذي فقدت الأمل بالحصول عليه، والذي منحتها إياه؟ لماذا؟ لأنّ كاهناً ثملاً من جبيل وضع يوماً يديه فوق رأسيهما مغمغماً بثلاث جملٍ احتفالية؟

لتنزل اللعنة على قوانين البشر، على ريائهم، على حُلَلِ قدَّاساتهم وعلى احتفالاتهم!

الاثنين 18 كانون الثاني 1666

صوَّب ميمون، الذي بحثُ له بالأمر للتو، موقف مارتا، وخطَّأَني. إنه يصغي إلى حججي دون أن يسمعها، وليس في فمه سوى جواب واحد: «هكذا هو العالم!»

يقول إنَّ من الجنون أن أدعها تحمل الطفل وتلده خارج بيت زوجها، وأنها ربما تموت قلَقاً وخجلاً بسبب ذلك. كل يوم يمضي يجعلها أشدّ اضطراباً، يقول لي، لا يجوز أن أحاول استبقاءها وقتاً أطول.

ولكي يخفف من ألمي، يزعم أنه مقتنع بأنها ستعود إليّ يوماً ما، قبل مضي وقت طويل. «في معظم الأحيان تُنزل السماء المصائبَ على من لا يستحقونها، لكنها تنزلها أحياناً على من يستحقونها أيضاً»، يبشّرني مغضّناً عينيه مثل من يريد استبطان الأشياء. يقصد بذلك أنّ زوج مارتا ربما يلاقي المصير الذي يستحقه قطاع الطرق، وأنّ الواقع ربما يتماثل مع الشائعة وتعود أمُّ طفلي أرملةً... أعرف هذا. كل شيء يمكن أن يحدث طبعاً. ولكن أليس مما يدعو للرثاء أن يعيش المرء بانتظار موت خصم داعياً الله كل يوم أن يُميته غرقاً أو شنقاً؟ رجلٌ، هو فضلاً عن ذلك أكثر شباباً مني! لا، لا أنوي أن تكون تتمة حياتي هكذا.

أُحاجِج، أجادل، مدرِكاً بأن المعركة خاسرة سلفاً بالنسبة لي. ولأن مارتا لن تجرؤ أن تترك بطنها يتكوَّر تحت سقفي، لأنها لم تعد تفكر بغير الذهاب لإخفاء خطيئتها في سرير رجلٍ تحتقره، لا أستطيع استبقاءها رغم إرادتها. لم تعد دموعها تجف، ومن ساعةٍ لساعة تهزُل وتذوي.

ما الذي أرجو حدوثه أيضاً؟ أن تُقَرِّر، لسببٍ ما، حالاً بعد لقائها بزوجها، عدم البقاء عنده، أو أن يطردها هو نفسه. أو ربما أدفع لهذا الشخص مبلغاً معيناً لكي يلغي زواجهما مدَّعياً بأنه لم يتمّ أبداً. الرجل حساس للمال، فإذا دفعتُ له الثمن سنخرج من عنده، أنا ومارتا وابننا معاً.

ها أنذا أنسج حكايةً ساحرة! القصة هي أني بحاجة للحفاظ على بعض دوافع الحياة وإن كانت وهماً. أحياناً يكون الممر الذي لا بديل عنه لاجتياز المصائب هو أن يكذب المرء على نفسه...

19 كانون الثاني

أثناء الليل أعلنت لي مارتا بأنها ستمضي غداً إلى شيّو. قلت لها

بأني سأرافقها ووعدتها في الحال بألاً أتوسط بأي حالٍ بينها وبين زوجها، مكتفياً بالطواف في الأنحاء لكي تستطيع استدعائي إذا دعت الضرورة. قبِلَتْ ليس قبل أن تجعلني أُقسِم مرتين بأني لن أفعل شيئاً لم تطلبه مني صراحةً، شارحةً لي بأن زوجها قد يذبحها عند عتبة الباب إذا شكَّ بما حدث بيننا.

هناك طريقتان للذهاب إلى الجزر انطلاقاً من سميرنا. عبر الطريق البرية حتى أقصى شبه الجزيرة، حيث لا يبقى سوى عبور المضيق الذي لا يستغرق أكثر من ساعة في الطَّوْفيَّة(*) للوصول إلى المدينة التي تحمل اسم شيّو. أو بحراً على طول الساحل من ميناء إلى آخر. هذا هو الحل الذي نصحني به حاتم الذي استعلَم بإسهابٍ بناءً على طلب مارتا. يجب أن يُحسَب يوم للسفر إذا كانت الريح مؤاتية، ويومان إذا لم تكن كذلك.

سيصحبنا تابعي، وفكرتُ حتى باصطحاب ابني أختي. ألم أعِد أختي بليزانس بعدم الافتراق عنهما أبداً؟ لكني بعد أن قلَّبتُ المسألة على وجوهها، فضَّلتُ أن أتركهما في سميرنا. علينا أن نسوي مسألة حساسة في سميرنا، وأخشى أن يرتكب أحدهما حماقةً ما. ربما غيرت رأيي إذا ألحَّا على مرافقتنا. ولكن لا، لم يطلب أي منهما ذلك؛ الأمر الذي حيَّرني، يجب أن أعترف، وأقلقني بعض الشيء. رجوتُ ميمون أن يرعاهما مثل أب حتى عودتي.

كم من الوقت سأبقى في الجزيرة؟ لا أدري. بضعة أيام؟ أسبوعين أو ثلاثة؟ سنرى ذلك. هل ستعود مارتا معي؟ ما زلتُ أرجو ذلك. العودة برفقتها إلى «بيتنا» في سميرنا، يبدو لي أجمل شيء يمكن أن يحدث لي، في حين أني مازال فيه، في هذه اللحظة، وأستطيع، وأنا أكتب هذه السطور، تأمُّل جدرانه وأبوابه وسجاداته وأثاثه.

قال لي ميمون بأنه، عند عودتي، سيذهب في رحلة طويلة جداً ستقوده إلى روما وباريس وأمستردام بالطبع، وإلى أماكن أخرى

(*) الطوفية: قارب إنزال أو قارب كبير مسطَّح على شكل طوف.

أيضاً. ووعد بأن يكلمني عنها عندما أصبح أخلى بالاً لسماعها. ولكن، هل سأكون أخلى بالاً حقاً حين أعود من شيّو؟

يتمنى أن أرافقه في رحلته. سوف أرى. الآن، ينهكني أدنى مشروع. باتت أحلامي محدودة: الذهاب إلى شيّو بصحبة مارتا، والعودة من شيّو بصحبتها.

22 كانون الثاني

من المفروض أنَّ الاقتراب من شيو بالمركب، ورؤية شريط الساحل يرتسم رويداً رويداً، والجبال في الخلف، والطواحين التي لاتُعدّ بجوار البحر، يُخَفِّف عن قلب المسافر مثل مكافأة بطيئة. الجزيرة تُشَوِّق الناظر إليها كأنها أرض موعودة، كأنها غرفة انتظار للذهاب إلى الجنة. أما المسافر القسريّ الذي هو أنا، فإنه لا ينتظر سوى اللحظة التي سيغادرها فيها.

بقيت مارتا صامتة طوال الطريق، وكانت عيناها تتجنبان بعناية الالتقاء بعينيّ. بينما راح حاتم يروي لي لكي يبسط أساريري، حكايةً رويت له أول أمس في ميناء سميرنا، تحكي أن هناك في شيّو، داخل الجزيرة، دير تعيش فيه راهبات شديدات الغرابة. يُستَقبَل فيه المسافرون مثل بعض الأديرة ولكن بطريقة مختلفة تماماً، لأن هؤلاء النسوة القديسات ينزلقن أثناء الليل، كما يُقال، إلى جانب الزائرين ويُغدِقن عليهم من الرعاية مايفوق كثيراً ما يقتضيه حبُّ الإنسان لقريبه الإنسان.

سارعتُ إلى تحطيم أوهام تابعي، بجفاف، مؤكداً له بأني قرأتُ وسمعتُ حكايات مماثلة حول أماكن كثيرة أخرى. لكني حين رأيتُ أنه صدَّقني وأنّ ضوءاً انطفأ في عينيه، ندمتُ قليلاً لأني كسرتُ حلمه بهذا الشكل. لاشك أني سأكون أكثر لطفاً لو كنتُ مازلتُ أملك إحساس بهجتي.

في جزيرة شيو، 23 كانون الثاني 1666

منذ وصولنا وحاتم يقضي وقته في الدكاكين والحانات وحارات الميناء القديم، يسأل الناس عن الرجل الذي نبحث عنه. الغريب أنه مامن أحد يعرفه كما يبدو.

هل خدعني عبد اللطيف؟ لا أرى سبباً لذلك. هل خُدِع هو نفسه من قبل مخبِريه؟ ربما أخطأ هؤلاء بالجزيرة ببساطة، فخلطوا بين شيو وباتموس، أو ساموس أو كاسترو التي كانت تسمى سابقاً ميتيلين.

على أية حال فإن الوجهة التي تتخذها الأحداث لا تزعجني. بضعة أيام أخرى من التحرِّيات ونعود إلى سميرنا. ستحتجّ مارتا وتبكي، لكنها سترضخ في النهاية.

وستقفز إلى عنقي في اليوم الذي أحضر لها فيه فرماناً ـ اشتريتُهُ بسعر الذهب، وإن اضطررت لدفن ثلث ثروتي فيه! ـ يشهد بأن زوجها ميت. سنتزوج عندئذٍ، وإذا لم تنصَبَّ ضراوةُ السماءُ ضد العشاق، فإن الزوج القديم سيتلطَّف ولا يطأ أرض جبيل ثانيةً أبداً.

وفي أيام شيخوختنا، سنتذكَّر بفزعٍ، محاطين بأبنائنا وأحفادنا، رحلة شيّو تلك، شاكرين السماء لأنها لمْ تجعلها مثمرةً.

24 كانون الثاني

كم كنتُ سأجد من آيات السحر في هذه الجزيرة لو أني أتيت في ظروفٍ أخرى! حالما أنسى الموضوعَ الذي أتى بي إليها لحظةً واحدة، أرى كل شيء فيها يشرح القلب. البيوت جميلة، الشوارع نظيفة ومبلَّطة جيداً، النساء يتسكَّعن بأناقة وعيونهنّ تبتسم للغرباء. هنا كل شيء بالنسبة لي يذكِّر بِرونَقِ جنوة الماضي، فالقلعة جنوية والملابس جنوية، وكذلك أجمل الذكريات. حتى اليونانيون عندما يسمعون اسمي ويكتشفون أصولي، يعانقونني وهم يلعنون البندقية. أعرف أنهم يلعنون الأتراك أيضاً، ولكن ليس بصوتٍ مرتفعٍ قط. لم تعرف هذه

الجزيرة أية حكومة رحيمة منذ رحيل الجنويين قبل مئة عامٍ. جميع الناس الذين التقيتُ بهم في الأيام الأخيرة يعترفون بذلك، كلٌ بطريقته.

هذا الصباح، اصطحبتُ مارتا إلى القداس. مرةً أخرى ـ عسى ألاَّ تكون الأخيرة! ـ اجتازت عتبة الكنيسة ممسكةً بذراعي، كان رأسي فخوراً وقلبي بائساً. ذهبنا إلى كنيسة القديس أنطوان التابعة للآباء اليسوعيين. هنا، تقرع أجراس الكنائس كما في بلاد مسيحية، وتُنظَّم مواكب الطَّواف في الشوارع أيام الأعياد، بالغفَّارات والظلاَّت والفوانيس ومذهَّبات القربان المقدَّس. ملك فرنسا هو الذي حصل في الماضي، على امتياز ممارسة العبادة اللاتينية علناً، من السلطان التركي، ومازال الباب العالي يحترم هذا الامتياز. حتى في يوم الأحد العادي هذا، تأتي أشهر العائلات لحضور القداس في موكب كبير. يهمس الناس المتواضعون من حولي، بفخر أكثر منه بحسد، بالأسماء الشهيرة، جيوستينياني، بورغيزي، كاستيلّي. كنتُ سأظن نفسي في إيطاليا لو لم يكن هناك، على بعد خطوتين من الكنيسة، عسكريان انكشاريان مرئيان تماماً فوق هضبة، يقومان بالحراسة.

ذهبت مارتا بعد القداس لتتكلم مطوّلاً مع كاهن. انتظرتُها في الخارج، وحين خرجت، لم أسألها شيئاً ولم تقل لي شيئاً من تلقاء نفسها. ربما تكون قد اعترفت وحسب. عندما يكون الإنسان نفسه هو الخاطئ، فإنه ينظر إلى من يَعترف نظرةً غريبة.

25 كانون الثاني

مازال حاتم يجتهد للعثور على صاحبنا، وترجوه مارتا أن يقلب كل حجَر، بينما أصلي أنا لجميع القديسين كيلا يعثر على شيء.

قال لي تابعي مساءً بأنه ربما عثر على أثر. فأثناء وجوده في حانةٍ بالحي اليوناني، جاء بحار ليقول له بأنه يعرف سياف الذي لايسكن في مدينة شيّو، حسب رأيه، بل إلى الجنوب أكثر، قرب قريةٍ

تدعى كاتارّاكتيس، على الطريق المؤدية إلى شبه جزيرة كابو ماستيكو. ويطلب سلطانياً ذهبياً لكي يقودنا إليها. يبدو لي المبلغ مجاوزاً للحد لكني أعطيت موافقتي. لا أريد أن تلومني مارتا لاحقاً على كوني لم أفعل كل شيء لإرضائها. تقول بأنها الآن متأكدة من أنها حامل وتريد العثور على زوجها بأسرع وقت، أياً كانت الحياة التي ستعيشها بجانبه. «وبعدها ليفعل الله بحياتنا مايشاء!»

قبلتُ إذن أن أدفع للوسيط ويدعى دراغو، المبلغ الذي أراده. وطلبتُ من حاتم أن يحضره لي غداً كي أستطيع رؤيته بأم عيني كتاجر، كي أستطيع سماعه ومعايرته.

ما زلتُ في أعماقي أرجو أن يكون محتالاً سوقياً يكتفي بقبضِ قطعته النقدية الثقيلة قبل أن يختفي مثلما ظهر. إنها المرة الأولى التي يتوسَّل فيها تاجر مثلي إلى السماء كي يُسرَق ويُكذَب عليه ويُخدَع!

في الليل، أردتُ أن أضمّ مارتا بين ذراعيّ، للمرة التي قد تكون الأخيرة حقاً. لكنها دفعتني باكيةً ولم توجه لي الكلام مرة واحدة. ربما تعوِّدُني على بُعدها عني، وتعوِّد نفسَها أيضاً على الكفّ عن النوم فوق كتفي.

لقد بدأ غيابُها.

26 كانون الثاني

في هذه اللحظة، تسوِّل لي نفسي أن أكتب بأنني أسعد رجلٍ في ماوراء البحر وفي جنوة، مثلما كان يقول أبي المتوفى. ولكن مايزال هذا سابقاً لأوانه. سأقول فقط بأنّ لدي أمل كبير باستعادة مارتا وإعادتها إلى سميرنا ثم إلى بيتي في جبيل حيث سيولد طفلنا. عسى السماء لاتجعل حميَّتي تهجرني بالشكل المفاجئ الذي اجتاحتني به!

إذا بدوتُ جذِلاً إلى هذه الدرجة، فلأنّ الرجل الذي سيقودنا إلى زوج مارتا مرَّ بنا اليوم وبجعبته أخبار ممتازة. أنا الذي تمنيتُه أن يتوه في الطبيعة، لم أعد نادماً على أني التقيت به، كلَّمتُهُ وسمعتُه. لم

أنخدع بالشخص إطلاقاً، إنه جرذ حانات حقيرة، وأدرك بأنه روى لي كل ذلك بهدفٍ وحيد هو أن يبتزَّ مني قطعةً ذهبية أخرى، بعد أن أغرته السهولةُ التي دفعتُ بها له القطعة الأولى.

أعود إلى الأحداث التي أفرحتني بهذا القدر: أخبرني المدعو دراغو أنّ سياف تزوج مرة ثانية العام الماضي، وأنه سيكون أباً عما قريب؛ زوجته الجديدة هي ابنة شخص غني وقوي من أعيان الجزيرة، ويجهل بالطبع بأنّ صهره متزوج. أفترض أنّ أهل زوجته سيكتشفون يوماً جوانب أخرى كثيرة وخبيئة لهذا الداعر، ويندمون على هذه المصاهرة، لكني ـ وليسامحني الله! ـ لا أسعى لتفتيح أعينهم. ليدفع كلٌّ ثمن أخطائه الخاصة، ويحمل كلٌّ صليبه الخاصّ. أنوء أنا بما يكفي تحت ثقل صليبي. ليخلّصوني من هذا الثقل وسأرحل عن هذه الجزيرة دون نظرٍ إلى الخلف.

إذا كانت هذه الأنباء تبهجني إلى هذا الحد، فلأنها يمكن أن تغيِّر سلوك زوج مارتا كلياً. فبدلاً من أن يسعى سياف لاستعادتها، مثلما قد يفعل لو أنه لم يتزوج ثانيةً، فإنه سيرى في قدومها إلى الجزيرة الآن، تهديداً للحياة التي ابتناها لنفسه. دراغو الذي يعرفه جيداً، مقتنع بأنه سيكون على استعداد لأية تسوية حفاظاً على وضعه؛ بل إنه قد يوقِّع، أمام شهود، وثيقةً تشهد بأن زواجه الأول لم يتمّ أبداً، وأنه بالتالي باطل. إذا حدثت الأمور بهذا الشكل، ستكون مارتا حرة قريباً! حرة بأن تتزوج ثانيةً، تتزوجني، وتمنح طفلها اسم أبيه.

أعرف أننا لسنا بهذا الصدد. فزوج «الأرملة» لم يوقع شيئاً بعد ولم يعِد بشيءٍ بعد. لكنّ ما يقوله دراغو هو عين العقل. لديّ أمل كبير، نعم، وتحاول مارتا الابتسام وسط الدموع ونوبات الغثيان والصلوات.

27 كانون الثاني

غداً سيقودنا دراغو إلى سياف. أقول يقودنا بالجمع لأن تلك هي أمنيتي، لكنّ مارتا تفضِّل الذهاب بمفردها. تزعم أنها تستطيع الحصول على ماتريد بسهولة أكبر إذا تناقشت مع زوجها منفردةً به؛

تخشى أن يغتاظ إذا رآها محاطة بالرجال فيشكّ بوجود علاقة معي. ليست مخطئة قطعاً، لكني لا أستطيع ألاَّ أشعر بالقلق لفكرة أنها ستضع نفسَها ـ ولو ساعة واحدة ـ تحت رحمة هذا الداعر.

توصلنا أخيراً إلى تسويةٍ بدت لي معقولة: نترافق جميعاً في الطريق حتى قرية كاتارّاكتيس. وقيل لي إنّ هناك ديراً يونانياً يتوقف فيه كثير من المسافرين، ويقدِّم نبيذاً جيداً من فيتا، وأفضلَ الطعام، ويمتاز بأنه على بعد خطوات من منزل صاحبنا. سنرتاح فيه بانتظار عودة مارتا.

28 كانون الثاني

هانحن إذن في الدير، وأُلزِم نفسي بالكتابة كي يبدو لي الوقت أقصر. أغمس رأس قلمي في الحبر مثل مَن يتنهَّد أو يحتجّ أو يصلّي، ثم أخطّ على الورقة كلماتٍ واسعة كأنني أتسكَّع في شبابي بخطىً واسعة.

اختفت مارتا منذ أكثر من ساعة. رأيتُها تدخل في شارع صغير. انتفض قلبي، حبستُ أنفاسي، همستُ باسمها، لكنها لم تلتفت. راحت تتقدم بخطى ثابتة مثل المحكومين المستسلمين. أشار لها دراغو الذي يسير أمامها، إلى باب. دخلت منه، فانغلق ثانيةً. لم أستطع سوى أن ألمحَ بيت قاطع الطريق الذي يختبئ خلف سور وأشجار باسقة.

جاء راهب يقترح عليّ أن أتناول شيئاً من الطعام، لكني أفضِّل انتظار عودة مارتا لكي نتناول وجبتنا معاً. على أية حال فإن حلقي منقبض ومعدتي مشدودة، ولن أستطيع ابتلاع شيء أو هضم شيء طالما أنها ليست معي. إني نافد الصبر، أقول لنفسي بلا توقف بأنه كان يجب أن أمنعها من الذهاب إليه، وبالقوة إذا احتاج الأمر. ولكن، هل كنتُ سأحجزها؟ عسى السماء تزيل وساوسي، وتعود سليمةً معافاة، وإلاّ قضيتُ بقية حياتي في الندم.

منذ كم من الوقت ذهبت؟ روحي يلفها الضباب إلى درجة أني أعجز عن تمييز الدقيقة من الساعة مع أني رجل صَبور؛ فأنا أنتظر

أحياناً مثل جميع تجار الطرائف، أسابيع بطولها، الزبون الثريّ الذي وعدَ بالعودة ولن يعود. لكني اليوم لا أملك صبراً. بدأتُ أحس الوقت طويلاً منذ لحظة اختفائها. هي والطفل الذي تحمله.

ذهبتُ للقيام بجولة في الشوارع برفقة حاتم رغم المطر الناعم الذي بدأ يهطل. دخلنا الشارع الصغير حتى باب بيت سياف. لم نسمع صوتاً ولم نر سوى أجزاء من جدران مصفرّة خلف ستار من أغصان الصنوبر. الشارع مسدود، وعدنا على أعقابنا.

سوَّلت لي نفسي أن أدق الباب، لكني أقسمتُ لمارتا ألاَّ أفعل شيئاً من هذا القبيل، وأن أدَعَها تسوّي هذه المشكلة بطريقتها. لن أخونها.

إنه الغسق تقريباً، مارتا لم تعُد، ولم أر دراغو حتى الآن. ما زلتُ أرفض وضع شيءٍ في فمي طالما أنها ليست معي. أعيد قراءة السطور السابقة حيث كتبتُ «لن أخونها»، وأتساءل إذا كنتُ أخونها بالتدخُّل أم بعدم التدخُّل.

بدأ الليل يخيم، وقبلتُ أن أشرب زبديَّة حساء سُكِب لي فيها نبيذ أحمر. جرعات واضحة من النبيذ أعطت الحساء لون الشوندر ومذاق شرابٍ مَذِق لكي يهدأ عذابي وتكفّ يداي عن الارتجاف وأتوقف عن دقّ الأرض. أحاطوا بي واعتنوا بي وراعوني مثل مريض كبير أو مثل أرمل محزون.

أنا الأرمل الذي لم يتزوج قط. أنا الوالد المجهول. أنا العاشق المخدوع. بين جُبني ووَساوِسي، سمحتُ للَّيلِ الباهت أن يأتي، لكنَّ دمي الجنوي سيعود مع الفجر ويرويني، مع الفجر سوف أثور.

أشرقت الشمس ولم أنم ولم تعد مارتا بعد. ومع ذلك أسيطر على نفسي، وأحتفظ بقدرتي على التمييز. لستُ بالإنفلات الذي يجب أن أكون عليه. أأكون قد سلّمتُ بما يحدث؟ إذا فكَّرَ الآخرون هكذا، فهذا أفضل، أنا أعرف ما الذي أنا قادر على فعله للعثور عليها.

سهر عليَّ حاتم طوال الليل خوفاً من أن أرتكب أية حماقة. وعندما أشعلتُ هذه الشمعة وفرشتُ مسند الكتابة ووضعتُ المحبرة وملّستُ أوراقي، ثم بدأتُ أخطّ هذه الكلمات، رأيتُ رأسَ تابعي يهوي إلى الخلف مفتوح الفم.

الجميع نيام من حولي، ولكن أين تنام مارتا؟ أينما كانت، سواء في سرير رجل أم في زنزانة سجن، أنا متأكد من أنها لم تغمض عينيها، وأنها في هذه الدقيقة تفكِّر بي مثلما أفكّر بها.

لا يغادرني وجهها، إنه حاضر في ذهني كأني أراه في ضوء هذه الشمعة. لكني لا أرى شيئاً آخر. أفشل في تخيُّل المكان الذي تتواجد فيه، الناس المحيطين بها، الملابس التي ترتديها أو التي لم تعد ترتديها. أتكلم عن السرير والسجن مثلما يمكن أن أتكلم عن سَوط وطُنُب(*) وصفعات ووجه متورّم.

تمضي مخاوفي حتى أبعد من ذلك بكثير. إذ يخطر لي أنّ زوجها الشرير قد يفكر بقتلها كيلا يُعَرِّض زواجَهُ الجديد للخطر. راودتني الفكرة بالأمس، لكني أزحتُها، فهناك شهود كثيرون وسياف لا يجهل ذلك. أنا وحاتم ودراغو وحتى الرهبان الذين شاهدوا مارتا تأتي معنا قبل أن نقودها إلى ذلك الباب. إذا عادني الخوف، فهذا لأنّ الليالي التي

(*) طُنُب، هو سوط قصير.

تمر دون نوم تؤجج المخاوف. وأيضاً لأني لا أنجح في تصوُر المكان الذي أمضت مارتا هذه الليلة فيه.

للحقّ، كل شيء ممكن، كل شيء. بما في ذلك اللقاء الحار بين الزوجين اللذين ربما تذكّرا فجأةً حبهما القديم، فتعانقا باندفاعٍ زادَ من جُموحه أن لدى كل منهما مايطلب المغفرةَ عليه. وبسبب حالة مارتا، لا يمكنها أن تتمنى مخرَجاً أكثر عزاء من أن تؤخَذ منذ الليلة الأولى. وبهذه الطريقة، وبالتلاعب قيلاً بالتواريخ، ستجعل سياف يعتقد بأن الطفل منه.

تبقى بالطبع الزوجة الأخرى وأهلها الذين يَجعل حضورُهُم هذا الاحتفالَ المتناغمَ غير وارد. يجدر أن يُحزنني ذلك من أجل مارتا، ومن أجلي أنا ربما يجدر بي أن أبتهج. لا، لا أستطيع الابتهاج، لأني أفكر بالحلول القصوى التي قد يلجأ إليها هذا الرجل. لا يمكن أن يبهجني شيء، ولا يمكن أن يعزّيني شيء في هذه المسألة اللعينة. خصوصاً في هذه الساعة الصباحية المبكرة بهذا الشكل، المتأخرة بهذا الشكل، التي لم يعد ذهني المتعَب يَرسم فيها إلاّ بالأسوَد. إنه لم يعد يرسم أساساً، بل يلطّخ.

وصلتُ إلى أسفل هذه الصفحة، وأحسِنُ صنعاً إذا انتهزتُ الفرصة لكي أتمدد بضع لحظات، تاركاً الحبر يجفّ من تلقاء نفسه.

الدفتر الثالث

سماء بلا نجوم

في جنوة، 3 نيسان 1666

رويتُ بالتفصيل خلال خمسة شهور، أو قرابة الخمسة شهور، أحداث الرحلة، ولم يعد بحوزتي أي أثر من كل ماكتبته. بقي الدفتر الأول عند بارينيلّي في القسطنطينية؛ والثاني في دير شيّو. تركتُهُ عند الفجر في غرفتي، مفتوحاً على الصفحة الأخيرة لكي يجف الحبر. عاهدتُ نفسي بالعودة قبل المساء لأقدِّم عرضاً بما يحدث في ذلك اليوم الحاسم. ولم أعد قط.

كان ذلك اليوم حاسماً، أكثر بكثير مما توقعت، وفي اتجاه مختلف تماماً عما رجوت. أجد نفسي من جديد بعيداً عن كل من أُحبّ، عن كل أهلي، ومريض. أشكر الله على أنَّ الدَّهر الذي تخلّى عني بِيَد، التقطني باليد الأخرى. صحيح أني جُرِّدْتُ من كل شيء، لكني مثل وليد فوق ثدي أمه. أمي المستعادة، أمي ـ أرضي، أمي ـ شاطئي. جنوة، مدينتي ـ الأم.

منذ مجيئي إليها أفكر كل يوم بالكتابة لأحكي عن رحلتي، وأبين مشاعري التي تتراوح بلا توقف بين وهن العزيمة والحيوية المفرطة. إذا لم أكتب شيئاً قبل اليوم فهذا يعود حتماً لضياع دفتري. لا أجهل بأنّ كلماتي ستنتهي يوماً إلى النسيان، وجودنا كله يستند بظهره إلى النسيان، لكننا لكي نُقدِم على شيء نحتاج على الأقل إلى ما يشبه الاستمرار، إلى وهم الدَّوام. كيف يمكنني مَلء هذه الصفحات والاهتمام بوصف الأحداث والمشاعر بأكثرِ الكلمات صواباً، إذا لم يكن بمقدوري الرجوع إليها خلال عشر سنين، عشرين سنة، لأجد فيها

ما كانت عليه حياتي؟ مع ذلك، فإني أكتب وأكتب وسأكتب. ربما يكون مجدُ الفانين في عدم ثباتهم.

أعود إلى قصتي. ذاك الصباح في شيّو، بعد ليلةٍ من الانتظار، صممت أن أذهب للعثور على مارتا، مهما كلّفني الأمر. وأنا أكتب هذا، لديّ إحساس بأني أتكلم عن حياةٍ سابقة، كَوْني انحرفتُ، منذ رحيل المرأة التي أحب، صوبَ نوعٍ من حياةٍ ثانية مغشوشة. أتخيَّل أنَّ بطنها قد تكوَّر قليلاً، وأتساءل إذا كنت سأرى يوماً الطفل الذي سيولد من صلبي. ولكن يجب أن أكفّ عن النواح، يجب أن أتماسك وأقف على قدميّ. يجب أن تطفئ الكلمات التي أكتبها كآبتي بدلاً من أن تحييها، لكي أستطيع أن أروي كل شيء بصفاءٍ مثلما عاهدتُ نفسي.

بعد أن غفوتُ ساعةً إذن، في نزل دير الرهبان في كاتارّاكتيس، استيقظتُ مذعوراً عازماً على التوجه إلى بيت زوج مارتا. لم يكن أمام حاتم وقد عدَلَ عن نصحي، إلا أن يلحق بي.

طرقت الباب، وفتح لنا حارس عملاق حليق الرأس غزير الشاربين واللحية. سألَنا عما نريد دون أن يدعونا للدخول. كلّمَنا بلهجة قراصنة يونان دون أي عبارات تهذيب، دون ابتسامة، ويده تطبطِب فوق مقبض خنجر قصير معقوف. وعلى بعد خطوات منه إلى الخلف، يقف أرعنان آخران على شاكلته، أقل طولاً منه، لكنّ وجهيهما لا يقلاّن تكشيراً. أنا كنتُ أتلظّى أما تابعي فاحتفظ بالطبع الهادئ لأصحاب هذه المهنة من تَبَسُّم واحترام أكثر مما يجب في تقديري إزاء أفظاظ من هذا النوع. شرح لهُم أننا قادمان من جبيل، بلد سيِّدهم، وأنّ هذا الأخير يسعده أن يعلم أننا نمرّ بجزيرته.

«ليس هنا!»

استعدّ الرجل لإغلاق الباب، لكن حاتم لم يفقد شجاعته.

«إذا كان غائباً، ربما نستطيع أن نسلِّم على زوجته التي هي قريبتنا...».

«زوجته لا تستقبل أحداً في غيابه!»

انطبقَ الباب هذه المرة، وبالكاد تيسَّرت لنا الفرصة لسحب رأسينا وأقدامنا وأصابعنا.

سلوك أبناء آوى، أما في نظر القانون، فإنني أنا، التاجر الشريف، المخطئ، بينما اللص وأعوانه هم المحقّون. تزوجت مارتا من هذا الرجل، وبما أنه لم يتلطّف ويجعلها أرملة، فقد بقيت زوجته؛ لا شيء يسمح لي بأخذها منه، ولا حتى برؤيتها إذا لم يشأ أن يريني إياها. ما كان يجب إطلاقاً أن أدعها تسلِّم نفسها لسلطته. عبثاً ردَّدتُ بأنها فعلتْ ما أرادت أن تفعله وأنني لم أكن أملك أي حجةٍ لمنعها، فإن شعوري بتبكيت الضمير لم يخفّ أبداً. لكني إذا ارتكبتُ خطأً في الحكم، وإذا كنتُ أعي أنني يجب أن أكفِّر عنه، فإنني لهذا لا أستسلم. أن أدفع ثمن خطئي، نعم، ولكن بسعر معقول! لم يكن وارداً أن أترك مارتا تَتعفَّنُ إلى الأبد عند هذا الرجل. وضعتُها في هذا المأزق ويجب أن أجد وسيلةً لإخراجها منه.

وسيلة؟ أية وسيلة؟ في غيوم ذهني التي زاد ليلٌ بلا نومٍ من كثافتها، لا أرى غير صدْعٍ في درعِ العدو: زواجه الثاني. كانتْ تلك هي فكرتي الأولى تماماً. جَعْلُ سياف يخشى من إمكانيةِ معرفةِ الحقيقة من قبل حَميهِ المحلي القوي والغني؛ وجره بهذه الطريقة إلى الصلح...

أستطيع أن أكتب صفحات كاملة عن الطريقة التي أحب أن تصير إليها الأمور، وكيف صارت، لكني ما أزال شديد الوهن وأخشى أن تُعاوِدُني الكآبةُ من جديد. لذا أوجِز فأكتفي برواية تتمة ذلك اليوم العصيب ببضع كلمات.

في طريق عودتنا إلى النزل بعد رحلتنا المقتضبة، لمحنا في البعيد قميص المدعو دراغو الذي بدا كأنه ينتظرنا في ظل الجدار. لكن حين أشار له حاتم بالاقتراب، استدار وراح يركض بسرعة كبيرة. فوجئنا بسلوكه إلى درجة أننا حتى لم نركض في أثره. وما كنا لنعثر عليه أساساً في متاهات القرية.

خلال لحظة اتّضح كل شيء في ذهني: لم تكن هناك زوجة ثانية قط، ولا والد زوجة من الأعيان المحليين، ولقد تلاعبَ زوجُ مارتا بنا طوال الوقت. حين علم أننا نبحث عنه، أرسل لنا أحد شركائه، ذاك

المدعو دراغو لكي نقع في الفخ. لقد نَوَّمَ ريْبَتَنا بإغرائنا بتسويةٍ سهلةٍ في صالحنا. تركتُ حبيبتي تذهب وأنا مقتنع بأنها ستحصل، دون أن تضطرّ للتفاوض طويلاً، على موافقة سياف على القول بأنّ الزواج لم يتمّ أبداً لتطلب إلغاءه.

أطلَقَ أحدُ الرهبان المسؤولين عن النزل، الذي لم نكن قد قلنا له شيئاً منعاً من إفشاء مشاريعنا كثيراً، ضحكةً رنانة، ذاك أنّ جاره الجبيليّ يعيش جهاراً مع عاهرة التقطها من أحد موانئ كاندي، وليست إطلاقاً ابنة أحد أعيان شيّو.

ما الذي أستطيع أن أفعله أيضاً؟ أذكر أني أمضيتُ بقية ذاك النهار اللعين وقسماً من الليل دون حراك ودون أكل، متظاهِراً بالبحث في زوايا رأسي، رأس التاجر الجنويّ، عن وسيلة أخيرة لتجنُّب المصيبة، بينما كنتُ أكابد اليأس والمرارة وأسوط نفسي، وحسب.

وفي لحظةٍ ما حوالى الغسق، جاء تابعي ليقول لي بنبرة منسحقة وصارمة في آن واحد، بأنه آن الأوان لكي أقبل بالأمر الواقع، بأنه لم يعد هناك من وسيلة يمكن أن نجرّبها، وأنّ كل خطوة جديدة سوف تزيد موقفنا وموقف مارتا حرَجاً وخطراً.

أجبتُ دون أن أرفع رأسي للنظر إليه:

«حاتم، هل ضربتُكَ مرةً في حياتي؟».

«لقد كان سيدي شديد الطيبة على الدوام!»

«إذا تجرّأتَ مرةً أخرى ونصحتَني بالسفر والتخلّي عن مارتا، سأضربك بقوةٍ تُنسيكَ أني كنتُ يوماً طيباً!»

«إذن، يُحسِن سيدي صُنعاً إذا ضربني في الحال، لأنه طالما لم يتوقف عن تحدّي العناية الإلهية، لن أتوقف عن تحذيره».

«انصرف! اغرب عن وجهي!».

أحياناً يولِّد الغضبُ الأفكار: فبينما كنتُ أطرد حاتم وأهدده وأُسكِتُه، التمعت فكرةٌ في رأسي، ستؤكِّد عما قريب أسوأ توقعات تابعي. لكنها بدت لي في تلك اللحظة فكرةً بارعة.

كانت النية أن أذهب إلى آمر عسكر الانكشارية لإطلاعه على بعض مخاوفي. سأزعم أنّ زوجة هذا الرجل هي قريبتي، ووصلتني شائعات بأنه خنَقَها. أعرف أني أغالي، لكنّ الكلام عن جريمة هو الطريقة الوحيدة لجعل السلطات تتدخل. ثم إنّ مخاوفي لم تكن مصطنعة. كنتُ خائفاً حقاً من مصيبة وقعت لمارتا. وإلاّ لماذا مُنِعنا من دخول ذلك البيت؟ قلتُ لنفسي.

استمع الضابط لشروحي التي زادها غموضاً كَوْني عبَّرتُ عنها بخليطٍ من يونانية سيئة وتركيةٍ سيئة، مع بعض الكلمات الإيطالية والعربية هنا وهناك. وحين تكلّمتُ عن جريمة قتل، سألني إذا كان الأمر مجرد إشاعات أم أنني واثق من كلامي. قلتُ إنني ماكنتُ أزعجتُهُ لو لم أكن واثقاً. سألني حالاً إذا كنتُ مستعداً لتأكيد ذلك على قطعِ رأسي. خفتُ بالطبع. لكني كنتُ مصمماً على عدم الاستسلام. لذا، بدلاً من الرد على سؤاله المزعج، فككتُ صرة نقودي وتناولت منها ثلاث قطعٍ ثمينة وضعتُها أمامه على الطاولة. اختطفها بحركة رجلٍ معتاد، اعتمَرَ قلنسوته ذات الريش وأمر اثنين من رجاله بمرافقته.

«هل أستطيع القدوم أنا أيضاً؟»

لم أطلب ذلك دون تردد. من جهة لم أكن أرغب كثيراً بأن أبينّ لسياف إلى أية درجة أنا مهتمٌ بمصير زوجته، خوفاً من أن يكتشف ماكان بينها وبيني. ولكنْ من جهة أخرى، لم يكن الضابط يعرف مارتا، ومن الممكن أن يسموا له أية امرأة على أنها هي، وأنها على ما يرام؛ أما هي فلن تجرؤ أن تقول شيئاً إذا لم تَرَني.

«لا يُفترض بي أن آخذك معي، ربما يسبب لي هذا المتاعب إذا عُرِف».

لم يقل لا، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة مفهومة، بينما راح ينظر بطرف عينيه إلى المكان الذي وضعتُ فيه القطع النقدية الحاسمة على الطاولة. فككتُ صرتي لتقديم هدية إضافية وضعتُها هذه المرة في يده مباشرةً، بينما كان رجاله يراقبون المشهد الذي لم يبدُ أنه يدهشهم أو يُربِكهم.

تحركت المجموعة المؤلفة من ثلاثة عساكر وأنا. وفي الطريق

رأيتُ حاتم خلف جدار يشير لي. تظاهرت بعدم ملاحظته. وعند مرورنا أمام الدير ـ النزل، لمحتُ اثنتين من الراهبات وخادمتهما العجوز، اللواتي سلاَّهنّ المشهدُ على ما يبدو.

دخلنا بيت زوج مارتا بطريقة سلطوية. قرع الضابط الباب مُصدِراً أمراً بصوتٍ صارخ. فتح له العملاق الأصلع وتنحّى جانباً لكي يسمح له بالمرور دون أن يقول شيئاً. بعد لحظة، هُرِع سياف، مسرعاً، مبتسماً، كما لو أن أعزَّ أصدقائه جاؤوا إليه في زيارة مرتجلة. وبدلاً من أن يسألنا ماذا جئنا نفعل في بيته، لم يخرج على لسانه سوى عبارات الترحيب وُجِّهت للعثماني في البداية ثم لي أنا. زعم أنه مفتون بأنه رآني من جديد ودعاني صديقه وقريبه وشقيقه، دون أن يسمح بظهور شيء من الحنق الذي يشعر به إزائي.

ازداد حجماً عما كان عليه أيام كنا في البلد، دون أن يزداد وقاراً. بات يشبه خنزيراً سميناً ملتحياً ينتعل بابوجاً، ما كنتُ لأتعرَّف أبداً على الولد الشَّغِب الذي كان يركض حافي القدمين في حارات جبيل، تحت الدهن اللامع الذي يكسوه، وتحت أرديته وحليِّه الذهبية.

وبدافع التهذيب وإلى حد ما بدافع الفطنة، تظاهرتُ بأني أثمِّن هذا اللقاء، فلم أتملَّص من عناقه، بل بادلتُه علناً باسم «قريبي». الأمر الذي سمح لي حال جلوسنا في الصالون، أن أسأل عن «قريبتنا، زوجته، مارتا خانم». بذلت جهدي لكي أعبّر بالتركية كيلا يضيع على الضابط شيءٌ من حديثنا. قال لي سياف بأنها على مايرام رغم تعب الرحلة، وشرح للعثماني بأنها اجتازت البحار والجبال، مثل زوجة مخلصة لزوجها، لكي تلحق بالرجل الذي منحتها إياه السماء.

«أرجو ألاّ تكون من التعب بحيث لا تستطيع المجيء لتحية قريبها».

بدت على الزوج هيئة الحرج؛ وقرأتُ في عينيه بأنه اقترف ذنباً فاحشاً. وعندما قال: «إذا أصبحت أفضل حالاً فإنها ستنهض لكي تأتي لتحيتكم؛ فمساء الأمس كانت عاجزة عن رفع رأسها»، بِتُّ مقتنعاً دون أدنى شك بأنّ مصيبةً قد حلّت. قفزتُ من مكاني من الغضب والقلق

واليأس، وكنت مستعداً أن أقبض على هذا المجرم من عنقه؛ ولم يمنعني من الانقضاض عليه سوى مرأى ممثل النظام. لذا ضبطتُ حركاتي وليس كلماتي التي صَبَّت على هذا الرجل وأوباشه كل مادفنتُه بقلبي منذ زمن طويل. أطلقتُ عليه كل الأسماء التي يستحقها، داعر وشرير ولص وقرصان وقاطع طرق وقاطع رقاب وزوج منهزم، زوج عديم الجدارة لا يستحقّ حتى أن يمسح الغبار عن حذاء تلك التي منحته نفسها، وتمنيتُ له أن يموت مخوزَقاً.

تركني الرجل أقول، لم يَردّ، لم يتمسّك ببراءته. فقط بينما كنتُ أتَّقِد وأتَّقِد، رأيتُهُ يرسل إشارةً لأحد أعوانه الذي اختفى. لم أعر الأمر أهمية في لحظتها، ومضيتُ في نقدي اللاذع رافعاً عقيرتي أكثر، ومازجاً كل اللغات إلى درجة أن الضابط الذي كَلَّ أمرني بأن أصمت أخيراً. انتظر أن أمتثل وأعود للجلوس لكي يسأل ذاك الرجل:

«أين زوجتك، أريد رؤيتها. اذهب ونادِها!»

«هاهي ذي».

ودخلت مارتا يتبعها الرجل الذي اختفى. في تلك الساعة فهمتُ أنّ زوجها قد استخفَّ بي، مرةً أخرى. حرص على أن تظهر في اللحظة المناسبة، أي ليس قَبْلَ أن أقلِّل من قيمة نفسي وأفضحها بإسهاب.

من كل الأخطاء التي ارتكبتُها، تلك الخطيئة هي التي أشعر بأكبر الندم عليها وحتى اليوم؛ أعتقد أنني سأحتفظ بتبكيت ضمير عليها طوال حياتي. والحقّ هو أنني لا أعرف إلى أي درجة فضحتُ نفسي حقاً، فضحتُها وفضحتُ حبنا وعلاقتنا. ذلك أني لم أعد أذكر ما قلته بتأثير الغضب الشديد. كنتُ مقتنعاً بأنّ هذا الشرير قتَلَها، كل شيء في سلوكه كان يبدو أنه يؤكّد ذلك، حتى أني لم أعد أسمع الكلمات التي كانت تخرج من حنجرتي. أما هو فعلى العكس كان يسمعها جيداً هادئاً ومتعالياً مثل قاضٍ يستمع إلى اعترافات امرأة زانية.

سامحيني يا مارتا على كل الأذى الذي سببتُهُ لك! أنا لن أسامح نفسي قط. أتصورك ثانيةً، مسبلة العينين، لا تجرؤين على النظر لا إلى

زوجك ولا إلى الرجل الذي كان حبيبك. منسحقة القلب نائية راضخة وقد ضُحِّيَ بكِ، ولا تفكرين، كما أتخيّل، سوى بالطفل الذي تحملينه، متمنّيةً فقط أن تنتهي هذه المهزلة ويأخذكِ زوجكِ بأسرع وقتٍ إلى سريره لكي تستطيعي إقناعه خلال بضعة شهور بأنّ حملك منه. لم أكن في حياتك سوى لحظة شؤم، لحظة وهم وخداع وعار. لكني أقسم بأني أحببتك أيتها المرأة، وسأحبك حتى آخر أيامي. ولن أجد السلام لافي هذا العالم ولا في العالم الآخر طالما لم أصلح الأخطاء التي ارتكبتُها. الآن، في هذا البيت الذي تُنصب فيه الأفخاخ، والذي جئتُ إليه كرجلٍ يحبّ العَدل لأجد نفسي في ثياب المذنب، تمنيتُ الرجوع عن أقوالي بأية طريقة، حتى لا تكوني أنت، مارتا، هي التي تدفع ثمن ثرثرتي. لكني صمَتُّ، خيفة أن أزيد عليكِ ثقلاً فيما أحاول تبرئتكِ. نهضتُ دون كلمة لك، دون نظرة وداع.

في طريق العودة إلى الدير، رأيتُ في البعيد منارة الحي التركي وراودتني فكرة السير إلى هناك وتسلق الأدراج ركضاً وإلقاء نفسي في الفراغ. لكن الموت لا يعطي نفسَه هكذا بدافع مفاجئ. فأنا الذي لم أكن جندياً أو قاتلاً لم أسمح أبداً لفكرة الموت بأن تروِّضني. لم أُنَمِّ هذه الشجاعة قط، ويتملكني الخوف. خوف من الموت المجهول، خوف من الخوف في اللحظة التي يجب أن أقفز فيها، خوف من الألم أيضاً عندما يرتطم رأسي بالأرض وتتحطم أضلاعي. أيضاً لا أحب أن يتعرض القريبون مني للمهانة بينما سياف يحتفل ويشرب ويرقص مرغماً مارتا أن تصفق بيديها.

لا، لن أقتل نفسي، همست. لم تنته حياتي بعد، لكنّ رحلتي انتهت. ضاع كتاب *الاسم المئة*، ضاعت مارتا، لم يعد لدي أي سبب ولا القوة أساساً لكي أجوب العالم. سأذهب لأخذ ابنَيْ أختي من سميرنا، وأعود دون إبطاء إلى بيتي في جبيل، إلى دكاني الطيب كتاجر للطرائف، لكي أنتظر هناك بصبر أن ينقضي العام الملعون.

أعلنتُ لتابعي الذي استقبلني أمام النزل، نواياي في الحال، وطلبتُ منه أن يكون مستعداً للرحيل قبل نهاية اليوم. سنقضي الليل في

مدينة شيّو ومنها نرحل منذ صباح الغد إلى سميرنا. ومن هناك، بعد توديع ميمون والقس كوإنِن وبعض الأشخاص الآخرين، سنبحر على أول مركب باتجاه طرابلس.

كان يفتَرَض أن يظهر حاتم سروراً شديداً بذلك، وبدلاً من ذلك ارتسمت على وجهه علائمُ أشدِّ الرعب. لم تتح لي الفرصة لأسأله عن السبب، فقد صرخ صوتٌ من ورائي:

«أنت، الجنويّ!»

استدرتُ ورأيتُ الضابط مع رجاله. أشار إليّ بالاقتراب منه. اقتربت.

«اركع، أمامي!»

هنا؟ وسط الشارع؟ مع كل هؤلاء الناس الذين تجمَّعوا خلف الجدران والنوافذ وجذوع الأشجار كيلا يفوتهم شيء من المشهد؟

«سبَّبتَ لي المهانة، أيها الجنويّ الكلب، والآن دوري كي أهينك! كذبتَ عليّ، استخدمتَني واستخدمتَ رجالي!»

«أقسم لك بأنّي كنتُ مقتنعاً بكل ما قلته لك!»

«سكوت! أنت وذووك، تظنون أن كل شيء مايزال مسموحاً لكم، أنتم مقتنعون بأنه لن يحدث لكم مكروه لأنّ قنصلكم يأتي وينقذكم في اللحظة الأخيرة. حسناً، ليس هذه المرة! لن ينقذك من بين يدي أيُّ قنصل! متى ستفهمون بأن هذه الجزيرة لم تعد لكم، وأنها منذ الآن وإلى الأبد، ملكٌ لمولانا لسلطان باديشاه؟ انزع حذاءك وضعه فوق كتفيك وسِرْ ورائي!»

من جانبيّ الطريق كانت تنفجر ضحكات السائرين الحفاة. وعندما تحرك موكبنا البائس، ساد مايشبه جو عيد شعبي. بدا الجميع عدا حاتم مبتهجين به، بدءاً بالجنود الانكشاريين. حركات تهكميَّة وصيحات هازئة وأيضاً ضحكات. ولكي أعزي نفسي رحت أقول في سري بأن من حُسن حظي أني لم أتعرض للإهانة بهذا الشكل في شوارع جبيل بل في هذا المكان الذي لا يعرفني فيه أحد والذي لن أضطر ثانيةً في حياتي للالتقاء بنظرة أحد من أناسه الذين رأوني على هذه الحال.

عند وصولنا إلى المركز، ربطت يداي وراء ظهري بحبل صغير، ثم أُنزِلتُ في نوع من حفرة ليست شديدة العمق، محفورة في أرضية المبنى، وضيقة إلى درجة أنه كان بوسعهم الاستغناء عن تقييدي لمنعي من الحركة.

بعد ساعة أو ساعتين، جاؤوا وأخذوني، فكُّوا يديّ وقادوني إلى الضابط الذي بدا هادئاً وكذلك مفتوناً بالمقلب الذي رتَّبه لي للتو. وعرض عليّ بشكل ضمني تسوية في الحال.

«إني متردد بشأن ما يجب أن أفعله بك. كان يجب أن أعاقبك على الاتهام الباطل بالقتل. كان يجب أن تُساط أو تُسجنَ وأسوأ من ذلك إذا أضفنا تهمة الزنا».

صمتَ. أما أنا فتجنَّبتُ أن أرد. تمسُّكي ببراءتي لن يُقنِع أحداً، ولاحتى أختي ذاتها. إني مذنب باتهام باطل بالقتل، وبالزنا أيضاً. لكنّ الرجل قال لي بأنه يتردد بين موقفين. تركتُهُ يتابع.

«أستطيعِ أن أكون رحيماً أيضاً وأغمض عينيّ عن كل ما ارتكبتَهُ، مكتفياً بطردكَ إلى بلدك...».

«وأستطيع أن أكون ممتَنّاً».

قصدتُ بكلمة «ممتنّاً» «مقْنِعاً». الضابط يبيع نفسه، ولكن كان عليّ أن أتصرف وكأنّني أنا السلعة التي يجب تحديد سعرها. لن أنكر بأنّي استعدتُ الشجاعة حين وصلت الأمور إلى هذه المرحلة. فأنا أحس بنفسي أعزل أمام قوانين البشر أو السماء، وأستعيد القدرة على الكلام عند البدء بتحديد سعر. لقد جعلني الله غنياً في بلدٍ ظالمة. إني أثير طمع الأقوياء، لكنَّ لديّ أيضاً ما يشبعه.

اتفقنا على سعر. لا أدري إذا كانت «اتفقنا» هي الكلمة المناسبة. فالحقيقة هي أنّ الضابط طلب مني ببساطة أن أضع له صرة نقودي فوق الطاولة. فعلتُ دون عبوس، وفي الحال مددتُ له يدي مثلما يفعل التجار حين يريدون المصادقة على اتفاق. تردد لحظة ثم قَبِلَ أن يصافحها وقد رسم على وجهه برطمةً متعالية. غادَرَ الغرفةَ في اللحظة التي تلت ودخَلَها رجالُهُ لكي يربطوني ويقودوني إلى السجن من جديد.

عند الفجر، وكنت لم أنم بعد، عُصِبت عيناي، وغلُفتُ في قطعة من الخيش، كمَنْ يُلَفُّ في كفَن، ومُددتُ على نقّالة جرُّوها فوق دروبٍ وعرة حتى مكانٍ ألقوني فيه بقسوة على الأرض. عرفتُ أني عند الشاطئ لأن الأرض لم تكن قاسية ولأني سمعت صوت الأمواج. ثم رفعوني على ظهر رجل كأني صندوق أو حزمة بضاعة مربوطة ووضعوني في مركب.

في جنوة، 4 نيسان

أتهيّأ لاستعادة خيط قصتي، وأنا جالس على شرفة بيت صديق، أتنفّس الروائح الربيعية، مصغياً لأصوات المدينة الناعمة، للغةِ العسلِ هذه التي هي لغة دمي. إلا أني، وسط هذا الفردوس، أبكي حين أفكر أيضاً بتلك التي هناك، السجينة، ثقيلة البطن، والتي كان ذنبها أنها أرادت أن تكون حرة وأنها أحبتني.

لم أعرف وجهتي إلاّ بعد إبحار المركب بكثير. ألقوا بي في قاع فنطاس(*)، وكان القبطان قد تلقّى الأمر بإبقاء العصابة على عيني طالما لم يختفِ ساحل شيّو في الأفق، وهو الأمر الذي نفّذه بدقة أو يكاد - فعندما تركني أصعد إلى السطح، كان مايزال ممكناً أن نستشفّ ذرى الجبال، بل لقد أشار لي البحارة حتى إلى قامة قصر قالوا لي بأنه يدعى بوليانو أو أبوليانو. على أية حال كنا بعيدين جداً عن كاتارّاكتيس ومتجهين غرباً.

الغريب أنّ الطريقة التي طردتني بها السلطات أكسبتني ثقة القبطان، وهو كالابريٌّ يقارب الستين من العمر، شعره طويل أبيض، يدعى دومينيكو، ونحيل مثل كلبٍ لا سيد له، ودائم الشُباب -

(*) الفنطاس، حوض في السفينة بين قعرها وسطحها.

«ياأجدادي!» ـ يهدد بحارته دوماً بشنقهم أو إلقائهم إلى الأسماك، لكنه تَعَلَّق بي إلى درجة أنه روى لي عمليات النهب التي قام بها.

مركبه يدعى شاريبدوس ـ وهو سفينة ذات ساريَتينْ ـ. وقد رسا في كاتارّاكتيس ذات الخليج الصغير الذي لا تلجأ إليه إلاّ مراكب الصيادين، وذلك لأنه دخلَ في عملية تهريب من أكثر العمليات ربحاً. فهمتُ حالاً أن الأمر يتعلق بتهريب صمغ المصطكى الذي لاينتجه أي مكان آخر في العالم سوى شيّو، وخصصته السلطات التركية بكامله لاستعمال حريم السلطان، حيث درجتْ الموضة أن تستمر هؤلاء النساء النبيلات في العلك من الصباح إلى المساء لكي يحصلن على أسنان بيضاء وأنفاس عطِرة. يُلزَم الفلاحون الذين يزرعون هذه الشجرة الثمينة التي تسمى المصطكى ـ والتي تشبه شجرة الفستق الحلبي إلى درجة الالتباس ـ بتسليمه للسلطات مقابل أجر تحدده هذه؛ ومن يملكون فائضاً يحاولون بيعه لحسابهم الخاص ممّا قد يكلفهم سنين طويلة من السجن أو الأشغال الشاقة، وأحياناً الموت. ولكن رغم هذا التهديد، يبقى إغراء الربح هو الأقوى، وقد قام التهريب في المكان الذي ينشط فيه رجال الجمارك وممثلون آخرون للقانون.

تباهى القبطان دومينيكو أمامي بأنه أكثر المهرّبين شطارةً وجسارة. أقسم لي أنه في السنين العشر الأخيرة جاء إلى شواطئ الجزيرة لتحميل البضاعة الممنوعة، ما لا يقلُّ عن ثلاثين مرةً دون أن يقبض عليه أبداً. قال لي بوضوح بأن الجنود الانكشاريين يستفيدون من عطاءات كرَمه، الأمر الذي لا يفاجئني كثيراً نظراً للطريقة التي طُردتُ بها.

بالنسبة للكالابريّ، ليس تحدي لحية السلطان في مملكته ذاتها، وانتزاع الحلوى التي يخصصها لمحظياته، مجرد كسب عيش، إنه بسالة وشبه تقوى. خلال سهراتنا الطويلة في البحر روى لي بالتفصيل كلاً من مغامراته، خاصةً تلك التي كاد يقبض عليه فيها، والتي يضحك لها بشكل أقوى مما يضحك لغيرها، ويشرب جرعات من العرَق لكي يتذكر بأنه أُصيب بالخوف. كانت طريقته في الشرب تسلِّيني. يضع شفتيه على عنق المطرة المصنوعة من جلد حيوان، يُبقيها في متناول

يده دوماً، يرفعها عالياً جداً ويظلَ هكذا لحظة طويلة، فمه في الهواء كأنه يمسك بآلة مزمار ويستعد لنفخ موسيقاه.

أحياناً عندما يتكلم القبطان عن آلاف الحيل التي يلجأ إليها الفلاحون للإفلات من القوانين العثمانية، فإنه يعلِّمُني أشياء. وأحياناً أخرى لا يعلّمني شيئاً. لم أعد أذكر إذا كنتُ قد قلتُ بأنّ عائلتنا استقرت في شيّو قبل أن تعود إلى جبيل، وتعاطت تجارة المصطكى تحديداً. كل هذا توقف منذ أيام جدِّ جدِّي، لكن الذكرى بقيت. لا ينسى آل أمبرياتشي شيئاً ولا يُنكِرون شيئاً أبداً؛ مآثر حربية أو تجارة، مجد أو مصائب، تُضاف حيواتُهم المتتالية بعضها إلى بعض مثلما تُضاف حلقات جديدة كل عام إلى جذع شجرة بلوط؛ تموت الأوراق في الخريف وأحياناً تتكسّر الأغصان دون أن تكفّ شجرة البلوط عن أن تكون نفسَها. كان جدي يكلمني عن المصطكى مثلما يكلمني عن الحروب الصليبية، يشرح لي كيف تُجمَع تلك الدموع الثمينة عن طريق حَزٍّ لحاء شجرة المصطكى، مكرراً أمامي، هو الذي لم ير هذه الشجرة في حياته، الحركات التي علّمه إياها جدُّه.

أعود إلى القبطان المهرّب والتجارة الخطيرة التي يتعاطاها، كي أقول بأنّ أفضل زبوناته هنّ سيدات جنوة. هذا لا يعني أنهنّ أكثر عنايةً بأنفاسهن أو ببياض أسنانهن من نساء البندقية أو بيزا أو باريس. كل مافي الأمر هو أنّ شيّو كانت جنوية زمناً طويلاً، وثمة عادات بقيت. ورغم أن العثمانيين استولوا على الجزيرة قبل مئة عام، لم تشأ نساؤنا قط التخلي عن علكتهنّ. كذلك رجالهم الذين تدب فيهم النخوة من أجل التزود بالمادة التي لاتُعوَّض، كما لو أن الأمر يتعلق بثأر إزاء القدر وإزاء السلطان الذي يجسّدُه. هل أصبحت الحركة التي ينتقل فيها الفكّ من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، مَفخَرةً؟ نظراً للسعر الذي تدفعه هؤلاء السيدات لشراء علكتهنّ، يُفترَض أنّ هذه الحركة تُفصح بشكلٍ مؤكد عن مرتبتهنّ أكثر مما تفعله أثمنُ الحليّ.

كم أبدو جاحداً بتهكُّمي! ألا يعود الفضل لأولئك السيدات وعلكتِهِنّ

الغالية في وجودي الآن فوق هذه الشرفة بجنوة، بدلاً من أن أجفّ في زنزانة عثمانية؟ اعلِكْنَ أيتها السيدات، اعْلِكْنَ

لم يشأ القبطان التوقف في الجزر اليونانية خوفاً من أن يفكر رجال الجمارك العثمانيون بالصعود إلى سطح السفينة. تقدم مباشرةً نحو كالابري، إلى جون قرب كتانزارو مسقط رأسه حيث عاهد نفسه، قال لي، أن يقدم أعطية لقِدِّيسهِ الشفيع كل مرةٍ يعود فيها من الشرق سالماً معافى. رافقتُهُ إلى كنيسة القديس دومينيكو، فلديّ أسباب تدعوني للصلاة أكثر مما لديه. راكعاً في قاعة باردة وقليلة الإضاءة، وسط روائح البخور، همستُ دون اقتناع كبير، بقَسَم غير مُكلِف: إذا استعدتُ مارتا مع الطفل الذي تحمله، سأسميه دومينيكو إذا كان صبياً ودومينيكا إذا كانت بنتاً.

بعد هذا التوقف، توقفنا ثلاث مرات أخرى على طول الساحل، للاحتماء من العواصف، والتزود بالماء والنبيذ والطعام، قبل الوصول إلى جنوة.

5 نيسان

قلتُ لنفسي دوماً بأنني سأبكي يوماً أمام جنوة، لكنّ ظروف اللقاء لم تكن مثلما تخيّلت. هذه هي المدينة التي ولدتُ فيها قبل ولادتي بكثير، وكوني لم أرها قط جعَلها أعزّ على قلبي، كما لو أني هجرتُها وعليَّ أن أحبها أكثر لكي تغفر لي.

لا أحد ينتمي إلى جنوة مثلما ينتمي إليها جَنَويُّو الشرق. لا أحد يحبها كما يحبونها. إذا سقطتْ، يرونها واقفة؛ إذا قَبُحتْ يرونها جميلة، إذا أفلست وأُهينتْ، يرونها مزدهرة وسيِّدة. لم يبق من امبراطوريتها شيء، لا شيء سوى كورسيكا ثم تلك الجمهورية الساحلية الصغيرة التي يدير كل حيٍّ فيها ظهرَه للآخر، وتتمنى فيها كل عائلةٍ الطاعون للعائلة الأخرى، والتي يلعن فيها الجميعُ الملكَ

الكاثوليكي وهم يتدافعون إلى غرفة انتظارِ ممثِّليه، بينما ماتزال تلتمع في سماء جَنَويِّي المنفى أسماءُ كافا وتانا ويالطا، مافوكاسترو وفاماغوستا وتونيدوس وفوسيه، بيرا وغلاطة وثاموسراس، كاساندريا وليسبوس وليمنوس وإيكاريا، وأيضاً شيّو وجبيل ـ نجوم ومجرات كثيرة وشديدة اللمعان!

كان والدي يقول لي دوماً بأنّ وطننا ليس جنوة كما هي اليوم، بل جنوة الأزلية. لكنه سرعان ما يضيف بأنّ عليَّ، باسم جنوة الأزلية أن أحبّ جنوة اليوم مهما أُضعِفت، بل إنّ عليّ أن أتعلقَ بها بقدر شدَّتها مثل أمٍّ باتت عاجزة. كان يناشدني خصوصاً ألاَّ أحقد على مدينتنا إذا لم تتعرف عليّ عندما أزورها. كنتُ ما أزال صغيراً ولم أفهم ما يريد قوله لي حقاً. كيف يمكن أن تتعرف جنوة عليّ أو لا تتعرف؟ مع ذلك، في فجر اليوم الأخير في البحر، لحظةَ لمحتُ المدينة في البعيد فوق تلالها، لمحتُ أعالي قبابها المنتشرة، أسطحها المدببة، نوافذها الضيقة، وأول الأمر أبراجها المحزَّزة، مربعاتٍ أو دوائر، والتي أعرف أن أحدها ما زال يحمل اسم عائلتي، لم أستطع منع نفسي من التفكير بأنّ جنوة تنظر إليّ أيضاً، ورحتُ أتساءل إذا كانت ستتعرف عليّ.

أما القبطان دومينيكو فإنه لم يتعرف عليّ. حين ذكرتُ اسمي لم يُبدِ ردَّ فعل. من الواضح أنه لم يسمع في حياته عن آل أمبرياتشي ولاعن دورهم في الحروب الصليبية ولا عن إقطاعيتهم في جبيل. وإذا وثق بي إلى درجة إخباري بمآثره في التهريب، فلأني جنويّ ولأني طُرِدتُ من شيّو وسأحرص على ألاَّ أعود إليها، قال لنفسه. لم يكن هذا حالُ شريكه الجنوي السيد غريغوريو منجيافاتشا الذي جاء لاستلام البضاعة، وهو عملاق أصهب اللحية، ملابسه صفراء وخضراء وذات أرياش مثل ببغاء الجزُر، والذي قام، عند سماع اسمي، بحركةٍ لن أنساها. حركة مليئة بالتفخيم كدتُ أضحك لها، لكني في النهاية بكيتُ من التأثُّر.

حتى الآن، حين أتذكر هذا المشهد ترتجف يداي ويغشى الدمعُ عينيّ.

لم نكن قد نزلنا من السفينة بعدُ حينَ صعد التاجر إلى سطحها ومعه رجُلي جمارك، كنتُ قد قدَّمتُ نفسي إليه للتو، «بالداسار أمبرياتشو، من جبيل»، كنتُ أتهيأ لأشرح له الظروف التي قادتني إلى هذا المركب، حين أوقفني، أحاطني بيديه من كتفيّ وهو يهزُّني كأنه يريد التشاجر معي.

«بالداسار أمبرياتشو... ابن مَن؟»

«ابن توماسو أمبرياتشو».

«توماسو أمبرياتشو، ابنُ مَن؟»

«ابن بارتولوميو»، قلتُ بصوتٍ منخفض خوفاً من أن أنفجر ضاحكاً.

«ابن بارتولوميو بن أنسالدو بن أوغو بن بارتولوميو بن أنسالدو بن بييترو بن...».

هكذا سلسَلَ من ذاكرته شجرة عائلتي حتى الجيل التاسع كما كنتُ أنا نفسي سأعجز عن القيام به.

«كيف تعرف أجدادي؟»

كل جوابه كان أنَّ الرجل أمسكني من ذراعي سائلاً:

«هل تشرِّفني وتسكن في بيتي؟»

باعتبار أنه لم يكن لدي مكان أذهب إليه، وليس معي أية قطعة نقدية، جنويةً كانت أو عثمانية، فقد رأيتُ في هذه الدعوة شكلاً من أشكال العناية الإلهية. لذا تجنَّبتُ اللجوء إلى صيغ اللباقة المتعارف عليها، تجنبتُ عبارات من نوع «لا أودّ أن...» أو «لا يجدر بي أن...» أو «أخجل أن أضايقك بهذا الشكل...»؛ كان واضحاً أني مرحَّب بي في منزل السيد غريغوريو، بل كان لدي شعور غريب بأنه ينتظر عودتي، منذ عصور، على هذا الرصيف من ميناء جنوة.

نادى اثنين من رجاله، قدَّمني لهما وهو يلفظ اسم أمبرياتشو بالطريقة التفخيمية نفسها. نزعا قبعتيهما بإجلال وانحنيا حتى الأرض، ثم استقاما وطلبا مني أن أتكرَّم وأشير لهما إلى أمتعتي حتى

يتكفَّلا بها. وبصوتٍ منخفض، شرَح القبطان دومينيكو الذي حضر المشهد منذ البداية، وبدا فَخوراً بمرافقة شخصية بهذا النُّبل، لكنه مرتبك قليلاً لكونه لم يستجِب من تلقاء نفسه عندما ذكرتُ اسمي، شرحَ بأنه ليست معي أمتعة لأني طردتُ من قبل عساكر الانكشارية العثمانية.

فسَّرَ السيد غريغوريو الواقعةَ على طريقته، فزادتهُ إعجاباً بشراييني التي تجري فيها، حسب رأيه، أنبلُ الدماء، فأعلَمَ رجالَهُ - وكل من كانوا على بعد مئتي خطوة منا - بأنني البطل الذي تحدّى قوانين السلطان الكافر وخرج عنوةً من أبواب سجنه الثقيلة. الأبطال مثلي لا يجوبون البحار ومعهم أمتعة مثلما يفعل تجار الطرائف العامِّيُّون!

غريغوريو الرجل المؤثِّر، أشعر بالخجل قليلاً وأنا أسخر من حميَّتِهِ. ليس هذا الرجل سوى ذكرى، إخلاص، وسأحقد على نفسي إذا سبَّبتُ له الحزن. أسكنني في بيته كما لو أنه بيتي، وكما لو أنه يَدين لأجدادي بكل ما يملك وكل ما صار إليه. في حين أن هذا غير صحيح طبعاً. الحقيقة هي أنّ آل منجيافاتشا كانوا في السابق من العشيرة التي يديرها أجدادي. أسرة تابعة، حليفة، وتقليدياً أكثر العائلات جميعاً إخلاصاً وتفانياً. ثم للأسف، ضرَبَ سوءُ الحظّ عشيرةَ أمبرياتشي - كان أبي وجدي يقولان ببساطة «البيرغو»، كما لو أنّ الأمر يتعلق بمنزلٍ واسعٍ مشترك. فافتَقَروا وتبعثروا في متاجر ماوراء البحر، قضوا في الحروب، ماتوا غرقاً أو هلكوا بالطاعون، حُرِموا من النسل، نافستهم عائلات أحدث عمراً، فَقَدَت أسرتي تأثيرها شيئاً فشيئاً، لم يعد يُسمَع صوتها أو يُجَلّ اسمها، وهجرتها جميع الأسر التابعة لكي تلحق بأسياد آخرين مثل آل دوريا خاصةً. تقريباً جميعها، يصرّ مضيفي، لأنّ آل منجيافاتشا تناقلوا أباً عن جدّ، ومنذ أجيال، ذكرى الزمن السعيد.

السيد غريغوريو هو اليوم أحد أغنى الرجال في جنوة. جزئياً بفضل المصطكى المستوردة من شيّو، المادة التي هو الوحيد الذي يبيعها بين المسيحيين كافةً. فهو يملك القصر الذي أنا فيه الآن، قرب

كنيسة القديسة ماغدالينا، فوق التلة المطلة على الميناء. ويملك قصراً آخر أكثر اتساعاً كما يبدو، على ضفة نهر فارِنّا، تقيم فيه زوجته وبناته الثلاث. السفن التي يستأجرها تمخر عباب جميع البحار، الأقرب والأكثر أخطاراً، حتى ساحل مالابار وحتى أمريكا. لا يدين بشيء من ثروته لآل أمبرياتشي، لكنه يصرّ على تمجيد ذكرى أجدادي كما لو أنهم مازالوا أولياء نعمته. أتساءل إذا لم يكن، بتصرفه على هذا النحو، يستجيب لخرافةٍ تحمله على الاعتقاد بأنه ربما يفقد حماية السماء إذا أشاح بوجهه بعيداً عن الماضي.

أياً كان، فقد انقلبت الأمور، وهو الذي يغمرنا في الوقت الحاضر بخيره. وصلتُ إلى هذه المدينة مثل الابن الضال، مفلساً، ضائعاً، ويائساً، وهو الذي استقبلني مثل أب وهو الذي قتل العجل السمين. أسكن في بيته كأني في بيتي، أتنزه في حديقته، أجلس في شرفته الظليلة، أشرب نبيذه، أوجه الأوامر لخدَمه، أغمس رؤوس أقلامي في حبره. وفوق هذا يجد أني أتصرف مثل غريب لأنه رآني بالأمس أقترب من وردة تفتحت باكراً، وأشمّ عطرها دون أن أقطفها. اضطررت أن أقسم له بأني ما كنتُ لأقطفها حتى في حديقتي الخاصة في جبيل.

إذا جَعلتْ ضيافةُ غريغوريو شدَّتي أكثر احتمالاً، فإنها لم تستطع أن تُنسيني إياها. منذ تلك الليلة اللعينة التي قضيتُها في سجن الانكشاريين، في شيّو، لا يمرّ يومٌ دون أن أعاني من ذلك الألم في الصدر الذي شعرتُ به من قبل في سميرنا. إلا أنه مع ذلك ليس سوى الأخفّ بين كل آلامي، ولا ألقي إليه بالاً إلا لحظة يلمّ بي، وأنساه حالما يفلتني. فيما الألم الذي اسمه مارتا لا يغادرني أبداً، لا في النهار ولافي الليل.

هي التي قامت بهذه الرحلة لتحصل على الدليل الذي يجعلها حرة، هاهي أسيرة. وقد وضعت نفسها تحت حمايتي فلم أحمها.

وأختي بليزانس التي عهدت إليّ بولديها آخذةً مني وعداً بعدم الابتعاد عنهما، ألم أخُنْها؟

وحاتم، تابعي الشديد الإخلاص، ألم أتخلّ عنه هو أيضاً، بطريقةٍ

ما؟ صحيح أن قلقي عليه أقلّ، وأتخيله أحياناً مثل تلك الأسماك خفيفة الحركة التي تجد القوة، بعد وقوعها في شباك الصيادين، لكي تفرّ من القارب وتقفز إلى البحر. أثق به، وحضوره في شيّو مطمئنٌ بالأحرى. إذا لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً لأجل مارتا، فسيعود إلى سميرنا لكي ينتظرني هناك مع ابني أختي أو لكي يصحبهما عائداً إلى جبيل.

ولكن هي، مارتا؟ لن تستطيع الإفلات قط مع ذلك الطفل الذي في بطنها!

6 نيسان

اليوم أمضيت النهار وأنا أكتب، ولكن ليس في هذا الدفتر الجديد، رسالة طويلة لأختي بليزانس، وأخرى أقصر لابني أختي ولميمون في حال مايزالون في سميرنا. لا أعرف بعد كيف أوصل هذه الرسائل إلى أصحابها، لكن جنوة مدينة يجتازها بلا توقف تجار ومسافرون وسأجد وسيلة بمساعدة غريغوريو.

طلبتُ من أختي أن تكتب لي حالما تستطيع لتطمئنني عن مصير ولديها ومصير حاتم؛ حكيتُ لها قليلاً عن مغامراتي السيئة دون أن أركز كثيراً على ما يتَّصل بمارتا. بالمقابل كرستُ نصف الصفحات كاملةً لجنوة، وصولي إليها واستقبال مضيفي وكل ما قاله عن أمجاد أسرتنا.

وأوصيتُ ابني أختي خصوصاً بالعودة إلى جبيل بأسرع مايمكن، إذا لم يعودا بعد.

وألححتُ على الجميع أن يكتبوا لي رسائل مفصّلة. ولكن هل سأكون هنا حين تصل ردودهم؟

7 نيسان

أنا موجود في جنوة منذ عشرة أيام، وهذه هي المرة الأولى التي أتنزه فيها عبر المدينة. فحتى اللحظة، لم أغادر مقرَّ مضيفي والحديقة

المحيطة به لأني واهن القوى وأحياناً طريح الفراش، أجرجر نفسي بمشقة من كرسي إلى آخر. بدأتُ أحيا ثانيةً عندما بذلتُ جهداً كي أعود إلى الكتابة. عادت الكلماتُ كلماتٍ، والورودُ وروداً.

أما السيد منجيافاتشا الذي بدا متشدِّقاً جداً على سطح السفينة في اليوم الأول، فقد اتّضح أنه مضيفٌ رهيف. اشتبهَ بأنني بعد المحن التي مررتُ بها، تلزمني فترة نقاهة، فحرصَ أن يدعني آخذ الوقت الذي أحتاجه دون دفع. اليوم، باعتبار أني أشعر بالتوازن، عرض عليّ للمرة الأولى أن أرافقه إلى الميناء، حيث يذهب كل يوم لأشغاله. طلب من حوذيِّه أن يمررنا عبر ساحة القديس ماتيو التي يوجد فيها قصر دوريا، ثم أمام برج آل أمبرياتشي العالي المربع، قبل محاذاة الكورنيش حتى أرصفة الميناء حيث ينتظره مجموعة من الخدم. وعندما أراد أن يتركني للتفرغ لأعماله، أمر حوذيه أن يعيدني مروراً بأماكن معينة عدَّدَها، لا سيما شارع بالبي حيث مازال يمكن للمرء أن يستشفّ سخاء جنوة. كان الحوذي يلتفت نحوي أمام كل أثر أو مكان له ذاكرة لكي يحدثني ويشرح لي ما نراه. له ابتسامة سيده نفسها، والحماس نفسه في الكلام عن أمجادنا الغابرة.

أهزّ برأسي، أبتسم له وبمعنىً ما أحسده. أحسده وأحسد سيده على النظرة المليئة بالفخر التي ينظران بها إلى كل هذا المشهد. في حين أنني أنا لا أستطيع أن أشعر إلاّ بالحنين. كنتُ أتمنى كثيراً أن أعيش في العصر الذي كانت فيه جنوة أكثر المدن تألُّقاً، وكانت فيه عائلتي أكثر العائلات تألُّقاً. لا يُعزِّيني أني لم آتِ إلى العالم إلاّ اليوم. ياإلهي كم هو الوقت متأخر! كم هذه الأرض فانية! لديّ إحساس بأني ولدتُ ساعة غسقِ الزمان، عاجزاً عن تذكُّر ما كانت عليه شمسُ الظهيرة.

8 نيسان

استدنتُ اليوم من مضيفي ثلاثمئة ليرة. لم يشأ أن أحرر له صك أمانة، لكني مع ذلك حررته وأرَّختُه ووقَّعته حسب الأصول، وعندما

يحين وقتُ السَّداد سيتوجب عليّ أن أتشاجر معه لكي يقبل بأن أسدد له دينه. سيكون ذلك في نيسان 1667 ، سيكون عام الوحش قد مضى، ويكون لدينا كل الوقت للتأكد من تحقق وعوده الرهيبة. ماذا سيحلّ بديوننا آنذاك؟ نعم، ماذا سيحل بالديون عندما سينطفئ العالم برجاله وثرواته؟ هل ستُنسى؟ أم أنها ستؤخذ بعين الاعتبار لتحديد المصير النهائي لكل إنسان؟ هل سيُعاقَب من لايسددون ديونهم في أوانها؟ ومَن يدفعون مستحقاتهم في أوانها هل سيكون فوزهم بالجنة أسهل؟ هل سيُحكم على الذين لا يسددون ممن يصومون، برأفة أكثر من الذين يسددون ولا يصومون؟ تلك هي هموم تاجر حقاً، سيُقال لي! دون شك، دون شك. ولكن، لي الحقّ في طرح هذه الأسئلة، لأن المسألة تتعلق بمصيري. هل سأستحقّ بعض التسامح من قبل السماء لأني كنتُ طوال حياتي تاجراً شريفاً؟ هل سأخضع لحكم أقسى من حكم ذاك الآخر الذي غشّ زبائنه وشركاءه باستمرار، لكنه لم يشتهِ امرأةَ قريبه؟

ليسامحني الخالق إذا قلتُ الأشياء على النحو التالي: أندم على أخطائي، على عدم تبصُّري، ولكن ليس على خطيئاتي. لا يعذِّبني أني نِلتُ مارتا، بل أني فقدتُها.

كم ابتعدتُ عما كنتُ بصدد قوله! بدأتُ بالكلام عن ديْني، عندما قادنا تسلسلٌ في الأفكار إلى مارتا وإلى إحساسي الحارق جداً بالندم. النسيان نعمةٌ لن أحصل عليها، ولا أطلبها أساساً. أطلب إصلاح الخطأ، أفكر باستمرار بالانتقام الذي سأحصل عليه يوماً. أفكر وأفكر بالواقعة المؤسفة التي أدَّت إلى طردي من شيّو. أحاول أن أتخيل ماكان يجدر بي أن أفعله، وكيف كان يمكن أن أحبِط الحيل والخداع. ومثل أميرال بُعيد هزيمةٍ، لا أكفّ عن تغيير أماكن السفن والأساطيل والقوارب المسلَّحة، في رأسي، لكي أجد التوليفة التي كان يمكن أن تقودني إلى النصر.

اليوم لن أقول شيئاً آخر عن مشاريعي، لا شيء سوى أنها تتنفَّس بداخلي وتجعلني أحيا.

في نهاية فترة الصباح، حملتُ إذنَ الصَّرْف إلى ساحة بانشي حيث

وضعتُه لدى الأخوة باليانى الذين امتدحهم لي غريغوريو. فتحتُ حساباً ووضعتُ فيه المبلغ كله تقريباً، ولم آخذ سوى زهاء العشرين فلورينا قِطعاً، للقيام ببعض المشتريات وتوزيع البخشيش على خدم مضيفي، الذين يخدموني بطيب قلبٍ شديد.

أثناء عودتي راجلاً إلى البيت، انتابني شعور غريب بأني أبدأ حياةً جديدة، في بلد جديد، محاطاً بأناسٍ لم أرهم قط قبل هذه الأيام الأخيرة، وفي جيبي قطع نقدية جديدة، لكنها حياة بالدَّيْن أتصرف فيها بكل شيء دون أن أملك شيئاً.

9 نيسان

لم أكن أفهم لماذا لا تعيش أسرة غريغوريو معه. أن يمتلك قصرين أو ثلاثة أو أربعة، فهذا لا يدهشني كثيراً، لأنها عادة قديمة لدى أوفر الجنويين ثراءً. أما أن يعيش هكذا بعيداً عن زوجته، فهذا يثير حيرتي. لقد كشف لي للتو عن السبب، ليس دون تأتأة خجل رغم أنه ليس من الناس الذين يحمرّون من شيء تافه.

قال لي إن امرأته التي تُدعى أوريبتينا، والشديدة التديُّن، تبتعد عنه، كل عام، طوال فترة الصوم، خوفاً من أن تغويه نفسُه فينقض واجب العفة بجانبها.

مع ذلك أظن بأنه ينقضه، لأنه يعود أحياناً من بعض الزيارات النهارية أو الليلية، وفي نظراته بريقٌ لا يخيب. وهو أساساً لا يحاول إنكار الأمر. «التعفُّف لا يلائم طبعي، لكنّ الأفضل ألاّ تُرتَكَب الخطيئة تحت سقف هذا البيت المبارك».

لا أستطيع إلاّ أن أُعجَب بهذه الطريقة في التآلف مع صرامة الدين، أنا الذي أزعم أني أجهل التعاليم الدينية، لكني أتردد دوماً عند عتبة الانتهاكات الكبرى.

10 نيسان

نُقِلت لي اليوم أنباء مدهشة عن ساباتاي وإقامته في القسطنطينية. أنباء تشبه الخرافات، لكني من جهتي أصدّقها بكل طيب خاطر.

مصدري هو رجل دين من ليريتشي، أمضى هذين العامين الأخيرين في أحد أديرة غلاطة، وهو قريب مباشر لمضيفي الذي دعاه للعشاء ليعرّفني عليه ويُسمعني روايته. «الأخ إيجيديو المحترم جداً، الأكثر قدسيةً، الأكثر علماً...»، هبَّ غريغوريو قائلاً. التقيتُ بـ «أخوة» و«آباء» و«قساوسة» من جميع الأنواع، وكانوا أحياناً قديسين وأحياناً أخرى فاجرين، أحياناً آبارَ معرفة، وغالباً جُهلاء بلا قرار، وتعلّمتُ منذ زمن طويل بألاّ أجلَّهُم إلاّ بعد معاينة كل منهم على حدة. استمعتُ إلى هذا إذن، راقبتُهُ، سألتُهُ دون سابق حُكم، واستطاع في النهاية أن يوحي لي بالثقة. إنه لا يروي شيئاً لم يره بعينه، أو لم ينقله له شهودٌ موثوقون. في كانون الثاني الماضي، كان في القسطنطينية التي كان جميع سكانها في حالة هياج، ليس اليهود وحدهم، بل حتى الأتراك ومختلف المسيحيين، أجانب أو رعايا عثمانيين، ينتظرون جميعاً أكثر الأحداث عجباً.

يمكن تلخيص الرواية التي حكاها لنا الأخ إيجيديو كالتالي. عندما وصل ساباتاي إلى بحر مرمرة على متن القايق الذي يحمله إلى سميرنا، اعتقله الأتراك حتى قبل أن يدنو من الشاطئ، وتَكَدَّرَ أفرادُ طائفته الذين تجمَّعوا لكي يهتفوا له، لدى رؤيته مخفوراً من قبل ضابطين كأنه أحد الأشقياء. أما هو فلم يبدُ متأثِّراً أبداً، وراح يصرخ مطالباً الذين ينوحون بألا يراودهم أي خوف، لأنّ آذانهم ستسمع قريباً ما لم تسمعه قط.

أعادت هذه الكلمات الثقة لأولئك المرتعشين؛ نسوا ما تراه أعينهم لكي يتعلّقوا فقط بأملهم الذي بدا أكثر مخالفةً للصواب حين أراد الصدر الأعظمُ أن يهتمّ شخصياً بهذه القضية الخطيرة. كان قد أُخبِر بما يقال بين أتباع ساباتاي، بأن هذا جاء إلى القسطنطينية لكي يعلن نفسه ملكاً، وأن السلطان نفسه سيخرّ أمامه ساجداً. أُخبِر أيضاً بأن اليهود

كفُّوا عن العمل، وأنّ الصرّافين يعطِّلون كل الأيام، وأنّ تجارة الامبراطورية ستتعرض لخسارة جسيمة. لم يكن أحد يشكّ بأن الصدر الأعظم، في غياب مولاه في أندرينوبل، سيتّخذ أشد الإجراءات صرامة، وأنّ رأس المسيح المزعوم سيُفصل بسرعةٍ عن جسده ويُعرض فوق دكّة مرتفعة، كيلا يجازف أحدٌ بعد الآن بتحدّي الأسرة العثمانية المالكة، وتعود الأعمال إلى مجراها.

لكنّ ما حدث في سميرنا، حدث في القسطنطينية، وكنتُ شاهداً عليه. حين أُدخِل ساباتاي إلى حضرة الشخص الأقوى في الامبراطورية بعد السلطان، لم يُستَقبَل بالصفع ولا بالتوبيخ، ولابالتهديد بالعقاب. بل لقد أحسَنَ الصدرُ الأعظم استقباله، وطلب من الحراس أن يفكوا وثاقه، أجلسَهُ وتحدث إليه بصبر عن أشياء مختلفة، وأقسمَ بعض الأشخاص أنهم رأوهما يضحكان معاً ويسمي كل منهما الآخر «صديقي المحترم».

حين جاءت لحظة إصدار الحكم، لم يكن حكماً بالموت ولابالضرب بالسوط، بل حكماً خفيفاً إلى درجةٍ بدا معها تكريماً: ساباتاي محتَجَز الآن في قلعة يُسمح له فيها باستقبال أتباعه من الصباح إلى المساء، بالصلاة والغناء معهم، بتوجيه المواعظ والوصايا لهم، دون أن يَحول حراسُهُ دون ذلك بأي حال. الأغرب من ذلك أيضاً، قال الأخ إيجيديو، هو أنّ المسيح الدجال يطلب أحياناً من الجنود أن يأخذوه إلى شاطئ البحر لكي يمارس طقوس وضوئه، ويمتثلون له كما لو أنهم طوع أمره، فيقودونه إلى حيث يريد وينتظرون أن ينتهي لكي يعيدوه. بل إنّ الصدر الأعظم خصص له خمسين أسبراً تُدفع له كل يوم كيلا ينقصه شيء.

ماذا يمكن أن يُضاف؟ أليست هذه مأثرة كبيرة تتحدى القدرة على الإدراك؟ ألا يشكك الإنسان العاقل بحكاية مماثلة؟ أنا نفسي كنتُ سأنزل اللعنات على سذاجة البشر لو لم أشهد أحداثاً مشابهة في كانون الأول في سميرنا. صحيح أن الأمر يتعلق الآن بالصدر الأعظم وليس بقاضٍ من الولايات، وأنّ المأثرة أكثر بعداً عن التصديق. لكنها المأثرة نفسها ولا أستطيع أن أشكّ فيها.

هذا المساء، في سكون غرفتي، وبينما أنا أكتب في ضوء شمعدان، أفكر بميمون، وأتساءل كيف كان سيتصرف عند سماع هذه الرواية. هل سيحكم لأبيه بالصواب ويلتحق مثله بمن يسمون أنفسهم «المؤمنون» ويسمون اليهود الآخرين «الكفار»؟ لا، لا أظن. إنه رجل ينادي بالعقلانية، والمأثرة بالنسبة له لا تحل محل الحجة السديدة. لو كان بيننا هذا المساء، أتخيل أنه كان سيقلب شفتيه مثلما رأيتُه يفعل أكثر من مرة عندما تزعجه المحادثةُ المحيطة به.

أتمنى بكل كياني أن يكون هو المحِقّ، وأنا المخطئ! عسى أن تكون كل هذه المآثر كاذبةً! عسى أن تكون كل هذه الإشارات خادعة! عسى أن يكون هذا العام مثل غيره من الأعوام، ليس نهايةً للأزمنة المنصرمة، ولا بدايةً لأزمنةٍ مجهولة! عسى السماء لا توقِع ذوي العقل السليم في الخزي! عساها تَنصُر العقل على الخرافة!

أفكر أحياناً برأي الخالق بكل ما يقوله البشر. أود كثيراً أن أعرف إلى أي جانب يرجح عطفه. إلى جانب من يتنبؤون بنهاية فجائية للعالم، أم إلى جانب من يتنبؤون له بمسيرة أطول؟ إلى جانب من يعتمدون على العقل، أم إلى جانب من يحتقرون العقل ويحطون من قدره؟

قبل أن أغلق هذا الدفتر، يجب أن أشير تحت تاريخ هذا اليوم، بأنني أعطيتُ الرسالتين اللتين كتبتُهُما للأخ إيجيديو. سيرحل إلى الشرق قريباً وقد وعد بإيصالهما إلى العنوان المقصود، إذا لم يكن بيديه بالذات، فعلى الأقل بوساطة قسيس آخر.

11 نيسان

هل يفكر مضيفي إذن بتزويجي من ابنته؟

إنها ابنته البكر، لها من العمر ثلاثة عشر عاماً، وتسمى جياكومينيتا. بينما كنا نتنزه هذا المساء في حديقته، كلّمني عنها قائلاً

بأنها رائعة الجمال وأنّ روحها أشدّ بياضاً من وجهها. وأضاف فجأةً بأنني إذا أردتُ طلب يدها فالأفضل ألاّ أنتظر كثيراً، لأن الطلبات سرعان ما ستنهمر. راح يضحك بقوة، لكني أستطيع التمييز بين ما هو مزاح وما ليس كذلك. أنا متأكد بأنه فكر ملياً بالأمر، وأنه رسم المخطط في رأسه. لستُ طالب الزواج الشاب والجميل الذي تحلم به الشابات، وثروتي لا تُقاس بثروته. لكني أدعى أمبرياتشو، ولا أشكّ بأنه سيكون في غاية السرور إذا منح ابنته لقباً كهذا. بل أفترض أن هذا سيكون له ذروة صعودٍ شاقّ.

أنا أيضاً لا يمكن لهذه المصاهرة إلا أن تروق لي لو لم يكن هناك مارتا والطفل الذي تحمله!

لذا سأمتنع عن الزواج إخلاصاً لامرأةٍ أبعدتني الحياةُ عنها، ومازال أمام الله والناس زوجة رجل آخر؟

أعرف أنّ موقفي يبدو لاعقلانياً حين أقدِّمه بهذا الشكل. لكني أعرف أيضاً أنّ هذه هي رغبة قلبي، وأنّ من غير المعقول أن أتصرف خلافاً لرغبته.

12 نيسان

بدا غريغوريو طوال النهار مغتمّاً مرهَقاً، قليل الثرثرة على غير عادته، إلى درجة أني خفتُ أن أكون قد أهنته بالطريقة قليلة الحماس التي أجبتُه بها البارحة عندما كلّمني عن ابنته. ولكنْ، لم يكن هذا هو الأمر. كان يقلقه شيء آخر تماماً، شائعات قادمة من مرسيليا تقول بأن معركة هائلة توشك أن تقع بين الأسطولين الفرنسي والهولندي من جهة، والأسطول الإنكليزي من جهة أخرى.

علمتُ لدى وصولي إلى جنوة أن ملك فرنسا أعلن في كانون الثاني الحرب على إنكلترا، وأنه فعل ذلك على مضض، تنفيذاً لبنود اتفاق. ولا أحد هنا يصدّق بأن الأمور ستمضي حتى المواجهة. الدلالات

اليوم مختلفة، ثمة كلام عن حرب حقيقية، عن عشرات السفن الكبيرة تتجه صوب بحر الشمال حاملةً آلاف الجنود، ولا أحد أشدّ قلقاً من غريغوريو. يفكر بأن لديه سبعة أو ثمانية مراكب في أنحاء البحر، بعضها تجاوز لشبونة وفي طريقه إلى بريج وأنفير وأمستردام ولندن، وربما تُفَتَّش كلها أو تُدمَّر. كشف لي ذلك عند المساء، ورأيتُه يخربش على ورقة بعض التواريخ والأسماء والأرقام، مُنْهدّاً بخلاف ما يكون عليه في ظروفٍ أخرى من فرط الحيوية.

سألني في لحظةٍ من المساء، دون أن يرفع عينيه:

«هل تعتقد أنّ السماء تعاقبني لأني لا أتقيد بالصوم؟»

«تعني أنّ ملك فرنسا وجّه أسطوله ضد انكلترا لأن السنيور غريغوريو منجيافاتشا لم ينقطع عن أكل الدسم أثناء فترة الصوم؟ أنا مقتنع بأن أعظم المؤرخين سيعكفون غداً على هذه المسألة الخطيرة».

بقي مذهولاً لحظة، ثم انفجر في ضحكة طويلة.

«أنتم، آل أمبرياتشي، لم تكونوا قط شديدي التديُن، لكن السماء لاتتخلى عنكم!»

انفرجت أسارير مضيفي لكنه لم يشعر بالعزاء قط. لأن ضياع سفنه وحمولتها، إذا حدث، يعني أنّ حُسن طالعه قد هجره.

13 نيسان

اختلطت الشائعات بالأنباء، أصوات الحرب اختلطت بجلبة نهاية العالم المنتظرة. جنوة منهمكة وخامدة بلا فرح كما في أيام الطاعون. الربيع على أبواب المدينة، ينتظر انقضاء فترة الصوم. الأزهار ما تزال نادرة والليالي دبِقة والضحكات مخنوقة. هل ما أتأمّله في مرآة العالم هو قلقي الخاص؟ أم أنّ قلقَ العالم هو الذي ينعكس في عينيّ؟

كلّمني غريغوريو ثانيةً عن ابنته، لكي يقول بأنّ الرجل الذي

سيتزوجها سيكون أكثر من صهرٍ بالنسبة له، سيكون ابناً. الابن الذي لم تعطه إياه السماء. هذا الابن، لو أنه حصل عليه، لن يمتاز على شقيقاته أصلاً، إلا بالعضلات والتهوُّر. لأنّ جياكومينيتا لا تجعله يأسف على شيء من ناحية الذكاء الناهي والشجاعة الرزينة، فضلاً عن حنان البنت والتقوى بطبيعة الحال. لقد قنِعَ، بعد كل حساب، بتوقف العناية الإلهية، شريطة أن يعوِّض غيابُ الابن في اليوم الذي تتزوج فيه بناته.

استمعتُ إليه مثلما يستمع إليه صديق، مُدخِلاً عند كل صمت، عبارات التمني بالتوفيق، دون أن أقول شيئاً يُلزِمني، وأيضاً دون أن أقول شيئاً يدلُّ على التردد أو الحيرة. إذا لم يحاول معرفة المزيد عن حالي، فإني لا أشكّ بأنه سيعيد الكرّة مرة بعد مرة.

هل يجب أن أفكر بالهرب؟

أعرف أنني أطرح السؤال بطريقة فظة وجاحدة. هذا الرجل هو من أحسَنَ إليَّ، من ظهرَ في حياتي في أسوأ المحن، لكي يجعلها ألطف، لكي يحوّل الذلَّ إلى بسالة والنفيَ إلى عودة. مهما كان إيماني قليلاً بعلائم العناية الإلهية، فإنّ غريغوريو واحد منها. وضعته السماء في طريقي لتخلصني من بين مخالب العالم، وأولاً من شططي أنا بالذات. نعم، هذا هو ما باشرَ به، وهذا هو ما ألومه عليه. أراد أن يبعدني عن طريقٍ بلا منفذ، عن مطاردةٍ بلا هدف. إجمالاً، يعرض عليَّ أن أطوي حياتي التالفة وأعتمد حياةً أخرى. منزل جديد، زوجة بيضاء القلب، بلد مستعاد لن أعود فيه الغريب الكافر بعد الآن... إنه أعقل وأكرم عرضٍ يمكن أن يُقدَّم لرجل. يجدر بي أن أسرع إلى أقرب كنيسة لكي أركعَ وأشكر. ولكي أهمس لأبي الذي ليست روحه بعيدة أبداً، بأنني أخيراً سأتزوج من فتاة جنوية كما طلب مني دوماً. بدلاً من ذلك، أُعاند وأعتَبر نفسي مدفوعاً، وأزعم أني محيَّر، وأفكر بالهرب. وإلى أين أذهب؟ أذهب إلى رجل شرير كي أنافسه على زوجته الشرعية؟

لكني لا أحب سواها!

لتغفر لي السماء وليغفر لي غريغوريو وأبي، لا أحب سواها!

مارتا... في هذه اللحظة أريد أن أتمدد بجانبها هي، أضمها أواسيها وأداعب البطن الذي يحمل ابني، ببطء.

15 نيسان

مضيفي يصبح أشدّ إلحاحاً يوماً عن يوم، والآن بدأت هذه الإقامة عنده، التي بدأت بأحسن طالع، تثقل عليّ.

اليوم كانت أنباء الشمال سيئة، وراح غريغوريو ينوح. روي له بأن الإنكليز فتّشوا مراكب تتجه إلى موانئ هولندة أو تغادرها، وأنّ الهولنديين بدورهم، وكذلك الفرنسيين، فتشوا جميع السفن التي ترتاد موانئ إنكلترا. «إذا كان هذا كله صحيحاً، فإن ثروتي بكاملها ستُلتَهَم. ما كان يجب أن أدخل في كل هذه المشاريع معاً. لن أسامح نفسي على ذلك أبداً، فقد تلقيت تحذيراً من أخطار الحرب ولم أشأ أن أسمع شيئاً!»

قلتُ له بأنه إذا أخذ يبكي على مجرد شائعات، فلن يجد ما يكفي من الدموع إذا وقعت الأنباء السيئة حقاً. إنها طريقتي في تقديم العزاء، وانتزعَتْ منه ابتسامةً مقتضبة وملاحظةً ودودةً ومعجَبة بالطبع الهادئ لآل أمبرياتشي.

لكنه سرعان ما عاد إلى نواحه. «إذا أفلستُ، أفلستُ تماماً، هل ستعدِل عن طلب يد جياكومينيتا؟»

هكذا، إنه يغالي كثيراً. لا أعرف إذا كان القلق هو الذي يضِلُّه، أم أنه يستفيد من مأساته لكي ينتزع مني وعداً. على أية حال كان يتكلم كما لو أن زواجي من ابنته شيء مقرر بيننا، إلى درجة أن كل تردد أظهِره سيُنسَب إلى العدول، وفي أسوأ اللحظات، كما لو أنني أهجر السفينة خشية الغرق. كنتُ شديد الاستياء. نعم، بيني وبين نفسي، كنتُ أغلي. ولكن ما العمل؟ أقيم تحت سقفه، وأنا مدين له بأكثر من طريقة، وهو يجتاز محنة، فكيف يمكنني أن أهينه؟ فوق ذلك، إنه لا يطلب مني معروفاً، بل يقدم لي هدية، أو هذا ما يظنه، والحماس القليل الذي أظهرته حتى الآن، هو شبه شتيمة.

أجبتُ بطريقة يمكن أن تعزّيه قليلاً دون أن تحرجني: «أنا متأكد بأن أنباءً مطمئنة ستصل خلال ثلاثة أيام لتبديد كل هذه الغيوم».

فسَّر كلامي على أنه تملُّص، ورأى من المناسب، وهو يتنهَّد بمنخريه الأصهبين، أن يقول هذه الفكرة التي بدت لي نابِيةً: «أتساءل كم صديقاً سيبقى لي إذا أفلست...»».

عندها أجبتُ، متنهِّداً أنا أيضاً: «تريدني أن أصلي للسماء لكي تمنحني الفرصة لأبرهن لك عن امتناني؟»

لم يفكر سوى برهة.

«يمكنك الاستغناء عن ذلك»، قال بسعلة اعتذار خفيفة.

ثم أخذني من ذراعي وقادني نحو الحديقة حيث بدأنا من جديد نتحدث كأصدقاء.

لكن استيائي لم يهدأ، وقلت لنفسي بأن الوقت قد حان للتفكير بالرحيل. ولكن إلى أية وجهة؟ إلى سميرنا؟ في حال ما زال ابنا أختي هناك؟ لا، بالأحرى إلى جبيل. لكنّ الفرق أنه في سميرنا، وبمساعدة كاتب المحكمة عبد اللطيف ربما أستطيع القيام بشيء من أجل مارتا. أفكر أحياناً بالأمر وثمة أفكار تخطر لي...

لا شكَ أني أهدهد نفسي بالأوهام. أعرف في قرارة نفسي أن الوقت متأخر جداً لإنقاذها. ولكن أليس الوقت أيضاً مبكراً جداً للاستسلام؟

17 نيسان

استعلمتُ هذا الصباح عن المراكب المسافرة إلى سميرنا. وجدت واحداً يرفع المراسي خلال عشرة أيام، في الثلاثاء الذي يلي الفصح. التاريخ يلائمني. هكذا أستطيع أن ألتقي لمدة قصيرة بزوجة غريغوريو وبناته دون أن أمكث طويلاً بين أفراد أسرةٍ التمَّ شملها.

لم أقل لمضيفي شيئاً بعد. سأفعل غداً أو بعد غد. لا شيء يدعو للعجلة، لكنّ من الفظاظة أن أنتظر حتى عشية «فراري»...

18 نيسان

في يوم الشعانين هذا، بينما يجري احتفال بنهاية الصوم القريبة دون اعتراف بذلك، بدا مضيفي أكثر اطمئناناً بقليل على مصير مراكبه وحمولاتها. ليس الأمر أنه تلقى أنباء طازجة، بل لقد استيقظ بمزاج أفضل.

الفرصة مناسبة، وانتهزتُها. قبل أن أعلن له عن رحيلي، قصصتُ عليه بالتفصيل ظروف رحلتي التي تكتَّمتُ عليها حتى هذا الوقت، أو حرَّفتُها. يجب القول بأنّ ماوقع لي لا يمكن كشفه إلاّ لأقرب المقرَّبين. ولكن يجب القول أيضاً بأننا كلما اجتمعنا معاً، يستولي على الحديث ولايفلته قط. الآن أعرف كل شيء عنه وعن أجداده وأجدادي أيضاً، عن زوجته وبناته، وعن أشغاله؛ أحياناً يثرثر بمرَح، وأحياناً أخرى بكرب، لكنه لا يصمت أبداً، إلى درجة أنه عندما يطرح عليّ سؤالاً، بالكاد تتاح لي الفرصة للبدء بجملتي، حتى يمسك بناصية الكلام مجدداً ولا يفلتها أبداً. لم أكن أنافسه عليها أصلاً، فضلاً عن أن أتذمر من الأمر. لم أكن ثرثاراً قط، ولطالما فضَّلتُ الاستماع والتفكير، أو بالأحرى التظاهر به. لأنني كثيراً ما أستغرق في الأحلام أكثر مما أفكر.

اليوم قلبتُ عاداتي وعاداته. رفضتُ بألف حيلة أن أسمح له بمقاطعتي، وحكيتُ له كل شيء، أو على الأقل كل شيء من الأساسيّ وجزء من غير الأساسي. كتاب *الاسم المئة*، فارس مارمونتيل وغرقه، ابنا أختي وعيوبهما، مارتا الأرملة والتي ليست أرملة، الطفل الذي تنتظره ـ نعم، كان يجب أن أتكلم حتى عن هذا ـ وكذلك مغامراتي الباهتة في الأناضول وقسطنطينية وفي البحر وسميرنا ثم في شيّو، حتى تبكيت الضمير الذي أنا فيه حالياً وبقايا أملي.

كلما تقدمتُ أكثر في روايتي، بدا ضيفي متثقَلاً أكثر، دون أن

أعرف حقاً هل مصائبي هي التي تؤثِّر فيه أم نتائجها على مشاريعه، لأنه لم يكن مخدوعاً في هذه النقطة. لم أكن قد قلت له بعد بأني أعتزم الرحيل، فقط شرحتُ الأسباب التي تجعلني غير قادر على الزواج من ابنته أو على البقاء في جنوة إلى الأبد، حين سألني مقتَضباً لمرة واحدة:

«متى تغادرنا؟»

دون غضب واضح ولا فظاظة، لا، لم يكن يطردني. لو راودني أدنى شك بذلك لغادرتُ بيته تلك الدقيقة. لا، كان سؤاله مجرد ملاحظة حزينة ومُرة ومُغتمَّة.

همستُ بجوابي الغائم، «خلال بضعة أيام» وأردت الاستطراد إلى التعبير عن شكري وامتناني والدين الذي أدين به له. لكنه طبطب على كتفي ومضى يتسكع بمفرده في حديقة بيته.

هل أنا مرتاح أكثر مما أنا خجِل؟ هل أنا خجل أكثر مما أنا مرتاح؟

19 نيسان

طلع النهار ولم يغمض لي جفن. ورحتُ طوال الليل أهمهم بأفكارٍ لا جدوى منها أضنتني دون أن تتقدم بي في شيءٍ: كان يجب أن أقول له هذا بدلاً من ذاك أو ذاك بدلاً من هذا؛ فضلاً عن خجلي من كوني جرحتُه. لقد نسيتُ إلحاحه ومناوراته الفظّة كيلا أفكر إلاّ بتأنيبِ ضميري.

هل خنتُ ثقته بالفعل؟ ورغم أني لم أعده بشيء فقد عرف كيف يقنعني بأني كنتُ جاحداً معه.

أفكر كثيراً ببردة فعل غريغوريو، بالذكرى التي سيحتفظ بها لي، إلى درجة أني أنسى أن أطرح على نفسي الأسئلة الوحيدة الهامة: هل اتخذتُ القرار المناسب؟ هل أنا محقّ بالرحيل بدلاً من قبول الحياة الجديدة التي يقدمها لي؟ ماذا سأفعل في سميرنا؟ أيَّ سرابٍ سأطارد؟

كيف يمكنني الاعتقاد بأني أستطيع استعادة مارتا واستعادة ابني؟ إذا لم أكن أعدو نحو الهاوية، فإنني أعدو إلى أسفل الجرف الصخري حيث تتوقف طريقي.

اليوم أتعذَّب لأني أهنتُ مضيفي، وسأبكي غداً لأني لم أطِعه.

20 نيسان

أنا مصاب بِسُعار البوح، مثل صبيَّة يافعة تعيش أولى قصص غرامها. أنا الذي أميل للسكوت عادةً والمشهور بصفة الرجل الصموت الذي يتكلم باقتصاد ولا أسرُّ إلاّ لهذه الصفحات، رويتُ قصة حياتي مرتين، يوم الأحد لمضيفي لكي أبرر موقفي في نظره، واليوم لشخصٍ مجهول تماماً.

استيقظتُ هذا الصباح وفي رأسي فكرة ثابتة: أن أقدم لغريغوريو هديةً فخمة تُنسيه مراراتنا وتتيح لنا الافتراق كصديقين. لم تكن لدي فكرة محددة، لكني عاينتُ محل طرائف هائل في حارة مجاورة للميناء عاهدتُ نفسي بزيارته كـ «زميل»، وكنتُ مقتنعاً بأني سأجد فيه الشيء المناسب ـ ربما تمثال قديم كبير وجميل يأخذ مكاناً في حديقة بيت منجيافاتشا ويظلّ إلى الأبد يذكّر بمروري فيه.

على الفور بدا لي المحل أليفاً. ترتيب البضاعة فيه قريب لما هو في محلي: الكتب القديمة ممددة فوق الرفوف؛ الطيور المحنَّطة في الأعلى؛ وعلى الأرض في الزوايا آنية كبيرة مثلومة لا نسلِّم بالإلقاء بها ونحتفظ بها عاماً بعد العام ونحن نعلم أن أحداً لن يشتريها... صاحب المكان يشبهني أيضاً، فهو جنويّ في حوالى الأربعين من العمر، أجرد، وأميل إلى البدانة.

قدَّمتُ نفسي وكان اللقاء من أحرّ اللقاءات. سبق أن سمع عني ـ ليس عن آل أمبرياتشي فقط، بل عني بصورة خاصة، لأن بعض زبائنه مروا في جبيل. وقبل حتى أن أقول عما أبحث عنه، دعاني للجلوس في ساحة صغيرة ظليلة وباردة، طلب من خادمة إحضار مشروبات مثلّجة،

وجاء للجلوس مقابلي. قال لي بأن أهله أيضاً عاشوا طويلاً في مدنٍ مختلفة ما وراء البحر. لكنهم عادوا إلى الوطن منذ سبعين عاماً. وهو نفسه لم يغادر جنوة أبداً.

حين رويت له بأني مررت مؤخراً بحلب وقسطنطينية وسميرنا وشيو، اغرورقت عيناه بالدموع. قال بأنه يحسدني على أني ذهبتُ «إلى كل مكان»، في حين يحلم هو كل يوم بأبعد الأماكن دون أن تكون لديه الشجاعة أبداً لكي يغامر.

«أذهب مرتين في اليوم إلى الميناء، أراقب السفن التي تسافر أو التي تصل، أتكلم مع البحارة، مع أصحاب السفن، أذهب لتناول المشروبات معهم في الحانات لكي أسمعهم يلفظون أسماء المدن التي توقَّفوا فيها. الجميع يعرفني الآن، ولا بد أنهم يتهامسون من وراء ظهري بأني مجنون. صحيح أني أنتشي لسماع الأسماء الأجنبية، لكن لم يكن لدي أبداً ما يكفي من الحكمة لكي أسافر».

«تقصد من الجنون!»

«لا، قلت تماماً من الحكمة. لأننا كثيراً ما ننسى جرعة الجنون بين المكوِّنات التي تدخل في تركيب الحكمة الحقيقية».

دمعت عيناه وهو يتكلم فقلت له:

«تودّ لو أنك في مكاني، وأنا أودّ لو أني في مكانك».

قلتُ ذلك للتخفيف من شعوره بالندم، لكني - وأُقسِم بكلّ القديسين! - هذا ما كنتُ أفكر به وما أزال. أتمنى، في هذه اللحظة، لو أني جالس في محلي، أحمل كأس مشروب بارد في يدي، ولم أفكر قط بالقيام بهذه الرحلة، ولم ألتق بالمرأة التي صَنعتْ مصيبتَها وصَنعَتْ مصيبتي، ولم أسمع بكتاب *الاسم المئة*.

«لماذا؟» سألني لكي يدفعني للكلام عن أسفاري. ورحتُ أتكلم. عمّا دفعني إلى الطرقات، عن فرحاتي القصيرة، عن مغامراتي السيئة، عن ندمي. أغفلتُ فقط ذِكر خلافي مع غريغوري مكتفياً بالقول بأنه استقبلني بكرمٍ عند وصولي، وأنني أريد قبل مغادرته، أن أعبر عن امتناني لكرمهً بهدية لائقة...

عند هذه النقطة من حديثنا، كان يفترض بزميلي ـ لم أقل بعد بأنه يدعى ملكيون بالدي ـ كتاجرٍ جيد، أن يحثني على الحديث عن الهدية التي أفكر بها. لكنّ حديثنا كان يروق له على ما يبدو، لأنه عاد إلى موضوع أسفاري لكي يطرح عليّ عدة أسئلة عما رأيتُه في هذا المكان أو ذاك، ثم سألني عن كتاب المازندراني الذي لم يسمع عنه قط. وبعد أن تركني أشرح له طويلاً، سألني إلى أين أنوي الذهاب الآن.

«لا أعرف بعد إذا كان عليّ العودة مباشرةً إلى جبيل أو التوقف في سميرنا أولاً».

«ألم تقل لي بأن الكتاب الذي دفعك للقيام بهذه الرحلة موجود الآن في لندن؟»

«أهذا سبب لكي ألحق به إلى هناك؟»

«لا! بأي حقٍ أنصحك أنا المنغرِسُ الساقين في الأرض، بالقيام برحلة مماثلة؟ لكنك إذا قررتَ يوماً أن تذهب إلى هناك، مرَّ بي لدى عودتك لكي تروي لي ما قد تراه هناك!»

نهضنا بعد ذلك لكي نذهب إلى باحة أخرى في الجانب الآخر من المحل، ونرى بعض التماثيل الصغيرة القديمة أو الحديثة. بدا لي أحدها مناسباً لحديقة مضيفي. وهو تمثال لباخوس، أو ربما لامبراطورٍ أثناء وليمة، في يده قدح، ومحاط بكل فاكهة الأرض. سآخذه إذاً لم أجد ما يعجبني أكثر.

كنت أمشي بخفةٍ وأنا عائد سيراً على قدمي إلى بيت غريغوريو، وعاهدتُ نفسي أن أمرّ ثانيةً بهذا الزميل الشديد الحفاوة. على أية حال سوف يتوجب عليّ العودة لأجل التمثال.

هل أقدِّمه كما هو أم أضعه على قاعدة؟ يجب أن أسأل بالدي الذي لا بدَّ أنه يعرف طريقة تقديم هذه الأشياء.

21 نيسان

أخذ مني غريغوريو وعداً بألا أرحل من بيته دون أن أخبره بذلك قبل عدة أيام. أردتُ معرفة السبب لكنه أبدى تكتُّماً.

سألني بعدها إذا كنت قد آثرتُ وجهةً معينة. أجبتُه بأني ما زلتُ متردداً بين جبيل وسميرنا، وأني أسأل نفسي لماذا لا أذهب إلى لندن.

بدا متفاجئاً من هذه النزوة الجديدة، لكنه بعد بضع دقائق عاد ليقول لي بأنها قد لا تكون فكرة سيئة. أجبت بأنها فكرة من بين جملة أفكار، وأني لم أتخذ قراري بعد. ردّ بأن عليّ بالدرجة الأولى ألاّ أستعجل، وأنه هو نفسه سيكون أسعد رجل في العالم إذا طال ترددي فامتدّ حتى «عيد الميلاد».

غريغوريو الشهم، أعتقد تماماً بأنه فكر بكل كلمة قالها لي.

أعتقد أيضاً بأنني حين أرحل من بيته، سأتحسَّر على هذه الفترة الهادئة. لكنني يجب أن أرحل، وقبل عيد الميلاد.

22 نيسان

وصلت امرأةُ غريغوريو وبناته الثلاث اليوم، بعد زيارة ثلاث كنائس في طريقهن كما تقتضي تقاليد «خميس الأسرار». السيدة أوييتينا نحيلة ويابسة وترتدي ملابس كليَّة السواد. لا أدري هل هي كذلك بمناسبة الصيام، لكن يبدو أن السنة بطولها صيامٌ بالنسبة لها.

كان يجب ألاّ تعود قبل السبت، عشية عيد الفصح، لكنها اختارت أن تتحدى شَبَقَ زوجِها قبل يومين من العيد. لو كنتُ أنا زوجها، لما كان عليها أن تخشى من احتدامي لا في وقت الصيام ولا فيما تبقّى من الوقت.

لماذا أتكلم عنها بهذه الضراوة؟ لأنها منذ اللحظة الأولى لوصولها، وفي الوقت الذي انضممتُ فيه إلى أهل البيت للترحيب بعودتها، ألقت عليّ نظرةً تعني أني لستُ على الرحب والسعة في بيتها، بل وأنني لم يكن ينبغي أن أتخطى عتبته.

هل اعتبَرَتْني رفيقَ غريغوريو في الفسق؟ أم أنها بالعكس، علمتْ بمشاريع هذا الأخير بشأني وشأن ابنتهما، وتريد إظهار معارضتها لمبادرة من هذا النوع، أو بالعكس إظهار غيظها من ردة فعلي غير

المعنيَّة كثيراً؟ على أية حال، منذ لحظة وصولها شعرتُ أني غريب في هذا البيتِ، وفكرت حتى بالرحيل في الحال، لكني تمالكتُ نفسي. لم أشأ أن أُلحق إهانةً بمن استقبلني مثل أخ. تظاهرتُ بالاعتقاد بأن زوجته تصرفتْ بتلك الطريقة بسبب التعب والصيام والآلام التي كابدَها سيدنا المسيح في هذا الأسبوع، والتي تمنع من فيض الفرح. لكني لن أمكث هنا بعد هذا. لم أبقَ على العشاء هذا المساء متذرِّعاً بزيارة أحد الزملاء.

أما جياكومينيتا التي طالما امتدحها لي أبوها، فلم أرها تقريباً. لقد أسرعت إلى غرفتها دون أن تحيي أحداً، أظن أن أمها خبَّأتْها عمداً.

آن الأوان، آن الأوان جداً لكي أذهب في سبيلي.

أُمضي أعسر ليلةٍ في حين أني لا أعاني من شيء. بل أعاني من كوني لم أعد مرَحَّباً بي في هذا البيت. يجافيني النوم، كما لو أنّي أسرق نومي ذاتَه أو أتسوَّله من مضيفي. فخلال الليل، ازدادت البرطمة التي ارتسمت على وجه زوجة غريغوريو، ضخامةً وبشاعة. لم أعد أستطيع البقاء هنا، حتى عيد الميلاد ولا حتى عيد الفصح الذي لا يبعد أكثر من يومين. ولا حتى الصباح. سأترك كلمة مهذَّبة وأمضي على رؤوس أصابعي. سأنام في نزل قرب الميناء، وحالما تتوافر سفينة سأبحر.

إلى الشرق أم إلى لندن؟ ما يزال لدي التردد نفسه. هل أسعى لأجد الكتاب أولاً؟ أم أنساه وأحاول بالأحرى إنقاذ مارتا ـ ولكن بأية وسيلة؟ أم أنسى كل حماقاتي وأعود إلى جوار أهلي في جبيل؟ أتردد أكثر من أي وقتٍ مضى.

23 نيسان، الجمعة العظيمة

أنا في غرفتي الجديدة من نزلٍ يدعى *صليب مالطا*. من نافذتي

أرى حوض الميناء، عشرات الزوارق مَطْويَّةِ الأشرعة. ربما كان المركب الذي سيحملني أمام ناظري. ما أزال في جنوة، لكني غادرتُها. لاشك أن هذا ما يجعلني أشتاق إليها منذ الآن، وأشعر بحنين المهاجر.

نفَّذتُ تهديدي إذن وهربتُ من بيت غريغوريو، رغم ما ظهر في طريقي في آخر لحظة على نحوٍ طارئ. منذ الصباح، منذ الصباح الباكر جداً، جمعتُ أمتعتي القليلة، تركتُ ملاحظة قصيرة تعبر عن شكري له على ضيافته، ملاحظة أقصيتُ منها كل سوء تفاهم سيء النية، أو حتى ملتبَس، لم أسجِّل سوى الشكر وكلمات الامتنان والصداقة. حتى دون وعدٍ بإعادة الثلاث مئة ليرة التي أدينِ له بها، مما كان سيسيء إليه. وضعتُ الرسالة في مكان واضح تماماً لأهل البيت وفوقها ثقل ما؛ أعدتُ ترتيب الغرفة كما لو أني لم أُقِم فيها قط وخرجت.

كان النهار قد بدأ يضيء في الخارج، لكن البيت بقي معتماً وصامتاً. إذا كان الخدم مستيقظين فقد كانوا يتجنبون إصدار ضجة. الغرفة التي أنام فيها تقع في الطابق الأول، أعلى سلم خشبي وعدتُ نفسي أن أنزله بحذر خوفاً من صريره العالي.

كنتُ ما أزال فوق الدرجة العليا ممسكاً بالدرابزين جيداً كيلا أتعثَّر في الظلمة، حين ظهر ضوء. شابة لا أدري من أين خرجتْ، لايمكن أن تكون سوى جياكومينيتا. كانت تحمل شمعداناً ذا فرعين، أضاء فجأةً درجات السلم كما أضاء وجهها. كانت تبتسم، ابتسامةً لاهية ومتواطئة. لم تكن العودة إلى الوراء واردة، فقد رأتني، وكنت أحمل حقيبتي. لم يكن أمامي من خيار سوى متابعة طريقي مبتسماً مثلها وغامزاً بعيني كأني أقاسمُها سري. بدت متألقة بقدر ما كانت أمها كامدة، ولم أستطع سوى أن أتساءل إذا كانت الفتاة مختلفة بالطبيعة، كونها أخذت المرح عن والدها، أم أن العمر وحده هو الذي يفسّر سلوك كل منهما.

حين وصلتُ إلى الأسفل، حييتُها برأسي ببساطة، دون كلمة، ثم اتجهتُ نحو الباب الذي فتحتُه ثم أغلقته خلفي بهدوء. تبعتني بالضوء لكنها لم تقل شيئاً ولم تسأل شيئاً ولم تحاول استبقائي. اجتزتُ

الممشى حتى الحاجز الذي فتحه لي الجنائنيّ. دسستُ قطعة نقدية في يده وابتعدت.

وخوفاً من أن يحاول غريغوريو، وقد أخطرَتْهُ ابنتُه، الإمساك بي، سلكتُ أكثر الحارات إظلاماً مسرعاً في السير إلى الأمام مباشرةً حتى الميناء، حتى النزل المذكور الذي لاحظتُ اللافتةَ المشيرةَ إلى اسمه الأسبوع الماضي.

سأُنزِل الستائر بعد أن كتبت هذه السطور، أنزع حذائي وأتمدد فوق هذا السرير. سينفعني النوم ولو لدقائق، أكبر النفع. تنتشر هنا رائحة الخزامى، وتبدو الأغطية نظيفة.

كان الوقت ظهراً وقد نمتُ ساعتين أو ثلاثاً عندما سمعتُ جلبةً لعينة. إنه غريغوريو يطرق الباب. قال لي بأنه تحرّى جميع نزُل جنوة لكي يجدني. كان يبكي. لقد خنتُهُ وطعنتُهُ وأهنتُه حسب كلامه. فمنذ ثلاثة وثلاثين جيلاً وآل منجيافاتشا ملتحمون مع آل أمبرياتشي التحام اليد إلى الذراع، وفي لحظة هياج قطعتُ الأعصابَ والأوردةَ والعظام بضربة خاطفة. قلتُ له أن يهدأ ويجلس، وأنه ليس هناك من خيانة ولابتر ولا شيء من هذا القبيل، ولا حتى مرارة. امتنعتُ أول الأمر عن كشف مشاعري الحقيقية له، لأن الإنسان يجب أن يكون جديراً بمعرفة الحقيقة، وهو بتصرفه على ذلك النحو، لم يكن جديراً بها. لذا ادَّعيتُ بأني أردتُ أن أتركه مع أسرته التي التمَّ شملها، وأني رحلتُ بأفضل ذكرى ممكنة. قال لي بأن هذا غير صحيح، وأنّ برود زوجته هو الذي دفعني للرحيل. سئمتُ من الإنكار فاعترفتُ بأن ذلك صحيح، وأنّ سلوك زوجته لم يشجعني على البقاء. عندها، جلس على السرير وبكى كما لم أر رجلاً يبكي قط.

«إنها هكذا مع جميع أصدقائي، قال في النهاية، لكنّ هذا ليس أكثر من مظهر. وعندما تتعرف عليها أكثر...».

ألحَّ عليّ مراراً لكي أعود. لكني بقيتُ ثابتاً على موقفي. لم أتخيل نفسي أن أعود خجِلاً مرتبِكاً إلى حضن الأسرة بعد رحيل بهذا الشكل،

هذا سيقلّل من اعتباري في نظر الجميع. وعَدتُ فقط بالذهاب لتناول وجبة الفصح على مائدتهم، وتلك تسوية مشرِّفة.

24 نيسان، سبت النور

مررتُ اليوم بمحل ملكيون بالدي للتأكيد على انتقائي لتمثال باخوس وسؤاله إذا كان يستطيع تسليمه في بيت غريغوريو. دعاني للجلوس، لكنّ شخصية مرموقة كانت في محله ـ سيدة من آل فييتشي كما أظن ـ مع حاشيتها كثيرة العدد؛ لذا فضّلتُ الاختفاء واعداً بالعودة في وقت آخر، تاركاً لزميلي اسم النزل الذي أقيم فيه، والواقع على بعد خطوتين من محله، في حال أراد زيارتي.

تمنيتُ أن تصل الهدية لمضيفيّ غداً في نهاية فترة العصر، لتكون بمثابة شكر بعد وجبة العيد التي سأتناولها بصحبتهم. لكنّ بالدي لم يكن متأكداً من العثور على أشخاص يسلمونها يوم أحد الفصح، ورجاني أن أنتظر حتى الاثنين.

25 نيسان، يوم عيد الفصح

أوقعَني ملكيون بالدي اليوم في الخجل والحرج ظانّاً بأنه يستَبِقُ رغباتي.

ألم أقل له بأن يحمل التمثال لمضيفيّ يوم الأحد في نهاية العصر؟ كنتُ بهذا أرجو أن يتلقُّوا الهدية التي أعبِّر بها عن امتناني في لحظة مغادرتي بيتهم، وبعد مشاركتهم وجبة الفصح. وبما أن التسليم لم يبدُ ممكناً في هذا اليوم، قلتُ لنفسي بأنه يمكن أن يتمّ في اليوم التالي، وحتى أنّ الأمر ربما يبدو ألطف على هذا النحو. يتوافق التهذيبُ مع نوع من البطء.

لكنّ بالدي لم يشأ أن يخاطر ويخيِّب أملي. هكذا تدَبَّر أموره وعثر على أربعة حمَّالين شبان جاؤوا يطرقون باب مضيفيّ بينما كنا مانزال

في منتصف الوجبة. نهض الجميع وراحوا يتراكضون في جميع الاتجاهات، ونتج عن ذلك جلبة وضوضاء... لم أعد أعرف تحت أي غطاء أخفي وجهي، خاصةً عندما أوقَعَ الحمالون، وجميعهم عديمو خبرة وربما ثملون بعض الشيء، مقعداً حجرياً في الحديقة فانشقّ نصفين، وراحوا يدوسون فوق مساكب الأزهار كأنهم مجموعةٍ من خنازير برية.

يا لعاري!

احمرَّ غريغوريو من الغضب المكبوت، راحت زوجته تتهكّم وابنتاهما تضحكان. ما كان يُفترض به أن يكون فِعْلَ أناقةٍ، تحوَّل إلى تهريجٍ صاخب!

خبَّأ لي ذلك النهارُ دهشاتٍ أخرى.

حالما اجتزتُ، حوالى الظهر، ـ وربما للمرة الأخيرة ـ عتبة بيت منجيافاتشا، استقبلني غريغوريو مثل أخ، وأخذني من ذراعي إلى حجرته، حيث تبادلنا الحديث ريثما تستعد زوجته وبناته. سألني إذا اتخذتُ قراراً بشأن رحيلي، وأجبتُ بأني مازلت مصمماً على الرحيل في الأيام القادمة، ومازلتُ أميل للتوجه إلى جبيل وإنْ كنتُ متردداً حول وجهتي.

كرر لي بأنه سوف يتألم لسفري، وأني سأكون دوماً على الرحب والسعة في بيته، ورغم كل شيء، وإذا قررت البقاء في جنوة، فلن يجعلني أندم على ذلك قط؛ ثم سألني إذا استبعدتُ التوجه إلى لندن. أجبتُ بأني لم أستبعد ذلك بعد، لكنّ الحكمة تأمرني، رغم الجاذبية التي يمارسها عليّ كتاب *الاسم المئة*، بالعودة إلى الشرق كي أعيد تقويم تجارتي المتروكة منذ زمن طويل، وأتأكّد من أنّ أختي وجدت ابنيها حقاً.

راح غريغوريو الذي لم يكن يستمع إليّ سوى نصف استماع، يمتدح لي المدن التي سأمرّ بها إذا سافرتُ إلى إنكلترا بالسفينة، مثل نيس أو مرسيليا أو آغْد، برشلونة أو فالانسيا، وخاصةً لشبونة.

ثم سألني ويده ترمي بثقلها فوق كتفي:

«في حال غيَّرتَ رأيك، هل يمكنك أن تقدم لي خدمة؟»

أجبتُهُ بكل صدق بأنه لا شيء يسعدني أكثر من تعويضه قليلاً عن دَيْني المعنويّ له بعد كل ما فعله من أجلي. شرح لي عندئذٍ بأنّ الوضع الذي نشأ مؤخراً بسبب الحرب الإنكليزية الهولندية، قد أربك أعماله قليلاً، وأن لديه رسالة هامة يجب أن تصل إلى عميله في لشبونة، ويدعى كريستوفورو غابيانو. عندها أخرج من دُرجِهِ رسالةً مكتوبة سابقاً، ومختومة بختمه.

«خذها، قال لي، واحفظها بعناية. إذا اخترتَ أن تسافر إلى لندن بحراً، سوف تمرّ بلشبونة بالضرورة. عندئذٍ أكون في غاية الامتنان لك إذا سلمتَ هذه الرسالة إلى يد غابيانو شخصياً. إنك بهذا ستُسدي لي خدمة هائلة! بالمقابل، إذا آثرتَ وجهةً أخرى، ولم تجد الوقت لإعادة هذه الرسالة لي، عِدْني بأن تحرقها حتى دون أن تفتحها!»

وعدته بذلك.

مفاجأة أخرى، سارة بالأحرى، عندما دعا غريغوريو، قبل جلوسنا إلى المائدة بقليل، ابنتَهُ الكبرى لكي تصحبني في نزهة في الحديقة. عززتْ هذه الدقائق القليلة أفضلَ انطباعاتي عن هذه الفتاة. إنها دائمة الابتسامة، تمشي بظُرف، وتعرف اسم كل الزهور. رحتُ أستمع إليها وأنا أقول في سري بأنني لو سارت حياتي على نحو آخر، لو لم ألتقِ بمارتا، لو لم يكن لي بيتي وتجارتي وأختي في الجانب الآخر من البحر، كنتُ سأسعد مع ابنة غريغوريو... لكن فات الأوان، وتمنّيتُ لها بأن تسعد من دوني.

لا أدري إذا كان عليّ أن أشير، ختاماً لتعداد أحداث يوم الفصح التافهة، إلى أن زوجة صديقي، السيدة الفاضلة أوربيتينا، استقبلتْني اليوم بالابتسام وبعض مظاهر الفرح. هذا لأنها تعلم دون شك بأني على وشك الرحيل بلا عودة.

الاثنين 26 نيسان 1666

كنت جالساً في غرفتي أمام النافذة، أجيل نظري في البعيد، عندما انفتح بابي فجأةً. استدرت. كان هناك في الفُرجة بحار فتيّ جداً يسألني لاهثاً دون إن يفلت قبضة الباب، إذا كنت أريد الذهاب إلى لندن. أخذتني النشوةُ في اللحظة ذاتها بفعل ما بدا لي كأنه نداءٌ من القدر، وقلت نعم. عندئذٍ رجاني بأن أسرع لأنهم سيرفعون السلالم بعد قليل. جمعتُ أشيائي القليلة في صرتين حملهما تحت إبطيه مثل جناحي ملاك. كان للصبي خصل شعرٍ شقراء تضمُّها قبعة رخوة. تبعْتُهُ على السلالم، ثم في الرواق، وتوقفت فقط لكي ألقي بعض القطع النقدية لزوجة صاحب النزل مع كلمة وداع.

ركضنا بعد ذلك في الحارات، ثم على رصيف الميناء، حتى المعبَر الذي صعدت فوقه لاهثاً. «آه، ها أنتذا أخيراً، قال لي القبطان، كنا سنبحر من دونك». كنتُ أكثر لهاثاً من أن أطرح عليه أدنى سؤال. فقط، تدوَّرَت عيناي من الدهشة، لكنّ أحداً لم ينتبه لذلك.

أكتب هذه السطور على سطح سفينة *سانكتوس ديونيزيوس*. نعم، لقد أبحرت بالفعل.

وصلتُ إلى جنوة دون أن أنوي ذلك، وأغادرها بعد شهر بالطريقة نفسها، أو تقريباً. كنتُ ما أزال أزِن سيئات وحسناتِ عودةٍ سريعة إلى جبيل، وسيئات وحسناتِ المرور أولاً بـِ سميرنا أو شيّو أو أي انعطافٍ آخر، في الوقت الذي كانت العناية الإلهية قد رسمت فيه طريقي دون علمي.

استرخيتُ فوق صندوق لأستعيد أنفاسي، ولم أتوقف عن التساؤل إذا كنتُ أنا حقاً هو الشخص الذي كانوا ينتظرونه. أليس بالأحرى مسافراً آخر كُلِّف البحارُ بالبحث عنه في نزل *صليب مالطا*؟ لذا نهضتُ ومسحتُ الرصيف بكامله بناظريّ، متوقِّعاً أن أرى رجلاً يهرع صارخاً، ملوِّحاً بيديه. ولكن لم يكن هناك أي رجل يركض، لم يكن

هناك سوى حمالين محنيي الظهور ورجال جمارك هادئين وخدَم ومتسكِّعين ومتنزِّهي يوم الأحد.

بين هؤلاء الأخيرين عرفتُ وجهاً مألوفاً. إنه بالدي، ملكيون بالدي الذي لعنتُهُ البارحة مئة مرة في بيت غريغوريو. كان يشير لي مستنداً إلى الجدار. وجهه يلمع من العرق ومن الرضى. قال لي حقاً بأنه يُمضي أيام الآحاد والأعياد وكل أوقات فراغه في الميناء، في مشاهدة قدوم المراكب ورحيلها، ومحادثة البحارة. ذاك التاجر الحالم، «سارق الرحلات» أو بالأحرى «مُخبئ الرحلات المسروقة»... بعد الحَرَج الذي سبَّبَهُ لي بالأمس، تمنيتُ أن ألومه بدلاً من أن أبتسم له، وكدتُ أشيح بوجهي كيلا ألتقي بنظراته. لكنَّ تصرُّفاً كهذا يُعتَبَر خِسَّةً وأنا أتهيأ لمغادرة جنوة إلى الأبد. ظنّ الرجل أنه يسعدني، ولا بدَّ أنه ما زال يتصور بأن الأمور جرت على ما يرام مع تمثال باخوس، وأني ممتنٌّ له. لذا نسيتُ حقدي وأشرتُ له إشارة صداقة حارة ومُلاطِفة كما لو أني ميزته من بعيد للتو. انتعش واهتزَّ بكل أعضائه، ظاهِرَ السعادة بهذا اللقاء الأخير. أنا أيضاً ـ وهذه سمة كثيراً ما لِمْتُ نفسي عليها ـ ارتحتُ لهذه المصالحة الصامتة.

بدأ المركب يبتعد ببطء عن الرصيف. كان بالدي ما يزال يشير لي بمنديل أبيض، وأنا أيضاً كنت أشير له بيدي مع وقفات. رحتُ في الوقت نفسه أنظر في كل مكان تقريباً محاولاً أن أفهم بأية أعجوبةٍ وجدتُ نفسي فوق هذا المركب. لم أكن حزيناً ولا مبتهجاً. إنني محتار فقط. وما زلتُ كذلك في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور.

ربما يكون من الحكمة أن أكتب في أسفل هذه الصفحة «لتكن مشيئتُه!»، طالما أن مشيئته ستكون على أية حال...

في البحر، 27 نيسان

بالأمس تحدثتُ عن العناية الإلهية، لأن هذا ما رأيتُ الشعراء

وكبار المسافرين يكتبونه. لكني لستُ مخدوعاً. مع اعتبار أننا جميعاً ـ أقوياء أو ضعفاء، شُطَاراً أو ساذجين ـ الأدوات العمياء للعناية الإلهية، فإنها لا شأن لها بهذه الرحلة! أعرفُ تماماً أية يدٍ خطَّت طريقي، أية يدٍ قادتني نحو البحر، نحو الغرب، باتجاه لندن.

لم أفهم في لحظتها، في غمرة المفاجأة، وفي جلبةِ الرحيل. وبالمقابل، فإن كل شيء واضح لعينيّ هذا الصباح. وحين أقول «كل شيء» لا أبالغ إلاَّ قليلاً. أعرف من الذي دفعني هكذا، أكتشف المهارة التي جعلني غريغوريو أَقْبَلُ بها فكرةَ الرحيل إلى إنكلترا، لكني لا أميِّز بعد جميع حساباته. أفترض بأنه ما يزال يسعى لتزويجي من ابنته، وأراد أن يجنِّبني السفر إلى جبيل التي ربما لا أعود منها قط. ربما أعطتْهُ رحلةُ الشهور القليلة هذه، إلى الجانب الآخر من العالم، إحساساً بأنه يحتفظ بي عنده فترة قليلة أخرى.

لكني لا أحقد على غريغوريو، ولا على أيٍّ كان. لم يرغمني أحد على الرحيل. كان يكفي أن أقول لا للرسول الأشقر، فأبقى في جنوة، أو في الطريق إلى الشرق. لكنني ركضتُ للحاق بهذا المركب!

إذا كان غريغوريو مذنباً فأنا شريك له، مثلما هي العناية الإلهية وعام الوحش و*الاسم المئة*.

في البحر، 28 نيسان

مساء أمس، بعدما انتهيتُ من كتابة سطوري القليلة المستسلِمة، رأيتُ على سطح السفينة البحار الشاب الأشقر الذي أُرسِل إلى النزل في طلبي. أشرتُ له بالاقتراب وأنا أنوي أن أطرح عليه سؤالين أو ثلاثة أسئلة ملحّة. ولكن كان في عينيه خوف طفولي، لذا اكتفيتُ بوضع قطعة فضية كبيرة في يده، دون أن أقول كلمة.

البحر هادئ منذ انطلاقنا، لكني لم أستطع منع نفسي من أن

أصاب بالدوار. أظن أن الضيق هو الذي كان يهزُّني في البحر أكثر من الأمواج.

في هذه اللحظة، لا يدور رأسي ولا أحشائي. لكني ما زلتُ لا أجرؤ على الانحناء لوقت أطول مما يجب فوق صفحات دفتري. فرائحة الحبر التي لا أشمُّها عادةً، تضايقني اليوم.

أتوقف على الفور.

3 أيار

صباح يوم الاثنين هذا، وبينما كنت للمرة الأولى منذ أسبوع أسير على سطح السفينة بخطوة ثابتة تقريباً، جاء طبيبُ السفينة الجرّاح ليسألني إذا كنتُ صهرَ السيد غريغوريو منجيافاتشا حقاً. استطرفتُ هذا الوصف المفرِط، والسابق لأوانه على أقل تقدير، أجبتُ بأني بالفعل من أصدقائه لكني لستُ من أقربائه قطعاً، واستفسرتُ عن الطريقة التي علمَ بها بأننا نعرف بعضنا. فجأةً بدا مزعوجاً كما لو أنه حقد على نفسه لأنه قال لي ذلك، وسرعان ما اختفى بحجة أن القبطان طلبه.

كشف لي هذا الحادث بأنه لابدَّ أن هناك أشياء كثيرة يجري التهامس بها من وراء ظهري. بل ربما يسخرون مني ساعة تناول العشاء. يُفترَض أن أغضب، لكني أقول لنفسي: لا يهم! لِيَسْخروا! السخرية من بالداسار أمبرياتشو تاجر الطرائف المكرِش والشهم، لاتكلف شيئاً. أما السخرية من القبطان فتُعَرِّض الفاعلَ للضرب بالسوط. ويعلم الله أنه يستحقّ التهكُّم، بل وأكثر من ذلك!

لِنَحكُم: بدلاً من أن يسلك الطريق الاعتيادية ويتوقف في نيس ومرسيليا، أو على الأقل في أحد الميناءين، قرر أن يمضي مباشرةً نحو فالانسيا في إسبانيا بحجة أن الريح الشمالية الشرقية ستحملنا إليها في خمسة أيام. لكن اتَّضح أن الريح متقلبة الأطوار، فبعد أن دفعتنا إلى عرض البحر، تعبت، ثم راحت كل ليلة تغير اتجاهها. بحيث

أننا، في اليوم الثامن للرحلة ولم نصل إلى أي مكان بعد! لا نرى الساحل الإسباني ولا الفرنسي ولا كورسيكا ولا سردينيا ولا جزر الباليار. أين نحن الآن؟ لا نعرف! يزعم القبطان أنه يعرف، ولا أحد على ظهر السفينة يجرؤ أن يعارضه. سنرى. بعض المسافرين لم يعد لديهم مؤن، وأغلبهم لم يعد لديهم ماء تقريباً. لم تحل الكارثة بعد، لكننا نمضي إليها بأقصى سرعة!

5 أيار

حين يتهامس شخصان على انفراد، على متن *سانكتوس ديونيزيوس*، فهذا يعني أنهما يتكلمان عن القبطان. يرفع البعض أنظارهم نحو السماء، والآن يجرؤ البعض الآخر على الضحك. ولكن، إلى متى سيدفعنا عدمُ إدراكه فقط إلى الضحك والهمس؟

أما أنا فقد شفيتُ تماماً، أتنزه وآكل بكثرة، أتناقش مع هؤلاء وأولئك، وأنظر بتسامح متعجرفٍ إلى الذين مازالوا يعانون من دوار البحر حولي.

للتزود بالطعام لم أفعل شيئاً سوى أني اشتريت ما يُباع هنا. أندم لأني لم أوَظِّف طبّاخاً ولم أُعِدّ مؤونة، لكن كل شيء حدث بسرعة شديدة! أندم خصوصاً لأن حاتم لم يعد معي. عسى ألاّ يكون قد أصابه مكروه، وأن يكون سالماً معافى في جبيل حيث، ولأَقُلْ ذلك عَرَضاً، كان يجب أن أذهب أنا نفسي. هذا ما أفكر به اليوم، وطالما لم أكن قد مضيتُ بعد في الاتجاه المعاكس، لم أفكر به. أرفع كتفيّ مستسلماً. أتجنب النواح. أدندن في وجه البحر أغنيةً جنوية. أدوِّن في دفتري ترّدداتي الحادة بين حُكمين من أحكام القدر... نعم هكذا، إني قانع. فكل شيء ينتهي تحت الأرض على أية حال، وأياً كان الطريق! ولماذا عليّ أن أختار الطرق المختصرة بدلاً من المواربة؟

6 أيار

«القبطان الجيد يحوِّل الأطلسيَّ إلى متوسط؛ والقبطان السيء يحوِّل المتوسطَ إلى أطلسي» ـ هذا ما جرؤ أن يقوله اليوم بصوتٍ مرتفعٍ أحدُ المسافرين على ظهر السفينة، وهو شخص بندقاني(*). لم يكن يتوجه إليّ بالكلام، بل إلى كل المجتمعين عند درابزين السفينة. تجنبتُ أن أكلمه إلا أني مع ذلك حفظتُ عبارته وعاهدتُ نفسي أن أنقلها على هذه الصفحات.

نشعر جميعاً بأننا ضائعون وسط البحر الشاسع، وأننا ننتظر بقلق اللحظة التي سيصرخ فيها أحدهم: «اليابسة!»، فيما نحن في المياه الأكثر ألفةً وفي أفضل الفصول.

حسب آخر إشاعة، يُفترض أن نكون مساء غد بين برشلونة وڤالانسيا. ولو قيل لنا «مرسيليا» أو «أيخيس مورتِس»، أو «ماهون»، أو «الجزائر»، لَصَدَّقنا لشدَّةِ فقدان علامات استدلالنا.

في مكان ما من المتوسط، 7 أيار 1666

اليوم تبادلتُ بعض الجمل مع القبطان. له من العمر أربعون عاماً ويدعى سنتوريوني، وأستطيع أن أكتب حرفياً بأنه شخص مجنون!

لا أكتب «مجنون» قاصداً أنه مُخاطِر، أو متهوِّر أو غريب الأطوار أو ذو شطط... أكتب «مجنون» بمعنى مجنون. إنه يعتقد أن أبالسة مجنَّحين تطارده، ويظن أنه يفلت منها حين يسلك طرقاً متعرجة!

لو سمعتُ مثلَ هذا الكلام من مسافرٍ أو بحارٍ أو من الجَرَّاح أو النَّجار، لركضتُ إلى القبطان لكي يسجنه وينزله إلى البر عند أول توقف. ولكن ما العمل إذا كان القبطان هو المجنون؟

(*) بندقاني، نسبةً إلى مدينة البندقية.

لو أنه على الأقل كان مجنوناً مسعوراً أو مجنوناً ثائراً، أو مجنوناً زاعقاً، لو كان مجنوناً واضحاً لاجتمعنا لكي نسيطر عليه، لأَخْطَرْنا سلطات الميناء الذي سنرسو فيه.

لكنْ، لا شيء من هذا كله! الرجل مجنون مسالِم، يتجوَّل بوقار، يناقش، يمازح، ويوزع أوامره بثقة الزعماء.

حتى هذا اليوم لم أكن قد خاطبته. تبادلنا كلمتين فقط في جنوة عندما وصلتُ راكضاً وقال لي بأنّ المركب كاد يبحر من دوني. أما هذا الصباح، وبينما كان يتجول على سطح السفينة، مرَّ بالقرب مني؛ حييتُهُ بأدب، وكانت كلماته الأولى من الكلام المتعارف عليه جداً. وكما يحدث بين الجنويين الذين يحترم بعضهم بعضاً، تحدّثنا أولاً عن عائلتينا، وكان كلامه عاقلاً حين ذكر شهرة آل أمبرياتشي وماضي جنوة.

كنتُ قد بدأتُ أقول لنفسي بأن كل التهكُّمات التي تنتشر بحقِّه ظالمة، عندما جاء طير لكي يحلق منخفضاً جداً فوق رأسينا، وجعَلَتْنا صيحتُهُ نرفع ناظرينا نحوه، ولاحظتُ أنّ محدِّثي قلقٌ.

«أي طير هو هذا، سألتُ. هل هو نورس؟ زمُّج؟ أم قطرَس؟»

أجاب القبطان الذي أصبح عصبياً فجأةً: «إنه شيطان!»

ظننتُ في البداية بأنها طريقة يلعن بها هذا الطير بسبب الأضرار التي قد يلحقها. ثم تساءلتُ إذا لم يكن هناك نوع من الطيور يسميه البحارة بهذا الاسم.

إلا أنّ القبطان استطرد وهو يشتدّ اضطراباً شيئاً فشيئاً:

«إنها تطاردني! أيما ذهبت، وتعثر عليّ! لن تدعني وشأني أبداً!»

خفقة جناحٍ كانت كافية لكي يغرق في هذيانه.

«منذ سنين تطاردني في كل البحار».

لم يعد يتكلم معي، بل بات فقط يعاملني كشاهدٍ في حديثه مع نفسه أو مع شياطينه.

تركني بعد بضع لحظات وهو يتمتم بأنه سيأمر بتغيير الاتجاه لتضليل مطاردينا.

يا رب السماء، إلى أين سيقودنا هذا الرجل؟

قررتُ ألا أكلِّم أحداً عما حدث، حالياً على الأقل. وسأكلِّم مَن أساساً؟ وماذا أقول؟ ولأجلِ ماذا؟ لإثارة تمرُّد؟ لنشر الخوف على السفينة، وزرعِ الشك والعصيان، وحَمْلِ مسؤولية الدم الذي يمكن أن يُراق؟ كل هذا خطير جداً. وحتى لو لم يكن الصمتُ هو الحلِ الأكثر شجاعة، يبدو لي أنّ عليّ أن أنتظر وأراقب وأفكر محتفظاً بصحو ذهني.

لحسن الحظ أنّ لديّ هذا الدفتر لكي أهمس له بالأشياء التي يجب أن أسكت عنها.

8 أيار

تحدثتُ اليوم مع المسافر البندقاني. يدعى جيرولامو دُرّاتزي. حديث مقتضب لكنه أنيس. لو كان أبي المأسوف عليه سيقرأ هذه السطور لَكتبتُ «كان حديثاً أنيساً لكنه مقتضب»...

معنا أيضاً شخص فارسي يسميه مَن في السفينة، بصوت منخفض، «الأمير». لا أعرف إذا كان أميراً، لكنّ مشيته مشية أمير ويتعقّبه رجلان ضخمان يراقبان يميناً ويساراً كما لو أنهما خائفان على حياته. له لحية قصيرة وعمامة سوداء رقيقة ومسطّحة إلى درجة أنها تكاد تبدو مجرد عصابة من الحرير. لا يكلِّم أحداً ولا حتى حارسيه، ويكتفي بالسير ناظراً أمامه مباشرةً وأحياناً لا يتوقف إلاّ لكي يتأمل الأفق أو السماء.

الأحد 9 أيار 1666

أخيراً رسونا. إلا أننا لم نرسُ في برشلونة ولا ڤالانسيا، بل في جزيرة مينوركا في الباليار، وبالتحديد أكثر في ميناء ماهون. لدى إعادة قراءة صفحاتي الأخيرة، ألاحظ أنها بالفعل إحدى الوجهات التي

أوردتْها الشائعات. تقريباً كأنّ هذا الاسم سُجِّل على صفحةِ زهرِ النرد الذي ألقت به العناية الإلهية على شرفنا.

لماذا لا أغادر هذا المكان المعتوه بدلاً من أن أبحث عن علامة أخيرة على الترابط المنطقي في قلب الجنون؟ الأفضل أن أقول: فليضيعوا جميعاً من دوني! القبطان والجرّاح والبندقاني و«الأمير» الفارسي! مع ذلك لا أذهب، ولا أهرب. هل مازال بقاءُ هؤلاء المجهولين أحياءً يهمُّني؟ أم أنّ بقائي أنا حياً هو الذي لم يعد يهمّني؟ هل هذه شجاعة فائقة أم خنوع فائق؟ لا أعرف، لكني أبقى.

في اللحظة الأخيرة، قررتُ، وقد رأيتُ الغوغاء حول المراكب، ألاّ أنزل إلى الأرض، وأن أنادي البحار الشاب الأشقر وأكلِّفه بشراء حاجياتي. إنه يدعى موريثيو ولديه شعور بأنه يدين لي بشيء ما بسبب المقلب الذي لعبه بي. للحقيقة إنني لم أعد أحقد عليه قط، بل إنّ مرأى خصلاته الشقراء يمنحني بعض العزاء ـ لكنّ الأفضل ألاّ يعرف ذلك.

كتبتُ له قائمة بكل ما أريد؛ وفهمتُ، لحِرَجِهِ، بأنه لم يتعلم القراءة. فجعلتُهُ يحفظها ويستذكرها غيباً، وأعطيته من المال أكثر مما يحتاج الأمر. و لدى عودته تركتُ له بقية المبلغ فأبدى امتناناً شديداً. أعتقد أنه من الآن وصاعداً سيأتي كل يوم ليسألني إذا كنت أحتاج لشيء وسيضع نفسه في خدمتي. لن يحل محل حاتم لكنه يبدو مثله داهيةً ونزيهاً. ما المطلوب من تابع أكثر من ذلك؟

يوماً ما، سأنتزع من موريثيو اسم الشخص الذي أرسله للبحث عني في نزل *صليب مالطا*. هل أحتاج لذلك حقاً في حين أني أعرف ماسيقوله لي بالضبط؟ نعم، حين أفكر بالأمر، أرى أني أحتاج لذلك. أريد أن أسمع بأذنيّ بأنّ غريغوريو منجيافاتشا قد دفع له لكي يناديني في ذلك اليوم ويجعلني أعدو حتى السفينة التي تحملني في هذه اللحظة إلى إنكلترا! إلى إنكلترا أو يعلم الله إلى أين...

أضف إلى هذا أني لستُ مستعجلاً على الإطلاق. سنكون معاً على

هذه السفينة أسابيع أخرى، ويكفي أن أبدو صبوراً وماهراً لكي يعترف الصبي بكل شيء في النهاية.

11 أيار

لم أعتقد قط بأني سأصبح صديقَ شخصٍ بندقاني من البندقية!

صحيح أنه حين يلتقي تاجران في رحلة طويلة، ينعقد حديث. لكنّ الأمور مضت أبعد من ذلك معه، فقد وجدنا منذ الجمل الأولى كثيراً من الاهتمامات المشتركة إلى درجة أني نسيت جميع التحذيرات التي لقَّنَني إياها والدي.

لاشك أن الشيء الذي سهَّل الاحتكاك بيننا هو كونُ جيرولامو دُرّاتزي، رغم أنه ولد في البندقية، عاش منذ طفولته في عدة مدن من الشرق. في كاندي أولاً ثم في تساريتسين على نهر الفولغا. ومنذ وقت قصير في موسكو بالذات حيث يبدو أن له حظوة كبيرة. يقيم في ضاحية الأجانب التي أصبحت كما قال لي مدينةً في قلب المدينة. يوجد فيها أصحاب مطاعم فرنسيون وحلوانيون بندقانيون ورسامون إيطاليون أو بولونيون وعساكر دانماركيون أو اسكتلنديون، وطبعاً تجار ومغامرون من جميع الأجناس. حتى أن قطعة أرضٍ خارج المدينة أُعِدَّت ويتواجه فيها لاعبون يركلون كرةً على الطريقة الإنكليزية. وأحياناً يحضر هذه المباريات الكونت كارليسل سفير الملك تشارلز، شخصياً.

12 أيار

دعاني صديقي البندقاني أمس للعشاء في حيِّه. (ما زلتُ أتردد وأبتسم من الحَرَج كلما كتبتُ «صديقي البندقاني»، لكني سأظل أكتب ذلك ويوماً ما، سأعتاد!) يوجد معه طاهٍ وخادم وشخص آخر يخدمه

أيضاً. كان يجب أن يكون معي مثل هؤلاء بدلاً من أن أبحر وحدي مثل متشرِّد، مثل مطرود!

أثناء الوجبة كشف لي صديقي أسباب رحلته إلى لندن. لديه مهمة تجنيد حِرَفيين إنكليز لكي يذهبوا ويستقروا في موسكو. ليس موَكَّلاً بالمعنى الحَرْفي للكلام من قبل القيصر ألكسي، لكنه حصل منه على الحماية والتشجيع. جميع المَهَرة هم على الرحب والسعة أياً كانت مهنتهم، بشرط واحد هو ألاَّ يتعاطوا التبشير. لا يريد القيصر الرجل الحكيم، أن تصبح مدينته وكراً للمتعصبين من تلامذة الجمهورية المسيحية، الذين يُقال بأنهم كُثُر في إنكلترا لكنهم مختبئون أو منعزلون منذ عودة الملك تشارلز قبل ستة أعوام.

حاول جيرولامو أن يقنعني بالذهاب أنا نفسي للاستقرار في موسكو. وقدَّم لي وصفاً جذاباً لمدينة ضاحية الأجانب. قلتُ له «ربما» تأدُّباً ولتشجيعه على متابعة حكايته، لكنّ عرضه لم يُغرِني كثيراً. إنني في الأربعين من عمري وأنا أكبر سناً من أن أبدأ حياتي في بلدٍ أجهل لغته وعاداته. لديّ وطنان، جنوة وجبيل، وإذا كان عليّ أن أترك أحدهما فلكي ألتحق بالآخر.

أضف إلى أني معتاد على تأمُّل البحر، فربما أشتاق إليه إذا ابتعدتُ عنه يوماً. صحيح أني لا أشعر بالارتياح على سطح سفينة، أفضِّل أن تطأ قدماي أرضاً يابسة، أما مجاورة البحر فهذا شيء آخر، أحتاج لروائحِهِ الحريفة! أحتاج لأمواجه التي تموت ثم تولد ثم تموت! أحتاج أن تضيع نظراتي في مداه الشاسع!

أفهم جيداً أن يعتاد المرء على اتّساعٍ آخر، اتساعِ رمال الصحراء، أو سهول الثلج، ولكن ليس عندما يولَد في اليوم الذي ولدتُ فيه وتجري في عروقه دماءٌ جنوية.

إلى هذا، أفهم بسهولةٍ أولئك الذين يغادرون بلدهم وكل أقربائهم يوماً، ويغيرون حتى أسماءهم لكي يبدؤوا حياة جديدة في بلدٍ

بلاحدود. سواء في أميركا أو بلاد الموسكوف. أليس هذا هو بالذات مافعله أجدادي؟ أجدادي وأيضاً أجداد كل البشر؟ كل المدن أسسها وعمَّرها أناسٌ قدموا من مكان آخر، كل القرى أيضاً، ولم تمتلئ الأرض إلاّ بالهجرات المتتالية. لو كان قلبي ما يزال خفّاقاً وساقاي رشيقتين لابتعدتُ عن بحر موطني الأصلي ومضيتُ إلى ضاحية الأجانب تلك، التي يغريني اسمُها وحدُه.

13 أيار

هل صحيح أنّ لدى ملك فرنسا مشروعاً لاجتياح أراضي السلطان العثماني، وحتى أنه أعدَّ خطة هجوم مفصلة مع وزرائه؟ يؤكد لي جيرولامو ذلك، مستعيناً، لتعزيز أقواله، بشهادات مختلفة لا يوجد مايسمح لي بالتشكيك بها. يؤكد حتى أنه دخل في محادثات مع حكيم فارس، عدو السلطان الكبير، لكي يثير الاضطرابات في تاريخ متفق عليه من أجل اجتذاب الجيوش التركية نحو جورجيا وأرمينيا وأتروباتين. في هذه الأثناء يستولي الملك لويس، بمساعدة البَنادِقة على كاندي وجزر إيجة والمضائق وربما الأرض المقدسة أيضاً.

رغم أن الأمر لا يبدو لي مستبعَداً قط، فإني مندهش من كلام صديقي البندقاني بهذه الصراحة لرجلٍ التقى به منذ وقت قصير. من المؤكد أنه كثير الكلام، لكني أُخطئ إذ ألومه على ذلك بينما أطَّلِع بفضله على أشياء كثيرة، وفي حين أنّ السبب الوحيد لعدم تكتُّمه هو صداقته لي والثقة التي يوليني إياها.

رحتُ طوال الليل أجترُّ مشاريع ملك فرنسا، ولا أتمكّن من الابتهاج بها. بالطبع لو آلتْ نتيجةُ القتال لصالحه، وتَمكّن من السيطرة الدائمة على الجزر والمضائق وعلى سائر المشرق، فلن أشتكي. أما إذا ألقى نفسه مع أهل البندقية في مشروع متهوِّر وبلا مستقبل، فسوف ينصَبُّ انتقامُ السلطان عليّ وعلى أهلي وذويَّ، نعم علينا نحن تجار أوروبا المستقرين في بوابات المشرق. كلما فكرتُ بالأمر اقتنعتُ أكثر

بأنّ حرباً من هذا النوع ستكون وبالاً عليّ وعلى أهلي منذ اندلاعها. عسى ألاّ تجعلَها السماءُ تقع أبداً!

قرأتُ للتو هذه السطور الأخيرة والتي قبلها، وأتساءل فجأةً إذا لم يكن من الخطر كتابة أشياء مماثلة والإفصاح عن أماني مماثلة. طبعاً أكتب كل شيء برطانتي الخاصة التي لن يستطيع أحدٌ غيري فكّ رموزها. لكن هذا لا يسري إلا على كتاباتي الحميمية التي أُخفيها عن القريبين وعن المتطفّلين المحتَمَلين. إذا تدخّلت السلطات يوماً، إذا أراد والٍ أو باشا أو قاضٍ معرفة ما سجّلتُهُ فيها وهدّدني بالخازوق أو أخضعَني للتعذيب لكي أسلّمه مفاتيحي، فأنّى لي أن أقاومه؟ سأكشف له سر مفاتيحي، فيقرأ ساعتها بأن استيلاء ملك فرنسا على المشرق، شيء يجلب لي السرور.

ربما يجب عليّ تمزيق هذه الصفحة في اليوم الذي أعود فيه إلى الشرق، بل وتجنُّب الحديث عن أشياء مماثلة في المستقبل. ربما أكون مفرطاً في الحذر، فلن يأتي أي والٍ أو باشا للتفتيش في كتاباتي. ولكنْ عندما يكون الشخص في موقعي، وعندما يكون في بلد غريب منذ كل هذه الأجيال، تحتِ رحمة كل أشكال الإذلال، وكل أشكال الوشاية، لا يكون الحذرُ موقفاً وحسب، بل إنه الطينةُ التي أنا مجبول منها.

14 أيار

تبادلتُ اليوم بضع كلمات مع الفارسي الذي يلقَّب بالأمير. ما زلتُ أجهل هل هو أمير أم تاجر، لم يقل لي.

كان يتنزه كالعادة، ووجدتُ نفسي في طريقه. ابتسم لي ورأيتُ في ذلك تشجيعاً لي على الدنوّ. عندما تقدمتُ منه خطوة، ذُعِر حارساه، لكنه أمرهما بحركةٍ منه أن يلزما الهدوء وحيَّاني بانحناءة خفيفة. عندها نطقتُ ببضع كلمات ترحيب بالعربية، وردَّ بالإجابات المناسبة.

يتكلم الرجل العربية بصعوبة باستثناء العبارات الشائعة التي

يعرفها كل مسلم. استطاع كل منا مع ذلك تقديم نفسه للآخر، وأعتقد أننا سنتمكن عندما تحين الفرصة من إجراء محادثة. قال بأنه يدعى علي أصفهاني وأنه مسافر لتسيير أعماله. أشك بأن يكون هذا هو اسمه الحقيقي. علي هو الاسم الأكثر انتشاراً عندهم، وأصفهان هي عاصمتهم. للحقّ إنَّ هذا «الأمير» لم يكشف لي الكثير عن نفسه. لكننا الآن تعارفنا وسنتحادث من جديد.

أما صديقي البندقاني جيرولامو فإنه مايزال يمتدح لي موسكو والقيصر ألكسي الذي يكنّ له إجلالاً كبيراً ويصفه بأنه ملكٌ مهتمٌ بمصير رعاياه، وراغب باجتذاب التجار والحرَفيين ورجال المعرفة، إلى مملكته. لكن الناس في روسيا لا ينظرون جميعاً إلى الأجانب بهذا القدر من العطف. إذا بدا القيصر مفتوناً بما يحدث في عاصمته التي لم تكن حتى ذلك الوقت سوى قرية واسعة كئيبة، إذا كان يقف بطيبة خاطر أمام الرسامين لكي يرسموه، ويطَّلع على آخر الصرعات الغريبة، ويتمنى أن تكون له من الآن وصاعداً فرقته الخاصة من الممثلين مثل ملك فرنسا، فإنه في موسكو نفسها وفي بقية أنحاء البلد خاصةً، يوجد آلاف من الكهنة الأرثوذوكس المتذمِّرين الذين يعتقدون أنهم يرون في كل هذه الصرعات الجديدة علامة عصر المسيح الدجال. ما يجري في ضاحية الأجانب ليس في نظرهم سوى فجور وفساد وإلحاد وتجديف، وكلها إشارات تنبئ بمملكة الوحش الوشيكة.

في هذا الصدد أخبرني جيرولامو بحادثة من أكثر الحوادث إيحاءً. في الصيف الماضي، ذهبت فرقة من الفنانين النابوليتانيين لتقديم نفسها في موسكو لدى قريبٍ للقيصر. كان هناك ممثلون وموسيقيون ولاعبو خفة ومَقْماقون يتكلمون من بطونهم... وفي إحدى اللحظات قدَّمَ رجلٌ يدعى برسيفال غراسّو، مشهداً مؤثِّراً جداً: دمية برأس ذئب كانت أول الأمر مستلقية على الأرض، نهضت وراحت تتكلم وتغني وتمشي متمايلة، وأخيراً ترقص، دون أن تُرى في أية لحظة يدُ الرجل التي تحرِّكها من أعلى مقعد مخبأ بستار. بدا الحاضرون جميعاً مفتونين. وفجأةً نهض كاهن وبدأ يصيح بأن الذي أمامهم هو إبليس

بعينه؛ وراح يذكر جملاً من سفر الرؤيا تقول «وأُعطِيَ أنْ يُعطي روحاً لصورةِ الوحش حتى تتكلم صورةُ الوحش». عندها أخرج من جيبه حجراً ألقى به نحو الخشبة. وفعل بعض الأشخاص ممن أتوا معه، الشيءَ نفسَه، ثم راحوا جميعاً يوجهون اللعنات ضد النابوليتانيين والأجانب وضد من يشتركون، بأية طريقة، بما يعتبرونه ألاعيب شيطانية وزندقة. وراحوا يعلنون نهاية الزمن الوشيكة وقرب يوم الحساب. بدأ المشاهدون يهربون بعضهم وراء الآخر؛ حتى قريب القيصر لم يجرؤ على الاعتراض على هؤلاء المسعورين؛ واضطرت الفرقة لمغادرة موسكو فجر اليوم التالي.

بينما كان صديقي يروي لي كل ذلك بتفصيل شديد، تذكرتُ ذلك الزائر الذي جاء إليّ في جبيل منذ بضع سنين، يحمل كتاباً يُعلَن فيه عن نهاية العالم في ذلك العام بالضبط، عام 1666 . كان يدعى إفدوكيم. حدَّثتُ جيرولامو عنه. لم يعنِ له هذا الاسمُ شيئاً لكنه عرف كتاب *الإيمان الواحد الحقيقي والأرثوذوكسي*، فلا يمضي يوم لا تُذكَر فيه تلك النبوءة أمامه. هو نفسه يستخفُّ بها ويتكلم عن غباء مُطبِق وجهل وخرافات، الأمر الذي أمدَّني بالعزاء الشديد؛ لكنه يضيف بأن معظم الناسِ هناك يؤمنون بها إيماناً راسخاً. بل إن بعضهم يعطي تاريخاً محدداً. يزعمون على ذمة لا أعلم أيَّ حسابٍ أعياد، بأنّ العالم لن يعيش إلى أبعد من عيد القديس سمعان، الواقع في الأول من أيلول، والذي هو رأس السنة بالنسبة لهم.

15 أيار 66

أظنُّ أنني فزتُ اليوم بثقة «أمير» أصفهان، أو ربما يجدر بي أن أقول أنني أثرتُ اهتمامه.

تصادفنا أثناء نزهة، وترافقنا بضع خطواتٍ عدَّدْتُ خلالها مختلف المدن التي اجتزتُها في الشهور الأخيرة. راح يومئ برأسه بتهذيب علامة الموافقة عند كل اسم، لكني حين ذكرتُ سميرنا لاحظتُ

تغيراً في نظرته. ولكي يحثُّني على الكلام أكثر قليلاً عنها، ردَّد بنبرةٍ موحية «إزمير، إزمير» وهو الاسم التركي للمدينة.

قلتُ له بأنني أمضيتُ فيها أربعين يوماً، وأنني رأيتُ مرتين، بأم عيني، اليهوديَّ الذي يزعم بأنه المسيح. عندها أخذني محدِّثي من ذراعي، أسماني صديقه المحترم، واعترف لي بأنَّ ثمة أشياء كثيرة متناقضة رويت له حول ذاك الـ «ساباتاي ليفي».

صححتُ:

«الاسمُ كما سمعتُ يهوداً يلفظونه، هو بالأحرى ساباتاي زيفي، أو تسيفي».

شكرني لأني صححتُ غلطته، ورجاني أن أقول له ما رأيتُهُ بالضبط، لكي يعرف كيف يميز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود في كل ما يروى عن هذه الشخصية.

رويتُ له بعض الأمور ووعدتُهُ بالمزيد.

16 أيار

تحدثتُ البارحة عن ثقة «الأمير» التي فزتُ بها، ثم عدلتُ عن رأيي لكي أتكلم عن فضوله الذي أثرتُه. كنتُ محقّاً في هذا التمييز، لكني أستطيع اليومِ استعادة كلمة «ثقة». فإذا جعلني الرجل بالأمس أتكلم أنا فقط، فقد تكلَّمَ اليوم هو أيضاً.

لم يبُح لي بأشياء حميمية حقيقية ـ لماذا يفعل ذلك أصلاً؟ لكنَّ القليل الذي قاله عندما يأتي منه، أعني من شخصٍ موجود في بلد أجنبي، ومن الواضح أنه يُعنى بالأسرار، هذا القليل هو شهادة تقدير وعلامة ثقة.

قال لي بأنه لا يسافر خصوصاً لأجل الأعمال بالمعنى المتعارف عليه، بل ليراقب العالم ويتعلم من الأشياء الغريبة التي تحدث فيه. إني متأكد، دون أن يقول لي، بأنه شخصية مرموقة جداً، ربما شقيق الصوفي العظيم، أو قريبه.

فكرتُ بتقديمه لجيرولامو. لكنّ صديقي البندقاني ذلِق اللسان بعض الشيء، ويمكن أن يجفل الآخرُ منه، وبدلاً من أن يتفتَّح رويداً رويداً مثل وردةٍ خجولة، يخشى بأن ينغلق على الفور.

لذا سأخالط كلاً منهما بشكل منفصل عن الآخر، إلا إذا التقيا بمفردهما دون وساطتي.

17 أيار

دعاني الأمير اليوم إلى «قصره». ليس في الكلمة مبالغة إذا أخذنا بعين الاعتبار نسبيةَ الأمور. البحارة ينامون في مستودع، أنا في كوخ، وجيرولامو وحاشيته في بيت، وعلي أصفهاني يشغل مجموعة متتالية من حجراتٍ كساها بالسجاد والوسائد على الطريقة الفارسية، كأنه في قصر. من بين رجاله كبيرُ خدم وترجمان وطاهٍ ومساعده، وخادم لأجل الملابس، وأربعة رجال لكافة الأعمال، إضافةً إلى حارسين يسميهما «الضارِيان».

الترجمان قسيس فرنسي من تولوز يدعى «الأب آنج». أدهشني بالتأكيد وجوده قرب علي، لا سيما أنهما تحادثا بالفارسية. لم أستطع معرفة المزيد لأن الرجل توارى حالما قال له سيده بأننا نستطيع التفاهم بالعربية.

أثناء السهرة روى لي مضيفي حكايةً من أغرب الحكايا، تقول بأنه منذ بداية هذا العام، وكل ليلة، تختفي عدة نجوم من السماء. يقول بأنه تكفي مراقبة قبة السماء في الظلام والتحديق في المواضع التي يوجد فيها تجمُّع كبير للنجوم من أجل التحقق من أنّ بعضها ينطفئ فجأةً ولا يضيء ثانيةً. يبدو مقتنعاً بأن السماء ستفرغ رويداً رويداً على طول العام حتى تصبح سوداء كلياً.

لكي أتحقق من كلامه، جلستُ أراقب السماء على سطح السفينة قسطاً لا بأس به من الليل، ورأسي إلى الخلف. حاولت التحديق في

نقاط محددة، لكن عينيّ كانتا تتشوشان كل مرة. وبعد ساعة شعرتُ بالبرد وذهبت للاستلقاء قبل أن أستطيع التأكد من أي شيء.

18 أيار

نقلتُ حكاية النجوم لصديقي البندقاني الذي انفجر ضاحكاً حتى قبل أن أنتهي من سردها. لحسن الحظ أني لم أقل له عمَّن أخذتُ هذه القصة. ولحسن الحظ أني لم أقدِّم رفيقي السفر هذين أحدهما للآخر.

أعلَمَني جيرولامو بأشياء أدهشتني بالتأكيد، فيما استمرّ بالسخرية من شائعات نهاية العالم. ينتابني في صحبته ذلك الضيقُ نفسه الذي كنتُ أشعر به سابقاً وأنا أتحدث إلى ميمون؛ فمن ناحية، لدي رغبة كبيرة بمشاركته في هدوء باله واحتقاره لكل الخرافات، الأمر الذي يقودني إلى تأييد كلامه جهاراً؛ لكني في الوقت نفسه لاأستطيع منع هذه الخرافات، حتى أكثرها ضلالاً من أن تعَشِّش في روحي. «وماذا لو كان هؤلاء الناس على حق؟»، «وماذا لو تحققت نبوءاتهم؟»، «وماذا لو كان العالم على مسافة أقل من أربعة شهور من انطفائه؟» ـ أسئلة من هذا النوع تحوّم في رأسي رغماً عني، ومع أني مقتنع ببطلانها، فإنني لا أتمكّن من التخلص منها، الأمر الذي يسبب لي غمّاً وخجلاً مضاعَفاً. خجل من مشاركتي لمخاوف الجهَلة، وخجل من تبنّي موقفٍ مخادع بهذا الشكل مع صديقي، أُصادق على رأيه بهزات رأسٍ مسموعة في الوقت الذي أكذِّبه في قلبي.

انتابتني هذه المشاعر نفسها مرة أخرى بالأمس، بينما كان جيرولامو يكلّمني عن بعض الموسكوفيين الذين يُسَمون الكابيتونيون، والذين يُقال بأنهم يتطلَّعون إلى الموت لأنهم «مقتنعون بأنّ المسيح سيعود قريباً إلى هذا العالم ليقيم مملكته فيه، ويريدون أن يكونوا في عِداد من يظهرون معه في موكبه، بدلاً من أن يكونوا وسط أعداد الخاطئين الذين سيتعرَّضون لصواعقه. هؤلاء الناس يعيشون بعيداً عن كل سلطة، في جماعات صغيرة متناثرة على امتداد أرض البلاد.

يعتبرون أن العالم بأسره اليوم يحكمه المسيح الدجّال، أنّ الأرض بأسرها مسكونة بالهالِكين، حتى موسكوفيا وحتى كنيستها التي ماعادوا يعترفون بصلواتها أو طقوسها. يوصيهم زعيمهم بأن يموتوا جوعاً، لأنهم بهذا لا يرتكبون إثم الانتحار. لكنَّ هناك آخرين يشعرون بأنَّ الزمن يستعجلهم، ولم يعودوا يترددون في خرق القانون الإلهي وبأسوأ طريقة. لا يمضي أسبوع دون أن تُروى أكثر الحكايات إثارةً للرعب في هذه المنطقة أو تلك من هذا البلد الواسع. تجتمع مجموعات كبيرة العدد إلى هذا الحد أو ذاك في كنيسة، أو حتى في مستودعٍ مبتذل، يسدُّون الأبواب ويُشعلون النيران عمداً، هكذا تُضَحِّي عائلاتٌ بأكملها بنفسها، وسط الصلوات وزعيق الأطفال».

تُلازِمُني هذه الصور منذ أن ذكَرَها جيرولامو. أفكر بها في النهار كما في الليل، ولا أكفّ عن التساؤل إذا كان من المعقول أن يموت كل هؤلاء الناس من أجل لاشيء. هل يمكن أن ينخدع المرء إلى هذه الدرجة ويضحي بحياته بهذه البشاعة، بسبب خطأ بسيط في الحكم؟ لا أستطيع إلا أن أكنّ لهم الاحترام، لكنّ صديقي البندقاني يقول لي بأنه لا يكنّ لهم أي احترام. يقارنهم بحيوانات جاهلة ويرى أن سلوكهم هو في آن واحد غبي وإجرامي وزنديق. يشعر إزاءهم على الأكثر بشيء من الشفقة، لكنها تلك الشفقة التي هي قِشرة الاحتقار فقط. وعندما أعترف له بأنني أجد سلوكه فظاً، يجيبني بأنه لن يكون قط فظاً إزاءهم قدر فظاظتهم إزاء أنفسهم بالذات، إزاء نسائهم وأطفالهم.

19 أيار

إذا بدا لي التحقق من انطفاء النجوم صعباً، الأمر الذي تبرهن عليه حكايةُ صديقي الفارسي دون ظلِّ شك، فذلك لأنه مهتم مثلي بكل مايُقال بخصوص هذا العام اللعين.

لا، ليس مثلي، بل أكثر مني. أنا مازلتُ موزَّعاً بين المرأة التي أحبها وأعمالي وأحلامي المبتذلة وهمومي العادية، وعليَّ كل يوم أن أقسر طبعي الخامل كيلا يتخلى عن ملاحقة كتاب *الاسم المئة*. أفكر في

أوقات متقطعة بنهاية العالم، أؤمن بالأشياء دون أن أؤمن بها أكثر مما يجب، تحميني نزعةُ الشك التي ربَّاها والدي في نفسي، من كل فيض في الإيمان ـ أو ربما يجدر بي أن أقول بأنها تمنعني من كل ثبات، سواء في الحفاظ على العقل، أو في البحث عن الأوهام.

أعود إلى أميري وصديقي. لقد عدد لي اليوم النبوءات التي أحصاها في موضوع العام الجاري. إنها عديدة جداً لأنها قادمة من جميع أنحاء العالم. بعضها أعرفه وبعضها الآخر لا أعرفه، أو أعرفه بشكل غير كامل. إنه يعرف أكثر مما أعرف بكثير، لكني أعرف أشياء يجهلها.

قبل كل شيء هناك نبوءات الموسكوفيين واليهود بالطبع. ثم نبوءات الطائفة الحلبية والمتعصبين الإنكليز. ونبوءات حديثة العهد، لشخصٍ يسوعي برتغالي. ثم نبوءات أكبر أربع منجِّمين فارسيين ـ وهي في نظره أشدِّها إثارة للقلق ـ لا يتَّفقون عادةً أبداً، ويتنافسون على نيل حظوة سيدهم، أكَّدوا بصوتٍ واحد أنه سيقوم رجالٌ في هذا العام بتسمية الله باسمه العبراني مثلما فعل نوح، وأنه ستحدث أشياء كفَّتْ عن الحدوث منذ أيام نوح.

«طوفان جديد سيغرق العالم؟» سألتُه.

«نعم، لكنه هذه المرة طوفان من نار!»

الطريقة التي نطق بها صديقي الجديد هذه الجملة ذكَّرَتْني بابن أختي بومة. تلك النبرة المظفَّرة للإعلان عن أسوأ المصائب! كما لو أن الخالق وعدَهُما بالحصانة ضمناً وهو يطلعهما على السر.

20 أيار

أثناء الليل، فكرتُ ثانيةً بكلام المنجِّمين الفارسيين. ليس بالتهديد بطوفان جديد وهو ما نصادفه في جميع النبوءات المتعلقة بنهاية العالم، بل بالتلميح إلى اسم الله، واسمه العبراني خاصةً. أظن أن ذلك هو قدس الأقداس رباعي الحروف الذي لا يفترض أن ينطق به أحد ـ

إذا كنتُ قد قرأتُ الكتاب المقدس قراءة صحيحة ـ باستثناء الكاهن الأكبر ومرة واحدة في العام في يوم قدس الأقداس يوم الغفران. ماالذي يجب أن يحدث عندما يبدأ آلاف البشر عبر العالم بِنُطقِ الاسم فائقِ الوصف بصوتٍ مرتفع؟ ألن تغضب السماء إلى درجة إفناء الأرض وآهِليها؟

أصفهاني الذي تناقشتُ معه اليوم مطوّلاً، لا يرى الأمور بالطريقة نفسها إطلاقاً. بالنسبة له، إذا نطق البشرُ بالاسم فائق الوصف، فليس ذلك لأجل تحدّي تدابير العناية الإلهية، بل على العكس لأجل تسريع تَحَقُّقِها، تسريع نهاية الزمان، تسريع الخلاص. وبدا لي أنه غير منزعج إطلاقاً من قيام مسيح سميرنا المزعوم بهذا الخَرْق الشامل.

عندها سألتُه إذا كان الاسم المقدس الذي كُشِف لموسى لايشكل، في رأيه، سوى كلٍّ واحدٍ مع اسم الله المئة الذي يبحث عنه بعض شارحي القرآن. أعجبه سؤالي إلى درجة أنه أحاط كتفيّ بيده اليمني وسار معي بضع خطوات على تلك الشاكلة، وهو يكاد يدفعني تقريباً، وهذا النوع من الألفة، من قِبَلِه، أخجلني.

«إنه من دواعي السرور، قال أخيراً بنوعٍ من التأثُّر في صوته، أن يسافر المرء بصحبة علاّمة».

تجنَّبتُ أن أصحح له خطأه، رغم أن العلامة في نظري هو الرجل القادر على الإجابة عن سؤال مماثل وليس الرجل الذي يطرحه.

«تعال! اتبعني!»

قادني إلى غرفة صغيرة جداً أسماها «كابينة أسراري». أفترض أنه قبل صعود هذا الرجل إلى السفينة، لم يكن لهذا المكان حتى اسم، لا«كابينة» ولا «غرفة» ولا «كوخ»، بل مجرد حيِّز ما يُلقى فيه كيسٌ مفزور. لكنّ القواطع الخشبية مغطاة الآن بالستائر والأرض مغطاة بسجادة صغيرة بحجمه والهواء مبَخَّر. جلسنا وجهاً لوجه فوق وسادتين سميكتين. وقد عُلِّق في السقف قنديل زيت. أحضِرت لنا قهوة وحلويات وضعتْ فوق صندوقٍ إلى يساري. في الجانب الآخر فتحة واسعة غير منتظمة تطلّ على الأفق الأزرق. تشكَّل لديّ الانطباعُ الناعم بأني عدتُ إلى غرفة طفولتي هناك في جبيل مقابل البحر.

«هل لِلَّه اسمٌ مئةٌ خبيءٌ يُضاف إلى أسمائه التسع والتسعين التي نعرفها؟ إذا كان له اسم مئة فما هو؟ وهل هو اسم عبراني؟ أم سرياني؟ أم عربي؟ كيف نتعرف عليه إذا رأيناه في كتاب أو إذا سمعناه؟ من عرفَهُ في الماضي؟ وما هي القدرات التي يمنحها هذا الاسم على من امتلكوه؟»

راح صديقي يصفُ الأسئلة دون استعجال، وهو ينظر أحياناً إلي؛ لكن وهو ينظر في معظم الأحيان إلى البعيد. لذا رحت أتأمَّل على مهل شكله الجانبي الشبيه بنسرٍ نحيل وحاجبيه الكثّين النازلين.

«منذ فجر الإسلام والعلماء يتجادلون حول آية من القرآن تتكرر ثلاث مرات بكلمات متماثلة وتُؤوَّل تأويلات عديدة».

ذكرها أصفهاني مفصِّلاً نطق حروفها بعناية: «فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيم».

يأتي الالتباس من حقيقة أنّ «العظيم» في بناء الجملة العربية يمكن إرجاعها إما للخالق نفسه أو لاسمِهِ. في الحالة الأولى ليس في هذه الآية سوى حَضٍّ طبيعي على تمجيد اسم الخالق. أما إذا كان التأويل الثاني هو الصحيح، فإنه يمكن أن يُفهَم بأنَّ الآية تقول: «سبِّح ربَّكَ باسمه العظيم»، مما يوحي بأن هناك، بين أسماء الله الحسنى، اسم أعظم، أرفع من كل الأسماء الأخرى، والابتهال له يمنح المرء فضائل خاصة.

«هكذا استمرّ الجدل منذ قرون، حيث يجد أنصارُ كل تأويل أو يعتقدون أنهم يجدون، في القرآن أو في مختلف الأقوال المنسوبة للرسول، مايساند فرضيتهم أو يطعن في فرضيات الآخرين. عندما قُدِّمَت حجةٌ جديدة، حجة قوية، من قبل علاَّمة من بغداد معروف باسم المازندراني. لا أقول بأنه أقنع الجميع فما زال الناس اليوم على مواقفهم المتضاربة لاسيما وأنّ هذا الرجل لم يكن شخصاً شديد الاحترام. قيل عنه بأنه كان يمارس الخيمياء ويكتب بأبجدياتٍ سحرية ويدرس مختلف علوم السحر والتنجيم الخَفيّة. لكن كان لديه مُريدون عديدون، ويُقال بأنَّ بيته لم يكن يخلو من الناس. هكذا زعزعت حجَّتُهُ القناعات الراسخة وأيقظَتْ شهوةَ العلماء والجاهلين على السواء».

تتلخَّص الحجة، حسب المازندراني، على النحو التالي: إذا فُهِمت الآية المذكورةُ فهمين مختلفين، فهذا يعني أنّ الله الذي يعتقد المسلمون أنه مُنزَلٌ من عنده، قد قصدَ هذا الالتباس.

«وفي الواقع، قال أصفهاني مصرًّاً دون أن يشير بوضوح إلى أنه يؤيّد هذا الرأي، إذا اختار الله هذه العبارة وليس غيرها، وكرَّرَها ثلاث مرات بالكلمات نفسها تقريباً، فلا يمكن بالطبع أن يكون ذلك خطأً أو رعونةً ولا سهواً ولا استخفافاً باللغة ـ عندما يتعلق الأمر به سبحانه، فكل هذه الفرضيات غير واردة. إذا فعل ذلك فقد فعله لقصدٍ ما!

«وبعد أن حوَّلَ المازندراني الشك إلى يقين والغموض إلى وضوح، إذا صحّ القول، تساءلَ: لماذا أراد الله هذا الغموض؟ لماذا لم يقل لمخلوقاته بوضوحٍ بأنّ الاسم العظيم غير موجود؟ وأجاب: إذا اختار الخالق أن يتكلمّ بطريقةٍ غامضة حول مسألة الاسمِ الفائق، فبالتأكيد ليس لكي يخدعنا أو يغشُّنا ـ مرة أخرى إنّ أغراضاً من هذا النوع غير واردة حين يتعلق الأمر به. لم يجعلنا نعتقد بأنّ الاسم الفائق موجود فيما هو غير موجود! بالتالي فإنّ الاسم الفائق موجود بالضرورة. وإذا لم يقُل لنا الخالقُ ذلك بطريقةٍ أوضح، فلأنّ حكمته اللامتناهية تجعله يبينُ الطريقَ للناس الذين يستحقون ذلك فقط. لدى قراءة الآية آنفة الذكر ـ «فسبِّح باسم ربك العظيم» ـ كما لدى قراءة كثير من الآيات القرآنية الأخرى، ستبقى الغالبيةُ مقتنعة بأنها فهمت كل ما يجب فهمه؛ في حين سيتمكّن المُصطَفون، الذين كُشِف لهم السر، من الولوج عبر الباب الثاقب الذي فتحه لهم قليلاً.

«بعد أن اعتبَر المازندراني أنه برهَنَ، دون ظلّ شك، على أن الاسم المئة موجود وأنّ الله لا يمنعنا من محاولة معرفته، فقد وعدَ مريديه بوضع كتابٍ يقول فيه ما هو هذا الاسم وما ليس هو».

«وهذا الكتاب، هل كتَبَهُ؟» سألتُ بصوتٍ فيه بعض الخجل.

«هنا أيضاً تتعارض الآراء. البعض يزعمون أنه لم يكتبه قط، ويؤكد آخرون بأنه كتبه وأنه يدعى كتاب *الاسم المئة*، أو *رسالة الاسم المئة*، أو أيضاً *كشف الاسم المخبوء*».

«مرّ بمحلي كتاب عنوانه هكذا، لكني لم أعرف قط أنه كُتِب بيد المازندراني». ـ كان ذلك أيضاً هو أقلّ كلامٍ كاذب يمكن أن أقوله دون أن أفضح نفسي.

«هل ما يزال معك؟»

«لا. طلبه مني رسول ملك فرنسا حتى قبل أن أتمكن من قراءته، وأعطيته إياه».

«لو كنتُ مكانك، لما أعطيتُ هذا الكتاب، ليس قبل أن أقرأه. ولكن لا تأسف على شيء، كان بالتأكيد نسخة مزيفة...».

أعتقد أني قدمتُ بقدرٍ كافٍ من الأمانة كلام أصفهاني، الشيء الأساسي منه على الأقل، لأننا تحادثنا ثلاث ساعات كاملة.

أظن أنه تكلم معي بإخلاص، وأنوي أن أكلمه بالإخلاص نفسه في لقاءاتنا القادمة، وذلك دون أن أكف عن طرح الأسئلة عليه لأنني واثق من أنه يعرف أشياء أكثر بكثير مما أخبرني به.

21 أيار

نهارٌ باهتٌ باهت.

بقدر ما قدَّم لي نهارُ الأمس من بهجةٍ ومعارف، لم يقدم لي هذا النهار سوى الخيبة وأسباب السخط.

كنتُ بمزاجٍ غثيانيّ منذ استيقاظي. إما أنها عودةٌ لدوار البحر بسبب اهتزازاتٍ السفينة أو أنني أفرطتُ في تناول الحلوى الفارسية القائمة على الصنوبر والفستق والحمُّص والهال.

ونظراً لأنني لم أشعر بأني على ما يرام ولا أشعر بشهية للطعام، قررتُ اتباع حمية طوال النهار والبقاء في مقصورتي للقراءة.

كنت أودّ لو تستمر المحادثة مع « الأمير»، لكني لم أكن في حالة صالحة للمثول أمام أي شخصٍ كان؛ ولكي أهوِّن على نفسي قلتُ في

سري بأنه ربما كان من الأفضل ألا أظهِر نفسي لجوجاً جداً وفضولياً جداً، كأني أريد انتزاع اعترافٍ منه.

في الساعة التي يَقيلُ فيها الجميع أولِ بعد الظهر، عندما قررتُ الذهاب في جولة، كان سطح السفينة مقفراً بالفعل. لكني فجأةً وعلى بعد خطواتٍ مني، رأيتُ القبطان مستنداً إلى الدرابزين، وتبدو عليه هيئة الغارق في التأمل. لم تكن بي رغبة بالكلام معه، لكني لم أشأ كذلك أن أبدو كمن يهرب منه. لذا تابعتُ نزهتي بالخطوة نفسها وعندما وصلتُ إلى مستواه حييتُهُ بلباقة. حياني بالمثل إنما بهيئة غائبة بعض الشيء. وكيلا أطيل الصمت سألته متى سنرسو وفي أي ميناء.

كان ذلك، كما بدا لي، أكثر سؤالٍ يمكن أن يطرحه مسافرٌ لقبطان عاديةً وابتذالاً. لكنّ المدعو سانتوريوني نظر إليّ نظرة ارتياب.

«لماذا هذا السؤال؟ ما الذي تريد أن تعرفه؟».

لماذا يريد مسافرٌ أن يعرف إلى أين تمضي السفينة التي هو على متنها؟ لكني حافظتُ على ابتسامتي كي أشرح له بشبهِ اعتذار:

«الموضوع هو أني لم أشترِ مؤونة كافية في توقفنا الأخير، بدأت بعض الأشياء تنفد...».

«أخطأتَ! يجب أن يكون المسافرُ حريصاً».

كاد يؤدّبني لولا قليلاً. جمعتُ كل ما بقي لي من صبر وتهذيب لكي أنطق بعبارة استئذانٍ بالانصراف وأبتعد.

بعد ساعة أرسلَ لي حساءً مع موريثيو.

ما كنتُ لأقترب منه حتى لو كنتُ بصحة جيدة، فكيف بي اليوم بأحشائي الهشة.

وفي الوقت الذي طلبتُ فيه من البحار الشاب أن ينقل شكري، وجّهتُ تهكّماً محسوساً بحقِّ القبطان. لكن موريثيو أصرَّ أن يتصرف كما لو أنه لم يسمع شيئاً، ولم يكن أمامي من خيار سوى أن أتصرّف كما لو أني لم أقل شيئاً.

ذاك كان نهاري، وأنا الآن أمام صفحتي، القلم في يدي والدمع

في عيني. أشعر هنا فجأةً بشوق لكل شيء. لليابسة لجبيل لسميرنا ولجنوة وحتى لغريغوريو.

نهارٌ باهتٌ باهت.

24 أيار

ألقينا المرساة في ميناء طنجة الواقع فيما وراء جبل طارق وأعمدة هرقل، والتابع منذ وقت قليل للتاج الإنكليزي ـ الأمر الذي أعترف بأني كنتُ حتى هذا الصباح أجهله. صحيح أنه تبع طوال قرنين للبرتغال التي أخضعته وكان لها السلطة الغالبة فيه؛ لكنّ كاترين دو براغانس حين تزوجتْ قبل أربع أو خمس سنين، من الملك تشارلز، قدمتْ له موضِعين بمثابة مهر، أحدهما هذا الميناء والثاني مدينة بومباي في الهند. وصَلَني بأن الضباط الإنكليز المرسَلين إلى هناك ليسوا شديدي السرور ويقولون كلاماً فظاً عما يَعتبرونه هديةً عديمة القيمة.

بدت لي المدينة مع ذلك، متأنِّقةً. شوارعها الرئيسية مستقيمة وعريضة وعلى طرفيها منازل متينة البناء. كما رأيت فيها حقول برتقال وليمون تطْلق عطراً مُدوِّخاً. تسود هنا طراوةٌ تعود إلى القرب من المتوسط والأطلسي والصحراء غير البعيدة، وجبال الأطلس. لاتوجد بقعة أخرى في العالم واقعة عند ملتقى هذه المناخات الأربعة. هذه في نظري أرض يُسعِد أيَّ ملك امتلاكُها. التقيت وأنا أتنزه ببرجوازيٍّ برتغالي عجوز وُلد في هذه المدينة ورفض مغادرتها مع جنود مليكه. يدعى سباستياو ماجلان. (أليس سليل البحار المشهور؟ لا، وإلاّ لَقال لي ذلك حتماً...) هو الذي نقل لي ما يجري التّهامُس حوله، وزعم أنه مقتنع من أن سخرية الضباط الانكليز تعود فقط لكون زوجة ملكهم «بابوية»؛ ويعتقد بعضهم بأن البابا نفسه شجَّع هذا الزواج خفيةً سعياً لإعادة إنكلترا إلى صفه.

إلا أنه، إذا صدَّقنا كلام محدِّثي، يمكن تفسير هذا الزواج بطريقة

أخرى: البرتغال في حالة حرب دائمة ضد إسبانيا التي لم تتخلَّ عن فكرة غزوها، وتسعى لتعزيز علاقاتها مع أعداء عدوِّها.

وعدتُ نفسي أنني عند أول مكان نرسو فيه سأدعو صديقيَّ الفارسي والبندقاني دعوةً ملكية، باعتبار أنه ليست لدي إمكانية إطعامهما على متن السفينة. فكرت أن أستفسر عن أفضل مطاعم المكان، وحين أسعدني الحظ بلقاء السيد ماجلان، طلبتُ نصيحته. أجابني في الحال بأنه يرحب بي في بيته؛ شكرته وشرحت له بصدق بأن هناك عدة دعواتٍ عليَّ أن أردَّها، وأنني لن أرتاح إذا عدتُ إلى السفينة دون ردِّ دَيْني لصديقيّ. لكنه رفض سماع أي عذر.

«لو كان لك أخ في هذه المدينة، أما كنتَ ستدعوهما إلى مائدته؟ اعتبر الأمر هكذا، وكن واثقاً من أن الوضع في مكتبتي سيكون أفضل بكثير لتبادل الحديث كأصدقاء، مما في حانةٍ بالميناء».

25 أيار

لم أستطع الإمساك بالقلم ثانيةً مساء أمس. كان الظلام مخيِّماً لدى عودتي من عند ماجلان، وقد أكلتُ وشربتُ أكثر مما أستطيع معه العودة إلى الكتابة.

كان مضيفنا حتى قد أصرّ كي نبيت الليلة عنده، الشيء الذي كنتُ سأقبل به بطيبة خاطر بعد كل تلك الليالي التي قضيتُها فوق أسرةٍ مهتزَّة. لكنني خشيتُ أن يقرر القبطان الإبحار قبلَ الفجر وفضَّلتُ الانصراف.

الوقت الآن ظهراً وما زالت السفينة راسية. كل شيء يبدو هادئاً جداً من حولنا. يبدو لي أننا لسنا على وشك الرحيل.

مضت أمسية البارحة بشكل ممتع، لكن لم يكن بيننا أية لغة

مشتركة مما خلع عن اجتماعنا جزءاً من أهميته. الأب أنج رافقَ سيدَهُ بالطبع لكي يترجم له، لكنه لم يقم بمهمته إلاّ بكَسَل. انشغل أحياناً بالأكل وأحياناً لم يستمع وطلب تكرار الكلام، وأحياناً أيضاً راح يترجم شرحاً طويلاً بكلمتين مقتضبتين، إما لأنه لم يلتقط كل شيء أو لأن بعض ما قيل لايوافقه.

هكذا، وفي لحظة محددة، أراد أصفهاني الذي كان قد أبدى اهتماماً كبيراً بموسكوفيا وبكل ما يقوله البندقاني عن أهلها وعاداتهم، أراد أن يستعلم عن الفروق الدينية بين الأرثوذوكس والكاثوليك. راح جيرولامو يشرح له كل ما يأخذه بطريرك موسكو على البابا. لم يكن آنج يحب تكرار أشياء مماثلة، وعندما قال دُرّاتزي بأنه يلذُّ للموسكوفيين كما للإنكليز أن يسموا قداسة البابا «مسيحاً دجالاً»، احتقنَ القسيس، أفلتَ سكينه بضجيج، وقال للبندقاني بشَفَةٍ مرتجِفة:

«من الأفضل أن تتعلم الفارسية لكي تقول بنفسك هذه الأشياء، أنا لا أريد أن ألوِّث فمي ولا أُذُنَ الأمير».

جعل الغضبُ الأبَ آنج يتكلم بالفرنسية، لكن جميع الأشخاص الحاضرين، أياً كانت لغتهم، فهموا كلمة «أمير». وعبثاً حاول القسيس الاستدراك، لكن الخطأ كان قد وقع. لا أدري إن كان صاحبُ عبارةِ: «مترجِمٌ، خائن» قد فكَّرَ قديماً بحادثٍ مشابهٍ عندما قال عبارته تلك.

هكذا عرفت أخيراً بعد شهر من الإبحار بأنّ أصفهاني أمير بالفعل. ربما أعرف قبل النزول في لندن من يكون بالضبط ولأي سبب يسافر.

مساء أمس، على المائدة، وفيما كنا قد تكلمنا للتو للمرة الثانية عن تنازل البرتغاليين عن طنجة، مال نحوي لكي يطلب مني أن أشرح له يوماً، بالتفصيل، التوافُقات والعداوات بين مختلف الأمم المسيحية. وعدتُهُ بأن أقول له القليل الذي أعرفه. وشرحتُ له، كتمهيد، نصف مازِح، بأننا إذا أردنا فهم أي شيءٍ مما يحدث حولنا، يجب أن نُبقي في أذهاننا بأنّ الإنكليز يكرهون الإسبان وأنّ الإسبان يكرهون الإنكليز

وأنّ الهولنديين يكرهون هؤلاء وأولئك، وأنّ الفرنسيين يكرهون الثلاثة بشدة...

فجأةً رماني جيرولامو الذي يعلم الله كيف فهِمَ ما قلتُهُ للتو على انفرادٍ وبالعربية، بالتعقيب التالي:

«اشرح له أيضاً بأنّ السيينيين يلعنون الفلورنسيين، وأنّ الجنويين يفضّلون الأتراك على البندقانيين...».

ترجمتُ حرفياً قبل أن أحتجّ بالحِدَّة الأكثر خبثاً.

«الدليل على أنه لم يعد لدينا أي ضغينةٍ ضد البندقية هو أننا، أنا وأنت نتكلم كأصدقاء».

«الآن نعم، نتكلم كأصدقاء. لكنك في البداية، كنتَ كلما حييتَني تنظر حولك لكي تتأكد من أنّ أي جنويٍّ آخر لم يرك».

أنكرتُ أيضاً. لكنه ربما ليس مخطئاً، باستثناء أني كنتُ أنظر نحو السماء حيث يُفترض أنّ أجدادي، ليحلَّ السلام على أرواحهم، يرقدون، أكثر مما كنتُ أنظر من حولي.

ترجمتُ كلامنا لـِ «سُموِّه» لكني لا أعرف إذا فهمَ. بلى، على الأرجح أنه فهم. ألا يوجد في فارس ما يشبه جنوة والبندقية، فلورنسة وسيين، ألا يوجد منشقّون ومتعصّبون وأيضاً ممالك وشعوب تتخاصم مثل إنكليزيينا وإسبانيينا وبرتغاليينا؟

لم تبحر *سانكتوس ديونيزيوس* إلاّ عند طلوع النهار. كان بإمكاننا قضاء الليلة الماضية في الأسِرّة المِضيافة التي عرَضَها علينا ماجلاّن. لو حدث ذلك ستكون من أكثر الليالي ترميماً للقوى! لكني أُخطئ بمغادرتي طنجة متأسِّفاً بدلاً من أن أبارك السماء على لقاءٍ غير منتَظَر جعَلَ هذا التوقفَ مضيئاً. أرجو أن نكون قد مَنحْنا مضيفَنا القدرَ نفسَهُ الذي منَحَنا إياه من السعادة، وأن يكون مرورنا قد خفَّفَ من كآبته قليلاً. كان شخصاً محترماً أيام البرتغاليين، لكن منذ أن امتلكَ الإنكليزُ المكان يشعر بأنه فقدَ كل اعتبار. ولكن ما العمل، يقول لي؟ إنه بعد أن أمضى ستين عاماً لا يستطيع مغادرة بيته وأراضيه لكي يذهب

ويبدأ حياته من جديد في مكان آخر، لاسيما أن الإنكليز ليسوا أعداء وأنّ ملكتهم تدعى كاترين دو براغانس.

«ها أنذا قد أصبحتُ منفياً دون أن أغادر بلدي».

إنها كلمات يستطيع جنويٌّ يعيش فيما وراء البحر أن يفهمها، أليس كذلك؟

بوركتَ يا سيباستياو ماجلاّن، وليمنحك الله الصبر!

26 أيار

رغم كل شيء، ربما يكون هناك نوع من الترابط المنطقي في جنون القبطان.

على حد زعم جيرولامو، لو أن سنتوريوني اختار التوقف في طنجة متجنِّباً كل موانئ الساحل الإسباني، فلأن في سفينته حمولة هامة إلى إنكلترا ويخشى أن تُصادَر. ولهذا السبب يتجه الآن إلى لشبونة دون نية بالتوقف في كاديكس ولا في إشبيلية.

لم أحكِ لِـ دُرّاتزي - ولا لأي إنسان - عن الشياطين الطائرة، لكني أريد حقاً أن أفترض بأنّ جنون القبطان يمكن أن يكون تظاهُراً من أجل تغطية خطِّ سيره الشارد.

إذا كنتُ غير قادرٍ بعد على إقناع نفسي بذلك، فإنني أتمنى كثيراً أن يكون صحيحاً. أفضِّل أن أعرف أنّ السفينة يقودها رجل ماكر إلى درجة شيطانية، وليس مختلاً خالصاً.

اليوم، دعانا الأمير علي إلى مائدته، أنا وجيرولامو. توقعتُ أن يكون الأب آنج معنا، لكنّ مضيفنا شرح لنا بأن ترجمانه نذرَ أن يصوم هذا النهار بطوله، ويصمت مكرِّساً نفسه للتأمُّل. أعتقد أنه بالدرجة الأولى لا يرغب بترجمة كلام زندقة. لذا تَحَتَّمَ عليّ أنا أن أقوم بتحويل الإيطالية إلى عربية والعربية إلى إيطالية. أملك اللغتين بالطبع ولا أجد

أي عسر في الانتقال من إحداها إلى الأخرى. لكن لم يسبق لي أبداً أن كان عليّ أن أترجم طوال وجبة طعام، وكل كلمة تقال، ووجدتُ المهمة منهِكة. لم أستطع الاستمتاع بالطعام ولا بالمحادثة.

وفضلاً عن الجهد المتعلق بالترجمة نفسها، اضطررتُ، مثل الأب آنج، لمواجهة الإرباك الذي يَتفَنَّنُ دُرّاتزي في خلقه.

إنه ينتمي إلى أولئك الناس العاجزين عن ضبط الكلمات التي تقف على رؤوس ألسنتهم. لذا لم يستطع منع نفسه من الكلام عن مشاريع ملك فرنسا بخصوص الحرب ضد السلطان، وعن أنّ صوفيَّ فارس تعهَّدَ بمهاجمة العثمانيين من الخلف. أراد أن يخبره مضيفُنا إذا كان تحالُفاً مماثلاً قد عُقِد حقاً. حاولتُ ردع صديقي عن طرح هذا السؤال شديد الحساسية، لكنه أصرَّ بطريقة تُقارِب السوقية، أن أترجمه كلمة كلمة. ففعلتُ، لفرطٍ في التهذيب أو في الضعف، ومثلما توقعت، رفض الأمير الإجابة، بجفاف. وحدث ما هو أسوأ، فقد قال إنه تَعبَ فجأة ونعِس، فاضطررنا للنهوض حالاً.

لديّ إحساس بأني أُهِنت، وأني فقدتُ صديقين دفعة واحدة.

أتساءل هذا المساء إذا لم يكن أبي محِقَّاً في كرهه لأهل البندقية، وحين يقول بأنهم متعنِّتين مخادعين، وحين يضيف - خاصةً عندما يكون لديه زوَّار آخرون إيطاليون - بأنهم يسيئون التخفِّي تحديداً عندما يرتدون أقنعتهم!

27 أيار

عندما فتحتُ عيني هذا الصباح كان أحد «وحوش» الأمير علي ينتصب أمامي. أطلقتُ صرخة رعب، لكنّ الرجل لم يهتزّ. انتظر أن أجلس وأفرك عينيّ لكي يمد لي يده برسالة قصيرة يرجوني سيدُهُ فيها بالمجيء وشرب القهوة عنده.

تمنيتُ أن يكلمني مرة أخرى عن *الاسم المئة*، لكني سرعان مافهمتُ بأنه أراد فقط محو الانطباع الذي كوَّنتُهُ أمس عندما قام تقريباً بطردِنا.

أراد أيضاً، بدعوته لي دون جيرولامو، أن يسجِّل الفارِق بيننا.

لن أبادر بعد الآن بالجمع بينهما...

الأول من حزيران

تذكرتُ للتو نبوءة ساباتاي بأنّ زمن نهاية العالم يبدأ في شهر حزيران الذي ندخله هذا الصباح بالذات. أي يوم من حزيران؟ أجهل ذلك. الراهب إيجيديو هو الذي حدَّثني عن هذه النبوءة ولا أظن أنه حدد لي التاريخ.

قرأتُ للتو الصفحة المعنية، صفحة 10 نيسان، وتحققتُ من أني لم أتحدث فيها عن هذه النبوءة. لكني أذكر مع ذلك أني سمعتُها. ربما ليس في ذلك اليوم.

تذكرتُ الآن. كان ذلك في سميرنا، بعد قليل من وصولي إلى تلك المدينة. نعم أنا متأكد من ذلك حتى لو تعذَّر عليّ التحقق من الأمر طالما لم يعد دفتري بحوزتي...

لم يسمع دُراتزي عن نهاية عالم مقررة في شهر حزيران. ويسخر منها مثلما يسخر من تلك النهاية الخاصة بالموسكوفيين الملهَمين المقررة في أول أيلول.

«نهاية العالم بالنسبة لي، هي إذا سقطتُ في البحر»، قال بوقاحة.

أتساءل مرة أخرى إذا كان ذلك حكمةً أم عماء...

في لشبونة 3 حزيران

بعد ثمانية أيام من الإبحار، ألقتْ *سانكتوس ديونيزيوس* المرساة في مرسى لشبونة. وبالكاد وصلنا، حتى واجهتُ خيبة أملٍ خطيرة كادت تنقلب إلى كارثة. لم أرتكب أي خطأ سوى جهلي بما يعرفه الآخرون سلفاً؛ ولكن ليس هناك خطأ أسوأ من الجهل...

قبل أن ننزل إلى البر بقليل، وفيما كنتُ أستعد قبل كل شيء للذهاب إلى السيد كريستوفورو غابيانو الذي يجب أن أسلمه الرسالة التي حمَّلني إياها غريغوريو، أرسل لي أصفهاني بخطه الجميل، كلمة ترجوني المجيء لرؤيته في مقصوراته. كان غاضباً من الأب آنج الذي اتهمه بعدم احترامه وبقصَرِ النظرِ والجحود. بعد قليل رأيتُ القسيس يخرج بدوره من مقصورته حاملاً أمتعته، ويبدو عليه القدر نفسه من الاستياء. سبب شجارهما هو أن الأمير تمنى الذهاب إلى يسوعي برتغالي كلمني عنه أثناء السفر، هو الأب فييرا الذي صدرت عنه بعض التنبؤات المتعلقة بنهاية العالم، وتنبؤات أخرى تبشر بالانهيار الوشيك للامبراطورية العثمانية. منذ أن علمَ الفارسيُّ، قبل بضعة شهور، بوجود هذا القسّ، عاهد نفسَهُ بأن يلقاه حتماً إذا مرَّ بلشبونة، ويطلب منه مزيداً من التفاصيل حول هذه التنبؤات التي تهمه إلى أقصى حد. لكنه حين دعا الأب آنج كي يرافقه في هذه الزيارة ويترجم له، عانَدَ رجلُ الدين بجموحٍ مؤكداً أن هذا اليسوعي هرطوقيٌّ زنديق ارتكب بغطرسته خطيئةَ ادِّعاءِ معرفةِ المستقبل، وأنه يرفض لقاءه. وحين لم يستطع الأمير أن يغير له رأيه، تمنى أن أحلَّ محله. لم أر أي مانع في ذلك، بل على العكس. كنتُ مهتماً مثله بما يمكن لذاك الرجل أن يقوله. سواء فيما يتعلق بنهاية الزمان أو بمصير الامبراطورية على الإقليم الذي أقيم فيه. لذا سارعتُ بالقبول واستفدتُ من الفرح الذي جلبتُهُ لأصفهاني لكي آخذ منه وعداً بألاّ يكنّ ضغينةً للأب آنج الذي يحتِّم عليه واجبُهُ الامتثال لمعتَقَدِهِ وللنذور التي نذَرَها، وأن يرى في موقفه دليل ولاءٍ صارم وليس دليل خيانة.

بالكاد وطئنا اليابسة، أنا والأمير وحارساه «الوحشان»، حتى توجهنا إلى كنيسة كبيرة في حي الميناء. التقيتُ أمامها بطالبٍ في المدرسة الأكليريكية سألتُهُ إذا كان يعرف الأب فييرا، وإذا كان بوسعه أن يرشدني إلى مكان إقامته. أظلمتْ نظرتُهُ قليلاً، لكنه رجاني أن أتبعه إلى بيت كاهن الرعية. هذا ما حدث فيما بقي الأمير وحارساه خارجاً.

حين أصبحتُ في الداخل، دعاني الطالب للجلوس ووعد أن يذهب ويبحث عن أحد رؤسائه الذين يستطيعون تزويدي على نحوٍ أفضل بالمعلومات. غاب بضع دقائق ثم عاد ليقول لي بأنّ «الكاهن» قادم. انتظرتُ وانتظرت، ثم بدأ صبري ينفد لاسيما أنّ الأمير كان ما يزال في الشارع. وفي لحظةٍ ما، نهضتُ فاقِداً القدرةَ على الاحتمال، وفتحتُ الباب الذي خرج منه الشاب. كان هناك يراقبني من خلال الشق، وحين رآني، جَفلَ كمَنْ حلَّت عليه اللعنة.

«ربما أتيتُ في وقت لا يناسبكم، قلتُ له بتهذيب. أعود غداً إذا شئتَ. وصلت سفينتنا للتو، ونحن باقون في لشبونة حتى يوم الأحد».

«هل أنت من أصدقاء الأب فييرا؟»

«لا، نحن لم نتعرف عليه بعد، لكننا سمعنا عن كتاباته».

«هل قرأتموها؟»

«لا، للأسف، ليس بعد».

«هل تعرف أين يقيم في هذه اللحظة؟»

بدأتُ أجدهُ مُغيظاً، أقول في سري بأني وقعتُ حتماً على شخصٍ مغفَّل.

«لو كنتُ أعرف أين يقيم الأب فييرا، لما جئتُ أسألكم!»

«إنه في السجن بأمر من محكمة التفتيش!»

بدأ الشاب يشرح لي الأسباب التي سُجن اليسوعي لأجلها بأمر من محكمة التفتيش، لكني تذرَّعتُ بأني على عجلة من أمري لكي أغادر المبنى بأسرع ما يمكن، ورجوتُ أصفهاني ورَجُلَيه أن يحثا الخطى دون النظر إلى الوراء. لا أعرف بالضبط من أي شيء كنتُ خائفاً.

ورغم اقتناعي بأنه ليس هناك ما أُلام عليه، فلم تكن لدي رغبة إطلاقاً بالمثول، يومَ وصولي ذاته إلى هذه المدينة، أمام كاهن أو مطران أو قاضٍ أو أي ممثل آخر للسلطة، وبالأخص أمام محكمة التفتيش!

وحين رويتُ لدُراتزي، لدى عودتي إلى السفينة، ما حدث معنا، قال لي بأنه من جهته كان يعلم بأن محكمة التفتيش أدانت فييرا وأنه في السجن منذ العام الماضي.

«كان يجب أن تقول لي بأنك تريد لقاء هذا الكاهن، كنتُ سأحذرك. ولو أنك تُكثِر من الكلام معي مثلما أفعل معك، لجَنَّبتَ نفسَكَ هذه الخيبة!» قال لي مُوَبِّخاً.

دون شك. لكني كنت ربما سأوقع نفسي في ألف خيبة غيرها.

من جانب آخر - ولكي أذكر قليلاً الجوانب الجيدة للأسفار - استفسرتُ هذا المساء عن أفضل مطاعم لشبونة لكي أتمكن من دعوة صديقيّ مساء غدٍ، الشيء الذي لم أستطع القيام به عند نزولنا في طنجة. كلموني عن مطعم مشهور جداً تُقدَّم فيه أسماك مع توابل من جميع أنحاء العالم. كنتُ قد عاهدتُ نفسي بعد الجمع بين الفارسي والبندقاني، لكن الأمير يستطيع الآن التفريق بيني وبين جيرولامو، وعليّ أن أسكِتَ موانِعي وتَأنُّقي. لسنا كُثُراً نحن الذين نستطيع التَّحدُّث كرجالٍ أفاضل على متن هذه السفينة!

في عرض البحر، 4 حزيران 1666

ذهبتُ باكراً هذا الصباح إلى السيد غابيانو. وقد غيرتْ هذه الزيارةُ التي كان يُفترض أن تكون مقتضبة ولبِقة، وإجمالاً تافهة، غيرتْ مسارَ رحلتي ورحلة رفيقيّ.

عثرتُ دون أية صعوبة على عنوانه، لقُربِ مكاتبه من الميناء. أبوه من ميلانو وأمه برتغالية، يقيم في لشبونة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، حيث يرعى الآن مصالح العديد من التجار من مختلف البلدان، إضافةً

إلى أعماله الخاصة. حين كلّمني غريغوريو عنه، تشكّلَ لدي انطباع بأنه عميل له، ويكاد يكون تابعه؛ لكني ربما أسأتُ تأويل كلامه. على أية حال يبدو الرجل صاحب سفنٍ مزدهر الحال، وتشغل مكاتبه مبنىً كاملاً من أربعة طوابق، ينهمك فيها باستمرار حوالى ستين شخصاً. كانت الحرارة خانقة رغم أننا في الصباح، وثمة امرأة خلاسية تقف وراءه وتُرَوِّح له؛ وبما أنه كان واضحاً أن ذلك لا يكفيه، فقد راح من وقت لآخر يروِّح بالأوراق التي يقرأها لكي يبترد.

ورغم خمسة زائرين آخرين يلحّون عليه ويكلمونه جميعاً في آن معاً، فقد أبدى اهتماماً عند ذكر اسمي واسم منجيافاتشا، وفتح الرسالة حالاً قبل أن يتصفَّحها بصمت، مقطِّب الجبين؛ نادى أمين سره وهمس في أذنه، برصانة، ببضع كلمات، ثم اعتذر مني لأنه مضطر أن يهتم لحظةً بالأشخاص الآخرين. غاب الموظف دقائق ثم عاد يحمل مبلغاً معتبَراً ـ زهاء أَلْفَيْ فورين.

وحين أبديتُ مفاجأتي، قدَّم لي غابيانو الرسالة التي سبق أن استلمتُها مختومةً. بعد العبارات المتعارف عليها، طلب منه غريغوريو فقط أن يسلمني باليد المبلغ المذكور الذي يجب أن أحمله له إلى جنوة.

إلى أي شيء يسعى «حَمِيَّ» المزعوم؟ يريد إرغامي على المرور به لدى عودتي من لندن؟ دون شك. هذه الحسابات تشبهه حقاً!

حاولتُ أن أشرح لمضيفي بأني متردد في حمل مبلغ بهذه الضخامة معي، لا سيما أني لا أنوي المرور بجنوة على الإطلاق. كان يدين بهذا المبلغ لغريغوريو وبما أنّ هذا يطالبه به، لم يكن وارداً ألاّ يرسله له. بعد ذلك أفهَمَني أنّ لي الخيار إما أن أمرَّ بجنوة أو أجد وسيلة لإيصال هذا المبلغ لصاحبه.

«لكن ليس لدي على السفينة أي مكان آمِن...».

ودون أن يقلِّل الرجلُ من لباقته، وجَّهَ إليّ ابتسامةً مُغتاظة قليلاً، مشيراً لي بحركة واحدة، إلى كل هؤلاء الناس نافِدي الصبر من حوله. بصريح العبارة، إنه لا يستطيع، فضلاً عن مشاكله الخاصة، أن يربك نفسه في مشاكلي!

وضعتُ كيس النقود الثقيل في حقيبتي القماشية. ونهضتُ مستسلماً، مهموماً، وقلتُ له كأنني أكلِّم نفسي:

«حين أفكِّر بأني سأحمل مبلغاً كهذا حتى لندن!»

هذا السهم الأخير الذي رميتُ به بلا تبصُّرٍ، هو الذي أصاب.

«تقول إلى لندن؟ لا، صدِّقْني، سيكون ذلك جنوناً، لا تذهب إليها! تلقيتُ للتو أنباءً موثوقة جداً تؤكد بأنّ سفناً عديدة متجهة إلى إنكلترا قد فُتِّشَت من قبل الهولنديين. وفوق ذلك فإن معركة كبيرة تجري في البحر على طريقكم. من الجنون الإبحار الآن».

«ينوي القبطان الرحيل بعد غد، الأحد».

«مبكر جداً! قلْ له على لساني بأنه يجب ألا يذهب. سيعرِّض مركبه للخطر، أو الأفضل أن تقول له أن يأتي، حتماً، لرؤيتي بعد ظهر هذا اليوم، فأشرح له الوضع. من هو قبطانكم؟»

«يدعى سنتوريوني، على ما أظن. القبطان سنتوريوني».

قلبَ غابيانو شفته بما يعني أنه لا يعرفه. كدتُ آخذهُ جانباً لأكلمه عن جنون القبطان، لكني شعرتُ بأن ذلك سيكون سلوكاً أخرق. ثار الناس من حولي وهم يوجهون لي نظرات غيظ؛ ما لديَّ لأقوله كان شيئاً دقيقاً؛ وإذا تكلَّمَ هذا الرجل مباشرةً إلى سنتوريوني، فما من شك بأنه سيلتقط من تلقاء نفسه ما كنتُ سأجهد نفسي في شرحه له.

لذا، ركضتُ إلى السفينة، واتجهتُ مباشرةً إلى مقر القبطان. كان بمفرده غارقاً في التأمل أو في حديث صامت مع شياطينه. رجاني بتهذيب أن أجلس مقابله، ورفع رأسه نحوي ببطءِ حكيمٍ كبير.

«ما الذي يحدث؟»

وبينما رحتُ أُطلِعه على ما علمتُهُ، بدا عليه أنه يستمع إليّ بتركيز؛ وحين قلتُ له بأنّ السيد غابيانو يتمنى أن يكلمه شخصياً ليحيطه علماً بكل الظروف التي تجعل رحلتنا إلى لندن خطرة، فتح سنتوريوني عينيه على وسعهما، نهض عن مقعده، طبطب على كتفي وهو يرجوني أن أنتظره دون أن أتحرك من مكاني، لأن عليه أن يتغيّب لإعطاء بعض الأوامر لرجاله، ثم نذهب معاً لرؤية هذا الـ غابيانو.

في لحظة، وبينما كنتُ ما أزال بالانتظار، مرَّ القبطان مثل لفحةِ ريحٍ بمقره، فقط لكي يطمئنني بأنه يتخذ جميع الإجراءات التي تمكّننا من الانطلاق. كنتُ مقتنعاً بأنه إذ يقول ذلك فإنه يقصد به «لكي نستطيع الانطلاق أنا وهو إلى غابيانو». لكني أسأتُ الفهم أو أنه خدعني. الشيء الذي فعله فيما كنتُ أنتظره، هو أنه أمرَ رجاله بأن يرخوا القُلوس وينشروا الأشرعة لمغادرة لشبونة بأسرع وقت.

عاد الآن ليخبرني بذلك دون أي لبس:

«إننا ننطلق باتجاه عرض البحر!»

قفزتُ من مقعدي مثل مجنون. ورجاني هو، بهدوء، أن أعود للجلوس لكي يستطيع أن يشرح لي حقيقة الأشياء.

«ألم تلاحظ شيئاً عند «صاحبك ذاك» الذي ذهبتَ لرؤيته؟»

لاحظتُ أشياء كثيرة لكني لم أفهم إلامَ يلمّح. ولا لماذا يسمح لنفسه بتسمية شخص كهذا بـ «صاحبك ذاك».

عندها استأنف القبطان قائلاً:

«ألم تلاحظ شيئاً عند غابيانو ذاك؟»

فهمتُ أخيراً من الطريقة التي نطقَ بها هذا الاسم. إذا دخلَ المجنونُ الماثل أمامي في هذيانه لمجرد رؤية نورس أو زمَّجَ ماءٍ يمرّ، ففي أي اختلالٍ سيغرق إذا علم بأنّ الرجل الذي يطلب منه تأخير سفره يدعى تحديداً «غابيانو(*)»؟ إني محظوظ لأنه اعتبَرَني صديقاً جاء يحذِّره من المؤامرة، وليس شيطاناً متخَفّياً في لبوس مسافرٍ جنويّ. ولحسن الحظ أني أدعى أمبرياتشو وليس مارانغوني(**) مثلما كان يدعى تاجرٌ من أمالفي(***) تعامَلَ معه والدي!

إذن، لقد غادرنا لشبونة للتو!

(*) الكلمة الإيطالية «غابيانو» تعني النورس كما تعني زمَّج الماء.
(**) مارانغوني تعني طير الغاق.
(***) مدينة أمالفي هي ميناء إيطالي يقع جنوبي نابولي على خليج ساليرن. عرفت المدينة فترة مشرقة بين القرنين العاشر والثاني عشر.

لم تكن أول فكرة تخطر لي تتعلق بي وبرفاقي في المصيبة، الذين سنبجر وإياهم وسط الزوارق المسلحة الهائجة، يتهدَّدُنا الموت أو الأسر؛ لا، بل كان أول ما خطرَ لي - على نحوٍ غريب - هو الأسف على المساكين الذين تركناهم في لشبونة. وجدتُ أنه من غير المقبول ألاّ ينتظر القبطان عودتهم إلى السفينة، في الوقت الذي أعرف فيه بأنّ هذا الإهمال المُدان سيحفظ لهم حياتهم ويجنِّبهم البلايا التي ستصيبنا حتماً دون رحمة.

فكرتُ بالطبع أولاً بالصديقين اللذين تعرفت عليهما أثناء هذه الرحلة، دُراتزي وأصفهاني. رأيتهما يذهبان هذا الصباح وقت ذهابي نفسه، واستطعتُ للأسف أن أتحقق من أنهما لم يعودا إلى السفينة. وعداني بأن يكونا ضيفيَّ هذا المساء، وعاهدتُ نفسي أن أعاملهما بطريقة تليق بمكانتهما كما تليق بصداقتنا، ولا ينسيانها...

لكننا الآن جاوزنا كل ذلك. أنا مبحر نحو المجهول بقيادة مجنون، وربما كان صديقاي على الرصيف يشتكيان وهما يشاهدان سفينتهما *سانكتوس ديونيزيوس* تبتعد على نحوٍ غير قابل للتفسير.

هذا المساء، لستُ الوحيد في السفينة، الذي أُسقِط في يده. المسافرون القلائل وجميع أفراد الطاقم، لديهم شعور بأنهم أصبحوا رهائن لن يسَدِّد أحدٌ فِدْيَتَهُم قط. رهائن للقبطان أو للشياطين التي تطارده، رهائن للقدر، ضحايا قادمة للحرب - لدينا شعور بأننا جميعاً، تجاراً أو بحارة، أغنياء أو فقراء، نبلاء أو خدماً، لم نعد سوى لُمامَةٍ من حيواتٍ ضائعة.

في عرض البحر، 7 حزيران 1666

بدلاً من أن تشق سانكتوس ديونيزيوس طريقها شمالاً وتُحاذي السواحل البرتغالية، راحت تتجه منذ ثلاثة أيام نحو الغرب، مباشرةً نحو الغرب، كأنها تمضي باتجاه العالم الجديد. نحن الآن وسط الأطلسي الشاسع. هاج البحر وأسمع الصرخات مع كل هزة.

يُفترض أن أكون مذعوراً، لكني لستُ كذلك. يُفترض أن أكون مغتاظاً لكني لستُ كذلك. يُفترض أن أثور أن أركض وأطرح ألف سؤال على القبطان المجنون، وأنا جالس كما يجلس خياط، في مقصورتي فوق غطاء مطويٍّ ثماني طيّات. يتملّكني هدوءُ بالِ النعاج، هدوء بال المحتَضَرين المتقدمين في العمر.

في هذه اللحظة، لا أخشى الغرق ولا الأسر، أخشى دوار البحر.

8 حزيران

مساء اليوم الرابع، وربما بعد أن قدَّر القبطانُ بأنه ضلَّلَ الشياطين التي تطارده، على نحوٍ كافٍ، غيَّر وجهة السفينة ليتجه شمالاً.

أمّا أنا فما زلتُ لا أستطيع التخلص من دواري ومن نوبات غثياني. ألزم الغرفة وأتجنب الإكثار من الكتابة.

حمل لي موريثيو اليوم طبقَ طعامِ البحارة المشترك. لم أقترب منه.

12 حزيران

في هذا اليوم، وهو اليوم التاسع من رحلتنا إلى لندن، بقيت سانكتوس ديونيزيوس ثلاث ساعات بلا حراك أثناء المدّ ـ لكني عاجز عن معرفة في أية نقطة من المحيط كنا موجودين، وقرب أية سواحل.

صادفنا سفينة جنوية أخرى هي *أليغرانيكا* التي بثَّت لنا إشارات وأرسلت لنا رسولاً رفعناه إلى السطح. وسرعان ما سرت شائعات تؤكد قيام معركة طاحنة بين الهولنديين والإنكليز، تجعل الطريق الذي سلكناه خطِراً.

لم يمكث الرسول أكثر من بضع دقائق في مقر القبطان. وبعدها أغلق هذا الأخير على نفسه لحظة طويلة، دون إعطاء أية أوامر لرجاله، فيما كانت سفينتنا تتأرجَح في مكانها، طاويةً أشرعتها. لا

شك أن سنتوريوني يتردد بشأن القرار الذي عليه اتخاذه. هل يجب الرجوع؟ هل يجب اللجوء إلى مكان ما وترقب الأنباء؟ أم تغيير المسار للالتفاف على منطقة المعارك؟

حسب موريثيو الذي استجوبتُهُ هذا المساء، ربما كان خط سيرنا هو نفسه تقريباً مع الانحراف قليلاً جداً نحو الشمال الشرقي. قلتُ له بوضوح بأني أجد أنه من غير العقلانيّ من جانب القبطان أن يجازف بهذا الشكل، لكن البحار الفتى تظاهر بأنه لم يسمعني. لم ألحّ عليه هذه المرة أيضاً، لأني لم أشأ أن أثقل كاهله، وهو في ريعان العمر، بأسبابِ قلقٍ جسيمةٍ بهذا الشكل.

22 حزيران

خرجتُ الليلة الماضية للنزهة على سطح السفينة لأني عانيتُ من الأرقِ وعودة دوار البحر، ولاحظتُ في البعيد، إلى يميننا، ضوءاً مريباً، بدا لي كأنه سفينة تشتعل.

تأكدتُ في الصباح من أن أحداً سواي لم ير ذلك. حتى أنني تساءلتُ إذا لم يخدعني بصري عندما سمعتُ، في المساء، صوت السفن المسلحة في البعيد. هذه المرة كانت السفينة كلها في حالة هياج. إننا نتجه بخفةٍ نحو ميدان القتال، ولا أحد يفكر بإعادة القبطان إلى جادة الصواب أو رفض سلطته.

هل أكون الوحيد الذي يعرف بأنه مجنون؟

23 حزيران

اشتدت أصوات الحرب أمامنا ووراءنا أيضاً، لكننا ما زلنا نتقدم، رابطي الجأش، نحو وجهتنا ـ نحو مصيرنا.

سيدهشني حقاً أن نصل سالمين إلى لندن... أشكر الله لأني لستُ منجِّماً ولا عرّافاً، وكثيراً ما أكون مخطئاً. عسى أن أكون مخطئاً هذه المرة أيضاً. لم أطلب من السماء قط أن تحفظني من الخطأ، بل أن تحفظني من المصائب فقط.

أتمنى أن تكون طريقي طويلة وغاصة بالغوايات. نعم أتمنى أن أعيش طويلاً وأرتكب ألف خطأ، ألف غلطة، بل وعدداً من الخطايا المشهودة...

إنه الخوف هو الذي جعلني أكتب هذه السطور الخرقاء. سأجفف حبري وأعيد دفتري إلى مكانه دون إبطاء لكي أستمع كرجلٍ لأصوات الحرب القريبة.

السبت 26 حزيران 1666

ما زلتُ حراً، وأيضاً أنا سجين.

فجر هذا اليوم، قدِمت نحونا سفينةٌ هولندية مسلحة، وأمرتنا بِطَيِّ أشرعتنا ورفع الراية البيضاء، وفعلْنا.

صعد جنود على سطح السفينة، وضعوا أيديهم عليها وهم الآن يقودونها باتجاه أمستردام، كما قال لي موريثيو.

أي مصير ينتظرنا هناك؟ لا أدري.

أفترض أن الحمولة بكاملها ستُصادَر، وهو أمر أستخف به.

أفترض كذلك أننا سنؤخذ أسرى وتؤخذ ممتلكاتنا. وهكذا سأفقد المبلغ الذي عهد به غابيانو إليّ، وأيضاً مالي الخاص وهذه المحبرة وهذا الدفتر...

في الأسر 28 حزيران 1666

ألقى الهولنديون باثنين من البحارة في البحر. أحدهما إنكليزي لكن الآخر صقلّيّ. علت صرخات رعب وصخب عظيم. ركضتُ أستطلع

الأنباء لكني حين رأيت الاحتشاد والجنود المسلحين يُشَوبِرون ويصرخون بلغتهم، عدتُ على عقبيّ. وكان موريثيو هو الذي أخبرني بعد ذلك بقليل بما حدث. كان يرتجف بأكمله، وحاولتُ جهدي التخفيف عنه رغم أنني أنا نفسي لستُ مطمئناً.

حتى الآن حدثت الأمور دون هياجٍ شديد. كنا جميعاً قانعين بهذا الانحراف نحو أمستردام، لا سيما أننا كُنا مقتنعين بأن سلوك القبطان لايمكنه أن يبقى دون عقاب حتى النهاية. لكن مذبحة اليوم أفهمتنا أننا أسرى وأننا ربما نظل أسرى إلى ما لا نهاية، وأن أكثرنا تهوُّراً ـ وكذلك أقلَّنا حظّاً ـ يمكن أن يلاقي أسوأ مصير.

المتهور هو البحار الإنكليزي الذي اعتقد، بعد أن شرب قليلاً دون شك، أنّ من المناسب أن يقولِ للهولنديين بأنّ أسطولهم سينهزم في النهاية. وقليل الحظ هو الصقليّ الذي كان موجوداً هناك بالمصادفة، وأراد التدخل لصالح رفيقه الذي كانوا يتهيئون لقتله.

في الأسر، 29 حزيران

من الآن وصاعداً لم أعد أخرج من غرفتي، ولستُ الوحيد الذي يفعل هذا. قال لي موريثيو بأن أسطُحَ السفينة مقفرة، وأن الهولنديين وحدهم يتجولون هناك، وأن أفراد الطاقم ما عادوا يغادرون مقصوراتهم إلاّ لتنفيذ الأوامر التي تُوجَّه لهم. ثمة ضابط هولندي يُجاوِر القبطان الآن ويأمره ـ لكني لن أشتكي من ذلك.

2 تموز

الليلة الماضية بعد أن أطفأتُ مصباحي شعرتُ فجأةً بالبرد، في حين أنني كنتُ متدثّراً بأغطية الأمس وقبل الأمس نفسها، وفي حين أن الطقس كان بالأحرى لطيفاً أثناء النهار. ربما كان ذلك شيء يفوق البرد، ربما كان الخوف... أساساً لقد رأيتُ في حلمي أن البحارة

الهولنديين يمسكون بي ويجرُّونني على الأرض، ثم يجردونني من ثيابي ويسيطونني حتى يُدموني. أعتقد أني صرختُ من الألم، وأن هذا الصراخ هو الذي أيقظني. لم أعد إلى النوم. حاولت أن أنام لكن رأسي كان أشبه بثمرة ترفض أن تنضج، وعيناي لا تغمضان.

4 تموز

اليوم، دفع بحار هولندي باب مقصورتي وتحرَّى المكان بنظرة دائرية ثم انصرف دون كلمة. بعد ربع ساعة، قام أحد زملائه بالحركة نفسها تماماً، لكنَّ هذا الأخير تمتم بكلمة يُفترض أنها تعني «مرحباً». وبدا لي أنهما يبحثان عن شخصٍ ما وليس عن شيء ما.

المفروض أننا لم نعد بعيدين جداً عن المكان الذي نتجه إليه، ولاأكف عن التساؤل عن الموقف الذي يجب تبنيه عندئذٍ. ماذا أفعل أولاً بالمال الذي عُهِد به إليّ في لشبونة، وبمالي الخاص، وبهذا الدفتر؟

الحقُّ أني أستطيع الخيار بين موقفين.

إما أن أُعتَبَر تاجراً أجنبياً، فأُعامَل بمراعاة وربما أحصل على إذنٍ بدخول المقاطعات الموحدة ـ وفي هذه الحالة، سأضطر لحمل كل «ثروتي» معي حين أنزل إلى البر.

أو تُعتَبَر سانكتوس ديونيزيوس غنيمة حرب وتُصادَر حمولتها، ويُسجَن الرجال الموجودون على متنها، وأنا منهم، بعض الوقت، قبل أن يتم طردهم مع سفينتهم ـ وفي هذه الحالة، يكون في صالحي أن أترك «ثروتي» في مخبأ، داعياً السماء ألاّ يكتشفه أحد، وأن أتمكن من استعادتها في نهاية هذه المحنة.

بعد ساعتين من التردد، مِلْتُ إلى الموقف الثاني. عسى ألاّ أندم عليه.

سأرتب دفتري وأدوات كتابتي في المخبأ الذي توجد فيه نقود

غريغوريو ـ في الجدار، خلف لوحٍ غير محكَم السدّ. سأضع فيه أيضاً نصف المال الذي بقي لي: يجب أن يجدوا معي مبلغاً معقولاً، وإلاّ اكتشفوا حيلتي وأجبروني على كشفها.

تسوّل لي نفسي قليلاً أن أحتفظ بدفتري. فالنقود يمكن أن يربحها المرء أو يخسرها، أما هذه الصفحات فهي لبُّ أيامي، وهي خصوصاً رفيقي الأخير. أتردد كثيراً في مفارقتها، ولكن سيتحتَّم عليَّ ذلك دون شك...

14 آب 1666

لم أكتب سطراً منذ أكثر من أربعين يوماً. كنتُ موقوفاً على اليابسة ودفتري ضمن مخبئه في البحر. ليتمجَّد اسم الله، كلانا سليم، وقد اجتمعنا أخيراً.

أنا اليوم أشد انفعالاً من أن أكتب. غداً سأسيطر على فرحي وأحكي.

لا. إذا كان يصعب عليّ أن أكتب وأنا في هذه الحالة، فإنه أكثر صعوبة أن أمتنع عن الكتابة. لذا سأروي هذه المغامرة السيئة التي انتهت إلى الأحسن. دون تفاصيل أكثر مما يجب، فقط كما يعبر الإنسان ساقيةً وهو يقفز من حجر إلى آخر.

يوم الأربعاء 8 تموز، دخلت سانكتوس ديونيزيوس ميناء أمستردام ذليلة، مثل حيوان أسير يُجَرُّ بحبلٍ من رقبته. كنتُ على سطح السفينة، حقيبتي القماشية على كتفي، يداي تستندان إلى الدرابزين، وعيناي على الجدران الورديّة والأسطح البنية والقبعات السوداء على الرصيف ـ بينما كانت كل أفكاري في مكان آخر.

حالما رسونا، أُمِرْنا دون عنفٍ ولكن دون مراعاة، بمغادرة السفينة والسير حتى مبنىً في نهاية رصيف الميناء حيث احتُجِزنا. لم يكن سجناً والحقّ يقال، بل أرضاً مسوَّرة ومسقوفة ورجال يحرسون أمام البابين ويمنعوننا من الخروج. قُسِّمنا إلى مجموعتين أو ربما ثلاث. كان معي المسافرون القلائل الباقون وقسم من الطاقم ولكن دون موريثيو أو القبطان.

في اليوم الثالث، جاء موظف كبير من المدينة ليتحرّى الأمكنة، وقال وهو ينظر إليّ كلمات مطَمْئِنة مع أن وجهه بقي صارماً ولم يفصح عن أي وعدٍ محدد.

بعد أسبوع، رأيتُ القبطان آتياً يرافقه عدة أشخاص لا أعرفهم. نادى أشدَّ البحارة بأساً بأسمائهم، وفهمتُ أن ذلك من أجل تفريغ الحمولة التي تحملها السفينة. أعيدوا إلى مكان الحجز آخر النهار لكي يُطلَبوا في اليوم التالي والذي بعده أيضاً.

ثمة سؤال كان يحرق فمي: هل فتشوا مقصورات المسافرين أيضاً ساعة إفراغ السفينة؟ بحثتُ طويلاً عن طريقةٍ لطرحه تُرضي فضولي دون أن تثير الريبة؛ لكني عدلتُ عن ذلك في النهاية. في الوضع الذي أنا فيه، يُعتَبَر نفادُ الصبر أسوأ ناصِحٍ.

أثناء هذه الأيام الطويلة من القلق والانتظار، كم من مرةٍ فكرتُ بميمون، بكل ما كان يقوله لي بخصوص أمستردام، وبكل ما اعتدتُ أن أقوله عنها أنا أيضاً. هذه المدينة البعيدة آنذاك، كانت بالنسبة لنا مكاناً لأحلام يقظةٍ متواطئة وأُفقَ رجاءٍ. كنا أحياناً نتعاهد على المجيء إليها معاً، والعيش فيها بعض الوقت، وربما كان ميمون موجوداً هنا أصلاً، مثلما كان ينوي. أما أنا فإني آسف لكوني وطئتُ أرضها. آسفٌ لكوني أتيتُ سجيناً إلى بلد البَشَر الأحرار. آسفٌ لكوني قضيتُ في أمستردام كل هذه الليالي وكل هذه النهارات دون أن أرى شيئاً سوى ظاهِرِ جدرانها!

مضى أسبوعان آخران أيضاً قبل أنِ يعيدونا إلى متن سانكتوس ديونيزيوس، دون أن يسمحوا لنا أصلاً برفع المرساة. كنا مانزال

محرومين من الحرية، لكننا على سطح سفينتنا التي راحت تطوف فيها كل ساعة مفارز من الجنود.

ولمراقبتنا بشكل أفضل، أودِعنا جميعاً في جانب من السفينة. كانت مقصورتي في الجانب الآخر، وأرغمتُ نفسي، بدافع الحذر، ألاّ أتجه إليها قط كيلا أكشف سري.

وحتى عندما أبحرت السفينة أخيراً، امتنعتُ بعض الوقت عن الذهاب إلى مقري القديم، لأن مفرزة هولندية بقيت على متن السفينة حتى غادرنا زويدرزة، الذي هو نوع من بحر داخلي، وبلغنا بحر الشمال.

اليوم فقط استطعتُ التحقق من أن ثروتي لم تُمَسّ، فاكتفيتُ بتناول أدوات كتابتي وهذا الدفتر.

15 آب

على متن السفينة سكِرَ جميع البحارة، وأنا نفسي شربتُ قليلاً.

الغريب في الأمر أني لم أعانِ من دوار البحر هذه المرة عند مغادرة الميناء. ورغم كل ما ابتلعته، أسير على سطح السفينة ثابت الخطى.

أخبرني موريثيو الذي كان مثل من يَكبرونه ثملاً، بأن القبطان زعمَ حين فُتِّشت سفينتنا، بأن ثلث حمولته فقط مخصصة لـِ لندن، وثلثيها الآخرين لتاجرٍ من أمستردام. ولدى الوصول إلى هذه المدينة الأخيرة، أرسل في طلب الرجل الذي يعرفه جيداً. وبما أن هذا لم يكن في المدينة، كان يجب انتظار عودته، وبعدها انحلّت الأمور بسرعة. عندما فهم التاجر ما يحدث، وباعتبار أنه لم ير في العملية غير المكسب، فقد أكّد كلام سنتوريوني وتسلَّمَ البضاعة. اكتفت السلطات بمصادرة الثلث الباقي قبل أن تطلق سراح الرجال والسفينة.

قبطاننا مجنون ـ لا أتراجع عن كلامي! ـ لكنه فطِن على ما يبدو! إلاّ إذا كان في داخل هذا الرجل روحان متراكبتان، تُخفي كل منهما الأخرى بدورها.

17 آب

خدعَ قبطانُنا الهولنديين مرة أخرى، حسب موريثيو، إذ جعلهم يعتقدون بأنه يعود إلى جنوة، في حين أنه يمضي الآن مباشرةً باتجاه لندن!

19 آب

نسير إلى أعلى مصب نهر التايمز، ولم يعد لي أي رفيق في السفينة ـ أقصد أي شخص يمكن أن أتحدث معه حديث رجالٍ أفاضِل. وطالما ليس لدي ما أعمله، عليّ أن أكتب، لكنّ ذهني فارغ ويدي لايدب فيها النشاط.

لندن، جئت إليها دون أن أحلم بالقدوم إليها قط.

الاثنين 23 آب 1666

وصلنا رصيف ميناء جسر لندن مع خيوط النهار الأولى، بعد أن اعتُرِض سبيلُنا ثلاث مرات ونحن نساير مصب النهر، لشدة حذر الإنكليز بعد مواجهاتهم الأخيرة مع الهولنديين.

حال وصولنا أودعتُ أمتعتي الزهيدة في نزل على ضفة التايمز قرب المرفأ، لكي أمضي باحثاً عن كورنيليوس ويلر. عرفتُ من القس كوإنن أنّ محله قريب من كنيسة القديس بول، ويكفي أن أطرح بعض الأسئلة على التجار الآخرين لكي يقودوني إلى هناك.

حين طلبتُ وأنا أدخل، رؤية السيد ويلر، قادني تابعٌ شاب إلى الطابق العلوي إلى رجل مسنٍّ جداً ذي وجه نحيل وحزين تبيَّن أنه والد كورنيليوس. قال لي بأنه في بريستول، ولن يعود قبل أسبوعين أو ثلاثة؛ لكني إذا كنتُ بحاجة لمعلومة أو كتاب، فسيسعده أن يلبي طلبي.

كنتُ قد قدَّمتُ نفسي، ولكن باعتبار أن اسمي لا يعني له شيئاً على ما يبدو، شرحتُ له بأني ذلك الشخص الجنوي الذي عهِدَ كورنيليوس ببيته الذي في سميرنا، إليه.

«آمُل أنه لم يحدث مكروه»، قال العجوز بقلق.

لا، لم يحدث مكروه للبيت، ليطمئنّ، ولم أقم بهذه الرحلة لكي أنبئه بكارثة، أنا في لندن لشؤوني الخاصة. حدثته قليلاً عن تجارتي التي يُفترض أن تثير اهتمامه كونها قريبة من تجارته. ذكرتُ الأعمال التي تُباع وتلك التي لم تعد مطلوبة.

في لحظة من المحادثة، مرَّرْتُ كلمة حول *الاسم المئة*، وأشرتُ بأني لا أجهل بأنّ كورنيليوس حمله معه من سميرنا. لم ينتفض العجوز بشكل علني، لكني خلتُ أني رأيتُ في نظرته خيط فضولٍ حاد، وربما خيط حذَر.

«للأسف، لا أقرأ العربية. لكني أستطيع أن أقول لك بالضبط أية كتبٍ لدينا على هذه الرفوف بالإيطالية والفرنسية واللاتينية واليونانية. أما فيما يتعلق بالعربية والتركية فيجب انتظار كورنيليوس».

وصفتُ له بإلحاح مظهر الكتاب، حجمه، المذهَّبات التي في شكل معيَّنات متَّحِدة المركز على غلافه الجلدي الأخضر... عند تلك النقطة، وجد التابع الذي كان يتسكع هناك ويستمع إلينا، أنه من المفيد أن يتدخَّل.

«أليس هو الكتاب الذي جاء *الكَنَسيّ* وأخذه؟»

اخترقه العجوز بنظرة، لكن الضرر، إذا صحَّ القول، كان قد وقع. ولا يفيد التستُّرُ شيئاً.

«فعلاً، لابد أنه ذلك الكتاب، لقد بعناه منذ بضعة أيام، ولكن انظر حولك، أنا واثق من أنك ستجد ما يثير اهتمامك».

طلبَ من المستخدَم إحضار مؤلفات مختلفة، لم أشأ حتى أن أحفظ عناوينها؛ لم يكن وارداً أن أفلت الأمر من قبضتي.

«قمت برحلة طويلة للحصول على هذا الكتاب، أكون ممتناً لك إذا أخبرتني بالمكان الذي يمكنني أن أجد فيه ذلك *الكَنَسيّ*، سأحاول أن أشتريه منه ثانيةً».

«اعذرني، لستُ مخوَّلاً بأن أقول من اشترى ماذا، ولا على الأخص بأن أعطيك عناوين زبائننا».

«إذا كان ابنك قد وثق بي بما فيه الكفاية لكي يعهد إليّ ببيته بكل ما يحتويه...».

لم أحتَج للمتابعة.

«حسناً، سيأخذك جوناس».

في الطريق، صبَّ الفتى، وقد خدعَتْهُ دون شك الكلمات الإنكليزية القليلة التي سمعها من فمي، سيلاً من المسارّات التي لم أفهم منها شيئاً تقريباً. اكتفيتُ بهز رأسي متأملاً الزحام في الشوارع. علمتُ منه فقط أنّ الرجل الذي نذهب لرؤيته كان فيما مضى مرشداً في جيش كرومويل. لم يقل لي جوناس اسمه، وبدا أنه لم يفهم حتى سؤالي، لم يسمع قط باسم آخر سوى *الكَنَسيّ*.

ونظراً لأن الشخص الذي اشترى كتابي هو من رجال الكنيسة، كنتُ مقتنعاً بأننا نذهب نحو الكاتدرائية المجاورة، أو نحو كنيسة خاصة أو بيت كاهن الرعية. وما كان أشد دهشتي حين توقفنا أمام باب مَشرَب بيرة، *«بيت البيرة»*، تقول اللافتة. حين دخلنا، حدق فينا لحظة طويلة، اثنا عشر زوجاً من عيون يغشاها الضباب. كان الجو مظلماً كما عند الغسق في حين لم يحن وقت الظهيرة بعد. تحوَّلت الأحاديث إلى همساتٍ كنتُ موضوعَها الوحيد بلا جدال. لا تُشاهَد ملابس جنوية كثيراً في هذا المكان. حييتُ بحركة من رأسي، وسأل جوناس صاحبةَ المشرب - وهي سيدة طويلة ممتلئة كستنائية الشعر،

ونهداها نصف مكشوفين ـ إذا كان *الكَنَسيّ* هنا. أشارت فقط بإصبعها إلى الطابق الأعلى. سلكنا حالاً ممراً يوجد في آخره سلم درجاته تصدر صريراً. وفي الأعلى تماماً ثمة باب مغلق قرعه التابع قبل أن يدير القبضة منادياً بصوت منخفض:

«*كَنَسيّ!*»

لم يكن للكَنَسيّ المزعوم، في نظري، أي شيء يمتُّ بصلةٍ لرجل كنيسة. حين أقول «أي شيء» أبالغ. فقد كان لديه نوع من الأبَّهة الطبيعية. قامته العالية وكذلك لحيته الغزيرة التي تجعله يشبه كاهناً أرثوذوكسياً، أو قسيساً إنكليزياً. تاج أسقف، حلة قداس على كتفيه وعصا الأسقفية في يده، وربما أصبح أسقفاً على رعيّته. لكنه لم يكن ينشر حوله أي تُقىً أو عطر طهارة ولا أي زهد. على العكس، لقد بدا لي لأول وهلة وثنياً شرهاً. أمامه على الطاولة المنخفضة، كانت هناك ثلاث كؤوس جعة، اثنان فارغان وواحد مليء حتى ثلاثة أرباعه. لاشك أنه تناول جرعةً للتو، فقد كانت تُرى نقاط بيضاء من الرغوة فوق شاربيه.

دعانا للجلوس بابتسامة عريضة. لكن جوناس اعتذر، لأن عليه العودة إلى سيده. وضعتُ له قطعة نقود في يده، ورجاه *الكَنَسيّ* أن يطلب لنا كيلَيْ بيرة وهو خارج. سرعان ما صعدت صاحبة المشرب بنفسها بكوبي البيرة، بعناية شديدة واحترام، وشكرها رجل الدين بضربة على مؤخرتها، ليست ضربة متكتمة، بل علنية إلى درجة بدا معها أنّ الغرض منها هو أن أصاب بالصدمة. لم أحاول إخفاء ارتباكي، أعتقد أن كليهما كانا سيشعران بالغيظ لو وجدتُ الأمر تافهاً.

قبل صعودها، أتيحت لي الفرصة لأقدم نفسي وأقول بأني وصلتُ لندن للتو. حاولتُ جهدي أن أتكلم الإنكليزية، بمشقة. ولكي يوفِّر الرجلُ عليّ مشقات أخرى، أجابني باللاتينية. لاتينيةُ علاَّمةٍ ذات وقعٍ غريبٍ في ذلك المكان. أظن حتى أنه أراد تقليد فرجيل حين قال لي:

«لقد غادرتَ إذن بلداً يُسقي بالنعمة لكي تأتي إلى هذا البلد الذي تحرثه النقمة!»

«الشيء القليل الذي رأيتُه حتى الآن لا يعطيني هذا الانطباع. فمنذ وصولي ألاحظ نوعاً من حرية التصرف، ومرحاً أكيداً...».

«هذا هو البلد الملعون! يجب أن يحبس الإنسان نفسه في طابقٍ ويشرب منذ الصباح لكي يظن نفسه حراً. إذا ادَّعى جارٌ غيور بأنك جدَّفتَ، تُساط أمام الناس. وإذا بدوتَ في صحة جيدة جداً قياساً لسِنِّكَ، يُشتَبَه بأنك مشعوذ. أفضِّل أن أكون أسيراً عند الأتراك...».

«تقول هذا لأنك لم تجرب سجون السلطان قط!»

«ربما»، قال موافقاً.

بعد مرور صاحبة المشرب، ورغم الارتباك الذي شعرتُ به لحظَتَها، استرخى الجو وشعرتُ بما يكفي من الثقة لكي أعترف لهذا الشخص، بلا مواربة، بأسباب زيارتي. حالما أشرتُ إلى *الاسم المئة*، أضاء وجهه وارتعشت شفتاه. ظننتُ بأنه يستعد ليقول لي شيئاً عن هذا الكتاب، فصَمَتُّ خافِقَ القلب. لكنه، بحركةٍ من كوبه الخشبي، دعاني كي أتابع، وهو يبتسم من جديد أكثر. عندئذٍ، وحتى يكون اللعبُ مكشوفاً، قلتُ له بدقة السبب الذي جعلني أهتم به. وفي هذا كنتُ أخاطر. إذا كان هذا المؤلَّف يحتوي فعلاً على الاسم الذي يُنقِذ، فكيف أطلب من هذا الرجل القديس أن يتخلى عنه؟ وبأي ثمن؟ تاجرٌ أفضل مني كان سيتكلم عن هذا الكتاب وعن مضمونه بكلماتٍ موزونةٍ أكثر، لكني شعرتُ بالغريزة بأنه سيكون من الخَرَق أن أُبدي مزيداً من الدهاء. كيف أستطيع، أنا الذي أبحث عن كتاب الخلاص، الحصول عليه بالخديعة أمام عيون الله؟ هل سأكون أشدّ دهاءً من العناية الإلهية؟

لذا أرغمتُ نفسي أن أكشف بوضوح للكَنَسيّ عن قيمة هذا النص. حدَّثتُه عن كل ما يُقال عنه بين أصحاب المكتبات، عن الشكوك المتعلقة بنسبته الحقيقية، وعن مختلف الأقوال في فضائله المفترَضة.

«وأنت، سألَني، ما هو شعورك؟»

حافظ على الابتسامة نفسها التي لم أستطع فكَّ رموزها والتي بدأتُ أجدها مُغيظةً. لكني حاولتُ جهدي ألاَّ أظهِر شيئاً.

«لم أكوِّن قط رأياً قاطعاً. أحياناً أقول إن هذا الكتاب هو أثمن

شيء في العالم، وفي اليوم التالي أخجل لأني كنتُ ساذجاً بهذا الشكل وأصدّق الخرافات بهذا الشكل».

امَّحت الابتسامة عن وجهه. رفع كوبه نحوي بحركة متملِّقة وأفرغه دفعة واحدة. قال لي إنه بهذه الحركة يريد أن يحيِّي صدقي الذي لم يتوقعه.

«ظننتُ أنك ستُسمِعُني كلاماً منمَّقاً مما يقوله التجار، وستدَّعي بأنك تبحث عن هذا الكتاب لأجل أحد هواة جمع الكتب، أو أن والدك طلبه منك وهو على فراش الموت. لا أعرف إذا كنتَ صادقاً بحكم طبيعتك أم بحكم براعةٍ فائقة، لا أعرفك كفايةً حتى أحكم، لكنّ سلوكك يعجبني».

صمتَ. أمسك بكوبه الفارغ ثم وضعه في الحال فوق الطاولة المنخفضة قبل أن يقول بغتةً:

«أَزِحْ هذه الستارة التي وراءك! الكتاب هناك!»

بقيتُ لحظةً كالأبله، أتساءل إذا كنتُ قد فهمتُ جيداً. اعتدتُ على المكائد والخيبات والطفرات إلى درجةٍ أنَّ سماعه يقول بهذه البساطة بأن الكتاب هنا، يفقدني رشدي. بل لقد تساءلتُ إذا كان ذلك بتأثير البيرة التي ابتلعتُها دفعة واحدة لشدة عطشي.

مع ذلك نهضتُ، أزحتُ الستارة الداكنة والمغبرّة التي أشار لي إليها، باحتفالية. كان الكتاب هناك فعلاً. *الاسم المئة*. توقعتُ أن أراه داخل نوع من علبة جواهر، محاطاً بشمعتين، أو مفتوحاً فوق مِقْرأ. لا، لاشيء من هذا كله، لقد وُضِعَ أفقياً فوق رف مع بعض المؤلفات الأخرى وبعض الأقلام ومحبرتين وماعون ورق أبيض ورزمة دبابيس وكمية كبيرة من مختلف الأشياء. تناولته بيد مترددة، فتحتُهُ على صفحة العنوان، وتأكدتُ من أنه هو الذي أهداني إياه العجوز إدريس العام الماضي، واعتقدتُ بأن البحر طواه نهائياً.

فوجئت؟ نعم فوجئت. وهزَّتني المفاجأة شرعاً. ذلك كله يشبه المعجزة! إنه يومي الأول في لندن، وبالكاد اعتادت قدماي على اليابسة، وهاهو الكتاب الذي أقتفي أثره بين يدي! منحني مضيفي

الوقت الكافي للانفعال. انتظر أن أعود للجلوس ببطء والكتاب المقدس فوق دقات القلب. ثم قال لي دون أية نبرة استفهامية:

«إنه هو الكتاب الذي تبحث عنه...».

قلت نعم. لم أكن، والحقُّ يُقال، أستطيع تمييز الشيء الكثير، لم تكن الحجرة منيرة. لكني رأيتُ العنوان، وقبل هذا كنتُ قد عرفتُ الكتاب من الخارج. ليس لدي ذرة شك.

«أفترض أنك تقرأ العربية تماماً».

قلت أيضاً نعم.

«لدي إذن صفقة أعرضها عليك».

رفعتُ عينيّ وأنا أتشبّث بالكنز المستعاد. كانت هيئة *الكَنَسيّ* توحي بأنه يفكر بحدة وبدا لي رأسُهُ أكثر ضخامة، أكبر حجماً حتى بغضّ النظر عن لحيته وعن شعره الغزير المبيَضّ.

«لدي صفقة أعرضها عليك، كرر قوله كما لو أنه يمنح نفسهُ بضع ثوانٍ أخرى للتفكير. أنت تريد هذا الكتاب، وأنا أريد فقط أن أفهم محتواه. اقرأهُ لي من البداية حتى النهاية ثم خذه».

هنا أيضاً قلت نعم، دون ظل تردد.

لَكَم أحسنتُ صنعاً بالمجيء إلى لندن! هنا كان حُسنُ طالعي بانتظاري! لقد جُزيتُ على عِنادي! خدَمَني العِنادُ الذي ورثْتُهُ عن أجدادي! أفخر أنّ دمي من دمائهم، وأني لم أضيِّع فضلَهُم!

في لندن، الثلاثاء 24 آب 1666

لن تكون مهمتي سهلة، أعرف ذلك.

أحتاج لعدد من الجلسات حتى أقرأ هذه الصفحات التي تقارب المئتين، حتى أترجمها من العربية إلى اللاتينية، وأكثر من ذلك كله،

حتى أوضِّحها في حين أن المؤلف لم يشأ أن يكون واضحاً قط. لكني سرعان ما رأيتُ في اقتراح الكَنَسيّ غير المتوقع، فرصةً، كيلا أقول إشارة. إنه لا يعرض عليّ فقط استعادةَ كتاب المازندراني، بل الاستغراق فيه باجتهاد، الشيء الذي لم أكن لأفعله من تلقاء نفسي. أن يترتَّب عليّ واجب قراءة هذا النص جملةً بعد جملة، واجب ترجمته كلمة بعد كلمة لكي أجعله قابلاً للفهم لمستمعٍ متطلِّب. هذه هي بالتأكيد الطريقة الوحيدة لكي أعرف مرةً وإلى الأبدَ إن كانت هناك حقيقة خفية عظيمة تسكن هذه الصفحات.

كلما فكرت بالأمر أكثر ازددت حيرةً وحماساً معاً. كان عليّ إذن أن أقتفي أثر هذا الكتاب من جبيل حتى القسطنطينية، ثم من جنوة حتى لندن، حتى هذه الحانة، حتى عرين هذا المرشد المثير للفضول، لكي أكِبَّ أخيراً على المهمة الأكثر ضرورة. لدي إحساس بأن كل ماعشته منذ عام لم يكن سوى تمهيد، مجموعة من الاختبارات التي جعلني الخالق أجتازها قبل أن أكون جديراً بمعرفة اسمه الصميم.

كتبتُ في المقطع الأخير: «منذ عام». ليست هذه قيمة تقريبية، مضى عام بالضبط، يوم بيوم، منذ بدأت رحلتي، لأني غادرتُ جبيل يوم الاثنين 24 آب من العام الماضي. ليس لدي النص الذي كتبتُهُ في تلك المناسبة ـ أرجو أن يكون بارينيلّي قد وجده وحافظ عليه، وأن يتمكن من إيصاله لي يوماً!

لكني أشرد... كنتُ أقول بأنه لو كانت أمامي تلك الصفحات التي كتبتُها في بداية الرحلة لما وجدتُ كثيراً من التماثل بين مشروعي الأولي وخط السير الذي سلكته. لم أكن أنوي الذهاب إلى أبعد من القسطنطينية، وبالتأكيد ما كنت أنوي الذهاب إلى إنكلترا. كما لم أنوِ أن أكون وحيداً بهذا الشكل دون أيٍّ من الأشخاص الذين سافروا معي، ودون حتى أن أعرف ماذا حلّ بكل منهم. خلال هذه السنة تغير كل شيء من حولي وفي داخلي. الشيء الوحيد الذي لم يتغير، على ما يبدو لي، هو رغبتي بالعودة إلى بيتي في جبيل. لا، عندما أفكر بالأمر عن كثب أكثر، أجد أني لستُ شديد التأكُد من ذلك. منذ مروري بجنوة، أفكر

أحياناً بأنني يجب أن أعود إلى هناك. انطلقتُ، بمعنىً ما، من هناك. إن لم أكن أنا نفسي، فعلى الأقل عائلتي. ورغم الوهن الذي عانى منه جدي البعيد بارتولوميو حين أراد العودة للاستقرار فيها، يبدو لي أن ذلك المكان فقط هو الذي يمكن أن يشعر فيه أمبرياتشو بأنه في بيته. في جبيل سأبقى الغريب دوماً... مع ذلك فأختي تعيش في المشرق، وهناك دفن أبواي، وهناك بيتي، وهناك المحل الذي يوفر لي الازدهار النسبي. كدتُ أكتب أن هناك أيضاً تعيش المرأة التي أحببتُها. لاشك أنّ ذهني يتشوش. فمارتا لم تعد في جبيل ولا أعرف إن كانت ستتمكن من العودة إليها يوماً، ولا أعرف حتى إذا كانت ماتزال على قيد الحياة.

ربما يجب أن أتوقف هذا المساء عن الكتابة...

25 آب

عندما استيقظت تناولت دفتري لكي أعاود الكلام عن التواريخ. كنتُ أتهيّأ للبحث فيها مساء أمس عندما أنسَتْني ذكرى مارتا الأمرَ. أردت القول بأن في لندن غموضاً لم أشتبه به قبل وصولي. نحن اليوم في 25 آب، لكننا بالنسبة لأهل هذه البلاد نحن في 15 منه فقط! رفضَ الإنكليز، بدافع كرههم للبابا الذي يُعتَبَر كلُّ إنسان مخوَّلاً بتسميته بـ «المسيح الدجّال»، رفضوا اتباع التقويم الغريغوري السائد عندنا منذ أكثر من ثمانين عاماً.

لدي أشياء مختلفة أقولها في هذه المسألة، لكن هناك من ينتظرني في مشرب البيرة. هناك ستدور جلسات قراءتنا، وهناك سأقيم من الآن وصاعداً. وعدتُ بأن أحمل أمتعتي إليه اعتباراً من هذا الصباح بالذات.

وقد دعاني الكَنَسيّ وصاحبة الحانة، تكراراً، منذ الاثنين، للمجيء والعيش في المكان نفسه لتجنب الرواح والمجيء المتكرر الذي قد تجده شرطة الملك مريباً. في البداية رفضتُ إذ أردتُ الحفاظ على مقدارٍ من المسافة إزاء هؤلاء الأشخاص شديدي الحفاوة، لكن الذين

لا أعرفهم منذ ما يكفي من الزمن لكي أشاركهم نهاراتِهِم ولياليهم كلها. غير أني حين خرجت مساء أمس بعد العشاء للالتحاق بالنزل الذي أقيم فيه، أحسستُ أني مراقَب. كان ذلك أكثر من إحساس، كان يقيناً. هل هم من الزعران؟ أم من رجال الحكومة؟ في كلا الحالين، لم تكن لدي أية رغبة بأن أعيش التجربة كل مساء.

أعرف أنه من غير الحكمة الاقتراب بهذا القدر من رجلٍ مثل الكَنَسيّ، كان في الماضي شخصاً نافذاً وماتزال السلطات تحذر جانبه. ولو لم أفكر إلا بأمني الشخصي، لكان عليَّ بالفعل الحفاظ على مسافة بيني وبينه. لكن همي الأول ليس الحذر، وإلا ما جئت حتى لندن بحثاً عن *الاسم المئة*، وثمة أشياء أخرى كثيرة كنتُ سأمتنع عن القيام بها. لا، همِّي اليوم هو استعادة هذا الكتاب والرحيل من هنا حالما يكون ذلك ممكناً، حاملاً إياه تحت إبطي. وسيكون العيشُ في جوار هذا الرجل والوفاء بالعهد الذي قطعتُهُ له أسرع طريقةٍ تُمكِّنُني من الوصول إلى غايتي.

بعد أن نزلتُ في غرفة بالطابق الأخير، تعلو غرفة المرشد تماماً، وبعيداً عن جلبة الصالة الكبيرة، صعدتُ بيس السلالم ثلاث مرات لتتأكد من أنّ شيئاً لا ينقصني.

هؤلاء الناس لطيفون مضيافون كرماء يحبون الضحك والأكل الفاخر. يبدو لي أن الإقامة هنا ستكون ممتعة جداً، لكني لا أنوي البقاء إلى الأبد.

26 آب

كان يجب أن أبدأ اليوم قراءتي لكتاب *الاسم المئة* بصوت مسموع. لكني سرعان ما اضطررت للتوقف لسبب غريب يقلقني ويشوشني إلى أقصى حد.

كنا أربعة في الغرفة التي يعيش فيها الكَنَسيّ، فقد استدعى هذا

شابين يبدو أنهما من تلامذته ويعملان ناسخين. أحدهما ويدعى ماغنوس كان يُفترض أن يقوم بتدوين الترجمة اللاتينية للنص بعناية، والآخر المدعو كالفن عليه تدوين الشروح.

كتبتُ «كان يجب»، «كان يُفترض»، لأن الأمور لم تجر كما كنا نتوقع. كنتُ قد بدأتُ بقراءة وترجمة العنوان الكامل، كشف الاسم المخبوء لسيد الكائنات؛ ثم الاسم الكامل للمازندراني، أبو ماهر عباس بن فلان بن فلان بن فلان... لكني بالكاد قلبتُ الصفحة الأولى حتى أظلمت الحجرة، كما لو أن غيمة من الهباب حجبت الشمس مانعةً خيوطها من الوصول إلينا. يجب أن أقول من الوصول إليّ، إذ لم يظهر أنّ الأشخاص الآخرين في الغرفة لاحظوا ماحدث للتو.

في اللحظة نفسها دفعت بيس الباب حاملةً لنا كؤوس بيرة، مما أعطاني استراحة قصيرة. لكن النظرات سرعان ما استدارت نحوي من جديد، وسألني الكَنَسيّ الذي حيَّرَهُ صمتي، عما بي ولماذا لم أتابع القراءة. أجبتُ أني أصبت بشقيقة وأشعر بأن رأسي داخل كماشةٍ تشدّ عليه وعيناي مظلمتان. نصحني بأن أذهب وأرتاح لكي نستطيع استئناف القراءة غداً.

ما أن نطق بهذه الكلمات حتى أغلقت الكتاب وانتابني في اللحظة ذاتها إحساس بأني استعدت الرؤية. شعرت بارتياح عظيم حرصتُ أن أواريه خوفاً من أن يخيَّلَ لمضيفيّ بأني اصطنعتُ الضيق.

وفي الساعة التي أكتب فيها هذه السطور في دفتري، يراودني انطباع بأن ذلك الإظلام لم يحدث قط، وأني حلمتُ به وحسب. لكني أعرف دون ظل شك بأن الأمر ليس كذلك. لقد حدث لي شيء لا أعرف ماذا أقول عنه ـ ولهذا لم أبح بالحقيقة للكَنَسيّ عندما سألني عن سبب توقفي. إنه شيء تفلت مني طبيعتُهُ، لكنه يعيد إلى ذاكرتي حادثاً قديماً يعود إلى أكثر من عام، لم يبدُ لي آنذاك أنه يحمل أي سر. كنتُ قد عدت من عند العجوز إدريس ومعي الكتاب الذي أهداني إياه، وتصفَّحتُهُ في محلي؛ كان يبدو لي الضوء كافياً آنذاك، لكني لم أستطع القراءة. عشية ذلك اليوم أيضاً حدثت الظاهرة نفسها، وأيضاً كان تأثيرها عليَّ أقلّ. وعندما كنتُ عند إدريس، في بيته المتداعي، كان هذا البيت مظلماً

بالطبع ولكن ليس إلى درجة تجعل الصفحات الداخلية لذلك الكتاب غير قابلة للقراءة تماماً، في حين أني استطعتُ بسهولة أن أقرأ صفحة العنوان التي لم تكن حروفها أكبر بكثير.

هنا، ثمة ظاهرة أعجز عن تفسيرها، ظاهرة تقلقني وتشوشني وتخيفني.

هل هي لعنة مرتبطة بهذا النص؟

هل هو خوفي الخاص من رؤية حروف الاسم الفائق ترتسم أمامي؟

أتساءل إذا لم يعان كلٌ من اقترب من هذا الكتاب، من الشعور نفسه، من العمى نفسه. ربما كان هذا النص يحمل تعويذة تحميه، حِرْزاً معقوداً، تميمة ـ ما أدراني؟

إذا كان الأمر كذلك، لن أمضي أبداً حتى النهاية. إلا إذا زالت اللعنة، بطريقة أو بأخرى، أو «انفكّ» الحرز.

ولكن، أليس وجود هكذا عقدة، هكذا لعنة، هو بذاته دليل أيضاً على أن هذا الكتاب ليس مثل غيره من الكتب، وأنه يحتوي بالفعل على أكثر الحقائق قيمةً وأدقِّها عن الوصف، أكثرها إثارة للرهبة وأكثرها امتناعاً؟

27 آب

مساء أمس، بينما كنتُ أكتب يوميات رحلتي في ضوء النهار الذي يتأخر جداً هنا، فوجئت بدخول بيس إلى غرفتي. كان الباب موارَباً، وقد طرقَتْهُ ودفعتْهُ بحركة واحدة. وضعتُ دفتري تحت السرير دون أن يبدو عليّ الاستعجال، ووعدتُ نفسي بالعودة إليه حين تنصرف. لكنها بقيت لحظة طويلة غاب عن ذهني بعدها ما كنتُ أتهيأ لكتابته.

أبدت قلقاً بسبب ألم رأسي الذي قالت إنها عاهدت نفسها على تخليصي منه. تكلمت عن «فكّ» عقدةٍ ما في كتفيّ أو في نقرتي، وأثارت هذه الكلمة فضولي. دعتني للجلوس على كرسي منخفض وراحت، من

ورائي، تدلك لحمي وعظامي بأصابعها وراحتيها. وحين لم يكن بي الألم الذي ادَّعيتُهُ، بل ألم مستتر لا يُعترَف به، لم أستطع تقدير فعالية طريقتها. إلا أن مثابرتها كانت مؤثِّرة مع ذلك، وكيلا أهينها قلت لها بأني شعرت بالانتعاش فجأةً. عندها اقترحَتْ أن تأتي لتمارس فنها بالطريقة نفسها عندما أستغرق في القراءة. سارعتُ بالرفض، وما أن خرجتْ من غرفتي حتى وجدتُ نفسي أضحك بمفردي. تخيلتُ نفسي وأنا أقرأ وأترجم محاطاً بالكَنَسيّ وتلميذيه، فيما تقوم امرأة مقدامة بِحَرْثِ كتفيّ وظهري ونقرتي بيديها الشافيتين. أتخيَّل أن صحو المستمعين سيتأثّر...

غير أن عليّ أن أجد علاجاً لسقمي، ودون ذلك ستتوقف قراءتي قريباً. اليوم حدث ما يشبه صحواً عابراً سمح لي بقراءة بضعة سطور من مقدمة المازندراني، ثم عاد الإظلام. اقتربتُ قليلاً من النافذة وأحسستُ بأن الصفحات باتت مقروءة أكثر، لكن ذلك لم يدُم طويلاً، ولم يلبث الضوء أن خفتَ، وسرعان ما أصبحتُ لا أرى شيئاً، وقد غشَتْني أنا وعينيّ ظلمةٌ كثيفة. بدا الكَنَسيّ وتلميذاه خائبين ومغتاظين، لكنهم لم يتَّهموني بشيء وقبِلوا بتأجيل القراءة حتى الغد.

لديّ الآن يقين بأنّ إرادة قوية تحمي هذا النص من النظرات الجشِعة. نظرتي واحدة منها. لستُ كائناً قديساً، لستُ أفضل من غيري، ولو كنتُ في مكان الخالق، لن أختار شخصاً مثلي بالتأكيد لكي أكشف له أثمن أسراري! أنا بالداسار أمبرياتشو، تاجر الطرائف، النزيه لا أكثر ولا أقل، لكني لا أملك ورعاً شديداً ولا أية قداسة ولا آلاماً ولا تضحيات تستحق الذكر ولستُ فقيراً. فلماذا بحق الشياطين يميِّزني الله ويختارني لكي يودعني اسمه الفائق؟ لماذا يخصُّني برعاية خاصة على غرار نوح وابراهيم وموسى أو أيوب؟ يلزمني كثير من العجرفة وكثير من العمى لكي أتخيل لحظة واحدة بأن الله يمكنه أن يرى فيّ كائناً استثنائياً. بعض مخلوقاته فريدةٌ بجمالها، ذكائها، تُقاها، إخلاصها الشديد، أو جبلَتها، وبوسعه، إذا جاز لي القول، أن يتباهى بأنه صانعها. أما أنا فليس بوسعه أن يتباهى بشيء ولا أن يشتكي من شيء في خَلْقي. لا بُدّ أنه من أعلى عرشه السماوي يتأمَّلني بلا اكتراث على الأقل، إن لم يكن بازدراء...

مع ذلك ها أنذا في لندن، قطعتُ نصف العالم مقتفِياً أثر هذا الكتاب ووجدتُهُ خلافاً لكل التوقعات! هل من الجنون أن أفكر بأنّ الخالق، رغم كل ما قلتُهُ للتو، يتابعني بالنظر، وأنه يوجهني إلى بعض السبل التي ما كنتُ لأعرفها من دونه؟ كل يوم أحمل بين يدي *الاسم المئة*، ولقد قمتُ بإيضاح بعض من صفحاته الشائكة، وأتقدم خطوةً خطوة في متاهته. ذلك العمى الغريب وحده هو الذي يعيق تقدمي، لكن هذا قد لا يكون سوى عائق بين عوائق أخرى، اختبار بعد اختبارات أخرى، وسأتجاوزه في النهاية. بفضل مثابرتي وعنادي، أو بفضل إرادة سيد المخلوقات، التي لا يمكن سبر غورها...

28 آب 1666

اليوم أيضاً حدث انفراج، لكنه أقصر من انفراج الأمس. يبدو لي أنّ مثابرتي تؤتي ثمارها. طوال الوقت ثمة ستار من الظل يغلِّف الكتاب ويغلِّف عينيّ، لكنه لا يعتم على الكلمات. لذا استطعت قراءة ثلاث صفحات كاملة قبل أن يزداد الظل كثافة وتتشوش السطور.

جهد المازندراني في هذه الصفحات أن يدحض الرأي المنتشر جداً القائل بأن الاسم الفائق، إذا وُجِد، لا يجب أن يلفظه البشر، لأن الكائنات والأشياء التي نستطيع تسميتها هي تلك التي نستطيع أن نمارس عليها بعض السلطة، في حين أنه لا يمكن، بالطبع، أن يخضع الله لأية سلطة. ولإبعاد هذا الاعتراض، يقارن المؤلف بين الإسلام واليهودية. إذا كان دين موسى يعاقب بالفعل أولئك الذين يلفظون *الاسم الفائق* ويتفننّ في إيجاد السبل لتجنُّب أي ذكرٍ مباشر للخالق، فإن دين محمد اتخذ، عازماً، عكس هذا الموقف، فحضّ المؤمنين على ذكر اسم الله في النهار والليل.

وبالفعل، أكَّدتُ للكَنَسيّ وتلميذيه، لا توجد محادثة لا يتكرر فيها اسم الله عشر مرات، ولا مساومة لا يُقسِم فيها الطرفان باسمه، بلا توقف «والله»، «بالله»، «باسم الله»، ولا توجد عبارة ترحيب أو وداع أو تهديد أو حضٍّ، أو حتى سأم، إلاّ ويُذكَر فيها بوضوح.

هذا الحَثُّ على تكرار اسم الله بلا توقف لا ينطبق فقط على الله، بل على التسعة والتسعين اسماً المنسوبة له، وكذلك على *الاسم المئة* بالنسبة لمن يعرفونه. يذكر المازندراني الآية التي كانت أصل كل الجدل حول الاسم الفائق - «سبِّح باسم ربك العظيم» - ملاحِظاً بأنّ القرآن لا يكتفي بإخبارنا بوجود اسمٍ «عظيم»، بل يدعونا لتسبيح الله بهذا الاسم...

حين قرأتُ هذا المقطع، تذكَّرتُ كلاماً قاله لي الأمير علي أصفهاني في البحر، وقلتُ في سري بأني مقتنع، رغم إنكاره، بأنه قد توافرت له الفرصة لقراءة مؤلَّف المازندراني. عندها تساءلتُ ما إذا كان قد عانى، مثلي، من ذلك العمى العابر وهو يتصفَّحه. وفي اللحظة ذاتها التي عبر فيها هذا الاستفهامُ ذهني، عادني إظلامُ البصر الذي منعني من متابعة قراءتي... أحطتُ رأسي بيدي، مدَّعِياً ألماً شديداً، واجتهد أصدقائي في التعبير عن أسفهم لي، في طمأنتي وفي اقتراح طرُقِ علاج. أكثرها فعاليةً، قال لي ماغنوس الذي يعاني أحياناً من هذه الآلام، هي أن أُغرِق نفسي في عتمة كاملة. آهٍ لو يعلم!

رغم أن الجلسة كانت قصيرة، فقد بدا أصدقائي اليوم أقلّ خيبة. قرأتُ لهم، ترجمتُ لهم، شرحتُ لهم، وإذا تمكنتُ من أن أفعل الشيء نفسه يوماً بعد يوم، لن يعود في هذا الكتاب أي سر بالنسبة لهم - ولا بالنسبة لي.

لن نستأنف القراءة غداً بل الاثنين. عسى أن أستطيع «القيام بواجبي» في ظروف اليوم نفسها. لا أسأل السماء أن تمزِّق هذا الحجاب الذي يعتِّم على عينيّ، مرةً وإلى الأبد، بل أسألها فقط أن ترفعه قليلاً كل يوم. هل أطلب أكثر مما يجب؟

الأحد، 29 آب

هذا الصباح، ذهبوا جميعاً في ساعة مبكرة إلى القداس الذي يعتبر هنا إجبارياً، إلى درجة أن العصاة الذين كثيراً ما يشي بهم

جيرانهم، يُعاقَبون بالسجن، وأحياناً بالسوط، وبمختلف المضايقات. أنا معفى من ذلك كأجنبي و«بابوي». لكن من مصلحتي، كما قيل لي، ألاّ أتبختر في الشوارع برأسي الكافر. هكذا بقيت في غرفتي أرتاح وأقرأ وأكتب بعيداً عن الأنظار. فرص التكاسُل التي تتوافر لي أنْدَرُ من ألاّ أقدِّرها.

غرفتي تشبه برجاً صغيراً فوق المدينة يطلّ يميناً على أسطُح متراصِفة، ويساراً على كاتدرائية القديس بول، التي تبدو قريبة جداً بسبب أبعادها. الفسحة المُعَدَّة حول سريري محصورة، لكنه يكفي لكي أتخطّى بضعة صناديق وأنسلّ بين العوارض حتى أجد نفسي في تخشيبات فسيحة تسودها الطراوة. جلستُ في الظل لحظة طويلة. ربما كان هناك جرذان وبقّ، لكني لم أر شيئاً منها. كنتُ طيلة الصباح رائق المزاج، مسروراً أنهم نسوني، وراجياً أن ينسوني طويلاً طويلاً أيضاً، حتى لو صمْتُ حتى المساء.

30 آب

كان المفروض أن نستأنف القراءة، لكن الكَنَسيّ تغيَّب هذا الصباح دون أن يخبرني، وكذلك تلميذاه. قالت لي بيس أنهم سيعودون خلال ثلاثة أو أربعة أيام. ورغم أنها لم تُظهِر القلق، فهي لم تُسِرّ لي بشيء.

يوم آخر من التبطُّل إذن، ولا أشتكي من ذلك. لكني بدلاً من التكاسل في غرفتي أو في ملحقاتها، قررتُ أن أتنزه داخل لندن.

كم أشعر بأني غريب في هذه المدينة! لدي شعور دائم بأني أجذب الأنظار، أنظاراً تخلو من الدماثة. ليس هناك مكان آخر يُراقَب فيه المسافرون بهذا القدر من العدائية. هل هذا بسبب الحرب التي ما تزال قائمة مع الهولنديين والفرنسيين؟ هل هذا بسبب الحروب الأهلية القديمة التي جعلت الأخ يقف ضد أخيه والابن ضد أبيه، وأحلّت المرارةَ والشكَّ الدائمين في النفوس؟ هل هذا بسبب المتعصبين الذين مازالوا

كثيرين والذين سرعان ما يُشنَقون حالما يُعرفون؟ ربما بسبب كل ذلك معاً، حتى صار الأعداء هنا ـ حقيقيين أو مفتَرَضين ـ لا يُحصَون.

رغبتُ بزيارة كاتدرائية القديس بول، لكني عدلتُ عن ذلك خوفاً من أن يغتاظ أحد خَدَمِ الكنيسة ويشي بي. كل «بابوي» هو موضع شك خاصةً إذا كان من إيطاليا؛ كان هذا هو على الأقل شعوري طوال نزهتي. اضطررتُ أن أصارع نفسي كل لحظة كي أتجاوز الشعور بالضيق الذي رافقَني في كل خطوة.

المكان الوحيد الذي شعرت فيه بالثقة هو عند أصحاب المكتبات الذين تُجاوِر محلاتُهُم مقبرة القديس بول. عندهم لم أعد غريباً، لم أعد بابوياً، كنتُ زميلاً وزبوناً.

لطالما اعتقدتُ بذلك، لكنني اليوم أكثر اعتقاداً من أي وقت بأنّ التجارة الكبيرة هي النشاط الوحيد الجدير بالاحترام، والتجار هم الكائنات الوحيدة المتمدّنة. ليس التجار هم مَنْ كان على المسيح أن يطردهم من المعبد، بل الجنود والكهنة!

31 آب

كنتُ أتهيأ للخروج لكي أقوم من جديد بجولة بين أصحاب المكتبات، عندما دعتني بيس لشرب البيرة معها، وجلسنا إلى طاولة في ركنٍ من الحانة كأننا من الزبائن. نهضتْ مراراً لكي تقدم المشروب أو تتبادل بضع كلمات مع الروّاد. إلا أنه كان هناك عموماً قليل من الرواح والمجيء، ولم تكن الأصوات أخفض من اللازم بحيث نضطر للهمس، ولا أعلى من اللازم بحيث نضطر للصراخ.

فاتَتني بعضٌ من كلمات بيس، لكني فهمت كل شيء كما يبدو لي، وهي أيضاً فهمتني. حتى عندما كنتُ أستعمل في جُمَلي، مأخوذاً برواياتي، كلمات إيطالية أكثر من الانكليزية، كانت تهز رأسها أكثر لكي تشير لي بأنها فهمت كل شيء. وهذا ما أظنه بطيبة خاطر. كل كائنٍ يتحلى بالعقل وبالإرادة الطيبة يمكنه أن يفهم قليلاً من الإيطالية!

شرب كل منا مكيالين أو ثلاثة فعلاً ـ ربما شربت هي أكثر قليلاً؛ ولكن لم يكن السُكْرُ هو الذي يقودنا، ولا الضجر، ولا الفضول وحده، ولا الرغبة بالثرثرة. كان كل منا بحاجة إلى أذنٍ صديقة ويدٍ صديقة. أتكلم عن الأمر بدهشة لأنني اكتشفتُ الآن فقط، بعد أربعين عاماً من الوجود، أيَّ شعورٍ بالامتلاء يمكن أن تزوِّدنا به بضعُ ساعاتٍ من المشاركة الحميمية والعفيفة مع إنسانة مجهولة.

كان هناك نوع من لعب الأطفال في بداية محادثتنا الطويلة. كنا جالسين وفي أيدينا كوبان فرَغْنا للتو أحدهما بالآخر مع ذكر عبارات الأنخاب؛ كانت تبتسم، ورحت أتساءل إذا كان لدينا شيء آخر نقوله، عندما أخرجتْ من جيب وزرتها مطواة رسمت بها مستطيلاً فوق خشب الطاولة.

«هذه طاولتنا»، قالت.

رسمتْ دائرة صغيرة في جهتي ودائرة أخرى في جهتها.

«هذه أنا، وهذا أنت».

حزرتُ وانتظرتُ التتمة.

مدت يدها حتى طرف الطاولة ودون أي تحفُّظ حفرت أخدوداً متعرِّجاً يصل إلى الدائرة الصغيرة التي تمثّلني؛ وأخدوداً أكثر تعرُّجاً انطلاقاً من الطرف المقابل، ويصل إليها.

«أنا جئتُ من هنا، وأنت من هناك. واليوم نجلس إلى الطاولة نفسها. سأحدِّثك عن طريقي وأنت هل ستحدثني عن طريقك؟»

لن أستطيع قط أن أتذكر بما يكفي من الدقة كل ما أخبرتني به بيس اليوم، عن نفسها، عن لندن وعن إنكلترا في السنين الأخيرة الماضية ـ عن الحروب، الثورات، الإعدامات، المذابح، المتعصبين، الطاعون الكبير... كنت أظن، قبل الاستماع إليها، بأني أعرف أشياء عن هذا البلد؛ أعرف الآن أني لم أكن أعرف شيئاً.

ماذا يجب أن أسجِّل من كل هذا في هذه الصفحات؟ أولاً الأشياء التي تخص الأشخاص الذين أعيش بجانبهم منذ وصولي. وأيضاً

مايُروى حول موضوع رحلتي، والشائعات والمعتقدات التي تتنبأ بنهاية الزمان. لا غير.

ما أفكر بروايته، لن أكتبه هذا المساء. فقد ثَقُل رأسي فجأةً، ولم أعد أشعر بالقدرة على رصف الكلمات والأفكار بطريقة مترابطة منطقياً. سأخلد إلى السرير دون انتظار قدوم الليل. وغداً سأنهض باكراً وأعاود الكتابة بذهن واضح.

الأربعاء الأول من أيلول 1666

استيقظت مذعوراً هذا الصباح. كنت قد تذكرت للتو ما قاله لي صديقي البندقاني على المركب الذي يحملنا من جنوة، ولا بد أني رويته في هذا الدفتر بالذات. ألم يقل بأنّ الموسكوفيين ينتظرون نهاية العالم هذا اليوم، الأول من أيلول الذي هو بالنسبة لهم بداية السنة الجديدة؟ فقط عندما رشقتُ وجهي بالماء البارد تذكّرتُ أن اليوم الذي بدأ للتو، هو في موسكو كما في لندن يوم 22 آب. إنه إذن مجرد إنذار كاذب. نهاية العالم لن تكون قبل عشرة أيام. ما زال لدي الوقت لكي أسترخي وأثرثر مع بيس وأزور أصحاب المكتبات.

آمُلُ أن يبقى الأمرُ خفيفاً على قلبي بهذا الشكل خلال عشرة أيام!

لندع الحذلقة جانباً، عليّ أن أدوّن حالاً ما علمته من بيس قبل أن أنساه. فهاقد بدأتْ بعض الجمل تختلط بعد يومٍ وليلة.

حدَّثَتْني أولاً عن الطاعون. دخل شاب في مقتبل العمر إلى صالة الحانة، وقالت لي مشيرةً إليه بذقنها بأنه آخر الناجين من عائلته. وأنها هي نفسها فقدت فلاناً وفلاناً من أقربائها. متى كان ذلك؟ الصيف الماضي. خفضت صوتها ومالت نحو أذني لتهمس لي: «حتى اليوم ما زال هناك أناس يموتون من الطاعون، لكن الناس سيتشاجرون معك إذا قلت ذلك بصوتٍ عالٍ». بل لقد أقام الملك القداديس شكراً للسماء لأنها وضعت حداً للوباء. وأي شخص يجرؤ أن

يؤكد بأن الأمر لم ينته، يَكون بصدد اتهامِ الملك والسماء بالكذب! مع ذلك فإن الحقيقة هي أن الطاعون يطوف فِي المدينة، وأنه يَقتل حوالى عشرين شخصاً كل أسبوع، عندما لا يكونون أربعين أو ستين. صحيح أن ذلك ليس بالشيء الكثير عندما نفكر أنه قبل عام كان الطاعون يقتل في لندن أكثر من ألف شخصٍ كل يوم! في البداية، كانوا يدفنون الضحايا ليلاً، حتى لا يُصاب السكان بالذعر؛ لكن حين تفاقمت الأمور، لم يعد ممكناً حتى أن يُتَّخذ هذا الإجراء. راحوا يجمعون الضحايا في النهار كما في الليل، وراحت طنابِر تمر حتى في الشوارع، يؤرجح الناسُ فوقها جثثَ آبائهم أو أبنائهم أو جيرانهم، كأنها فُرُشٌ متعفّنة!

«في البداية تخاف على أقربائك، قالت لي بيس، ولكن كلما أخذ الناس يموتون ويموتون، لا يعود لك سوى فكرة واحدة في رأسك: أن تنجو! أن تبقى حياً! وليَفْنَ العالم بأسره! لم أبكِ أختي ولا أبناء وبنات أختي الخمسة، ولا بكيتُ زوجي ـ سامحني الله! لم يبق لدي دموع! أشعر أني اجتزتُ هذه الفترة بعينينِ زائغتين مثل المسرْنمة، وأنا فقط أتساءل إذا كان هذا سينتهي يوماً...».

الأغنياء والقادرون هجروا المدينة، بدءاً بالملك ورؤساء الكنيسة. الفقراء بقوا لأنه ليس لديهم مكان يذهبون إليه؛ أولئك الذين يهيمون في الطرقات كانوا يموتون جوعاً. إلا أنه كان هناك بعض النبلاء الذين تشبثوا برغبتهم في صراع الشر، أو على الأقل تخفيف عذاب الآخرين. بعض الأطباء وبعض رجالِ الدين. وصاحبنا الكنَسيّ واحد منهم. كان بوسعه أن يرحل هو أيضاً، شرحتْ لي. فهو ليس معدَماً، ولدى أحد أخوته بيت في أوكسفورد التي كانت أقلّ مدنِ المملكة تعرُّضاً للوباء. لم يشأ الفرار. بقي في الحي متمسِّكاً بزيارة المرضى وتقديم العزاء لهم. كان يقول لهم بأن العالم على وشك الانطفاء، وأنهم يمضون قبل الآخرين بقليل، وخلال وقت قليل، حين ينزلون في جنات عدن، محاطين بثمارها اللذيذة، سيرون بقية الناس قادمين، ويكون عليهم هم تقديم العزاء لهم.

«شاهدتُهُ قرب سرير أختي، يمسك بيدها وينجح في إعادة هدوئها إليها، بل وفي انتزاع ابتسامة غبطة من شفتيها. كان يتصرف

بالطريقة نفسها مع جميع من يزورهم. كان يتجاهل نصائح أصدقائه ويتحدى الحجر الصحي. كان يجب أن تراه في زمن الشقاء الذي كان يختبئ فيه الناس، وهو يسير في الشوارع بقامته الفارعة البيضاء تماماً بثيابه البيضاء تماماً وشعره الطويل الأبيض ولحيته الطويلة البيضاء، كنتَ ستقول إنه الله الأب! عندما يلمح الناسُ صليباً أحمرمرسوماً فوق باب بيت، يرسمون بأيديهم إشارة الصليب ويتحوَّلون عن الطريق لكي يتجنَّبوه. أما هو فيتَّجه مباشرةً نحو الباب، سيجزيه الله يوماً مكافأةً له على ما فعله...».

لكنّ السلطات لم تظهر له أي امتنان على كل ذلك التفاني، وعبَّر الرعاعُ عن قدرٍ أقلّ من الامتنان. في نهاية الصيف الماضي، وفيما كان الطاعون قد بدأ يضعف، أوقفه أحد الجنود من حملة البلطات، واتهمه بالمساعدة على نشر الوباء عن طريق زياراته للمصابين بالطاعون؛ وحين أُطلِق سراحه بعد ثمانية أيام، وجد أن بيته قد أُحرِق تماماً حتى لم يبق منه أثر. نُشِرت شائعة بأنه يملك جُروع دواء سري يسمح له بالبقاء حياً، لكنه يرفض أن يستفيد الآخرون منه. وأثناء فترة سجنه دخلت عصابة من الحفاة إلى بيته بحثاً عن الجروع المزعومة، خربوا كل شيء، وأخذوا كل مايمكن أخذه، ثم أشعلوا النار في ما تبقى، تعبيراً عن سُعارهم وأيضاً من أجل إخفاء فعلتهم.

أرادوا إكراهه على مغادرة المدينة، تؤكد بيس. لكنها قدمتْ له المأوى، عرفاناً بالجميل، وهي فخورة لذلك. لماذا يحقدون على الرجل العجوز؟ بسبب نشاطاته الماضية. حدَّثتني طويلاً عن ذلك، مستشهدةً بأسماء لا تُحصى لم أكن أعرف نصفها ولا حتى ثلثها؛ لذا لم أستطع أن أحفظ الكثير. كل ما حفظته هو أن الكَنَسيّ كان مرشداً في جيش كرومويل ثم تشاجر مع هذا الأخير، وحاول التآمر لتدبير عصيان ضده. وهذا هو أساساً، السبب في أنه وقت أعيدت الملكية قبل ست سنينٍ من الآن، واضطُهِد وجوهُ الثورة جميعاً، أو حُكِم عليهم بالنفي، وأُخرِجت جثة كرومويل نفسه من التراب لكي تُشنَق وتُحرَق علناً، روعِيَ الكَنَسيُّ نسبياً، لكن لم يُعْفَ عنه قط، كما لن يُعفى قط عن أي شخصٍ ثار ضد الملكية أو أي شخصٍ له ضلع من قريب أو بعيد في إعدام الملك تشارلز. الكَنَسيُّ واحد من أولئك الأشخاص غير

المحبوبين. وحسب قول بيس فإنه سيبقى حتى وفاته وبعدها، واحداً منهم.

قبل أن أوقف عرضي، ثمة شيء أخير أشير إليه سريعاً خوفاً من أن ينزلق خارج ذاكرتي وعاهدتُ نفسي بالعودة إليه: بدأت مصائب إنكلترا أيضاً عام 1648 . هذا التاريخ تُكرره ريشتي باستمرار: نهاية حروب ألمانيا؛ قدوم سنة نهاية العالم اليهودية وبداية الاضطهادات الكبرى التي كلمني عنها ميمون طويلاً؛ نشر كتاب الإيمان الروسي الذي يحدد هذه السنة تاريخاً لنهاية العالم؛ وفي إنكلترا قطع رأس الملك، الحدث الذي ماتزال البلاد بأسرها تحمل لعنته، والذي وقع حسب التقويم هنا في نهاية عام 1648؛ كذلك بالنسبة لي، هذا العام هو عام زيارة إفدوكيم الحاج القادم من موسكو والذي هو سبب مصائبي، كما أنه عام وفاة والدي، في تموز...

لَكَأنَّ باباً قد انفتحَ تلك السنة، باباً جالباً للشرور جاءتْ من خلاله - بالنسبة للعالم ولي أنا - مختلف البلايا. أذكر أن بومة تكلَّم عن الدرجات الأخيرة، ست سنين مكررة ثلاث مرات، سوف تقود من سنة التمهيد إلى سنة الختام.

مرة أخرى يقول لي عقلي بأنَّ صَفَّ الأرقام إلى جانب الأرقام، ربما يوحي بمختلف الأشياء دون أن يثبت شيئاً. وأنا أحاول في هذه اللحظة، في هذا المساء على الأقل، أن أستمع أيضاً لما يقوله عقلي.

2 أيلول

تكلمت أول أمس، بخصوص محادثتي الطويلة مع بيس، عن مشاركة حميمية وعفيفة. منذ الليلة الماضية، أصبحت أكثر حميمية وأقل عفة.

كنتُ قد أمضيت النهار بطوله في الكتابة، وكنتُ أتقدم ببطء. بالطريقة التي اعتمدتُها لا يمكن أن أتقدم بسرعة أبداً. فأنا أكتب بلغتي

ولكن بالحروف العربية وبرموزٍ خاصة بي، وهذا بالمحصلة يعني عدة معاملات قبل تدوين كل كلمة. وعندما أحاول، فوق ذلك، أن أتذكر ما روته لي بيس بالانكليزية، يصبح التمرين منهِكاً.

لكني تقدمت مع ذلك، والدليل هو كل هذا النص الذي رصفتُه بالأمس، والذي كتبته أثناء الصباح وأنهيته بعد الظهر. لم أثبِّت على هذه الصفحات كل ما كنتُ أنوي حفظه، لكني أنزلتُ من ذاكرتي أشياء كثيرة كان يمكن أن تضيع.

قامت بيس مرتين بإحضار شيء آكله وأشربه، ومكثت قليلاً تنظر إليّ وأنا أخطّ هذه الحروف غير المفهومة من اليمين إلى اليسار. لم أعد أخبئ دفتري حين أسمعها قادمة، إنها الآن مطلعة على كل أسراري وأثق بها. لكني فقط أدعها تعتقد بأني أكتب بالعربية العادية، ولن أكشف لها قط ـ ولا لأي شخصٍ آخر! ـ بأني أستعمل لغة متنكِّرة خاصة بي.

عندما خلت الصالة في الأسفل، ساعة الإغلاق، جاءت بيس تقترح علي أن نتعشى معاً ونثرثر مثلما فعلنا عشية الأمس. وعدتُها أن أوافيها في الأسفل، على طاولة الأمس نفسها، حالما أُنهي المقطع الذي كنتُ بصدد كتابته.

لكن المقطع طالَ، ولم أكن أجرؤ أن أكثِر من التوقف ولا أن أوجِز، خوفاً من أن أنسى بعد محادثة جديدة، أشياء سمعتُها سابقاً. نسيتُ وعدي ورحتُ أكتب وأكتب دون أن أفكر بأي شيء آخر، بحيث وجدتْ مضيفتي الوقتَ لكي ترتِّب كل شيء في الصالة في الأسفل، ثم تصعد دون أن أكون قد تركتُ قلمي.

لم يَبدُ عليها أي غضب، بل بالعكس انصرفت على رؤوس أصابعها لكي تعود بعد بضع دقائق حاملة طبقاً وضعته فوق سريري. وعدتُها بأنني في السطور الأخيرة، وأننا سنتعشى بعدئذٍ معاً؛ أشارت لي بألاّ أستعجل وخرجت.

لكني سرعان ما انغمستُ في حكايتي ونسيتُ المرأة والعشاء من جديد، وكنتُ مقتنعاً بأنها نسيتني هي أيضاً. مع ذلك فعندما ناديتُها دخلت بعد لحظة كما لو أنها تنتظر وراء الباب. كانت تبتسم الابتسامة

نفسها ولم تُبدِ أي نفاد صبر. هذه الكياسة تمسُني وتدهشني. شكرتُها عليها فاحمرَّت. هي التي لم تحمَرّ من ضربة قوية على قفاها احمرّت من كلمة شكر!

كان فوق الطبق الذي أحضرَته لحم مجفف ومقطع إلى شرائح رقيقة، وجبن وخبز هشّ وتلك البيرة التي تسميها بيرة الزبدة لكنها بالدرجة الأولى مليئة بالتوابل. سألتُها إذا لم تكن تريد أن تأكل معي فقالت لي بأنها طوال النهار تقضم أطعمةً وهي تخدم زبائنها، وأن تلك هي عادتها، وأنها لا تكون جائعة أبداً وقت الوجبات. فقط أخذت لنفسها كوباً مماثلاً من البيرة لكي نستطيع قرع كوبينا. لذا، وبعد أن نظرت إلي وأنا أكتب، راحت تنظر إليّ وأنا آكل نظرة تشبه في كل شيء نظرة أختي بليزانس أو نظرة أمي المسكينة في الماضي، نظرة تحيد من كل جانب بالآكِل وطعامه، ترافق كل لقمة، وتجعل الإنسان يتحوّل إلى طفل. وفي بيت هذه الغريبة، شعرتُ فجأةً كأنني في بيتي. لم أستطع حتى أن أمنع نفسي من التفكير بكلمة المسيح، «كنتُ جائعاً وأطعمتني». مع أنني لم أكن مهدداً بالمجاعة وعانيتُ طوال حياتي من نَهَمي وليس من العوز، لكنْ كان في الطريقة التي أطعمتني بها تلك المرأة أثرٌ لثدي أُمّ. في الحال شعرتُ بِودٍّ لا محدود إزاءها، إزاء خبزها، إزاء بيرتها، إزاء حضورها، إزاء ابتسامتها المنتبهة ووضعية جسدها الصبورة، وزْرتها المبقَّعة، واستداراتها الخرقاء.

مكثت واقفةً حافية القدمين، مستندة إلى الجدار وكوبها في يدها. نهضتُ بالبيرة لكي نقرع الكوبين، ثم أمسكتُ بها بحنانٍ من كتفيها، قائلاً لها بصوتٍ منخفض شكراً مرة أخرى، قبل أن أطبع قبلة خفيفة أسفل جبينها بين الحاجبين.

وأنا أبتعد رأيتُ عينيها تترقرقان بالدمع، وشفتيها ترتعشان من التَّرقُّب وهما تشرعان بابتسامة. أمسكت أصابعي بخَرَقٍ بيدها الممتلئة، وهي تشد بقوة. جذبتُها نحوي وملَّستُ ببطء براحة يدي على شعرها وثوبها. التصقت بي ولبثت كمن يلبث تحت غطاء في طقس شديد البرودة. عندها أحطتُ بها دون تحفُّظ بكامل يديّ وبكامل ذراعيّ، دون أن أشدّ كثيراً، بل وأنا ألمسها كأنني أتلمّس بأطراف

أصابعي حدود جسدها، وجهها المرتعش، جفنيها اللذين يخفيان عينيها المبللتين، وحتى ردفيها.

بين مجيئها مرتين إلى غرفتي، كانت قد غيرت ثوبها، كان الثوب الذي ترتديه الآن أخضر قاتماً بانعكاسات متموجة وملمس حريري. كانت بي رغبة لأتمدد معها على السرير القريب جداً، لكني اخترتُ الوقوف. رحتُ أتذوّق إيقاع الأشياء ولم أشأ تسريعه. لم يكن الليل قد حلّ، وفي الخارج يسود ضوء نهار تقريباً، ولم يكن لدينا أي سبب يدعونا لاختزال مُتَعِنا مثلما يريد المرء اختزال عذاباته في أوقات أخرى.

حتى عندما أرادت إلقاء نفسها فوق السرير، أبقيتُها واقفة؛ فوجئت كما أظن، ولا بد أنها طرحت على نفسها تساؤلات، لكنها تركتني أوجِّه الرقص. حين يتمدد العشاق أبكر مما يجب، يفقدون نصف الملذات. بداية الحب تتم وقوفاً، عندما يبحر العاشقان أحدهما متشبِّث بالآخر، مبهورين، غير مبصِرين، مترنّحين، أليس من الأفضل أن تطول النزهة، وأن يهمس أحد العاشقين في أذن الآخر، وأن يلمسه بشفتيه ووقوفاً، وأن يخلع أحدهما عن الآخر ملابسه ببطء ووقوفاً، ويتعانقان بولَهٍ بعد خلع كل قطعة من الثياب؟

بقينا هكذا إذن لحظة طويلة، نفكّ ما كان معقوداً من ملابس في جوانب الغرفة، مع وشوشات بطيئة ولمسات بطيئة. اجتهدتْ يداي في تجريدها من ثيابها ثم في الإحاطة بها، وراحت شفتاي تنتقيان بصبرٍ الموضِعَ المرتعش من جسدها الذي تجمعان جَناهُ، الموضع الذي تحطّان عليه، ومن جديدٍ الموضع الذي تجمعان جَناهُ، بدءاً من جفنيها اللذين يحجبان عينيها، حتى يديها اللتين تخفِيان نهديها، إلى ردفيها العريضين الأبيضين العاريين. الحبيبة حقل زهور، وأصابعي وشفتاي مجموعة من النحل.

في سميرنا، في دير الكبوشيين، يوم أربعاءٍ، عشتُ لحظة متعةٍ عظيمة عندما مارست الحب أنا ومارتا، وكنا في كل لحظة نخشى دخول ابني أختي أو حاتم أو أي راهب. هنا في لندن كان لأربعاءٍ

العِناقِ هذا، طعمٌ فتّان بالقدر نفسه، ولكن على نحوٍ معاكس. هناك كانت حالة الاستعجال والإلحاح تمنح كل لحظة كثافةً هائجة؛ أما هنا فقد كان الوقت اللا محدود يمنح كل حركة رجعاً ودواماً وأصداء تغنيها وتزيد من احتدامها. هناك كنا مثل حيوانين مطاردين من الآخرين ومن شعورهما بالاجتراء على ماهو ممنوع. هنا لا شيء من كل ذلك، المدينة لا تعلم بوجودنا، والعالم لا يعلم بوجودنا، ولا نشعر بأننا نرتكب خطيئة، كنا نعيش في ظل الممنوع بعيداً عن الشر وعن الخير. وأيضاً على هامش الزمن. كانت الشمسِ المتواطئة تغرب ببطء عذب، والليل المتواطئ يَعِدُ بأن يكون طويلاً. سيتمكن كل منا من استنفاد الآخر نقطةً نقطة، حتى آخر متعة.

7 أيلول

عاد الكَنَسي وكذلك تلميذاه. كانا قد وصلا إلى البيت حين نهضتُ. لم يقل لي شيئاً عن أسباب غيابه، ولم أسأله شيئاً. تمتم فقط بكلمة اعتذار.

من المفيد أن أكتب منذ بداية هذه الصفحة، ثمة شيء فَسُدَ اليوم في علاقتي مع هؤلاء الناس. يؤسفني ويؤلمني ذلك، لكني لا أعتقد أني كنت أستطيع منع ما حصل.

عاد الكنسي منزعجاً، نزقاً، وأبدى في الحال نفاد صبر كبير.

«يجب أن نتقدم اليوم بالذات في هذا النص، لكي نستخلص منه الجوهر، إذا كان فيه جوهر. سنبقى هنا ليلاً ونهاراً ، ومن يتعب ليس منّا».

فوجئتُ بهذا الكلام وكذلك بالنبرة، وبالوجوه المغلقة المحيطة بي، فأجبتُ بأنني سأبذل كل ما أستطيع كي أنهي القراءة، لكني أوضحتُ أيضاً أن الآلام التي أخَّرت قراءتي ليست مسؤوليتي. ظننت أني اكتشفتُ هنا وهناك بسمات هازئة ارتيابية تجاهلتُها كوني مقتنعاً بأني ارتكبتُ خطأً. بالطبع لم أكذب في الشيء الجوهري، لأنه لا ذنب لي

في هجمات العمى تلك، التي أخَّرت القراءة؛ لكني كذبتُ حول الأعراض، وتظاهرتُ أحياناً بأوجاع في الرأس. ربما كان يجب أن أعترف منذ البداية بما يصيبني، مهما كان غامضاً. الآن فات الأوان، وإذا اعترفتُ بأنني كذبتُ ورحتُ أصِف لهم أعراضاً غريبة بهذا الشكل، فسوف أؤكِّد أسوأ ظنونهم. لذا قررت ألاّ أعود عما قلته، وأسعى جهدي لكي أقرأ بأفضل ما أستطيع.

لكن السماء لم تكن حليفةً لي هذا النهار. وبدلاً من أن تسهِّل لي مهمتي عقَّدَتْها. ما أن فتحتُ الكتاب حتى حل الظلام. لم يكن الكتاب وحده هو الذي توارى عني، بل باتت الغرفة بكاملها والناس والجدران والطاولة وحتى النافذة بلون الحبر.

على مدى لحظة، انتابني شعور بأنني لن أستطيع الرؤية بعيني بعد الآن قط، وقلتُ لنفسي بأن السماء قررت، بعد أن وجَّهت لي عدة تحذيراتٍ تجاهلتُها بعناد، أن تعاقبني العقاب الذي أستحق.

أغلقتُ الكتاب على عجل، واستطعتُ في لحظة أن أرى من جديد. ليس الرؤية الكاملة التي أتوقعها عند الظهر، بل كأننا أصبحنا في المساء، والغرفة مضاءة بشمعدان. ثمة ستار خفيف بقي وما زال باقياً في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور. كأنّ في السماء غيمة أتلقّى ظلّها وحدي. أصبحت صفحات هذا الكتاب بنيةً لعينيّ كأنها عَتِقَتْ مئة سنة في يوم واحد. كلما تكلمت عن الأمر أكثر ازداد قلقي أكثر، وازدادت صعوبةُ متابعة حكايتي أكثر.

مع ذلك فلا بد أن أتابع.

«ماذا هنالك أيضاً؟» سألني الكَنَسيّ حين رآني أغلق الكتاب.

كان لديّ حضور الذهن لكي أجيب قائلاً:

«لدي اقتراح أعرضه. سأصعد إلى غرفتي وأقرأ الكتاب بتَرَوٍّ وأدوِّن ملاحظات، ثم أعود هنا غداً صباحاً ومعي النص باللاتينية. إذا سمحت لي هذه الطريقة بتَجَنُّب الشقيقة، نكررها كل يوم وهكذا نستطيع التقدم في القراءة بانتظام».

استطعتُ أن أكون مقنعاً ووافق العجوز دون همة كبيرة بالتأكيد،

وبعد أن أخذ مني وعداً بالعودة حاملاً عشرين صفحة مترجمة، لا تنقص واحدة.

هكذا صعدتُ ولحق بي على ما يبدو أحد تلميذيه الذي سمعته يذرع المكان أمام بابي. تظاهرت بعدم ملاحظة هذا الموقف الخالي من الثقة، حتى لا أضطر لإظهار استيائي منه.

حين جلستُ أمام طاولتي، وضعتُ *الاسم المئة* أمامي، مفتوحاً على منتصفه، لكنه مقلوب باتجاه الأرض، وأخذت أتصفح هذا الدفتر حيث كنتُ سعيداً بأني وجدتُ يوم 20 أيار، العرض الذي قدمتُهُ لكلام صديقي الفارسي. وبالاعتماد على ما قاله لي في موضوع الجدل الذي قام حول الاسم العظيم ورأي المازندراني، حررتُ ماسوف أدَّعي في الغد بأنه ترجمة لما كتبه هذا الأخير، مستوحياً من الشيء اليسير الذي أمكنني قراءته في البداية من الكتاب الملعون، بهدف تقليد أسلوبه...

لماذا كتبتُ «ملعون»؟ هل هو ملعون؟ هل هو محمود؟ هل هو مسحور؟ لا أعرف شيئاً بعد. أعرف فقط أنه محميٌّ بدرع. محميٌّ مني أنا على أية حال.

8 أيلول

تمَّ كل شيء على ما يرام. قرأتُ نصي باللاتينية، ونسخَهُ ماغنوس حرفياً. قال الكنسي بأنه كان علينا اتباع هذه الوسيلة منذ البداية. لكنه حثَّني فقط على المضي أسرع في قراءتي.

أرجو أن يكون هذا تعبيراً عن حماسه المستعاد، وأن يخفف من توقعاته، وإلا فإني أخشى وقوع الأسوأ. لأن الحيلة التي لجأتُ إليها لايمكنني الاستمرار فيها إلى ما لانهاية. اليوم استقيتُ مما قاله أصفهاني وإلى حد ما من ذاكرتي. أستطيع أن أتذكر بضعة أشياء أخرى سمعتُها بخصوص *الاسم المئة*، لكني لا أستطيع الاستمرار في هذه الخدعة إلى ما لانهاية. يوماً ما يجب الوصول إلى آخر هذا الكتاب وذكر الاسم المنتظر، سواء كان حقاً الاسم الصميم للخالق، أو مايفترضه المازندراني وحسب.

ربما يتوجب علي القيام بمحاولة جديدة للقراءة في الأيام القادمة...

بدأتُ هذه الصفحة مليئاً بالأمل، لكن ثقتي تضاءلت بعد بضعة سطور، مثلما يتضاءل الضوء كلما فتحتُ الكتاب الممنوع.

9 أيلول

قضيتُ مساء الأمس وهذا الصباح في تسويد صفحات باللاتينية تدَّعي تأويلَ نصِّ المازندراني. ولهذا لم يعد لدي الوقت ولا القوة للعودة إلى القلم لأجل كتاباتي الخاصة، وسأكتفي بملاحظات قصيرة.

سألني الكنسي عن عدد الصفحات التي ترجمتُها حتى الآن. فأجبتُ ثلاثاً وأربعين، كما كان يمكنني أن أجيب سبع عشرة أو ست وستين. سألني عن عدد الصفحات الباقية وأجبت مئة وثلاثين. فكرر لي عندها بأنه يأمل أن أنهي القراءة خلال بضعة أيام وبالتأكيد قبل نهاية الأسبوع القادم.

وعدته بذلك، لكني أشعر بالفخ ينغلق حولي. ربما عليّ أن أهرب من هنا...

10 أيلول

انضمَّت بيس إليّ في الليل. كان الظلام مخيماً واندسَّت إلى جانبي. لم تأتني ثانيةً منذ عودة الكنسي. وانصرفت قبل الفجر.

إذا قررتُ الفرار هل يجب أن أخبرها؟

عند الصباح أنهيتُ نصّ هذا اليوم. حلَّ خيالي بالنيابة عن معارفي التي بدأت تنضب. إلا أن الآخرين أصغوا إليّ بمزيد من

الانتباه. صحيح أنني قوّلتُ المازندراني بأنّ الله عندما يكشف عن اسمه العظيم، فإنه سيملأ كلَّ أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم يعرفونه، بالدهشة والهلع.

لا شك أني، أمام مستمعيّ الثلاثة، كسبتُ الوقت والثقة. إننا لانجعل الحظَّ إلى جانبنا عندما نزيد مقدار الرهان في القمار..

11 أيلول

اليوم تبدأ السنة الروسية الجديدة، ولم أكف عن التفكير بذلك طوال الليل... حتى أنني رأيت الحاج إفدوكيم في حلمي، يهددني بالصواعق ويحثني على التوبة.

عندما اجتمعنا قرابة الظهر في غرفة الكنسي، بدأتُ بذكر هذا التاريخ أملاً في خلق أُلْهِيَةٍ. رحتُ أروي بالتفصيل، لا أكاد أبالغ، الكلام الذي أخبرني به صديقي جيرولامو على متن السفينة سانكتوس ديونيزيوس، بأن كثيراً من الناس في موسكو مقتنعين بأنّ عيد القديس سمعان هذا، والذي يشير بالنسبة لهم إلى السنة الجديدة، سيكون العيدَ الأخير. وأن العالم سيبيد بطوفانٍ من نار.

بقي الكنسي صامتاً رغم النظرات الملحّة التي كان تلميذاه يوجهانها إليه. ولم يكن يستمع إلي إلاّ بشرود، وتقريباً بلا مبالاة. ورغم أنه تجنَّب التشكيك بما أقول، فقد استغل لحظة صمتٍ لكي يعيدني إلى موضوعنا الأساسي. مسَّدتُ أوراقي وبدأتُ، على مضض، بقراءة كذباتي لهذا اليوم...

الأحد 12 أيلول 1666

إلهي، إلهي إلهي

ماذا عساي أقول غير ذلك؟

إلهي إلهي..

هل يمكن أنَّ الأمر قد وقع؟

في منتصف الليل بدأت لندن تلتهب. ويقولون بأن الأحياء تضطرم فيها النار واحداً إثر الآخر. من نافذتي أرى نهاية العالم الحمراء، ومن الشوارع يعلو صراخ المخلوقات المذعورة، والسماء خالية من النجوم.

يا إلهي، هل يمكن أن تكون نهاية العالم هكذا؟ لا، ليس العدمَ المفاجئَ، بل ناراً تنتشر مقتربةً أكثر فأكثر، ناراً أراها تصعد كما يصعد ماء الطوفان، وأشعر أنها ستغرقني؟

هل هي نهايتي بالذات تلك التي أراقبها عبر النافذة، تلك التي أراها تقترب، والتي أتفنن في وصفها منْكَبًّا فوق صفحتي؟

النار التي ستلتهم كل شيء تقترب وأنا جالس خلف هذه الطاولة الخشبية، في هذه الغرفة الخشبية أبوح بآخر أفكاري لرزمة من الأوراق القابلة للاشتعال. جنون جنون. ولكن أليس هذا الجنون اختصاراً لِوضعي كشخصٍ زائل؟ أحلم بالأبدية عندما يُحفر قبري، مسلِّماً روحي بِوَرَعٍ لذاك الذي يتهيأ لانتزاعها مني. عند ولادتي، كانت تفصلني عن الموت بضع سنين، اليوم تفصلني عنه ربما بضع ساعات؛ ولكن ما هي السنة في نظر الأبدية؟ ماهو اليوم؟ ما الساعة؟ ما الثانية؟ ليس لهذه المقاييس معنى إلا لقلبٍ ينبض.

كانت بيس قد جاءت تنام بقربي. كنا متعانقين عندما سمعت صرخات من جوارنا. من النافذة، كنا نرى في البعيد، لكنه ليس بعيداً جداً، باتجاه التايمز، الاحمرار الوحشي، وأحياناً بضعة ألسنة من النيران تنبثق ثم تسقط.

الأسوأ من ألسنة اللهب هذه ومن الاحمرار، هو ذلك الصرير المشؤوم، كما لو أن فماً عملاقاً لوحش يقضم خشب البيوت، يطحن، يمضغ، يمضغ أيضاً، ثم يبصق.

ركضت بيس إلى غرفتها لكي ترتدي ثيابها لأنها أتت إليّ بلا ثياب تقريباً، ثم عادت، وسرعان ما لحق بها الكنسي وتلميذاه اللذان ناما في المنزل. الجميع تواجدوا عند الفجر في غرفتي، لأن نافذتي الأعلى في البيت هي التي يُرى منها الحريق بشكل أفضل.

وسط أصوات التعجُّب والبكاء والصلوات، ذكر أحدٌ ما شارعاً أو مبنىً عالياً وصلت النار إليه أو حاصرته. ونظراً لأني لا أعرف كل هذه الأمكنة لم أعرف جيداً في أية لحظة يجب أن أنفعل أو أقلق أو أطمئن قليلاً. ولم أشأ إزعاجهم بأسئلة غريبٍ مثلي. لذا انسحبت إلى الوراء، ومكثتُ في ركني بعيداً عن النافذة التي تركتُها لعيونهم المعتادة على المكان، مكتفياً بتسجيل تعليقاتهم ومخاوفهم وحركاتهم.

بعد لحظة، نزلنا معاً، أحدنا وراء الآخر، فوق السلم الخشبي السريع العطب إلى الصالة التي في الأسفل، حيث لم نعد نسمع جلبة النار بل جلبة الحشد الذي راح يزداد باستمرار ويبدو عليه الغضب.

إذا بقيتُ حياً الزمن الكافي لاستعادة الذكريات سأحتفظ ببعض المشاهد الغثة في ذاكرتي. مشهد ماغنوس الذي خرج لحظةً إلى الشارع، ثم عاد ليعلن لنا باكياً بأن كنيسته، كنيسة حاميهِ القديس ماغنوس، قرب جسر لندن، تشتعل. سيمتلئ يوم الشؤم هذا بألف خبرٍ من هذا النوع، لكني لن أنسى قط، ذلك الضيق اللامتناهي لهذا الشاب الشديد الإخلاص والتفاني لعقيدته، والذي كان يتهم السماء بصمتٍ لأنها خانته.

لم ينفتح باب «بيت البيرة» طوال فترة الصباح. وعندما يذهب ماغنوس أو كالفن أو بيس لتسقُّط الأخبار، يوارَب للسماح لهم بالخروج، ثم مرة أخرى للسماح لهم بالدخول. لم ينهض الكنسي مرة واحدة عن المقعد الذي رسا فيه بكل ثقل. أما أنا فكنت أتجنب الظهور في الشارع بسبب الشائعات التي انتشرت منذ الفجر والتي تفيد بأن مَن يسمونهم هنا «البابويون» هم الذين أشعلوا الحريق.

كتبتُ «منذ الفجر» وهذا ليس دقيقاً. أريد أن أكون دقيقاً حتى آخر نفس، والأشياء لم تحدث على هذا النحو. في الصباح الباكر، قالت الإشاعة بأن النار اندلعت في مخبز بالمدينة بسبب فرن لم يُطفأ جيداً،

أو بسبب خادمة غفَت تاركةً ألسنة اللهب تنتشر أولاً في هذا الشارع الذي يدعى بودينغ لين، والقريب جداً من النزل الذي أمضيتُ فيه ليلتيّ اللندنيتين الأوليين.

بعد ساعة، قال شخص ما في شارعنا لكالفن بأنّ الأسطولين الهولندي والفرنسي أغارا فأشعلا النار في المدينة لخلق بلبلة شديدة سيستفيدون منها للبدء بهجماتهم، وأنه يجب توقُّع الأسوأ.

بعد ساعة لم يعد الأسطولان هما السبب، بل رجال البابا، رجال «المسيح الدجال» هم الذين يسعون، مرة أخرى، لتدمير بلد المسيحيين الحقيقيين. بل لقد قيل لي بأنه قبض على أناس من قبل الحشد، لسبب وحيد هو أنهم ليسوا من هنا. ليس من الجيد أن يكون المرء أجنبياً عندما تندلع النار في المدينة. لذا اختبأتُ بحذر طوال هذا اليوم. أول الأمر في الصالة الكبيرة في الأسفل، وعندما حضر بعض الجيران الذين لم يكن ممكناً إغلاق الباب دونهم، اضطررت أن أختفي في مكان أبعد، أعلى، في غرفتي، في «مرقَبي» الخشبي.

أخذتُ أكتب هذه المقاطع في دفتري، بين وقفاتي الطويلة على النافذة، لأخادع القلق.

غربت الشمس ومايزال الحريق مضطرماً. الليل أحمر وتبدو السماء خالية.

هل يمكن أن تكون جميع المدن الأخرى مشتعلة مثل لندن؟ وأن تتخيل كلٌّ منها، كما تفعل لندن، بأنها عمورية الوحيدة؟

هل يمكن أن تكون جنوة أيضاً، وفي هذا اليوم بالذات، طعاماً للنار؟ وماذا عن القسطنطينية؟ وسميرنا؟ وطرابلس؟ وحتى جبيل؟

خفتَ الضوء، وفي هذه الليلة لن أشعل أية شمعة. سأتمدد في العتمة، لأستنشق الروائح الشتائية للخشب المحروق، وسأصلي لله أن يعطيني الشجاعة لأغفو مرة أخرى.

الاثنين 13 أيلول 1666

نهاية العالم لم تُستَنفَد، نهاية العالم مستمرة. وبالنسبة لي هي تحكيم إلهي بالنار.

تضطرم لندن بلا نهاية، وأنا أختبئ من النار في عش من الخشب الجاف.

غير أني نزلت عندما استيقظت إلى الصالة الكبيرة التي وجدت فيها بيس والكنسي وتلميذيه كل منهم مسترخ في كرسيه. لم يتحركوا من أماكنهم طوال الليل. لم تفتح صديقتي عينيها إلا لكي ترجوني أن أعود للصعود إلى مخبئي خوفاً من أن يروني أو يسمعوني. يبدو أن العديد من الغرباء أُمسك بهم أثناء الليل ومن بينهم جنَويَّان. لم يقولوا لها اسميهما، لكن الخبر أكيد. وعدت بأن تحمل لي ما أقتات به، ورأيت في عينيها وعداً بالحب. ولكن كيف لنا أن نتبادل الحب في مدينة تحترق؟

في اللحظة التي عدتُ فيها لصعود السلالم بحذر، أوقفني الكنسي من كُمِّي.

«نبوءتك، يبدو أنها تتحقق فعلاً» قال بابتسامة قسرية.

الكلام الذي رددتُ عليه بحدة بأنها ليست نبوءتي، بل نبوءة الموسكوفيين نقلها لي صديق بندقاني في البحر، وأنا ذكرتُها فقط. في هذه الظروف، لا أحرص على الظهور كنبي يتنبّأ بالمصائب. لقد أُحرِق أشخاص ثرثارون مسالِمون على أقلّ من ذلك! أدرك الرجل قلقي واعتذر قائلاً بأنه أخطأ إذ تكلم على هذا النحو.

عندما لحقت بي بيس بعد قليل كررت لي اعتذارها مقسِمةً بأن الكنسي لم يحدِّث أحداً عن هذه النبوءة وأنه يدرك الخطر الذي يعرِّضني له بنشر إشاعات مماثلة.

بعد الإقفال على الحادث سألتُها عن أخبار الحريق. يبدو أنّ حدته انخفضت فترة قصيرة، لكنه عاد إلى انتشاره تغذيه الريح الشرقية؛ ذكرت لي حوالى عشرة من الشوارع التي ربما تكون اليوم فريسة

للنيران ولم أحفظ أسماءها. نبأ وحيد مُطَمْئِن: النار تنتشر ببطء في شارعنا مع أن اسمه شارع الخشب «وود ستريت». بالتالي ليس هناك أي تفكير بعد بإجلاء للسكان عنه. على العكس، جاء أقارب لـِ بيس يودعون عندها قطع أثاث خوفاً من أن تكتسح النار بيوتهم الأقرب إلى التايمز.

لكن هذا ليس أكثر من أجَلٍ قصير. فإذا كانَ هذا البيت اليوم في منجىً، فلن يعود كذلك غداً، ولنْ يكون كذلك حتماً بعد غد. ويكفي أن تهب الريح من الجنوب قليلاً لكي تدركنا حتى قبل أن نتمكن من الهرب. أدوّن ذلك في هذه الصفحات لكني لم أقله لـِ بيس، خوفاً من أن أبدو في نظرها مثل كاساندرا مشؤومة.

الأربعاء 14 أيلول 1666

اضطررت للاختباء تحت التخشيبات. وكنتُ مثل هذا البيت، مثل هذه المدينة، مثل هذا العالم، محكوماً أُجِّل تنفيذُ حكمه.

ربما كان عليّ، أمام مشهد المدينة التي تلتهمها النيران، أن أستطيع الكتابة مثلما استطاع نيرون الغناء، لكنّ صوتي لم يعد يخرج إلا على شكل جُمَلٍ مفككة.

طلبت مني بيس أن أنتظر وألاّ أصدر أي صوت، وألاّ أخاف.

وأنا أنتظر. لا أصدر أية حركة، ولا أسعى لتأمُّل نيران الحريق، وسأكفّ حتى عن القراءة.

لكي أكتب أحتاج لقليل من الشعور بالإلحاح وقليل من هدوء البال. الكثير جداً من هدوء البال تسبب لأصابعي الكسل، والكثير جداً من الشعور بالإلحاح يجعلها صعبة الترويض.

يبدو أن الرعاع يفتشون اليوم البيوت بحثاً عن المذنبين المختبئين.

أينما حللتُ هذا العام، شعرتُ بأني مذنب. حتى في أمستردام! نعم ياميمون، ياصديقي، يا أخي، هل تسمعني؟ حتى في أمستردام!

كيف سأهلك؟ بوساطة النار؟ أم بوساطة العامّة؟

كففتُ عن الكتابة. أنتظر.

الدفتر الرابع

إغواء جنوة

في جنوة، السبت 23 تشرين الأول 1666

ترددتُ طويلاً قبل أن أستأنف الكتابة. حصلتُ أخيراً على دفتر من أوراقٍ خيطتْ إلى بعضها، أُسَوِّد في هذه اللحظة الصفحةَ الأولى فيه، بِمُتعةٍ. لكني لستُ متأكداً من أني سأستمر.

سبق أن دشَّنتُ ثلاثة دفاتر بيضاء على هذا النحو، معاهداً نفسي بأن أدوّن فيها مشاريعي، رغباتي، عذاباتي، انطباعاتي عن المدن والناس، وقليلاً من الدعابة والحكمة، كما فعل قبلي كثيرٌ من المسافرين وكتَّابُ الحوليات في الماضي. ليست لدي موهبتهم، وصفحاتي ليست بقيمة تلك الصفحات التي كنتُ أنفض الغبار عنها فوق رفوفي؛ إلا أني ثابرتُ على تقديم عرض لكل ما يحدث لي، حتى عندما يدفعني الحذرُ أو الكرامةُ للسكوت، وحتى عندما يتملَّكُني السأم. كنت أكتب كل مساء، أو تقريباً كل مساء، إلاّ عندما وقعتُ فريسةَ المرض، أو عندما سُجِنتُ. ملأتُ مئات الصفحات في ثلاثة دفاتر، ولم يبق لي أيٌّ منها. كتبتُ لأطعِم النار.

الدفتر الأول الذي يروي بداية رحلتي ضاع حين اضطررت لمغادرة القسطنطينية على عجل، والثاني بقي في شيّو عندما طُرِدتُ منها، والثالث انتهى بالتأكيد في حريق لندن. وهاأنذا مع ذلك أمسِّد صفحات الرابع، أنا الفاني الغافل أبداً عن الموت، سيزيف الذي يدعو للرثاء.

في محلي بجبيل، حين كان عليّ أحياناً أن أُلقي بكتاب قديم بالٍ ومتحلل إلى النار، لم أكن أستطيع منع نفسي من التفكير لحظةً بحنان

بالتعيس الذي كتبه. أحياناً يكون المؤلَّفَ الوحيدَ في حياته، كلُّ ماتَمَنَّى أن يتركه علامةً على عبوره. لكن شهرته ستصبح دخاناً رمادياً مثلما سيصبح جسده غباراً.

أصف موتَ شخصٍ مجهول، في حين أن الأمر يتعلق بي!

الموت. مَوْتي، ما أهميته، ما أهمية الكتب، ما أهمية الشهرة إذا كان العالم سيشتعل غداً مثلما تشتعل لندن؟

ذهني مشوش هذا الصباح! مع ذلك يجب أن أكتب. يجب أن تنهض ريشتي وتسير رغم كل شيء. سأكتب وأكتب سواء عاش هذا الدفتر أو احترق.

سأروي أولاً كيف فررتُ من لندن. حين اندلع الحريق، اضطررتُ للاختباء كي أُفلِت من غضب مجموعةٍ من الرعاع فارغي الرؤوس أرادوا ذبح البابويين. كان من المحتمل أن يقوم سكانٌ عاديون باعتقالي وإساءة معاملتي وتعذيبي، ثم إلقائي إرَباً في الأَتون، بإحساسِ مَنْ يُرضي ضميرَه، وذلك دون دليلٍ آخر على جُرمي سوى كوني غريباً، وكوني من شبه الجزيرة نفسها التي ينتمي إليها «المسيح الدجال». إنما سبق أن أشرتُ إلى هذا الجنون في الدفتر الذي ضاع، ولم تعد لدي قدرة للعودة إليه. الشيء الذي أريد أن أتحدث عنه قليلاً هو خوفي، بالأحرى مخاوفي. لأنه كان لدي خوفان وخوف ثالث. خوف من ألسنة اللهب المنفلتة، خوف من حشود العامَّة المنفلتة، وخوف مما يمكن أن تعنيه هذه المأساة التي حلت في اليوم نفسه الذي عيَّنه الموسكوفيون يوماً لنهاية العالم. لن أُماجِك أيضاً حول كلمة «إشارة». ولكن كيف لا أخاف من تَوافُقٍ مماثل؟ طوال ذلك اليوم الملعون يوم 11 أيلول - الموافق للأول من الشهر حسب التقويم الإنكليزي - لم أكفّ عن التفكير بتلك النبوءة الكارثية؛ وتناقشتُ حولها مطولاً مع *الكنسيّ*. لن أقول بأننا كنا ننتظر بين الدقيقة والأخرى هذه الفرقعة الهائلةَ لعالمٍ يتمزّق، وتلك الفوضى التي أنبأ بها الكتابُ المقدس، بل كانت آذاننا تترقَّب. وفي نهاية هذا اليوم نفسه، نحو منتصف الليل، تصاعدت الجلبةُ المشؤومة. كان باستطاعتي، من غرفتي، مراقبة تقدم النيران وسماع الصراخ.

مع ذلك فثمة عزاء في نكبتي: تَفاني هؤلاء الأشخاص الذين يحيطون بي، الذين أصبحوا عائلتي، فيما كانوا، قبل ثلاثة أسابيع، يجهلون وجودي مثلما كنتُ أجهل وجودهم. بيس والمرشد وكذلك تلميذاه الشابان.

عسى ألا يتخيل أحدٌ بأن امتناني لـِ بيس هو امتنان رجلٍ متوحِّدٍ وجدَ العزاء بين ذراعي صاحبة حانةٍ متفهِّمة! لم يكن ما هدَّأتْهُ هذه المرأةُ في داخلي هو الجوع الجسدي الذي يشعر به مسافر، بل هدَّأَتْ مِحنَتي الأصلية. ولدتُ غريباً وعشتُ غريباً وسأموت غريباً أكثر. أنا أَشَدُّ زهواً من أن أتكلم عن عَداءٍ أو إهانات أو ضغينة أو عذابات، لكني أستطيع معرفة النظرات والحركات. هناك ذراعا امرأةٍ يكونان غُربَتَك، وذراعان آخران يكونان وطنك.

بعد أن خبأتني بيس وحمَتْني وأطعمتني وطمأنتني، جاءت لتقول لي في اليوم الثالث للحريق بأن علينا إيجاد مخرج. كانت النار تقترب حتماً، ولذلك ابتعد الرعاع. وبات بمقدورنا أن نحاول الانسلال بين الجُنونَيْنْ لكي نركض حتى الجسر، ونصعد إلى متن أول زورق، مبتعدين عن الأتون.

قالت لي بيس بأن الكنسي يؤيد هذا المسلك، وإنْ فَضَّلَ شخصياً البقاء في البيت بعض الوقت. فإذا حُفِظَ من النار، سيحفظه أيضاً من النهب بفضل وجوده فيه. سيبقى تلميذاه معه للحراسة ولكي يسانداه بأذرُعِهِما إذا احتاج الأمر للهرب.

وفي لحظة الاستئذان بالانصراف، وبدلاً من التفكير فقط بالنجاة بحياتي، شغل ذهني التفكيرُ بكتاب *الاسم المئة*، وهو أساساً لم يغب عن أفكاري قط طوال هذه الأيام وهذه الليالي. وكلما انتبهتُ إلى أنّ إقامتي في لندن تقترب من نهايتها لم أستطع منع نفسي من التساؤل فيما إذا كنتُ سأجد الحجج لإقناع الكَنَسيّ بتَرْكِهِ لي. فكرت حتى بأخذه رغماً عنه، بسرقته، نعم! الأمر الذي ما كنتُ أظن نفسي بقادرٍ على القيام به في ظروف أخرى، في سنة عادية. ولا أعرف أساساً إذا كنتُ سأمضي إلى نهاية مشروعي البغيض. لحسن الحظ، لم تتوافر لي الفرصة. لم أضطر حتى لاستخدام الحجج التي شَحَذْتُها. عندما طرقتُ باب غرفته

لكي أودعه، طلب مني العجوز أن أنتظر لحظةً، ثم سمح لي بالدخول. وجدتُهُ جالساً في مكانه المعتاد ممسكاً بالكتاب فوق راحتيه الممدودتين في حركةٍ تَقْدِمَةٍ جعَلَتْ كلينا نمكث صامتين وبلا حراك، لحظة طويلة.

ثم قال لي باللاتينية مع بعض الفخامة:

«خذه، إنه لك، لقد استحقَقْتَهُ. لقد وعدتُكَ به لقاء التزامك بترجمته، والآن أعرف ما يكفي حول ما جاء فيه. ما كنتُ لأعرف المزيد من دونك. أصلاً فات الأوان».

شكرتُهُ بكلمات متأثِّرة وعانقته. ثم تعاهدنا، دون اعتقاد شديد بذلك، أن نرى بعضنا ثانيةً، إن لم يكن في هذا العالم، فعلى الأقل في العالم الآخر. «وهذا لن يتأخر فيما يخصني» قال. «وفيما يخصنا جميعاً!» تابعتُ مشيراً بحركة بليغة إلى ما يحدث حولنا. كنا سندخل مرة أخرى في نقاش حول مصير العالم لو لم تستعجلني بيس بنبرة متوسِّلة. أرادت أن نمضي في الحال!

استدارت نحوي مرة أخيرة، لحظةَ الخروج، وعايَنَتْ زَيِّي الإنكليزي المضحك وأخذت مني وعداً بألاّ أفتح فمي مرة واحدة، وألاّ أنظر إلى المارة في عيونهم مباشرةً، وأن أرسم على وجهي ملامح الحزن والإنهاك فقط.

هناك ربع ساعة من السير في خط مباشر من بيت البيرة حتى التايمز، لكنه لم يكن وارداً أن نذهب في «خط مستقيم»، لأننا سنصادف النيران. فضَّلتْ بيس الالتفاف حول المنطقة المشتعلة. حتى أنها بدأت بالدخول في شارع صغير بدا كأنه يقود إلى الاتجاه المعاكس. تبعتُها دون نقاش. وبعده كان هناك شارع صغير ثانٍ ثم ثالث، وربما خمسة عشر أو عشرون شارعاً آخر. لم أعدّ ولم أحاول أن أعرف أين نحن. كنتُ أنظر إلى قدميّ كيلا أسقط في الحفَر، كيلا أصطدم بالأنقاض أو أمشي فوق الأقذار. رحت أتبع شعر بيس الكَثَّ المحمَرَّ مثلما يتبع جنديٌّ في الحرب قنزعةَ قبعةٍ أو رايةً. أسلمتُها حياتي مثلما يُسلِم طفل يده لأمه. ولم يحدث ما يجعلني أندم على ذلك.

مرة واحدة وقع طارئ منذر. عند وصولنا إلى ساحة صغيرة، في مكان يدعى «جورة الكلاب»، قرب السور، التقينا بجمهرَة من حوالى ستين فرداً يُهينون شخصاً ما. اقتربتْ بيس منهم حتى لا نبدو هاربين، وتحدَّثت إلى امرأة كانت تقف هناك، فعلمتْ أنّ حريقاً جديداً اندلع للتو في الحي، وأنّ هذا الأجنبي ـ فرنسي ـ بوغت وهو يجوس في الأنحاء.

كان بودي لو أستطيع القول بأني تدخَّلتُ لدى هؤلاء الساخِطين لكي أمنعهم من ارتكاب إثم. وفي حال تعذَّر ذلك أن أستطيع القول بأني حاولتُ التدخُّل وأن بيس منعتني. أما الحقيقة فهي للأسف أني مضيتُ في طريقي بأسرع ما يمكن، سعيداً جداً لأني لم ألاحَظ ولأني لستُ في مكان هذا الشخص الشقي، مثلما كان ممكناً أن يحدث. بل لقد تجنَّبتُ النظر إلى هؤلاء الناس خوفاً من أن تلتقي نظراتهم بنظراتي. وحالما دخلت صديقتي، بلا عجلة، في حارةٍ شبه مقفرة، اقتفيتُ أثرها. كان الدخان يتصاعد من بيتٍ ذي ألواح خشبية متفرقة يملأ فراغاتها الجبصين. الغريب في الأمر أنه كانت تُرى بعض ألسنة لهب في الطابق العلوي. مع ذلك تقدمت بيس دون التفات ودون عجلة زائدة، وتبعتُها بالإيقاع نفسه. لو كان لدي الخيار، وبعد أخذ كل شيء بالاعتبار، لفضَّلتُ الموت مُطوَّقاً بالنار على الموت مطوَّقاً بالعامة.

اجتزنا بقية المسافة بلا حوادث. كنا نشمّ رائحةً حريفة وكانت السماء محجوبة بالدخان، وكنا، هي وأنا، مثل كسيحَينْ ومبهوري الأنفاس، لكنّ بيس عرفت كيف تختار الطريق الأكثر أماناً. وصلنا إلى التايمز فيما وراء برج لندن قبل أن نعود باتجاه رصيف الركوب الواقع أسفل هذا البرج تماماً، أمام السلّم الذي يقال له «أيرون غيت ستيرز، أو سلم بوابة الحديد».

كان هناك زهاء الأربعين شخصاً ينتظرون، وبينهم نساء باكيات. حول الناس تتكدس صناديق وحُزَم أمتعة كبيرة وصغيرة، وكذلك قطع أثاث. كان السؤال المتداول هو كيف حملوها إلى هنا. كنا، بيس وأنا، أخفّ الموجودين، لأنني لم أكن أحمل في يدي سوى حقيبة قماشية أعارتني إياها. لا بد أننا نبدو فقيرين حقاً، ومع ذلك الأقلّ تعاسة. كان واضحاً أن الآخرين فقدوا بيوتهم جميعاً، أو أنهم قانعون

بفقدانها، مثل غالبية سكان المدينة. كنت أحمل في حقيبتي الضئيلة الكتابَ الذي جبتُ نصفَ العالم لأجله، لأخرج سالماً من الجحيم.

لدى رؤية السحنات المهزومة من حولنا قَنِعْنا بالمكوث طويلاً بانتظار زورق. إلا أن الزورق وصل بعد بضع دقائق. رسا قريباً منا، نصفه مملوء بسكان المدينة الهاربين، ونصفه الآخر تشغله شِباك مكدَّسة. بقيت فيه بعض الأماكن، لكنّ شخصين جَسورَيْن كانا يحرسان المدخل المُفضي إليها، شيطانين فارِعَيْن ملتحيين، أذرُعُهما كالأفخاذ ورأساهما محاطان بمنديلين مبللين.

قال أحدهما بالنبرة الأقل حفاوة:

«جنيه للشخص، رجلاً أو امرأة أو طفلاً، يُدفَع حالاً. وإلا لا أحد يصعد!»

أشرتُ لـِ بيس التي قالت له على مضض:

«حسناً، سندفع لك».

مدَّ لي الرجلُ يده فقفزتُ إلى زورقه الذي وقف منحرفاً حتى لايتمكن أكثرُ من شخص واحد من الصعود إليه دفعةً واحدة. وبعد أن أصبحتُ على سطح الزورق استدرتُ ومددتُ يدي نحو بيس لأساعدها على القفز. لمسَتْ لي يدي فقط ثم تراجعتْ قائلةً «لا» برأسها.

«تعالي!» ألححتُ.

أيضاً كررتْ «لا» برأسها، وأشارت لي بيدها بحركة وداع، وعلى وجهها ابتسامة حزن وندم وتردد كما بدا لي.

شدَّني أحدهم إلى الخلف من قميصي لكي يتمكن أشخاص آخرون من الصعود إلى الزورق. ثم جاء أحد البحَّارَيْن ليطالبني بالدفع. أخرجتُ من كيس نقودي جنيهين لكني أعطيته واحداً فقط.

ما زلتُ حتى الساعة التي أكتب فيها هذه السطور أشعر بوخزة في القلب. تمَّ هذا الوداع بأسرع مما يجب، وأسوأ مما يجب. كان يجب أن أتكلم مع بيس قبل وصول السفينة لكي أستفسِر منها عن رغبتها. تصرفتُ طوال الوقت كما لو أنه أمر مفروغ منه أنها سترافقني، وإنْ لمسافة قصيرة، فيما كان يُفترض واضحاً بأنها لن تأتي، بأنه ليس

لديها أي سبب يدعوها لترك حانتها وأصدقائها واللحاق بي. على أية حال أنا لم أطلب منها ذلك قط، كما لم أفكر بأن أفعل. من أين إذن يأتيني هذا الشعور بالذنب الذي يستفيق كلما تحدَّثتُ عنها أو عن لندن؟ هذا دون شكّ لأني تركتُها مثل غريبة، في حين أنها أعطتني، خلال بضعة أيام، ما لن تعطني إياه كائناتٌ أقرب بكثير طيلة حياةٍ بكاملها؛ ولأني مَدين لها ولن أستطيع أن أفيها دينها بأية طريقة قط؛ لأني نجوتُ من الجحيم في لندن وعادت هي إليه، دون أن أحاول بشكلٍ كافٍ، منعها من ذلك؛ لأني تركتُها فوق ذلك الرصيف دون أن أستطيع توجيه كلمة شكرٍ لها، ولا لمسة حنان؛ ولأنه بدا لي أنها ترددت في اللحظة الأخيرة، وأن كلمة حازمة من قبلي ربما كانت ستجعلها تحزم أمرها وتقفز إلى السفينة؛ ولأسباب أخرى أيضاً...

أنا متأكد من أنها لا تحقد عليّ، لكني سأبقى طويلاً أحقد على نفسي.

أسمع صوت غريغوريو الذي عاد للتو من الميناء. عليّ أن أذهب للجلوس معه وتناول بعض الطعام، وسأستأنف الكتابة في فترة بعد الظهر، بينما ينام قيلولته.

على المائدة حدَّثني مضيفي عن بعض المسائل المتعلقة بمستقبله ومستقبلي. ما يزال يحاول إقناعي بالبقاء في جنوة. أحياناً أرجوه بالكفّ عن الإلحاح، وأحياناً أخرى أعطيه بعض الأمل. هذا لأني أنا نفسي لا أعرف أين أقف. أشعر أن الأوان قد فات، وأن الزمن يدعو إلى العجلة، ويطلب مني هو أن أكفّ عن الركض، أن أضع حداً لِتَرَحُّلي، وأن آخذ مكاني كابنٍ بجانبه. الإغواء كبير، لكنّ لديّ إغواءات أخرى، التزامات أخرى، أشياء ملحَّة أخرى. أحقد على نفسي لأني تركتُ بيس بفظاظة شديدة، وماذا سيكون شعوري إذا تركتُ مارتا لمصيرها؟ هي التي تحمل طفلي والتي لن تكون اليوم أسيرة لو أني حمَيْتُها على نحوٍ أفضل.

أريد استخدام الوقت القليل الذي بقي لي في سداد ديوني وإصلاح

أخطائي، ويريدني غريغوريو أن أنسى الماضي، أنسى بيتي وأختي وابني أختي، أنسى حبيباتي السابقات وأبدأ حياة جديدة في جنوة.

نحن في الأسابيع الأخيرة من السنة المقَدَّرة والكاشفة للغيب، هل هذا وقت البدء بحياة جديدة؟

أنهكتني هذه التساؤلات وعليّ إزاحتها من ذهني لكي أستعيد خيط الحكاية.

وصلتُ إذن إلى لحظة مغادرتي لندن في تلك السفينة. كان المسافرون يتكهَّنون، بصوتٍ منخفض، بالمقصلة للرجلين الفظَّين اللذين يَخْفرانِنا واللذين يُظهران تعابير المرح ويدندنان مُتَباهِيَيْنْ لِشِدَّةِ وَفْرةِ النعمة غير المتوقعة. لا بد أنهما جمعا خلال بضعة أيام من النقود أكثر مما جمعاه خلال عام كامل، ولا بدّ أنهما يرجوان السماء أن تؤجج النار لكي يستمر موسم الغلال.

لقد سارعا أصلاً، حال خروجنا من المدينة، إلى الاقتراب من أحد السواحل، غير راضيين عن المبالغ التي ابتزَّاها، وطردانا مثل قطيع من الدواب. أبحرنا حوالى عشرين دقيقة لا أكثر. وأعلنا لمن جرؤ على الاحتجاج بأنهما أبعدانا عن الحريق وأنقذا حياتنا وأنّ علينا أن نشكرهما جاثين على رُكَبنا بدلاً من الجدل حول أجرة الطريق. أما أنا فلم أحتجّ خوفاً من أن تفضحني لكنتي. وبينما مضى «المحسِنان» باتجاه لندن من جديد لجمع جنيهات أخرى، ومضى غالبيةُ رفاقي في المصيبة، بعد لحظة تردد، في طريقهم نحو أقرب قرية، قررتُ انتظار مرور زورق آخر. ثمة شخص آخر واحد قرر الانتظار أيضاً، رجل أشقر طويل القامة، يميل بالأحرى إلى الجسامة، ومثلي لم يقل كلمة واحدة، وتجنب النظر إليّ. لم أنتبه إليه أكثر من غيره في الزحام الشديد، أما الآن وبعد أن أصبحنا وحدنا، فسيكون من الصعب أن يتجاهل أحدنا الآخر.

لا أعرف كم من الوقت بقي كل منا، من ناحيته، يراقب الآخر من فوق كتفه، متظاهراً بأنه يترقب سفينة ما في الأفق، أو يبحث في حقيبته عن شيءٍ نسي إحضاره.

فجأةً بدا لي الموقف مضحكاً جداً. لذا ذهبتُ إليه بابتسامة واسعة لكي أقول بأفضل إنكليزيةٍ أستطيع الكلام بها:

«كما لو أنّ الحريق لم يكن كافياً، كان يجب أن نقع على هذين النسرَيْن!»

حين سمع الرجل كلامي بدا أكثر ابتهاجاً مما ينبغي. وتقدم نحوي فاتحاً ذراعيه:

«أنت أيضاً من الخارج؟»

قالها بنبرة طريفة، كما لو أن «من الخارج» ـ «from aboard» ـ تعني من أصل محدد، وأنّ «الخارج» هي بلد، وأننا بالتالي مواطنا بلدٍ واحد.

كانت إنكليزيته أقل بدائيةً من إنكليزيتي، لكنني حالما اعترفتُ له بأصولي حاول بلباقةٍ أن يكلمني بالإيطالية، أو بالأحرى بما ظنَّ أنها الإيطالية، والتي لا تشبه في نظري أية لغةٍ يمكن معرفة هويتها. وعندما جعلتُهُ يكرر للمرة الثالثة الجملةَ نفسَها، قالها باللاتينية مما جَلب السرورَ لكلينا.

سرعان ما عرفتُ عنه أشياء كثيرة. بأنه بافاري، ويزيدني خمس سنين، وعاش منذ التاسعة عشرة من عمره في مدن أجنبية مختلفة، سرقسطة، موسكو لمدة ثلاثة أعوام، القسطنطينية، غوتنبرغ، باريس، أمستردام لمدة ثلاثة أعوام ونصف، ثم في لندن منذ تسعة شهور.

«احترق بيتي البارحة ولم أستطع إنقاذ شيء. لم أعد أملك سوى ما تحتويه هذه الحقيبة».

قال لي هذا بلهجة خفيفة لاهِية ظاهرياً، وتساءلتُ في الحال فيما إذا لم يكن أكثر تأثُراً بهذه المصيبة مما أراد إظهاره. وبعد أن تناقشتُ معه مطولاً أصبحتُ منذ ذلك الوقت مقتنعاً بأنه لم يكذب بشأن مشاعره. هذا الرجل مسافر حقيقي، على عكسي كل ما يربطه بمكان ما ـ جدران، أثاث، عائلة ـ يصبح في النهاية غير محتمل بالنسبة له؛ وبالعكس، كل ما يدفعه للرحيل هو على الرحب والسعة سواءٌ كان خراباً، طرداً، حرباً أو حريقاً.

سيطر عليه هذا الجنون منذ طفولته أثناء الحروب الألمانية. ووصف لي الشناعات التي ارتُكِبت فيها. رعايا كنيسة ذُبِحوا في الكنائس، قرىِ أهلكتها المجاعة، أحياء أحرِقت ثم دُكَّت - إضافةً إلى المشانق والمحارِق والأعناق المقطوعة.

كان والده عامل طباعة في راتسبون. كلَّفتْهُ الأسقفية بنشر كتاب القدّاس الذي كان يحتوي على لعنةٍ ضد لوثر. أحرِقت مطبعته وكذلك بيته وخرجت العائلة سالمةً، لكن الأب العنيد، قرر أن يبني من جديدٍ بيتاً وورشة في الموضع نفسه. وأغرق في ذلك ما بقي له من ثروة - لكي يهدموهما له من جديد حال إتمامهما، وفي المرة الثانية هلكت زوجته وابنة له في سن الطفولة. عندئذٍ، أقسَمَ الابنُ، رفيقي، بأنه لن يبني بيتاً قط، ولن يربك نفسه أبداً بعائلة، ولن يرتبط أبداً بأية بقعة من الأرض.

لم أقل بعد بأنه يدعى جورج وأنه أعطى نفسه لقب كاميناريوس - أجهل اسمه الحقيقي. يبدو أنه يملك ثروة لا تنضب، وأنه لا يسرف لكنه ينفق دون شحّ. بقي متكتماً في موضوع دخله. ورغم كل جِيَلي كتاجرٍ يَبرَعُ عادةً في التخمين بمصدر المال، لم أستطع أن أعرف إذا كان لديه إرث أو دخل سنوي أو أي نشاطٍ مربِح. وإذا كان لديه مثل هذا النشاط، فيُفتَرَض أنه من النوع الذي لا يُعتَرَف به. لأننا تكلمنا وتكلمنا في الأيام التي تلت دون ذكر ذلك مرة واحدة.

لكني يجب أن أعود أولاً إلى حكاية هروبي، كي أقول بأنه بعد انتظارٍ دام أكثر من ساعة، أتيحت لنا خلاله الفرصة أكثر من مرة لكي نشير بأذرُعِنا باتجاه زوارق عابرة. أخيراً اقترب مركب صغير من شاطئنا. لم يكن على متنه سوى رجلين سألانا إلى أين نذهب معلنين لنا على الفور بأنهما مستعدان لأخذنا حتى نهاية العالم شرط ألا يكون ذلك باتجاه هولندة، وشرط أن نُظهر كَرَماً.

قال لهما جورج بأننا نود الذهاب حتى دوفر وعرضا أن يأخذانا إلى أبعد، حتى كاليه. طلبا لهذه المسافة أربعة جنيهات، اثنين من كل منا، وهو سعرٌ كان سيبدو لي باهظاً في الأوقات العادية. ولكن نظراً

للمبلغ الذي سُلِب منا للتو لقاء مسافةٍ أقصر عشرين مرة، لم يكن لدينا أي سبب للمساومة.

جرت الرحلة دون مفاجآت سيئة. توقفنا في محطتين للتزود بالماء والطعام، قبل أن نخرج عبر مصب التايمز لكي نتجه صوب السواحل الفرنسية التي بلغناها يوم الجمعة 17 أيلول. في كاليه أحاطت بنا جماعة من الأولاد، وأظهروا مفاجأتهم واحتقارهم حين رأوا أنه ليس لدينا أية أمتعةٍ يحملونها. في الميناء وفي الشوارع راح عشرات من الأشخاص يقتربون منا ليسألونا إذا كان صحيحاً أن النار أتت على لندن. بدا الجميع مذهولين من هذا الحدث الخارق، دون أن يبدوا حزينين مع ذلك.

اكتشفتُ مساءً في كاليه، وأنا أبحث عن دفتري لكي أدوِّن فيه بعض الملاحظات، أنه ليس معي.

هل سقط مني سهواً أثناء ركضي عبر المدينة؟ أم أن يداً خفيفة سرقته مني أثناء الزحام الشديد على سطح مركب القرصانين؟

إلا إذا تركتُهُ في غرفتي أو في التخشيبات التي التجأتُ إليها... مع أن لدي انطباعاً بأني وضعته في الحقيبة قبل أن أذهب وآخذ *الاسم المئة* الباقي بحوزتي.

هل يجب أن أبتهج بأن أوراقي التي لا جدوى منها هي التي اختفت وليس الكتاب الذي جعلني أطوف العالم؟

دون شك، دون شك...

أشعر مع ذلك بالارتياح لأني لم أفقد الفلورينات التي عُهِدَ بها إليّ في لشبونة كي أسلمها إلى غريغوريو، ولأني تمكنت من إعادتها له بدلاً من زيادة دَيني له.

هاقد عادت ريشتي لما أَلِفَتْهُ، كي تَخطَّ بإقدام يوميات رحلة، كما لو أني لم أفقد دفاتري الثلاث السابقة، كما لو أنّ لندن لم تحترق، كما لو أنّ السنة المشؤومة ليست بصدد التحقق بلا رحمة.

كيف لي أن أتصرف على نحوٍ آخر؟ الريشة التي أقودها تقودني بالقدر نفسه، عليّ أن أتبع سيرها مثلما تتبع سيري.

ولكن كم هو الوقت متأخر ليلاً! كتبتُ كما يأكل المرء بعد صيام، وحان الوقت لكي أنهض عن المائدة.

24 تشرين الأول

ذهبتُ صباح هذا الأحد إلى كنيسة الصليب المقدس بصحبة غريغوريو وكل أهل بيته، كأنني الصهر الذي يريدني أن أكونه. وعلى الطريق أعاد عليَّ، ممسكاً بي من ذراعي، قوله بأنني إذا استقريت في جنوة سأصبح مؤسس سلالة جديدة من آل أمبرياتشي، تُحيل مجدَ سبينولا ومالاسبينا وفييتشي إلى النسيان. لا أحتقر حلم غريغوريو الكريمَ، لكني لا أتمكن من مشاركته به.

حضر القداسَ الأخ إيجيديو قريب مضيفي الذي تناولت الغداء معه في نيسان والذي عهدتُ إليه بِرسائل لذويَّ. لم أتلقّ بعد أي جواب، والصحيح أن علينا أن ننتظر ثلاثة أو أربعة شهور لكي تصل رسالة إلى جبيل، والمدة نفسها لكي تعود منها.

قال لي بالمقابل إنه تلقى أمس بالذات أنباء طازجة من القسطنطينية تثير الدهشة جداً ويود أن يحدثني عنها. دعاه غريغوريو في الحال لكي «يبارك طعامنا الزهيد»، وهو ما فعله بعجلة وشهية.

الرسالة التي يحملها معه تسرد أحداثاً جرت منذ ستة أسابيع، ومازلتُ أتردد في الاعتقاد بصدقها. كتبها أحد أصدقائه، وهو رجل دين من مرتبته، في بعثة في القسطنطينية، وتفيد بأن السلطات علمت من حاخام بولوني أنّ ساباتاي يُعدّ تمرُّداً، وأنه اقتيد إلى قصر السلطان في أندرينوبل، وأُمِرَ باجتراح معجزة على الفور، وإلاّ عُذّب وقُطِع رأسه - إلاّ إذا تخلى عن دين آبائه وتبنى دين الأتراك. وحسب الرسالة التي قرأ لي إيجيديو عدة مقتطفات منها، المعجزة التي طُلبت منه هي

أن يقف عارياً تماماً في مكان معينٍ حتى يستطيع أفضلُ رماةِ السهام في الحرس السلطاني اعتباره دريئةً وتسديد سهامهم نحوه؛ إذا نجح في منع رؤوس السهام من اختراق لحمه، فهذا يعني أنه مبعوث السماء. وحين لم يكن ساباتاي ينتظر شرطاً مماثلاً، طلب مهلة للتفكير لم تُمنَح له. قال عندئذٍ بأنه كان منذ زمن طويل يفكر بتبني دين محمد، وأنه لن يجد مكاناً أفضلَ من حضرةِ السلطان لإعلان إسلامهِ بقدرٍ أكبر من الفخامة. ما أن نطق بهذه الكلمات حتى طُلب منه أن ينزع قبعة اليهودي لكي يقوم خادمٌ بِلَفّ رأسه بعمامة بيضاء. واستُبدِل اسمه بمحمد أفندي، ومُنِح لقب «كابيدجي باشي أوتوراك»، الذي يعني «حارس الأبواب السلطانية الفخري» والمعاملة اللائقة بهذا العبء.

حسب الأخ إيجيديو فإنّ الرجل لم يرتدّ إلا ظاهرياً، «مثل يهود إسبانيا الذين يصبحون مسيحيين يوم الأحد، ويعودون يهوداً، في السر، يوم السبت»، الأمر الذي أيّده غريغوريو. أنا ما زلت أشك بصحة هذه القصة، لكنها إذا كانت كذلك، وإذا جرت أثناء حريق لندن، فكيف ننكر أنها إشارة تبعث على التشوش، إضافةً للإشارات الأخرى؟

وبانتظار أن تذهب شائعاتٌ أخرى بشكوكي، أو على العكس، أن تؤكّدها، عليّ أن أستأنف سرد تفاصيل رحلتي، خوفاً من أن تُنسيني أحداثٌ جديدةٌ الأحداثَ القديمة.

لم نبق في كاليه سوى يومين وثلاث ليال في الفندق الذي استقبَلَنا، لكنها من أكثر الأيام تجديداً للقوى. حصل كل منا، جورج وأنا، على سرير له في غرفة كبيرة مطلة على المنتزه وعلى الامتداد البحري. في الصباح هبّت ريح وأمطرت السماء بلا توقف، مطراً مائلاً وناعماً. وبالمقابل كانت فترة بعد الظهر مشمسة، وشاهدنا سكان المدينة يتنزهون عائلات بأكملها أو مجموعات أصدقاء. سرّنا أن نفعل الشيء نفسه، رفيقي وأنا، بعد أن اشترى كل منا حذاءً جديداً بسعر باهظ وكذلك ثياباً نظيفة من أحد الشُّطّار قرب الميناء. أقول أحد الشطّار لأن هذا الرجل يبيع أحذية دون أن يكون حذّاءً، وثياباً وهو ليس بخياط، ولا أشكّ بأنه يتزود ببضاعته من بعض الحمالين

والبحارة الذين يسلبون المسافرين، ينشلون صندوق أمتعة ويتظاهرون بإضاعة صندوق آخر. وربما يذهب مسافرٌ فَقَدَ ثيابه، ليشتري غيرها، فيتعرف على حاجياته الخاصة. رويت لي مرةً قصة رجل نابوليتاني تعرف على حاجياته وطالب بإعادتها له، فذُبح على الفور على يد مَن يُخفون الأشياء المسروقة، خوفاً من أن يشي بهم. لكن ذلك ليس في كاليه... هذا، ورغم السعر الذي اضطررنا لدفعه، لم نكن مستائين من العثور على ثياب ملائمة بهذه السرعة.

وبينما كنا نتسكع على طول المنتزه، ونتبادل مختلف الأحاديث، لفتَ جورج نظري إلى النساء المتعلقات بأذرع الرجال من حولي، واللواتي يضحكن معهم ويلقين أحياناً برؤوسهن فوق أكتافهم؛ وخصوصاً أولئك الناس، رجالاً ونساءً الذي يتلاقون ويتبادلون القبلات فوق الوجنات، مرتين وثلاثاً وأربع مرات متتالية، وأحياناً قريباً جداً من الشفاه؛ لا أستنكر الأمر لكن من واجبي أن أذكره، نظراً لأنه غير شائع كثيراً. لا يحدث أبداً في سميرنا أو القسطنطينية أو لندن أو جنوة، أن يتكلم الرجالُ مع النساء علناً بهذه الحرية، ويمسك بعضهم ببعض ويتبادلون القبل. وأكَّد لي صاحبي أنه لم يلاحظ سلوكاً مماثلاً أبداً في مختلف جولاته من إسبانيا إلى هولندة، ومن بافاريا مسقط رأسه حتى بولونيا. هو أيضاً لا يستهجن سلوكهم، لكنه لا يسأم من مراقبتهم والاندهاش منهم.

فجر يوم الاثنين 20 أيلول، أخذنا مكاننا في عربة جماعية تذهب بين كاليه وباريس. لاشك أننا كنا سنُحسِن صنعاً لو استأجرنا سيارة وسائقاً، كما كان جورج يتمنى؛ كنا سندفع أجراً أعلى بكثير، لكننا كنا سنتوقف في منازل أفضل، ونسير بحيوية أكثر، ونستيقظ في الساعات التي تناسبنا، ونتحادث بهمَّة طوال الطريق كأصحاب النسب. وبدلاً من ذلك، استُقبِلنا كأشخاص صغار القَدر، أُطعِمنا بالبقايا ـ عدا في مدينة أميان ـ وأُعطي لكل اثنين منا سرير واحد بِملاءاته الرطبة والشديدة الاتِّساخ، وتمّ إيقاظنا منذ الفجر، واضطررنا أن نمضي أربعة أيام طويلة، نهتزّ خلالها في عربةٍ تذكِّر بعربة نقل الأبقار أكثر مما تذكِّر بعربة نقل المسافرين.

زودت العربة بمقعدين أحدهما مقابل الآخر، وربما كانا مريحين إذا جلس شخصان في كل منهما، لكنهما رُصِدا لثلاثة إذا كان أحدهم ضخماً تَلاصَقَت مؤخرات الجميع طوال الطريق. لكننا في واقع الحال كنا خمسة، وإذا استطاع اثنان منا الجلوسَ جلسةً شبهَ صحيحة، لَضاق المكان عن الثلاثة الآخرين. لا سيما وأن واحداً فقط من بين الخمسة كان نحيلاً، بينما يفيض الأربعة الآخرون بالصحة. أنا أولاً، الذي طالما كنتُ في صحة جيدة، وسمنتُ أكثر بفضل بيرة الزبدة التي كانت بيس تسقيني إياها؛ كذلك جورج الأكثر ضخامة بقليل، حتى وإن أخفَتْ قامتُه الطويلةُ امتلاءه.

أما بخصوص رفيقي السفر الأخيرين، فلم يكونا سمينين فقط، بل كانت لديهما أثقال أخرى. كاهنان يتناقشان باستمرار بصوت عال؛ وحين يصمت أحدهما فهذا يعني أن الآخر قد بدأ بالكلام. كان كلامهما يملأ المقصورة، ويجعل الهواء ثقيلاً وقليلاً، إلى درجة أننا، جورج وأنا، اللذين نستمتع جداً عادةً بتبادل الحديث، لم نعد نتبادل سوى نظراتٍ مرهَقة، وأحياناً همسات خافتة. أسوأ ما في الأمر هو أن رجلي الدين هذين، لم يكتفيا بلَطْمنا بآرائهما، بل راحا يُشهِداننا، ليس لدعوتنا للإدلاء برأينا، فرأينا هذا معروف سلفاً لهما، وهو بطبيعة الحال مماثل لرأيهما، إلى درجة أننا لسنا بحاجة للتعبير عنه.

ثمة أشخاص لا يعرفون كيف يتكلمون إلاّ بهذه الطريقة. كثيراً ماالتقيت بأمثالهم في محلي وفي أماكن أخرى، ممن يسكبون عليك ثرثرتهم المتدفقة، وهم على نحوٍ ما يُنذِرونك بأن تُذعِن؛ وإذا أبديتَ ملاحظةً دقيقةً ما، فهم مقتنعون بأنها لا تقدم شيئاً سوى تعزيز أقوالهم، فينفلتون بحماس أكبر. ولكي تُسمِعهم رأياً معاكساً، يَلزَمك أن تكون فظاً بل سيئ الطبع.

فيما يتعلق بصاحبينا رجلَيْ الدين، كان موضوعهما المفضل هو الهوغونوتيون. لم أفهم في البداية لماذا يجادلان في هذا الموضوع بهذه الحيوية طالما أنهما يشتركان في الرأي نفسه. وهو أنّ أنصار الإصلاح لا مكان لهم في مملكة فرنسا، وأنه يجب طردهم منها حتى يستعيد هذا البلدُ السلامَ وعطفَ السماء. وأن السلطة تتسامح معهم

أكثر مما يجب، وسوف تعضّ أصابعها ندماً على هذا التسامح؛ وأنّ هؤلاء الناس يشمَتون بما يصيب فرنسا، وأنّ الملك سرعان ما يكتشف خداعهم... كل حديثهم كان على هذه الوتيرة نفسها، تصاحبه لعنات ومقارنات تشَبِّهُ لوثر وكالفن وكولينيي وزوينغلي، بمختلف أنواع الحيوانات الضارة التي من المناسب سَحْقُها، كالثعابين والعقارب أو الهوام الطفيلية. كلما أدلى أحدهما برأي، أيَّده زميلُهُ وزايَدَ عليه.

جورج هو الذي أفهمني أسبابَ حديثٍ من هذا النوع. فقد أشار لي خفيةً، في واحدة من مبادلاتنا الصامتة، أن أنظر إلى رفيق رحلتنا الخامس. كان الرجل يختنق، وقد احمرَّ خَدَّاهُ الضامِران، والتمع جبينه من العرق، ولم تفارق عيناه الأرضَ أو رجليه المشدودتين. كان ينتمي إلى «ذلك الصنف» على حد تعبير صاحبينا.

ما أحزنني وخيَّب أملي، هو أنَّ صديقي البافاري راح يبتسم من وقتٍ لآخر من التهكّمات الفظة التي كانت تهطل فوق الهوغونوتي التعِس. وناقشنا الموضوع بشراسة في الليلة الأولى.

«لن يكون هناك شيءٌ، قال جورج، يجعلني أتدخَّل لصالح أولئك الذين أحرقوا بيتي مرتين، وتسببوا بموت أمي».

«هذا الرجل لا ذنب له. انظر إليه! لم يحرق جناح ذبابة قط!»

«أكيد، ولهذا لن أهاجمه. لكني كذلك لن أدافع عنه! ولا تكلِّمني عن حرية الاعتقاد، لقد عشتُ في إنكلترا وقتاً كافياً لكي أعرف بأنني أنا «البابوي» كما يقولون، لا أتمتع بأية حرية أو احترام لأجل عقيدتي. كلما تعرَّضتُ لإهانة اضطررتُ أن أبتسم وأمضي في سبيلي، يملؤني إحساس بأنني لستُ أكثر من جبان. وأنتَ، ألم ترغب أثناء فترة إقامتك، بأن تخفي كونك «بابوياً» على الدوام؟ ألم يحدث قط أنْ شُتِمتْ عقيدتُكَ في حضورك؟»

لم يقل شيئاً غير صحيح، وكان يُقسِم بآلهته العظيمة بأنه يتوق لحرية المعتَقَد أكثر مني، لكنه يضيف بأنّ الحرية، بالنسبة له، يجب أن يهَبَها كلُّ طرفٍ للآخر بالمثل؛ كما لو أنه من الطبيعي أنَّ التسامحَ يؤدّي إلى التسامح، والاضطهاد إلى الاضطهاد.

في اليوم الثاني من الرحلة، لم يتوقف الاضطهاد المذكور. واستطاع الكاهنان إشراكي فيه ـ رغماً عني!ـ حين سألني أحدهما بغتةً، إذا لم أكن أعتقد بأن عربتنا أُعِدَّت لأربعة مسافرين وليس لِستة. لم أستطع إلا الإذعان مسروراً بأن يتجه النقاش نحو شيء آخر بعيد عن البابويين والهوغونوتيين. لكنّ الرجل، وقد قَوَّاهُ جوابي، أخذ يضخِّم بإلحاح ثقيل مسألة أننا سنرتاح أكثر لو كنا أربعة مسافرين بدلاً من خمسة.

«هناك أشخاص فائضون عن الحاجة في هذا البلد، ولا ينتبهون لذلك».

تصنَّع التردد قبل أن يصحح ساخراً.

«قلتُ في هذا البلد، ليسامحني الله، أردتُ القول في هذه العربة. أرجو ألاّ يكون جاري قد اغتاظ».

في اليوم الثالث، توقف سائق العربة في ضيعة تدعى بريتوي، وجاء يفتح الباب. نهض الهوغونوتي معتذراً.

«أنت مغادرٌ الآن؟ ألستَ ذاهباً إلى باريس؟» استعلَمَ الكاهنان بِمَكر.

«للأسف لا»، قال الرجل بسُخط وهو يخرج دون أن ينظر إلى أي منا.

بقي لحظة في الخلف كي يأخذ حقيبته، ثم صاح لصاحب العربة بأنه يستطيع الانطلاق. كان الغسق قد حلَّ، وسيطت الجياد لكي نصل إلى بوفيه قبل هبوط الليل.

إذا دخلتُ في هذه التفاصيل التي ما كان يجب أن تأخذ مكاناً في هذه اليوميات، فهذا لأن عليّ أن أروي خاتمةَ هذه الرحلة الشاقة. فلدى وصولنا إلى بوفيه، سمعنا صرخة قوية. اكتشف صاحبانا الكاهنان أن الأمتعة ـ وجميعها تخصُّهم ـ قد سقطت في الطريق. كان الحبل الذي يثبتّها قد قُطع، وفي جلبة الطريق لم ننتبه إلى سقوطها. حاولا نائحَينْ إقناع صاحب العربة بالعودة في الطريق نفسه إلى الوراء للعثور عليها، لكنه لم يلتفت إلى كلامهما.

في اليوم الرابع، خيم الهدوء أخيراً على العربة. كفَّ صاحبانا الثرثاران عن قول كلمة واحدة ضد الهوغونوتي، في حين أنه أصبح لديهما، للمرة الأولى، أسباب للحقد عليه. حتى أنهما لم يحاولا اتهامه، حتماً كيلا يعترفا بأنّ هذا الهرطوقي كانت له الكلمة الأخيرة. أمضيا النهار في التمتمة بصلوات، وفي يد كل منهما كتاب صلوات. أليس هذا هو ما كان يجب أن يفعلاه منذ البداية؟

25 تشرين الأول

عاهدتُ نفسي بأن أسرد اليوم تفاصيل زيارتي لباريس، ثم مروري في ليون وأڤينيون ونيس، والطريق الذي سرت فيه حتى جنوة، وكيف وجدتُ نفسي من جديد ضيفاً على منجيافاتشا في حين أننا افترقنا دون وئام عظيم. لكنّ ثمة حدث وقَعَ ويشغل كامل ذهني، ولاأدري إذا كنتُ سأجد الصبر لكي أعود إلى الوراء.

على أية حال، لن أتكلم ثانيةً، في الوقت الحالي، عن الماضي - وإن كان قريباً. سأتكلم فقط عن الأيام القادمة من الرحلة.

لأني رأيتُ دومينيكو ثانيةً. جاء يزور شريكه، ونظراً لغياب غريغوريو، جلستُ أنا معه. استعدنا أولاً ذكرياتنا المشتركة - تلك الليلة من كانون الثاني التي كنتُ أرتجف فيها من البرد والخوف داخل الكيس الذي خُبِستُ فيه، وحُمِلتُ إلى سطح سفينته لكي يأخذوني إلى جنوة.

جنوة. بعد الإذلال في شيّو، وبدلاً من الموت الذي كنتُ أنتظره، كانت جنوة. وبعد حريق لندن، كانت جنوة. هنا أولد من جديد في كل مرة، كما في تلك اللعبة الفلورنسية التي يعود فيها الخاسرون إلى خانة البدء...

أحسستُ أثناء محادثتي مع دومينيكو، أنّ هذا القبطان المهرِّب يكنّ لي إعجاباً لا حد له، وأظنني لا أستحقه. السبب هو أني خاطرتُ بحياتي حُبّاً بامرأة، في حين أنه هو ورجاله الذين يلعبون مع الموت في كل رحلة، يفعلون ذلك فقط من أجل الربح.

سألني إذا كان لدي أخبار عن حبيبتي، إذا كانت ما تزال أسيرة، وإذا كان لدي أمل في استعادتها. أقسمتُ له أني فكرتُ بها ليلاً نهاراً وحيثما كنت، في جنوة ولندن وباريس أو في البحر، وأني لن أتخلّى أبداً عن فكرة انتزاعها من يدي مضطهِدِها.

«بأية طريقة تَأمَلُ الوصول إلى ذلك؟».

اندفعت كلماتي دون تفكير:

«يوماً ما سأذهب معك وستنزلني في المكان الذي أخذتني منه، وسأتدبر أمري لكي أكلمه...».

«أنا سأبحر خلال ثلاثة أيام. أعلم أنك على الرحب والسعة على سطح مركبي إذا بقيت بالاستعداد ذاته، وأني سأفعل كل شيء لأساعدك».

ولمّا بدأتُ أتلجلج بآيات الشكر، اجتهد في التقليل من فضله.

«على أية حال، إذا قرر الأتراك يوماً اعتقالي، فسيُخوزقونني بسبب كل المصطكى التي أنتزعها منهم منذ عشرين عاماً رغماً عن قوانينهم. وسواءٌ ساعدتكَ أم لم أساعدك، فلن يرتِّب ذلك عليّ عفواً أو عقاباً إضافياً. لن يستطيعوا أن يخوزقوني مرتين».

كنتُ مثل الثَّمِل إزاء هذا القدر من الشجاعة والكرم. نهضتُ لكي أشدّ على يده بحرارة وأقبله مثل أخ.

كنا متعانقين هكذا حين دخل غريغوريو.

«ماذا يا دومينيكو، هل أنت قادم أم ذاهب؟»

«إنه اللقاء!» قال الكالابريّ.

باشر الشريكان في الحال في الحديث عن أعمالهما ـ فلورينات، طرود، حمولة، سفينة، عاصفة، توقُّف... فيما كنتُ أحبس نفسي في أحلام يقظتي الخاصة إلى أن لم أعد أسمعهما قط...

26 تشرين الأول

اليوم سكرتُ كما لم أسكر في حياتي، دون سبب آخر سوى أنّ غريغوريو تلقى للتو ستة براميل من نبيذ فرناتشيا، من إنتاج تلاله

الخاصة في منطقة سنكتير، وأنه أصر على تذوقه على الفور، وأنه ليس له رفيق في بيته سواي.

عندما ثملنا حقاً، أخذ مني السيد منجيافاتشا وعداً صاغَ كلماته بنفسه، لكني قبلته ويدي فوق الإنجيل: سأذهب مع دومينيكو إلى شيو؛ وإذا لم أفلح في انتزاع مارتا من رجُلها، سأتخلى عن اللحاق بها؛ ثم أمرّ إلى جبيل لإصلاح بعض أموري وتسوية ما يجب تسويته وبيع مايجب بيعه، وتسليم تجارتي لابني أختي؛ وفي النهاية أعود في الربيع لأقيم في جنوة وأتزوج من جياكومينيتا في احتفال كبير بكنيسة الصليب المقدس، وأعمل مع الشخص الذي يكون قد أصبح ـ هذه المرة حقاً ـ والد زوجتي.

يبدو مستقبلي مرسوماً تماماً للشهور القادمة ولما بقي من حياتي. ألا يحتاج الأمر إلى وضع توقيع الله إلى جانب توقيعي وتوقيع غريغوريو في أسفل هذا الاتفاق!

27 تشرين الأول

اعترف غريغوريو ببراءة أنه أسكرني لكي يأخذ منِي الوعد، وضحك. واستطاع فوق ذلك أنِ يجعلني، عند الاستيقاظ، أؤكِّد وعدي، في حين أني عندئذٍ كنتُ رزيناً.

رزيناً، نعم، لكني مازلت أعاني من الارتباك نفسه، في الذهن والأحشاء.

أي سلوك غبي سلكتُه فيما أستعد للسفر غداً بالذات!

هل أصعد إلى السفينة وأنا بهذه الحالة؟ وأنا أعاني منذ الآن من دوار البحر؟ وأنا عاجز عن الوقوف على قدمي فوق الأرض اليابسة؟

في البحر، الأحد 31 تشرين الأول 1666

دفعتْنا ريحٌ قوية من الشمال الشرقي، نحو سردينيا، في حين أننا كنا نذهب إلى كالابري. هذا المركب مثل مركب حياتي...

اصطدمت مقدمة السفينة بعنف عند الاقتراب من الساحل، وخشينا من حدوث الأسوأ. لكن الغطاسين الذي نزلوا تحت الماء في ضوء شمس الصباح المائلة، أكدوا لنا عدم حدوث ضرر. فانطلقنا.

في البحر، 9 تشرين الأول

البحر هائج باستمرار وأنا مريض باستمرار. كثير من البحارة العجائز مرضى مثلي، وهذا عزاء.

كل مساء أصلّي بين نوبتي غثيان كي تكون الطبيعةُ أكثر حلماً، وهاهو دومينيكو يخبرني بأنه يصلي لأجل العكس. من الواضح تماماً أن صلواته مستجابة أكثر من صلواتي. والآن، بعد أن شرح لي أسبابه، ربما سأفعل مثله.

«طالما أن البحر هائج، يقول لي، فإننا في منجىً. لأن خفر السواحل لن يخاطروا أبداً بمطاردتنا حتى إذا اكتشفونا. لهذا أفضّل الإبحار شتاءً. هكذا لا يكون لدي سوى خصم واحد، البحر، وليس هو أكثر خصم أخشاه. وحتى إذا أخذ حياتي، لن يكون الأمر مصيبة كبرى، لأنه سيخلّصني من عقوبة الخازوق التي تنتظرني عندما يُقبض عليّ. الموت في البحر مصيرٌ يليق بالرجال، مثل الموت في المعارك. فيما يجعلك الخازوق تبصق على مَنْ جعَلَتْك ترى النور».

جعلتني كلماته أتصالح مع الأمواج الصاخبة، إلى درجة أني ذهبت لأستند إلى الدرابزين مسلماً وجهي للرذاذ، وملتقطاً بلساني بضع نقاطٍ مالحة. إنه مَذاق الحياة، مذاق بيرة حاناتِ لندن وشفاهِ النساء.

أتنفس بعمق ورجلاي ثابتتان.

في البحر، 17 تشرين الثاني

فتحتُ هذا الدفتر مراراً، هذه الأيام الأخيرة، ثم أغلقته، بسبب الدوار الذي يوهِنني منذ جنوة، وأيضاً بسبب نوعٍ من التهيُّج الذي يمنعني من جمع أفكاري.

حاولتُ أيضاً أن أفتح كتاب الاسم *المئة*، قائلاً لنفسي بأنني ربما أنجح هذه المرة في الدخول فيه دون أن يردَّني. لكن عيني أظلمتا حالاً، فأغلقته معاهداً نفسي بألاّ أحاول قراءته ثانيةً إلا إذا انفتح أمامي من تلقاء نفسه!

منذ ذلك الوقت وأنا أتنزه على سطح السفينة، أثرثر مع دومينيكو ورجاله الذين يروون لي أشدَّ ماتعرضوا له من مخاوف، ويعلّمونني، كأني طفل، عن السواري والعوارض والحبال.

أقاسمهم جميع وجباتهم، أضحك لمزاحهم، حتى عندما لا أفهمه إلا نصف فهم، وعندما يشربون أتظاهر بأني أشرب ـ لكني لا أشرب. منذ أن أسكرني غريغوريو بنبيذ البراميل، أشعر أني هشٌّ وعلى حافة الغثيان باستمرار، ويبدو لي أن أقلّ جرعة ستطيح بي.

فوق ذلك، فقد كان ذلك الـ فرناتشيا أكسيراً خالصاً، بينما النبيذ هنا هو نوع من خلٍّ مشرَّب بالسكَّر ومقتول بماء البحر.

في البحر، 27 تشرين الثاني

نقترب من سواحل شيّو زاحفين، مثل صياد في وضعية الترقُّب. طُويت الأشرعة، وفُكَّ الساري عن قاعدته ومُدِّد ببطء، وراح البحارة يتكلمون بصوت أخفض كما لو أن أصواتهم ستسمع من هناك، من الجزيرة.

الطقس جميل للأسف. أشرقت شمسٌ نحاسية من جهة آسيا الصغرى، وسكنت الريح. الهواء البارد الذي بقي لنا من ليلة البارحة، هو وحده الذي يذكِّرنا بأننا على أبواب الشتاء. قرر دومينيكو ألا يتحرك قبل الليلة القادمة.

شرح لي كيف يجب أن تجري الأمور. سيمضي رجلان، تحت جنح الظلام في زورق إنقاذٍ نحو الجزيرة. كلاهما يونانيان، لكنهما يونانيان من صقلية ـ يانيس وديميتريوس. عند وصولهما إلى قرية كاتاراكتيس، سيتصلان بالممول المحلي الذي يكون قد جمع البضاعة

في بيته. إذا سار كل شيء كما هو متوقع ـ المصطكى جاهزة ومعبّأة في رزم، وتمَّ «إقناع» رجال الجمارك بغضٍّ أنظارهم ـ وإذا لم يتم الاشتباه بأي فخ، سيُعلِم رجلا الاستطلاع دومينيكو بوساطة إشارة متفق عليها: ملاءة بيضاء تُبسط في مكان ما مرتفع ساعة الظهيرة. عندها يستعد المركب للاقتراب من الشاطئ، ولكن عند هبوط الليل، وفي دخولٍ عابر؛ نحمِّل وندفع ثم نبتعد قبل خيوط الفجر الأولى. إذا لم تظهر الملاءة البيضاء، لسوء الحظ، نبقى بعيدين عن الشاطئ، آمِلين عودة اليونانيين. وإذا لم نرهما، مع خيوط الفجر الأولى، نبتعد ونحن نصلي لروحيهما الهالكتين. هكذا تجري الأمور عادةً.

وبسببي كان يجب ألا تبقى الخطةُ نفسَها تماماً. والتعديل الذي أجراه دومينيكو هو...

لا، يجب ألّا أتكلم عنه، أو حتى أن أفكر به، قبل أن يُستجاب لرجائي، ودون أن يتأثّر أصدقائي بذلك. وحتى ذلك الوقت سأكتفي برسم إشارة الصليب بإصبعيّ وأنا أبصق في البحر، مثلما يفعل دومينيكو. وكذلك وأنا أتمتم مثله «يا أجدادي!».

28 تشرين الثاني

لا أذكر يومَ أحدٍ آخر صليتُ فيه بهذا القدر من الورع.

في الليل، أُنزِل إلى البحر زورقُ يانيس وديميتريوس اللذين رافقهما كلُّ أفراد الطاقم بالنظر حتى تلاشيا في العتمة. لكن صوت المجاديف ظل مسموعاً، وأظهر دومينيكو قلقاً بسبب كل هذا الصمت.

بعد وقت قليل من الليل، برقت السماء، دزينة من البروق المتتابعة التي بدت قادمة من الشمال، والتي يجب أن تكون شديدة البعد لأن صوت البرق لم يكن يصلنا قط.

جميع من في السفينة أمضوا النهار في انتظار. انتظار رؤية الملاءة البيضاء صباحاً؛ وانتظار هبوط الليل بعد رؤيتها للاقتراب من

الشاطئ. أشاركهم في انتظارهم، ولي انتظاري الخاص الذي يملأ نفسي كل دقيقة، لكني لا أجرؤ على تدوينه في هذه الصفحات.

عسى أن...

29 تشرين الثاني

الليلة الماضية اقترب مركبنا بعض الوقت من خليج صغير قرب قرية كاتاراكتيس. أكَّد لي دومينيكو أنّه في هذا المكان بالضبط ـ قبل حوالى عشرة شهور ـ تسلّم الكيس الذي خُبستُ فيه. كنتُ في تلك الليلة أسمع كل أنواع الأصوات من حولي، لكني لاأرى شيئاً؛ إلّا أنني أميِّز، هذه الليلة، أشكالاً تروح وتجيء، تنهمك وتُشوبر، على الشاطئ وعلى سطح المركب. وكل هذه الأصوات التي كانت، في شهر كانون الثاني، شيئاً مجرداً أدركه بالعقل، أصبحت الآن ذات معنى. العبَّارة التي أُلقي بها، المصطكى التي يأتون بها، يتحققون منها ويحمِّلونها؛ والمموِّل، شخص يدعى صالح ـ تركي، أو ربما يوناني مارق ـ الذي يصعد إلى السفينة لكي يشرب قدحاً ويستلم نقوده. ربما يجب أن أذكِّر هنا بأنَّ شيّو هي المكان الوحيد في العالم تقريباً الذي ينتج المصطكى، لكن السلطات تفرض على الفلاحين تسليمها كل المحصول لتسييره إلى حريم السلطان. الدولة تحدد السعر على مزاجها ولا تدفع إلا بما يلائمها، بحيث يضطر الفلاحون أحياناً أن ينتظروا عدة سنين لتسديد مستحقّاتهم ـ الأمر الذي يرغمهم على الاستدانة في الفترة الفاصلة. يشتري دومينيكو المصطكى منهم بسعر يفوق السعر الرسمي بضعفين أو ثلاثة أو حتى خمسة أضعاف، ويسدد لهم الحساب الكامل في اللحظة ذاتها التي يستلم فيها البضاعة. إنه، على حد قوله، يسهم في ازدهار الجزيرة أكثر بكثير من الحكومة العثمانية!

هل من المفيد أن أضيف بأن هذا الإبليس الكالابريّ بالنسبة للسلطات، هو العدو الذي يجب الإمساك به، لشنقه أو خوزقته؟ في حين أن دومينيكو، بالنسبة لفلاحي الجزيرة وبالنسبة لكلٍّ من يغتنون من هذه التجارة، يعتَبر نعمةً، منّاً. إذ تُنتظر ليلةٌ مثل هذه بلهفة أكثر من

ليلة الميلاد؛ لكنها تُنتَظر برعب أيضاً، لأنه يكفي أن يوقَف المهرِّب أو وكلاؤه لكي يضيع المحصول، ويُحكَم بالبؤس على أُسَرٍ بكاملها.

لم يدُم كل هذا الضجيج طويلاً، ساعتين أو ثلاث على الأكثر. وعندما رأيتُ صالح يقبّل دومينيكو وتُقدِّم له المساعدة لنزول العبَّارة، ظننتُ أننا سنبحر، ولم أستطع منع نفسي من سؤال أحد البحارة إذا كنا سننطلق الآن. أجابني باقتضاب بأن ديميتريوس لم يأت بعد، وأننا ننتظره.

لم ألبث أن رأيتُ مصباحاً على الشاطئ وثلاثة رجال يقتربون، أحدهم يمشي أمام الآخر. الأول كان ديميتريو، الثاني الذي يحمل المصباح ووجهه مضاء أكثر من الآخرين لم أكن أعرفه، والأخير كان زوج مارتا.

أوصاني دومينيكو بأن أبقى غير مرئي، وألاّ أعلن عن وجودي إلاّ حين يناديني باسمي. أطعته بطيبة خاطر لا سيما وأنه وضعني خلف حاجزٍ، وأنه لم تفُتْني كلمةٌ من محادثتهما التي جرت في خليط من الإيطالية واليونانية.

تمهيداً لما سأنقله، يجب أن أقول بأنه كان واضحاً منذ الكلمات الأولى بأن سياف يعرف تماماً من هو دومينيكو، وأنه يخاطبه باحترام وخشية، مثلما يخاطب خوريُّ قريةٍ مطراناً يعبر المكان. ماكان ينبغيَ عليّ بالتأكيد أن ألجأ إلى هذه المقارنة التي تتسم بالزندقة؛ أردت فقط أن أقول بأنه يسود في عالَم الظلّ حِسٌّ بالتراتُبيَّة جديرٌ بأشدّ المؤسسات احتراماً. حين يلتقي لصُّ قريةٍ بالمهرِّب الأكثر جسارةً في البحر المتوسط بأسره، يحذر جيداً من أن يتصرف بوقاحة. ويحذر الآخرُ من أن يعامله كندٍّ له.

أخذ الحوار النبرة المطلوبة منذ الجملة الأولى، عندما قال زوج مارتا بنفسه بعد أن انتظر عبثاً أن يشرح له مضيفُه سبب استدعائه، وبصوتٍ بدا لي متلعثماً:

«وكيلك ديميتريوس قال لي إن لديك حمولة من القماش والقهوة والفلفل، وأنك مستعد لبيعها بسعر منخفض...».

صمت دومينيكو، وتنهَّد. ثم قال مثل من يلقي قطعة نقودٍ ملوية لمتسول:

«إذا قال ذلك، فهو صحيح إذن!»

وفي الحال هبطت المحادثة. وكان على سياف أن ينزل لكي يرفعها.

«قال لي ديمتريوس أني أستطيع أن أدفع الثلث اليوم والباقي في عيد الفصح».

وبعد وقت قال دومينيكو: «إذا قال لك ذلك، فلا بدّ أنه صحيح!»

قال الآخر مهتمّاً: «تكلّم عن عشرة أكياس قهوة وبرميلي فلفل، سآخذها كلها. أما القماش، فيجب أن أراه قبل أن أقرر».

دومينيكو: «العتمة شديدة. سترى كل شيء غداً، في وضح النهار!»

الآخر: «لا أستطيع العودة غداً. وحتى بالنسبة لكم، الانتظار يشكل خطراً كبيراً عليكم».

دومينيكو: «مَن حدَّثَك عن الانتظار، أو عن العودة؟ ستأتي معنا إلى عرض البحر، وفي الصباح تستطيع معاينة البضاعة. تتلمس وتعدّ وتتذوق...».

ألتقط ارتعاشات الخوف في صوت سياف بشكل أوضح باعتباري لا أراه.

«لم أطلب معاينة البضاعة. أنا واثق. أردتُ فقط أن أنظر إلى القماش لكي أعرف كم يمكنني أن أصرِّف منه. ولكن لا داعي لذلك، لا أريد تأخيركم، لا بد أنكم تتعجَّلون الابتعاد عن الساحل».

دومينيكو: «لقد ابتعدنا عن الساحل».

سياف: «وكيف تنوون إنزال البضاعة؟»

دومينيكو: «اسأل بالأحرى كيف ننوي إنزالك أنت!»

«نعم، كيف؟»

«أنا أتساءل!»

«أستطيع العودة في زورق صغير».

«لستُ متأكداً جداً».

«تريد احتجازي هنا رغماً عن إرادتي؟»

«لا، لا! هذا ليس وارداً. لكنه ليس وارداً أيضاً أن تأخذ أحد زوارقي رغماً عن إرادتي. يجب أن تسألني إذا كنتُ أريد أن أعيرك واحداً».

«هل تريد أن تعيرني أحد زوارقك؟»

«يجب أن أفكر قبل أن أعطيك إجابة».

سمعتُ عندئذٍ أصوات شجار قصير؛ عرفتُ بأن سياف وخادمه أرادا الهرب وأن البحارة المحيطين بهما تمكنوا من السيطرة عليهما بسرعة.

في تلك اللحظة كان زوج مارتا يوحي لي تقريباً بالشفقة. لكنها شفقة عابرة.

«لماذا استدعيتني؟ ماذا تريد مني؟ قال ببقيةٍ من جرأة.

لم يجب دومينيكو. «أنا ضيفك، أنت الذي دعوتني إلى سفينتك، ولكي تحتجزني أسيراً. عار عليك!»

تلى ذلك لعناتٌ بالعربية. وبقي الكالابريُّ دون أن يقول شيئاً. ثم بدأ يتكلم ببطء.

«لم نفعل شيئاً سيئاً. لم نفعل سوى ما يفعله صياد جريء يصيد بالصنارة. يلقي صنارته وعندما يصيد سمكة، عليه أن يقرر هل يحتفظ بها أم يلقي بها في البحر. ونحن ألقينا بصنارتنا، وعلقت السمكة السمينة».

«أنا هي السمكة السمينة؟»

«أنت السمكة السمينة. ولا أعرف بعد هل أحتفظ بك أم ألقي بك في البحر. سأدعك تختار، ماذا تفضّل؟»

لم يقل سياف شيئاً ـ أمام هذين البديلين، ماذا عساه يقول؟ راح البحارة المتجمهرون يضحكون، لكن دومينيكو أسكَتَهم.

«أنتظر جوابك! هل أحتفظ بك هنا أم ألقي بك في البحر».

«على السفينة»، قال الآخر متذمراً.

كانت النبرة نبرة إذعان، نبرة استسلام. ولم يخطئ دومينيكو في فهمها، وقال له في الحال:

«ممتاز، سنستطيع أن نتناقش بهدوء. التقيتُ بجنويٍّ روى لي قصة غريبة عنك. يبدو أنك تحتجز امرأةً في بيتك، وأنك تضربها وتسيء معاملة ابنها».

«أمبرياتشو! هذا الكاذب! هذا العقرب! إنه يحوم حول مارتا منذ كانت في الحادية عشرة من عمرها! لقد سبق أن جاء إليّ مع ضابط تركي، وتأكّدوا من أنني لا أسيء معاملتها. إنها أصلاً زوجتي ومايحدث تحت سقفي أمر لا يعني أحداً سواي!»

في هذه اللحظة بالذات ناداني دومينيكو.

«سينيور بالداسار!»

خرجتُ من مخبئي ورأيتُ سياف وخادمه جالسين على الأرض مستندين إلى مجموعة حبال. لم يكونا مقيَّدين، لكنّ دزينة من البحارة تحيط بهما ومستعدة للانهيال عليهما بالضرب إذا حاولا النهوض. ألقى عليّ زوج مارتا نظرة ملؤها التهديد أكثر منه الندم، كما بدا لي.

«مارتا قريبتي، وحين رأيتُها في بداية العام، قالت لي بأنها حبلى. إذا كانت هي وطفلها بصحة جيدة، لن نمسك بأذى».

«ليست قريبتك، وهي بصحة جيدة».

«وطفلها؟»

«أي طفل؟ لم ننجب أطفالاً قط! هل أنت متأكد أنك تقصد زوجتي بكلامك؟»

«إنه يكذب»، قلتُ.

أردتُ أن أتابع، لكنني شعرت بدوار أجبرني أن أستند إلى أقرب جدار. فاستأنف دومينيكو:

«كيف نعرف أنك لم تكذب؟»

التفت سياف نحو تابعه الذي أيَّد أقواله. عندئذٍ أعلن الكالابريّ:

«إذا قلتما الصدق، كلاكما ستكونان غداً في بيتكما، ولن أتعرَّض لكما. ولكن يجب أن نتأكد من ذلك. لذا هاك ما أقترحه. أنتَ، ما اسمك؟»

أجاب التابع «ستافرو!» ونظر باتجاهي. عرفته الآن، لم أكن قد رأيته إلا بشكل مقتضب حين ذهبتُ إلى بيت زوج مارتا مع الجنود الانكشاريين. هذا هو الرجل الذي أشار سياف إليه لكي يذهب ويحضر زوجته، بينما رحتُ أنا أصرخ وأصرخ. هذه المرة سأتصرف بطريقة أخرى.

«اسمعني جيداً يا ستافرو، قال دومينيكو بنبرةٍ أصبحتْ فجأةً أقلّ عنجهية. ستذهب وتحضر قريبة سينيور بالداسار. وحالما تُصادق على كلام زوجها، سيستطيعان الانصراف هي وهو. أما أنت يا ستافرو، فإذا فعلتَ ما أطلبه منك، فلن يكون عليك حتى أن تصعد على سطح السفينة. أحضِرْها إلى الشاطئ مساء غد، وسنذهب لنأخذها بالزورق؛ وعندها تستطيع العودة إلى بيتك، ولن يكون هناك ما تخشاه. أما إذا، لسوء الحظ، سوَّل لك الشيطان أن تخدعني، فاعْلَمْ أنَّ على هذه الجزيرة ستمئة عائلة تعيش من النقود التي أدفعها لها، وأن أعلى السلطات مدينة لي أيضاً. لذا، إذا كنتَ ثرثاراً أو إذا اختفيتَ دون أن تحضر لنا المرأة، سأصدر الأمر، وستدفع ثمن خيانتك. ستأتيك الطلقات من حيث لا تتوقع».

«لن أخدعك!»

حين أُنزِل الزورق في البحر، حاملاً ستافرو وثلاث بحارة لكي يخفروه حتى الشاطئ، ذهبتُ إلى دومينيكو لأسأله إذا كان يعتقد بأن هذا الرجل سيفعل ما طلبه منه. كان بالأحرى واثقاً.

«لا أستطيع أن أفعل شيئاً ضده إذا اختفى دون أن يطلب تسديد حسابه. لكني أعتقد أني أخفتُه وأعتقد أن ما أطلبه منه لا يتطلب منه تضحية كبيرة. لذا فمن الممكن أن يطيعني. سنرى!»

نحن الآن في عرض البحر من جديد، ويبدو لي أنه لاشيء يتحرك

هناك على الجزيرة. ومع ذلك، ففي مكان ما وراء واحد من هذه الأسوار المائلة إلى البياض، وفي ظل واحدة من تلك الشجرات الباسقة، تستعد مارتا للمجيء إلى الشاطئ. هل قيل لها بأنني هنا؟ هل قيل لها لماذا تُستَدعى؟ إنها ترتدي ثيابها، تتزيَّن، وربما ترتب بعض الأشياء في حقيبتها. هل هي قلقة، خائفة، أم مليئة بالأمل؟ هل تفكر في هذه اللحظة بزوجها أم بي؟ وهل طفلها معها؟ هل فقدَتْه؟ هل أُخِذ منها؟ أخيراً سأعرف. سأستطيع تضميد جراحها. سأستطيع أن أصلح الخطأ.

بدأ الليل يهبط وما زلت أكتب دون ضوء. تتقدم السفينة بحذر نحو الجزيرة التي ماتزال بعيدة. أرسل دومينيكو بحاراً من الاسكندرية يدعى رمضان ويملك أفضل عينين بين كل أفراد الطاقم، لكي يتمركز في أعلى الساري ويتحرى الشاطئ ويخبر عن كل حركة مريبة. بسببي أنا يجب على الجميع هنا الدخول في مخاطراتٍ في غير مكانها، لكن لاأحد منهم يُشعرني بذلك. لم ألتقط مرة واحدةً نظرة لوم أو نفخة غيظ، كيف بحق الشيطان يمكنني تسديد مثل هذا الدين؟

اقتربنا أكثر من الشاطئ، لكنّ أضواء الجزيرة ما زالت تبدو خافتة كما النجوم في كبد السماء. بالطبع ليس وارداً هنا إشعال أية شمعة، أي مصباح. لا أكاد أرى ورقتي لكني أتابع الكتابة، فهذه الليلة لا تحمل الطعم الاعتيادي نفسه. في الأيام الأخرى أكتب لكي أسرد أو لكي أبرر مسلكي، أو لكي أجلو ذهني مثلما يجلو المرء حنجرته، أو لكي لا أنسى، أو حتى لأنني أقسمتُ لنفسي ببساطة بأن أكتب. بينما أتعلّق الليلة بهذه الأوراق كأنها دولاب نجاة. ليس لدي ما أقوله لها، لكني بحاجة لبقائها بقربي.

ريشتي تمسك بيدي، ولا يهمّ إذا غمستُها في سواد الليل فقط.

أمام كاتاراكتيس، 30 تشرين الثاني 1666

لم أكن أعتقد أن لقاءنا سيحدث بهذا الشكل.

أنا من سطح المركب بعينين مغضَّنتين، وهي على شكل ضوءٍ خافت من فانوس، في منتصف الليل، فوق الشاطئ.

عندما بدأ الفانوس يتحرك ذات اليمين وذات اليسار وذات اليمين، مثل رقاص ساعة حائط، أمر دومينيكو ثلاثة رجال أن ينزلوا الزورق في البحر. دون ضوء وبتعليمات بالحذر. يجب أن تمسح عيونُهُم الشاطئَ بكامله للتأكد من عدم وجود أي فخ.

كان البحر مضطرباً وصاخباً دون أن يكون هائجاً. كانت الريح تهب من الشمال، ومن كانون الأول الذي بدأ.

ثمة ملح وصلوات فوق شفتي الباردتين.

مارتا.

كم كانت قريبة، وكم كانت ماتزال بعيدة! بقي الزورقُ عمراً كاملاً حتى بلغ الشاطئ، وبقي هناك عمراً آخر. ماذا كانوا يفعلون؟ بماذا يتناقشون؟ مع أنَّ حَمْل شخص على متن زورق والانطلاق بالاتجاه الآخر، أمر سهل! لماذا لم أذهب معهم؟ لا، ماكان دومينيكو لِيَقبَل. وسيكون على حق. لا أملك حُسن تصرف رجاله ولا هدوء بالهم.

ثم عاد الزورق باتجاهنا، وفيه الفانوس.

تمتم دومينيكو:

«التعِس! قلتُ لا ضوء!»

وكما لو أنهم سمعوه من بعيد فأطفؤوا الشعلة لحظتها بالذات. تنفَّس دومينيكو الصعداء بصوتٍ عال، وطبطب على ذراعي. «ياأجدادي!» ثم أمر رجاله بالاستعداد للانطلاق نحو عرض البحر، حال عودة الزورق ومن فيه.

رُفِعت مارتا إلى السطح بالطريقة الأشد فظاظة ـ بمساعدة حبل غليظ ثُبِّتَ أسفله لوح لوضع القدمين، نوع من سلم رخو له درجةٌ واحدة. حين رُفِعت بما فيه الكفاية، أنا الذي ساعدتُها على تخطِّي العقبة الأخيرة. مدَّت لي يدها مثلما تمدُّها لغريب، لكنها ما أن وقفت على قدميها حتى راحت تنظر باحثةً عن شخص ما، ورغم الظلمة عرفتُ

أنها تبحث عني. قلتُ كلمة، اسمها، فعادت وأمسكت بيدي لكي تشدّ عليها بطريقة أخرى تماماً. كان واضحاً أنها تعرف أنني هنا. لاأدري إن كان تابع زوجها هو الذي قال لها ذلك، أم البحارة الذين أتوا بها عن الشاطئ. سأعرف ذلك حالما تتسنى لي الفرصة لأتكلم معها. ولكن لا، ما فائدة ذلك، سيكون لدينا أشياء كثيرة نقولها...

تخيلتُ أني سآخذها بين ذراعيّ لحظة لقائنا، لكي أضمّها بقوة، وقتاً غير محدود. أما مع كل أولئك البحارة الشجعان الذين يحيطون بنا، وزوجها المحتَجَز على متن السفينة، بانتظار الحكم عليه من قِبل محكمتنا، محكمة القراصنة، فكان من غير اللائق إظهار حميمية فائضة عن الحد، لهفة فائضة عن الحد، لذلك كانت تلك الحركة التي شدت يدها إلى يدي خفيةً في الظلام، هي حركة التواطؤ الوحيدة.

ثم شعرت بالضيق. وكيلا تترنّح، نصحتُها بتعريض وجهها للرذاذ البارد، لكنها أخذت ترتجف، فنصحها البحارة بالاستلقاء فوق فراشٍ في الأرضية العلوية للسفينة، وأن تدفّئ نفسها بالأغطية.

أراد دومينيكو استدعاءها فوراً للتحقق منها عن مصير الطفل الذي كانت تحمله، والنطق بحكمه ثم الانطلاق نحو ميناء القيد(*). لكنها بدت على وشك الموت، فقنع بتركها ترتاح حتى الصباح.

ما أن تمددت حتى غفت بسرعةٍ جعلتني أعتقد أنه أُغمي عليها. هززتُها قليلاً لكي تفتح عينيها وتقول كلمة، ثم تركتُها وابتعدتُ مرتبكاً.

أمضيتُ الليل مستنداً إلى أكياس المصطكى، أحاول النوم دون نجاح كبير. يبدو لي أني غفوتُ بضع لحظات فقط، عند اقتراب الفجر...

أثناء هذه الليلة التي لا تنتهي، وفيما لم أكن مستيقظاً تماماً أو نائماً تماماً، هاجمتني أفظعُ الأفكار. بالكاد أجرؤ على تدوينها هنا لشدةِ ما تخيفني. مع أنها ولدت من أكبر فرحةٍ لي...

(*) ميناء القيد: الميناء الذي تسجّل فيه السفينة لدى الجمارك.

فقد فوجئتُ بسؤال رحتُ أطرحه على نفسي حول ما سأفعله بسياف إذا علمتُ أنه ألحق أذىً بمارتا، وفضلاً عنها بالطفل الذي كانت تحمله.

هل أستطيع أن أدعه يذهب إلى بيته دون عقاب؟ ألا ينبغي أن أجعله يدفع ثمن فِعلته؟

أصلاً، قلتُ لنفسي أيضاً، حتى لو كان لا ذنب لزوجٍ مارتا في موت الطفل، فكيف أستطيع الذهاب معها لكي نعيش معاً في جبيل تاركين وراءنا هذا الرجل الذي سيجترُّ فكرة انتقامه كل يوم، ويعود يوماً لملاحقتنا؟

هل سأستطيع النوم بهدوء إذا عرفتُ أنه حي؟

هل سأستطيع النوم بهدوء إذا...

هل أقتله؟

أنا، أقتل؟

أنا، بالداسار، أقتل؟ أقتل رجلاً، كائناً من كان؟

وأولاً كيف أقتُل؟

أقترب من شخصٍ ما، وبيدي سكين، لأطعنه حتى أصل إلى قلبه... أم أنتظر أن ينام خوفاً من أن ينظر إليّ... يارب، لا!

أو أدفع لشخصٍ ما لكي...

ما الذي أفكر فيه؟ ما الذي أكتبه؟ يا إلهي! أبعِد عني كأس العذاب هذا!

يبدو لي في هذه اللحظة أنني لن أنام أبداً بعد اليوم، لا هذه الليلة ولا أياً من الليالي المتبقّية!

الأحد 5 كانون الأول 1666

لا أريد إعادة قراءة الصفحات الأخيرة خوفاً من أن تسوِّل لي

نفسي أن أمزّقها. إنها مكتوبة بحبري، لكني لستُ فخوراً بها. لستُ فخوراً بأني فكرتُ أن أوسِّخ يديّ وروحي، كما أنني لستُ فخوراً بعدولي عن ذلك.

ذكرتُ الأفكار التي فكّرتُ بها ليلة الثلاثاء، مع الفجر، فيما كانت مارتا ماتزال نائمة، ولكي أسلو عن صبري النافد. بعدها بقيتُ خمسة أيام دون أم أكتب شيئاً. بل لقد فكرت حتى بقطع هذه اليوميات، لكني ها أنذا من جديد أحمل ريشتي بيدي، ربما وفاءً للوعد غير المتبصِّر الذي قطعتُه على نفسي في بداية الرحلة.

خلال الأسبوع الذي مضى للتو استولى علي ثلاثة أنواع من الدُّوار، أولاً نشوة اللقاء، ثم التشوُّش الشديد، والآن هذا الهيجان، عاصفة في الروح تهبّ في داخلي، تهزّني وترهقني، كما لو أنني أقف على سطح السفينة ولا أستطيع التعلُّق بشيء، ولا أنهض أحياناً إلا لكي أقع ثانيةً بثقل أكبر.

لم يعد بوسع دومينيكو أو مارتا تقديم أي عونٍ لي. وليس بوسع أي كائن حاضر أو غائب، ولا أي ذكرى. كل ما يبهر ذهني يزيدني تشوشاً. كذلك كل ما يحيط بي وكل ما أراه وكل ما أستطيع تذكُّره. أيضاً هذه السنة، هذه السنة اللعينة التي لم يبق منها سوى أربعة أسابيع، لكنها بدت لي، في هذه اللحظة، أنها أربعة أسابيع لا يمكن اجتيازها، محيط بلا شمس ولا قمر ولا نجوم، ولا أفق فيه سوى الأمواج.

لا، لم أصبح بعد في حالة تصلح للكتابة!

10 كانون الأول

ابتعد مركبنا عن شيّو، وبدأ ذهني أيضاً بالابتعاد عنها. لن يندمل جرحي في القريب العاجل، لكني بعد ستة أيام استطعت أخيراً أن أسلو أحياناً عما حدث لي. ربما عليّ أن أحاول استئناف الكتابة...

لم أستطع حتى الآن أن أروي ما حدث. لكن آن الأوان لكي أفعل،

حتى لو اقتصرتُ، في الحديث عن اللحظات الأليمة، على أكثر الكلمات خلواً من العاطفة، «يقول»، «يطلب»، «قال»، «باعتبار أنَّ»، أو «تقرَّر أن».

حين صعدت مارتا إلى سطح السفينة، أراد دومينيكو أن يستدعيها خلال الليل، ليتحقق منها عن مصير الطفل الذي كانت حبلى به، لينطق بحكمه وينطلق في الحال باتجاه إيطاليا. وبما أنها لم تكن تستطيع الوقوف على قدميها، أذعن ـ قلتُ ذلك ـ بتركها تنام. الجميعُ على متن السفينة أخذوا قسطاً من الراحة باستثناء المراقِبين، تحسُّباً لاحتمال أن تعترض سفينةُ قتالٍ عثمانية سبيلنا. لكنه لا بُد أننا الوحيدين الذين نبحر في هذا البحر الهائج.

في الصباح التقينا في مقصورة القبطان. كان هناك أيضاً ديمتريوس ويانيس ـ خمسة أشخاص ككل. سأل دومينيكو مارتا إذا كانت تفضّل أن نستجوبها في حضور زوجها أم في غيابه. ترجمتُ لها السؤال بالعربية المحكية في جبيل، وأجابت بعجلة وبنبرةٍ شبه متوسِّلة:

«دون زوجي!»

حركة يديها وتعبير وجهها كانا أوضح من الحاجة لأية ترجمة. أخذ دومينيكو علماً بالأمر وتابع:

«قال لنا سينيور بالداسار بأنك عندما جئتِ إلى شيّو كنتِ حبلى، لكن زوجك يدّعي بأنك لم تنجبي أطفالاً قط».

أظلمت نظراتُ مارتا. التفتت نحوي التفاتة مقتضبة، خبأت وجهها وراحت تنتحب. تقدمت منها خطوة، لكنّ دومينيكو ـ وقد أخذ دوره كقاضٍ على محمل الجد ـ أشار لي بالعودة إلى مكاني. وأشار للآخرين ألاّ يفعلوا شيئاً أيضاً، ولا يقولوا شيئاً، وأن ينتظروا. وحين قدَّرَ بأنه أعطى الشاهدة الوقت الكافي لكي تتمالك نفسها، قال لها:

«ها نحن نستمع إليك»

ترجمتُ لها مضيفاً:

«تكلمي، لا تخشي شيئاً، لا يستطيع أحد أن يمسّك بأذى».

وبدا بأن كلماتي بدلاً من أن تهدّئها، هزَّتها أكثر. علا صوت نحيبها أكثر، فأنذرني دومينيكو بألا أضيف شيئاً إلى ما يطلب مني ترجمته. فوعدته بذلك.

مضت بضع لحظات. خفتَ النحيب، وطرح الكالابريُّ سؤاله من جديد، مع أثرٍ من نفاد الصبر. عندها رفعت مارتا رأسها وقالت:

«لم يكن هناك طفل أبداً!»

«ماذا تعنين بذلك؟»

صرختُ. فدعاني دومينيكو للانضباط. ومن جديد قدمتُ اعتذاري، ثم ترجمتُ ما قيل ترجمة صادقة.

فكررت بصوت حازم:

«لم يكن هناك طفل قط. لم أحمل قط».

«لكنك أنتِ التي قلت لي ذلك بنفسك».

«قلت لك ذلك لأن هذا ما ظننته. لكني أخطأت».

نظرتُ إليها طويلاً طويلاً، دون أن تلتقي عيناي بعينيها مرة واحدة. أردتُ أن أميز فيها شيئاً يشبه الحقيقة، أن أفهم على الأقل إذا كانت تكذب عليّ طوال الوقت، إذا كذبت عليّ فقط بشأن الطفل، لكي أجبر نفسي على إعادتها بأسرع وقت إلى زوجها النذل، أو إذا كانت تكذب الآن. لم ترفع بصرها سوى مرتين أو ثلاث، خلسةً، لكي تتحقق، دون شك، مما إذا كنت ما أزال أحدّق فيها، أو إذا كنتُ أصدّقها.

ثم سألها دومينيكو بلهجة أبوية جداً:

«قولي لنا يا مارتا. هل تتمنين العودة إلى الشاطئ مع زوجك، أم القدوم معنا».

وحين ترجمتُ لها قلت «القدوم معي». أجابت بشكل واضح وبحركةٍ من يدها المصوَّبة، بأنها تريد العودة إلى كاتاراكتيس.

مع ذلك الرجل الذي تكرهه؟ لم أكن أفهم. ثم، وبما يشبه الإشراقة:

«دومينيكو، انتظرْ، أظن أني فهمتُ ما يحدث. لا بد أن ابنها على الجزيرة، وتخاف أن يتعرَّضوا له إذا قالت شيئاً سيئاً عن زوجها. قل لها إنه إذا كان هذا هو ما تخشاه، فإننا سنرغم زوجها على إحضار الطفل مثلما أرغمناه على إحضارها هي. وأنها هي التي ستذهب لتأتي بالطفل، وسنحتجز زوجها حتى عودتها. ولن يستطيع أن يتعرّض لها!»

«اهدأ، قال لي الكالابريّ. يبدو لي أنك تنسج حكاية من خيالك. لكن إذا كان لديك أدنى شك، أعِدْ عليها ما قلته لي للتو. وتستطيع أن تَعِدَها باسمي، بأنه لن يصيبها أو يصيب ابنها مكروه».

اندفعتُ في خطبة مسهبة، مشبوبة العاطفة، يائسة، مؤثِّرة، لكي أرجو مارتا أن تقول لي الحقيقة. استمعت إليّ مسبلة العينين. وحين انتهيت، نظرتُ إلى دومينيكو وكررت:

«لم يكن هناك طفل قط. لم أحبل أبداً. أنا لا أنجب».

قالت ذلك بالعربية، ثم كررت التأكيدات نفسها بيونانية سيئة، ملتفتةً نحو ديميتريوس الذي شاورَهُ دومينيكو بالنظر.

بدا البحار الذي لم يقل شيئاً حتى الآن محَيَّراً. نظر إليّ، نظر إلى مارتا، ثم إليّ من جديد، وأخيراً إلى قبطانه.

«حين ذهبت إلى بيتهم، لم يأتِني انطباع بأن هناك طفل».

«ذلك في منتصف الليل، كان نائماً!»

«طرقتُ الباب وأيقظتُ الجميع. حدثت جلبة كبيرة ولم يبكِ أيُّ طفل».

أردتُ أن أستأنف الكلام، لكن دومينيكو أمرني هذه المرة بأن أصمت:

«هذا يكفي! في نظري، هذه المرأة لا تكذب! يجب أن نطلق سراحهما هي وزوجها».

«ليس بعد، انتظرْ!»

«لا يا بالداسار، لن أنتظر. القضية مفروغ منها. سوف نبحر. لقد تأخرنا إرضاءً لك، آمُل أن تفكر يوماً بشُكر هؤلاء الرجال الذين عرَّضوا أنفسهم لخطر عظيم لأجلك».

جرحتني هذه الكلمات أكثر مما تصوَّر دومينيكو. كنتُ في نظر هذا الرجل بطلاً، والآن أبدو مثل عاشقٍ مرفوض مُتَباكٍ نسَّاج حكايات. خلال ساعات، بل خلال دقائق، ببضع جملٍ، تحوَّلَ سينيور بالداسار أمبرياتشو المحترم والشديد النبل، إلى محتال، إلى مسافر مزعج، يتسامحون معه كشخصٍ منكود الحظ، ويُؤْمَر بالسكوت.

إذا انزويتُ في ركنٍ مظلم لكي أبكي بصمت، فبسبب هذا كما بسبب مارتا التي ذهبت بعد الاستجواب مباشرةً. أفترض أن دومينيكو قدم الاعتذار لزوجها، وأظن أنه أهداهما الزورق الذي عادا به إلى الشاطئ. لم أشأ حضور الوداع.

اليوم، لم يعد جرحي مفتوحاً جداً، حتى وإن كان مايزال أليماً. أما بخصوص سلوك مارتا، فلم أفهمه حتى الآن. أطرح على نفسي أسئلة غريبة إلى درجة أني لا أجرؤ على تدوينها في هذه الصفحات. أحتاج أن أفكر فيها أيضاً...

11 كانون الأول

وماذا لو أن الجميع كذبوا عليّ؟

وماذا لو لم تكن هذه الغزوة سوى خدعة، مخاتَلة، الغرض الوحيد منها هو دفعي للتخلي عن مارتا؟

ربما ليس هذا سوى هذيان، ثمرة الهوان والوحدة وبعض ليالي الأرق. ولكن ربما كان ذلك أيضاً هو الحقيقة الوحيدة.

هل طلب غريغوريو الذي يريدني أن أتخلى عن مارتا مرة وإلى الأبد، هل طلب من دومينيكو أن يأخذني معه ويعمل على دفع الأمور بطريقة تجعلني لا أريد رؤية هذه المرأة ثانيةً.

ألمِ يُروَ لي يوماً في سميرنا أنّ سياف مشترك في التهريب، وتحديداً في تهريب المصطكى؟ من المحتمل أنّ دومينيكو يعرفه، فيما

تظاهر بأنه يراه للمرة الأولى. وربما لهذا طُلب مني البقاء خلف حاجز. وبهذا لا أستطيع مراقبة غمزاتهما وكشف تواطؤهما!

ولاشك أن مارتا كانت تعرف ديمتريوس ويانيس لأنها رأتهما سابقاً عند زوجها. لذلك شعرت أن من واجبها قول ما قالته.

ولكن، عندما تواجدنا معاً، بمفردنا، في الأرضية العلوية للسفينة، كيف لم تستفد من المناسبة لكي تكلّمني سراً؟

كل هذا هذيان فعلاً! ما الذي يدفع كل هؤلاء الأشخاص لتمثيل مسرحية؟ فقط لخداعي ودفعي للتخلي عن هذه المرأة؟ أليس لديهم شيء يفعلونه في حياتهم، أفضل من تعريض أنفسهم للشنق والخازوق لأجل التدخُّل في قصصي الغرامية المعقدة؟

انخلع عقلي مثلما كان ينخلع كتفُ والدي المسكين سابقاً، ويحتاج الأمر لصدمة قوية لإعادته إلى مكانه.

13 كانون الأول

همتُ على وجهي طيلة اثني عشر يوماً كأني غير مرئي، فقد تلقّى الجميع الأمر بتجنُّبي. إذا وجَّه لي أحد البحارة الكلام، فذلك برؤوس الشفاه، وبعد التحقق جيداً من أن أحداً لا يراه. كنتُ آكل لوحدي وفي السر مثل مصابٍ بالطاعون.

ومنذ اليوم عادوا يكلمونني. جاء دومينيكو إليّ وأخذني بين ذراعيه كأنه يستقبلني للتو في سفينته. تلك هي الإشارة، وأصبحوا يجرؤون على مخالطتي.

كان بوسعي أن أعاند، أن أرفض اليد الممدودة، أن أترك الدم المتعجرِف لآل أمبرياتشي يعبِّر عن نفسه. لكني لن أفعل. لماذا أكذب؟ عودة الحظوة هذه تريحني. ذلك الحَجْر كان يُثقِل عليّ.

لستُ من أولئك الذين يسرُّون بالمِحَن.

أحب أن أكون محبوباً.

14 كانون الأول

حسب رأي دومينيكو، عليّ أن أشكر الخالق لأنه رتّب الأمور على طريقته وليس على طريقتي. دفعَتْني كلماتُ مهرِّبٍ من كالابري باتَ مُعلِّماً في الذمَّة، دفعتني لكي أفكر، لكي أزن الأمور وأقارن. وفي نهاية المطاف لم أجده مخطئاً تماماً.

«تخيَّل أنّ هذه المرأة قالت ما كنتَ تأمل بأن تقوله. بأنّ زوجها يسيء معاملتها، وبأنها فقدت طفلها بسببه، وأنها تريد أن تتركه. وأفترض أنك كنتَ ستُبقيها إلى جانبك لكي تأخذها إلى بلدك».

«بالتأكيد!».

«وزوجها، ماذا كنتَ ستفعل به؟».

«ليذهب إلى الشيطان!».

«أسمع جيداً. ولكن ماذا أيضاً؟ هل كنتَ ستتركه يعود إلى بيته، مجازفاً بعودته يوماً للدق على بابك وإنذاركَ بأن تعيد له زوجته؟ وماذا كنتَ ستقول لأقربائه؟ بأنه مات؟».

«هل تظن بأني لم أفكر بهذا كله أبداً؟».

«لا، أني مقتنع بأنك فكرت فيه ألف مرة. لكني أحب أن أسمع من فمك ما الحل الذي وجدته».

صمتَ بضع لحظات، وأنا كذلك.

«لا أريد تعذيبك، يا بالداسار. أنا صديقك وفعلتُ لأجلك ما لن يفعله أبوك ذاته. لذا سأقول لك ما لا تجرؤ أنت نفسك أن تقوله لي. هذا الرجل، هذا الزوج الخنزير، كان يجب قتله. لا، لا تقَطِّبْ لي وجهك، لاتظهِر لي أنك جَفِلتَ، أعرف أنك فكرت بالأمر، وأنا أيضاً. لأنه لو قررت هذه المرأة أن تتركه، لما أردنا لا أنت ولا أنا أن يبقى على قيد الحياة ويعود لمطاردتنا. أنا كنتُ سأقول لنفسي بأنّ في شيّو ثمة رجل لا يفكر إلاّ بالانتقام، وكنتُ سأخشاه لدى كل مرورٍ لي بهذه الجزيرة. وأنت أيضاً بالطبع كنتَ ستفضّل أن تعرف بأنه ميت».

«دون شك!»

«ولكن، هل كنتَ ستقدر على قتله؟»

«فكرتُ بالأمر» اعترفتُ أخيراً، لكن دون أن أزيد بشيء.

«لا يكفي التفكير بالأمر، فضلاً عن تَمَنّيه. كل يوم يمكن أن تتمنى الموت لشخصٍ ما. خادم عديم الاستقامة، زبون مكّار، جار مزعج، وحتى والدك ذاته. أما هنا فلم يكن يكفي التمنّي. هل كنت ستقدر أن تحمل سكيناً مثلاً، وتقترب نحو خصمك، وتغرسه له في قلبه؟ هل كنت ستقدر أن تربط يديه وقدميه وتلقي به من السفينة إلى البحر؟ أنتَ فكرتَ بالأمر، وأنا فكرتُ فيه لأجلك. تساءلتُ ما هو الحل المثالي بالنسبة لك. ووجدته. قَتْلُ هذا الرجل، إلقاؤه في البحر لم يكن كافياً. أنت لا تحتاج فقط لكي تعرف بأنه ميت، تحتاج أيضاً أن يراه أهل حيِّكَ ميتاً. كان الأمر سيحتاج أن نذهب إلى جبيل، محافظين على هذا الرجل حياً بيننا. وحين نصل على مسافة بضع قلسات(*) من الشاطئ، نقيِّدْ قدميه بقوة بوساطة حبل، ونلقي به عن سطح المركب. وهناك نتركه، لِنَقُلْ ساعةً، يختنق في الماء، ثم نرفعه غريقاً. وعندها نفكّ قيوده ونضعه فوق نقّالة، وتنزل أنت وتلك المرأة بهيئة محزونة بصحبة رجالي لحمل الجثة إلى اليابسة. وتروي بأنه سقط عن سطح السفينة في اليوم نفسه وغرق، وأؤيِّد أقوالك. ثم تدفنوه، وبعد سنة تتزوج أرملته.

«هذا ما كنتُ سأفعله أنا، سبق أن قتلتُ عشرات الرجال، ولم يتسلط أحد منهم عليّ في نومي. أما أنت، قل لي، هل كنتَ ستقدر أن تتصرف على هذا النحو؟»

اعترفتُ له أني كنتُ حتماً سأشكر السماء إذا انتهى مشروعنا الخطير على النحو الذي تخيَّلَهُ للتو. لكني لن أكون قادراً قط على غمسِ يديّ في جريمة مماثلة.

«كُنْ سعيداً إذن بأنّ هذه المرأة لم تنطق بالكلمات التي تنتظرها!»

15 كانون الأول

أعاود التفكير بكلام دومينيكو. لا أشكّ بأنه كان سيتصرف تماماً

(*) طول القلس، قياس بحري للطول يعادل 200 متراً.

بالطريقة التي وصفَها، لو كان في مكاني. أما أنا فقد ولدتُ تاجراً وأملك روح تاجر وليس روح قرصان ولا روح محارِب ولا روح رجل شرير ـ ربما لهذا السبب فضّلتْ مارتا عليَّ الرجلَ الآخرَ الذي، مثله مثل دومينيكو، ما كان ليتردد في القتل للحصول على ما يريد. لا تمسكهم أيةُ وساوس. ولكن هل كانوا سينحرفون عن طريقهم من أجل امرأة يحبونها؟

لم أنسها بعد، لا أعرف إن كنتُ سأنساها يوماً... أجل، سأنساها يوماً، وستعينني خيانتُها على ذلك.

مع ذلك فإنني لا أستطيع منع نفسي من أن يكون لدي شك. هل خانتني فعلاً، أم أنها تكلمت بهذا الشكل حفاظاً على ابنها؟

ها أنذا أتكلم عن الطفل، فيما يقول لي الجميع بأنه غير موجود، وأنه لم يوجد قط.

وماذا لو كان الجميع يكذبون عليّ؟ هي لكي تحمي ابنها، والآخرون لكي... لا! يكفي! لن أعود لهذياني! حتى لو لم أعرف كل الحقيقة أبداً، يجب أن أدير ظهري لحياتي الماضية، وأنظر أمامي، أمامي.

السنة تنتهي على أية حال...

17 كانون الأول

الليلة الماضية راقبتُ السماء، ويبدو فعلاً أن عدد النجوم يقلّ شيئاً فشيئاً.

إنها تنطفئ، بعضها في إثر الأخرى، وعلى الأرض تنتشر الحرائق.

بدأ العالم بالجنة، وسينتهي بالجحيم.

لماذا أتيتُ متأخراً بهذا الشكل؟

19 كانون الأول

اجتزنا مضيق ميسين للتو متجنّبين تلك الدوّامة الفائرة التي تسمى شاريبد. أطلق دومينيكو هذا الاسم على سفينته لكي يطرد مخاوفه، لكنه يحرص على أية حال على عدم الاقتراب منها قط.

الآن سنحاذي ساحل شبه الجزيرة الإيطالية، صعوداً حتى جنوة حيث تنتظرني، كما يُقسِم لي الكالابري، حياةٌ جديدة. بماذا يفيدني أن أبدأ حياة جديدة إذا كان العالم على وشك الانطفاء؟

لطالما اعتقدتُ أن الأيام الأخيرة من «عام الوحش» سأمضيها في جبيل، لكي يجتمع أهلي كلهم معاً في البيت نفسه، يضم بعضهم بعضاً، مستمدين العزاء من أصواتٍ أليفة، إذا حدث ما يجب أن يحدث. كنتُ متأكداً من العودة إليها، إلى درجة عدم الكلام تقريباً عن ذلك، وكنتُ فقط أسأل نفسي عن التواريخ وخط السير. هل أذهب في نيسان، مباشرةً، بدلاً من اللحاق بكتاب *الاسم المئة* حتى لندن؟ هل أمرّ في طريق العودة في شيّو؟ أم في سميرنا؟ حتى غريغوريو فهِمَ، عندما أخذ مني وعداً بالعودة إليه، أنه لا يمكنني التفكير بذلك إلاّ بعد أن أعيد الأمور إلى نصابها في أعمالي في جبيل.

ومع ذلك، ها أنذا على طريق جنوة. سأكون هناك يوم الميلاد، وسأكون هناك عندما ينتهي عام 1666 .

20 كانون الأول 1666

الحقيقة هي أنني خبأتُ عن نفسي الحقيقة باستمرار، حتى في هذه اليوميات التي كان يجب أن تكون النَّجيّ الذي أبوح له بأسراري.

الحقيقة هي أنني بعودتي إلى جنوة، عرفتُ أنني لن أعود ثانيةً إلى جبيل. أحياناً كنت أهمسُ لنفسي بذلك دون أن أجرؤ على كتابته قط. لكأنّه لا يمكن تدوين فكرة فظيعة بهذا الشكل على الورق. لأن في جبيل أختي الحبيبة، وتجارتي وقبر أبوي والبيت الذي ولدتُ فيه وولد فيه والدُ جدي. لكنني غريب فيها كيهوديّ. بينما جنوة التي لم تعرفني

أبداً، تعرَّفت عليّ، عانقتني وشدتني إلى صدرها كأني الابن الضال. أسير في حواريها مرفوع الرأس، أذكر اسمي الإيطالي بصوت مسموع، أبتسم للنساء ولا أخشى الجنود الانكشاريين. ربما كان لآل أمبرياتشي جد موصوم بالسُّكْر، لكن هناك أيضاً برج سمِّي باسمهم. يجب أن يكون لكل أسرة برج باسمها في مكانٍ ما على الأرض.

هذا الصباح، كتبتُ ما اعتقدتُ أن من واجبي أن أكتبه. كان بوسعي بالقدر نفسه أن أكتب العكس.

أتباهى بأني في بيتي في جنوة. جنوة فقط. في حين أني سأكون فيها ضيف غريغوريو والمدين له حتى نهاية أيامي. سأغادر بيتي الخاص لأعيش في بيته، سأتخلى عن أعمالي الخاصة لكي أهتمّ بأعماله.

هل سأكون فخوراً بأن أعيش هكذا؟ أن أتبع له ولسخائه رغم رأيي به، وفي حين أني أغتاظ من استعجاله وأسخر من تفانيه، وفي حين سبق لي أن انسللتُ خفيةً خارج منزله لأني لم أعد أحتمل تلميحاته أو وجه زوجته؟ سأتلقى يد ابنته كما يتلقى سيدٌ آياتِ الولاء من تابع، كما يتلقاها بحقّ السيّدِ بالتمتُّع بالعروس في ليلتها الأولى، لأنني أحمل اسم أمبرياتشي، ولأنه هو لا يحمل سوى اسمه. إنه بهذا يكون قد عمل طوال حياته من أجلي. يكون قد كوَّنَ أعماله، سلَّحَ سفنه الحربية، زاد ثروته، وأسس أسرته، لأجلي أنا فقط. يكون قد زرع وسقى وقلَّمَ وعالج، لكي أحضر وأقضم الثمرة الناضجة. وأجروُ أن أقول بأني فخور بحمل الاسم الذي أحمل، وأن أتبختر في جنوة! بعد أن هجرتُ مابنيته وما بناه أجدادي لي!

ربما أكون مؤسسَ سلالةٍ في جنوة. لكني سأكون حفَّار قبرِ سلالةٍ أخرى أكثر عزاً، أسستْ في بدايات الحملات الصليبية، وانتهت معي، منطفئةً.

سأنهي هذه السنة في جنوة، وإذا تلتها سنين أخرى، لا أعرف بعد أين سأمضيها.

22 كانون الأول 1666

التجأنا إلى خليج صغير شمالي نابولي، في مكان شبه مقفر لكي نحتمي من الأمواج الصاخبة، وبقينا جميعاً نترصَّد خوفاً من مغَرِّقيّ السفن.

يبدو أنهم شاهدوا من القارب، حريقاً كبيراً على الساحل على تخوم نابولي. أنا كنتُ مستلقياً ولم أر شيئاً.

عادني دوار البحر من جديد، وأيضاً دوارُ السنةِ المُنتهِيةِ، المتستِّر.

خلال عشرة أيام يكون العالمُ قد وصل إلى نهايته، أو غرق.

23 كانون الأول 1666

عندما استيقظتُ هذا الصباح، لم أكن أفكر بمارتا أو جياكومينيتا، لم يكن في ذهني سوى شعر بيس الأصهب، رائحتها رائحة البنفسج والبيرة، ونظرتها الشبيهة بنظرة أم خائرة القوى. لاأشتاق لـِ لندن، لكني لا أستطيع التفكير بمصيرها الرهيب بلا حزن. إذا كرهتُ شوارعها وحشود عامَّتها، فقد وجدتُ في هذه المدينة، بجوار هذه المرأة، جماعةً من الأصدقاء الغريبين.

ماذا حل بهم؟ ماذا حلّ بـِ بيت البيرة البالي بأدراجه الخشبية وتخشيباته؟ ماذا حلّ ببرج لندن؟ وكاتدرائية القديس بول؟ وبجميع أصحاب المكتبات بكتبهم المكومة تلالاً؟ رماد، رماد. رمادٌ أيضاً دفترُ اليوميات الوفي الذي كنتُ أغذِّيه يومياً. نعم، كل الكتب رماد رماد، عدا كتاب المازندراني الذي ينشر الخراب من حوله، لكنه يخرج سالماً كل مرة. كل مكان حلَّ فيه حلَّت فيه حرائق وغرقت سفن. حريق في القسطنطينية، حريق في لندن، غرق مارمونتيل؛ وتلك السفينة التي تبدو على وشك الغرق...

ويلٌ لمن يقترب من الاسم المخبوء، تظلم عيناه أو تنبهران ـ ولاتستنيران أبداً. أرغب من الآن وصاعداً أن أقول في صلواتي:

إلهي، لا تبتعد كثيراً عني! ولكن، لا تقترب كثيراً مني!

دعني أتأمل النجوم على ذيول ثوبك! ولكن، لا تجعلني أرى وجهك!

اسمح لي أن أسمع صوت الأنهار التي تُجريها، وأسمع صوت الريح التي ترسلها في الأشجار، وأسمع ضحكات الأطفال الذين تنفخ فيهم الحياة! ولكن إلهي يا إلهي لا تسمح بأن أسمع صوتك!

24 كانون الأول 1666

وعَدَ دومينيكو بأن نكون في جنوة يوم الميلاد. لن نكون. إذا كان البحر هادئاً يمكن أن نصل مساء غد. لكن رياح *الليبيتشيو* التي تهب من الجنوب الغربي تزداد عنفاً، مرغمةً إيانا على اللجوء ثانيةً إلى الشاطئ.

ليبيتشيو... نسيت هذه الكلمة التي كنتُ أسمعها في طفولتي، ويذكرها أبي وجدي بمزيجٍ من الحنين والهلع. كانا يضعانها دوماً مقابل شيروكو، بمعنى - إذا كنتُ أذكر جيداً - أنَّ جنوة حُفِظتْ من واحدة منها ولكن ليس من الأخرى، وأن ذلك بسبب تَهاون العائلات التي تديرها اليوم والتي تنفق الثروات لبناء قصورها، لكن البخل يستولي عليها حين يتعلق الأمر بالأملاك العامة.

وفي الواقع، قال لي الكالابريّ بأنه قبل عشرين عاماً لم تكن أية سفينة تريد أن تمضي الشتاء في جنوة لأن رياح *الليبيتشيو* تتسبب بمجازر شنيعة فيها. كل عام يحصى عشرون مركباً غارقاً، أو أربعون، ومرةً أحصي أكثر من مئة، بين سفن ومراكب وفرقاطات. وخاصةً في تشرين الثاني وكانون الأول. ومنذ ذلك الوقت، بني رصيف جديد يحمي المرفأ، من جهة الغرب.

«عندما نصل إليه لن يكون هناك ما نخشاه. فقد أصبح الحوض بحيرةً هادئة. لكن الوصول إليه في هذا الفصل... «يا أجدادي!»

25 كانون الأول 1666

هذا المساء حاولنا الخروج باتجاه عرض البحر، ثم ارتدَدْنا نحو

الشاطئ. كانت *الليبيتشيو* تهب بشكل أقوى أكثر فأكثر، وكان دومينيكو يعرف أنه لا يستطيع المضي بعيداً. لكنه أراد أن نلتجئ إلى الخليج الصغير الواقع خلف شبه جزيرة بورتو فينيري، من جهة ليريتشي.

إنني مريض على الدوام، لقد سئمتُ البحر. وكنتُ سأقبل بطيبة خاطر أن أتابع الطريق براً إلى جنوة التي لم تعد على أبعد من يوم من هنا. ولكن، بعد ما فعله القبطان وبحارته لأجلي، أخجل من التخلي عنهم هكذا. يجب أن أشاركهم مصيرهم كما شاركوني مصيري، حتى لو تقيَّأتُ أحشائي.

26 كانون الأول

ردّ دومينيكو على بحارٍ عجوز شرس عاتَبَهُ على عدم وفائه بوعده: «أن نصل إلى جنوة في وقت متأخر، خير من أن نصل إلى الجحيم في وقت مبكر!»

ضحكنا جميعاً عدا البحار العجوز، القريب جداً من حَتْفِه، والذي لم يعد ذِكْرُ الجحيم يضحكه.

الاثنين 27 كانون الأول 1666

جنوة أخيراً!

كان غريغوريو ينتظرني على رصيف الميناء. كان قد كلّف رجلاً بالمكوث قرب المنارة لكي يُخطره عندما يظهر مركبنا.

عندما رأيتُه من بعيد يلوح بيديه الاثنتين، تذكرتُ قدومي الأول إلى مدينتي الأصلية قبل تسع شهور. كنتُ قادماً على المركب نفسه ومن الجزيرة نفسها، وبرفقة القبطان نفسه. لكنّ الوقت كان ربيعاً، والميناء يعجّ بسفنٍ يتم تحميلها وسفن تُفرَغ حمولتها، ورجال جمارك ومسافرون وخدم ومتسكعون. اليوم كنا بمفردنا. لا سفينة تأتي،

ولاسفينة تمضي. لم يكن هناك أحد يودِّع أو يفتح ذراعيه مرحباً أو يتأمل الرواح والمجيء باغتباط. لا أحد، ولا حتى ملكيون بالدي - عبثاً بحثتُ عنه بعينيّ. لا شيء سوى مراكب موقَفة وفارغة، وأرصفة شبه فارغة أيضاً.

في هذه الصحراء من الحجارة والماء، التي تنهال عليها الرياح الباردة، هناك رجل واقف، مبتهج، محمرّ، حارّ، لكنه لا يتزعزع. السيد منجيافاتشا جاء يستلم شحنةً هي عبارة عن ثمانمئة مكيال من المصطكى، وصِهْرٍ ضالّ.

ما زلتُ أسخر منه، لكني لم أعد أسعى لمعارضته. وأباركه أكثر مما ألعنه.

احمرّت جياكومينيتا حين رأتني أدخل البيت بصحبة والدها. من الواضح أنه قيل لها بأنني إذا عدتُ إلى جنوة، فسأطلب يدها وأنها ستقدَّم لي. أما حماتي المقبلة فقد كانت مريضة بسبب البرد، ولم تغادر سريرها منذ يومين، كما قيل. ربما يكون الأمر صحيحاً...

ثلاثة أشياء لا تعجبني في جياكومينيتا: اسمها، وأمها، ونوعٌ من الشَّبَه في الهيئة مع ألفيرا، زوجتي الأولى، وتعاسةُ حياتي.

لكني لا أستطيع تحميلَ ابنةِ غريغوري الطيبة مسؤوليةَ أيٍّ من العاهات الثلاث.

28 كانون الأول

جاء مضيفي لرؤيتي في غرفتي منذ الصباح الباكر، الأمر الذي لم يسبق أن فعله حتى الآن. زعمَ أنه لا يريد لأحدٍ أن يعرف بأن هذه المحادثة جرت بيننا، لكنه يبدو لي بأنه أراد خصوصاً أن يمنح خطوته طابعاً رسمياً.

جاء يطالبني بالوفاء بما أدين به له من كلامٍ كما لا يطالبني قط بما أدين له من نقود. كنتُ أتوقع ذلك طبعاً، ولكنْ ليس بهذه السرعة ربما، ولا بهذه الطريقة.

«هناك وعود بيننا» قال بدايةً.

«لم أنسَها».

«أنا أيضاً لم أنسها، لكني لم أشأ أن تشعر بأنك مضطر ـ مدفوعاً بالشعور بالواجب إزائي، أو حتى بالصداقة ـ أن تفعل ما لا تتمناه. لهذا السبب أحِلُّكَ من قسمكَ حتى آخر هذا النهار. قلتُ لعمال المطبخ بأنك وصلتَ متعَباً، وأنك ستَلزَم غرفتك حتى المساء. ستُحمَل لك وجباتك وكل ما تطلبه إلى هنا. خذْ يوماً من الراحة والتأمل. ولدى عودتي تعطيني جوابك، وسأقبله أياً كان!»

مسح دمعةً، وخرج دون أن ينتظر جوابي.

حالما أغلق الباب، جلستُ إلى طاولتي لأكتب هذه الصفحة على أمل أن تساعدني على التفكير.

التفكير ـ يا للكلمة المزهوّة! حين يُلقى بك في الماء، فإنك تتخبّط، تسبح، تعوم، أو تغرق. لكنك لا تفكر.

لدي هنا بالقرب مني فوق الطاولة، كتاب *الاسم المئة*... هل أعتبر نفسي محظوظاً بأنه في حوزتي في حين تنتهي السنةُ كاشفةُ الغيب؟ هل نحن حقاً في الأيام الأخيرة للعالم؟ قبل الأيام الثلاثة أو الأربعة التي تسبق يوم الحساب؟ هل سيلتهب العالم ثم ينطفئ؟ هل ستُرَضُّ جدران هذا البيت ثم تنطوي مثل ورقة في يد عملاق؟ والأرضُ التي تقوم عليها مدينةُ جنوة، هل ستفرُ فجأةً من تحت أقدامنا وسط الصرخات، كما في زلزال هائل ونهائي؟ وحين تأتي هذه اللحظة، هل سأستطيع الإمساك بها الكتاب وفتحه والعثور على الصفحة المطلوبة، ورؤية الاسم الفائق الذي لم أستطع قط فكّ حروفه بعد، ينحفر أمامي فجأةً بحروفٍ متلألئة؟

الحقُّ أنني لستُ مقتنعاً بشيء. أتخيّل كل هذه الأشياء، أخشى بعضها، لكني لا أعتقد بأيٍّ منها. ركضتُ عاماً كاملاً وراء كتابٍ فقدتُ الرغبة به. حلمتُ بامرأة فضّلتْ عليّ قاطعَ طريق شرير. سوَّدتُ مئاتٍ من

الصفحات ولم يبق لي منها شيء... لكني لستُ تعيساً مع ذلك. إنني في جنوة، في مكان دافئ. يُطلب ودّي وربما محبوب قليلاً. أنظر إلى العالم وإلى حياتي الخاصة كأني غريب عنهما. لا أرغب بشيء سوى أن يتوقف الزمن عند 28 كانون الأول 1666 .

كنتُ أنتظر غريغوريو، لكن ابنته هي التي جاءت قبل قليل. انفتح الباب ودخلت جياكومينيتا حاملةً قهوة وحلوى على صينية. ذريعة لكي نتكلم. وهذه المرة ليس عن أشجار الحديقة وأسماء النباتات والأزهار، بل عمّا رُصِد لنا. إنها متلهفة ـ كيف ألومها؟ أسئلتي المتعلقة بزواجنا القادم تحتل ربع أفكاري، فيما تحتل بالنسبة لها هي التي بلغت الرابعة عشرة للتو، الأرباعَ الأربعة! مع ذلك فقد تظاهرتُ بعدم ملاحظة ذلك.

«قولي لي يا جياكومينيتا، هل تعرفين أن أباك وأنا قد تكلمنا مطولاً عن مستقبلك؟»

احمرّ لونها ولم تقل شيئاً، دون أن تدَّعي أنها فوجئت.

«تكلمنا عن خطبة وزواج».

أيضاً لم تقل شيئاً.

«هل تعرفين أنه سبق لي أن تزوجت وأني أرمل؟»

لم تكن تعرف هذا مع أني قلته لوالدها.

«كنت في التاسعة عشرة وزوّجوني من ابنة تاجرٍ يقيم في جزيرة قبرص...».

«ماذا كان اسمها؟»

«ألفيرا».

«من أي شيء ماتت؟»

«من الحزن. لقد عاهدتْ شاباً يونانياً على الزواج، ولم تكن تريدني. ولم يخبرني أحد بشيء عن ذلك. لو أني عرفتُ لربما وقفتُ في وجه ذاك الزواج. لكنها كانت شابة وكنتُ شاباً، وأطَعْنا آباءنا. لم تكن

سعيدة أبداً، ولم تسعدني. أروي لك هذه القصة الحزينة لأني لا أريد أن يتكرر الشيء نفسه معنا. أود أن تقولي لي ماتتمنينه. لا أريد أن يُكرِهوك على ما لاترغبين. فقط قولي لي، وسأتصرف بحيث أبدو أنا مَن لا يستطيع الزواج».

احمرّت جياكومينيتا أيضاً، وأشاحت بوجهها قبل أن تقول: «إذا تزوجنا لن أكون تعيسة...»..

ثم فرت عبر الباب الذي بقي مفتوحاً على مصراعيه.

بعد الظهر، وفيما كنتُ أنتظر غريغوريو لأعطيه جوابي، رأيتُ ابنته تتنزه في الحديقة، تقترب من تمثال باخوس الذي قدمتُهُ هدية، والذي يستند على أكتاف الألوهية الممتدة.

حين يعود والدها سأطلب يدها مثلما التزمتُ. إذا بقي العالم حتى يوم زفافي، فلن يكون بوسعي إلا أن أبتهج لذلك. وإذا مات العالم، إذا ماتت جنوة، إذا متنا جميعاً، أكون قد وفيتُ بهذا الدين، وسأرحل بروحٍ أكثر صفاءً، وكذلك غريغوريو...

لكني لا أتمنى حدوث نهاية العالم، لم أعد أؤمن بها كثيراً ـ هل آمنتُ بها يوماً. ربما... لم أعد أعرف...

29 كانون الأول

أثناء غيابي، وصلت الرسالةُ التي كنتُ أنتظرها، رسالة من أختي بليزانس. يعود تاريخها ليوم الأحد 12 أيلول، لكن غريغوريو لم يستلمها سوى الأسبوع الماضي، ولم يعطني إياها إلاّ هذا الصباح، زاعماً أنه نسيها. أعرف تماماً لماذا احتفظ بها حتى الآن ـ أراد التأكد من أنّ أيّ نبأ من جبيل لن يؤخِّر قراري. وهو بهذا دلَّل على حذرٍ مفرط، إذ لا شيء في الرسالة يمكن أن يؤثّر على ارتباطي بابنته وبه. ولكن، كيف سيعرف ذلك؟

أخبرتني أختي أنّ ولديها عادا إلى جبيل سالمين معافيين؛ لكنها

بالمقابل ليس لديها أي خبر عن حاتم الذي تعاني أسرتُهُ من القلق إلى أبعد حد. «أحاول جهدي أن أطمئنهم، دون أن أعرف ماذا أقول لهم»، كتبتْ لي، وترجوني أني إذا حصلت على أخبار أن أبعث بها إليها.

أحقد على نفسي لأني لم أطرح السؤال على مارتا حين رأيتُها. كنتُ قد عاهدتُ نفسي بذلك، لكنّ مسار الأحداث هزَّني إلى درجة أني لم أفكر بالأمر. الآن أشعر بالندم، ولكن، بماذا يفيدني الندم؟ وبماذا يفيد ذاك التعيس حاتم؟

الشيء الذي يزيدني حزناً هو كوني لم أتوقع الأمر. لم أكن أثق بابني أختي كثيراً. أحدهما تقوده رغباته والثاني تقوده نزواته ويبدوان لي قابلَين للجَرْح، فأخشى أن يرفضا العودة إلى جبيل، أو أن يضيعا في الطريق. في حين أن تابعي عوَّدَني أنه يخرج سالماً من كل الورطات، إلى درجة أني تمنيتُ بالدرجة الأولى أن يتمكن من المرور إلى سميرنا لاستعادة حبيب وبومة قبل رحيلهما منها.

من ناحية أخرى، تخبرني أختي أنّ طرداً وصل من القسطنطينية بوساطة حاج متجهٍ إلى الديار المقدسة. إنها الأشياء التي تركتُها عند بارينيلّي. كلمتني عن بعض الأشياء فيها، وخاصةً ثياب، ولكن دون كلمة عن دفتري الأول. ربما لم يُعثر عليه. لكن من الممكن أيضاً أن بليزانس لم تُشِر إليه لأنها تجهل أهميته بالنسبة لي.

لم تقل لي أختي شيئاً عن مارتا كذلك. صحيح أني لم أقل في رسالتي سوى أنها رافقتنا مسافةً من الطريق. لا شك أن ابنيها أطلعاها على قصة حبنا البريء، لكنها اختارت عدم الكلام عنها، وهذا لا يدهشني.

30 كانون الأول

ذهبتُ لأشكر الأخ إيجيديو الذي وصلتني رسالة بليزانس بفضله. تحدَّث معي كأن زواجي من جياكومينيتا أمر مفروغ منه، وامتدح لي

الورع الذي تتمتع به هي وأخواتها وأمها، وليس أبوها، الذي امتدح فيه فقط طيبةَ قلبه وكرَمه. لم أحاول الدفاع عن نفسي ولا الإنكار. لقد قُضي الأمر وتمَّ اتخاذ القرار، ولا جدوى من المماحكة حول الظروف. لم أختَر حقاً وضع قدمي حيث وضعتُها، ولكن هل يختار المرء شيئاً حقاً؟ الأفضل له أن يكون شريكاً للسماء بدلاً من أن يعيش الحياة بأسرها في مرارة وضيق. لا غضاضة من إلقاء السلاح عند أقدام العناية الإلهية، فالمعركة لم تكن متكافئة، وقد سَلِمَ الشرف. على أية حال، لا أحد يفوز في المعركةَ الأخيرة أبداً.

أثناء محادثتنا التي دامت أكثر من ساعتين، أخبرني الأخ إيجيديو بأن حريق لندن، نقلاً عن مسافرين وصلوا مؤخراً من هناك، تمت السيطرة عليه. ويقال إنه دمَّر القسم الأعظم من المدينة، لكنّ عدد الموتى ليس مرتفعاً جداً.

«لو شاء الخالق لاستطاع أن يفني هذا الشعب الكافر. لكنه اكتفى بإنذاره لكي يرجع عن ضلاله ويعود إلى الحضن الرحيم لأمنا *الكنيسة*».

حسب رأي الأخ إيجيديو، إنّ ما أقنع الخالق هذه المرة بأن يكون رحيماً هو العبادة التي مارسها الملك تشارلز والملكة كاترين، سراً. لكن غدر هذا الشعب سيستنفد صبر الإله...

عبرت ذهني أثناء كلامه ألف فكرة. حين كنتُ أختبئ في التخشيبة بالطابق الأخير من بيت البيرة، كان الناس يتهامسون بأن الله عاقب لندن بسبب الملك وبسبب إخلاصه السري لـِ «مسيحِ روما الدجّال»، وبسبب مضاجعاته...

هل قسا الله كثيراً على الإنكليز؟ هل تسامح معهم كثيراً؟

إننا ننسب إليه مشاعر السخط والغضب ونفاد الصبر والاكتفاء، ولكن ما أدرانا بمشاعره الحقيقية؟

لو كنتُ في مكانه، لو كنتُ أتربع على عرش الكون منذ الأزل وإلى الأبد، سيداً للأمس والغد، للولادة والحياة والموت، لما اعتراني أي

نفاد صبر أو اكتفاء ـ ما نفادُ الصبر بالنسبة لمن يملك الأبدية؟ وما الاكتفاء لمن يملك كل شيء؟

لا أتخيله غاضباً، لا أتخيله مستاءً ولا مستنكِراً ولا مُقْسِماً بإنزال العقاب على أولئك الذين ينصرفون عن البابا أو عن سرير الزوجية.

لو كنتُ الله، لأنقذتُ لندن من أجل بيس. ولو رأيتُها وهي تركض قلقةً مخاطرة بحياتها لإنقاذ جنويٍّ، مجهولٍ عابر، لأرسلتُ نسمةً لطيفة تداعب شعرها الأصهب، جففتُ العرق عن وجهها، وأزحتُ الأنقاض عن طريقها، وفرَّقتُ الحشد الغاضب، لأطفأتُ النار التي تطوِّق بيتها، وتركتُها تصعد إلى غرفتها، تستلقي وتنام بهدوء...

هل يمكن أن أكون ـ أنا الخاطئ الشقيّ بالداسار ـ أكثر لطفاً منه سبحانه؟ هل يمكن أن يكون قلبي، قلب التاجر، أكرم وأكثر رحمة من قلبه؟

لدى إعادة قراءة ما كتبتُه للتو منساقاً مع ريشتي، لا أستطيع منع نفسي من مكابدة نوع من الخوف. لكنه في غير مكانه. فالإله الذي يستحق أن أسجد عند قدميه، بعيد عن الدنايا والحساسيات. إنه فوق كل ذلك، إنه أكبر. أكبر، أكبر، مثلما يقول المسلمون.

إني باقٍ إذن ـ سواءٌ كان يومُ غد هو آخر يوم قبل نهاية العالم، أو كان فقط اليوم الأخير من السنة الجارية ـ فإني باقٍ على جسارة آل أمبرياتشو ولا أتبرّأ من شيء.

31 كانون الأول 1666

لابدَّ أنَّ كثيراً من الناس عبر العالم يفكرون هذا الصباح أنهم سيعيشون آخر يومٍ في السنة الأخيرة.

وهنا، في شوارع جنوة، لا ألاحظ خوفاً أو ورعاً خاصاً.

لكنّ جنوة لم تُصَلِّ قط إلاّ من أجل ازدهارها وعودة المراكب

سالمة. لم يكن لديها أبداً قدر من الإيمان يفوق الحد المعقول ـ ليباركها الله!

قرر غريغوريو أن يقيم احتفالاً بعد ظهر اليوم، شكراً للسماء لأنها أعادت الصحة لزوجته. فقد نهضت هذه أمس من السرير، ويبدو أنها شُفيت فعلاً. غير أني أعتقد أن مضيفي يحتفل بأمرٍ آخر. خطبة محتجبة، إذا صحّ القول ـ محتجبة مثل هذه الكتابة.

لا شك أن السيدة أوربيتينا لم تعد متألمة، لكنها حين تراني يبدو الألم على وجهها.

أجهل حتى الآن إذا كانت تنظر إليّ هكذا لأنها لا تريدني صهراً، أو لأنها كانت تودّ أن أطلب يد ابنتها بتواضع، بدلاً من أن أتلقّاها من عَلِ آيةَ ولاءِ مولى لسيِّدِهِ.

استأجر غريغوريو للحفلة عازف كمان ومغنٍ من كريمونا، أدّى لنا أعذب الألحان ـ أسجل من الذاكرة أسماء الموسيقيين: مونتيفردي، لويجي روسي، جاكوبو بيري، وآخر يدعى مازوتشي أو مارازولي له ابنُ أخٍ متزوجٍ من ابنة أخت غريغوريو.

لم أشأ أن أفسد على مضيفي سعادته بالاعتراف له بأنّ هذه الموسيقى، حتى أكثرها مرحاً، كانت بالنسبة لي سبباً للكآبة. لأن المرة الوحيدة التي سمعتُ فيها عازف كمانٍ في السابق، كانت حين ذهبتُ مع أبويّ، بعد زواجي بقليل، إلى جزيرة قبرص، لزيارة أقارب ألفيرا. كنتُ قد بدأتُ أعيش ذاك الزواج غير المرغوب به، كتجربةٍ شاقة، وكلما أشجاني لحنٌ، ازداد جرحي إيلاماً.

أما اليوم، وعندما بدأ ذلك العازف الكريموني بالعزف، وامتلأت الحجرة الكبيرة بموسيقاه، فسرعان ما أحسستُ أني أنزلق، كأنما على سبيل السلوى، في أحلام يقظة عذبة لا مكان فيها لألفيرا أو أوربيتينا. لم أحلم إلا بالنساء اللواتي أحببتهن، اللواتي أخذنني في أحضانهنّ

أثناء طفولتي ـ أمي ونساء جبيل مرتديات السواد ـ واللواتي ضممتهنّ بين ذراعيّ في عمر الرجولة.

بين النساء الأخيرات لا توجد مَن توحي لي بهذا القدر من الحنان أكثر من بيس. طبعاً أفكر قليلاً بمارتا، لكنها تسبب لي اليوم من التعاسة بقدر ما تسببه لي ألفيرا، جرح لن يندمل إلا ببطء. فيما سيبقى مروري الخاطف بحديقة بيسّ، وإلى الأبد، بمثابة تذوُّقٍ مسبق لطعم الجنة.

كم أنا سعيد لأن لندن لم تُدمَّر!

سيبقى للسعادة بالنسبة لي مَذاقُ البيرة المشبعة بالتوابل، رائحةُ البنفسج ـ وحتى صرير خشب الأدراج المؤدية إلى مملكتي في التخشيبة، أعلى بيت البيرة.

هل من اللائق أن أحلم بـِ بيسّ على هذا النحو في بيت حميّ المقبل، والمحسِن إليّ أيضاً؟ لكن الأحلام حرة من المنازل ومن كل قواعد اللياقة، حرة من أي قَسَم، وحرة من أي شعورٍ بالامتنان.

وفي وقت لاحق من السهرة، وكان العازف الكريموني الذي شاركَنا في العشاء، قد انصرف للتو حاملاً كمانه، هبت عاصفة غير متوقعة. كان الوقت حوالى منتصف الليل. بروق ورعود وزخات متقطعة من المطر ـ في حين بدت السماء غائمة لكنها هادئة. ثم انفجرت الصاعقة. صوتُ تفجير صخرةٍ يُمزّق الآذان. استيقظت أصغرُ بنات غريغوريو التي كانت غافية في حضنه، باكيةً. قال لها والدها مطمئِناً بأن الصاعقة تبدو دوماً أقرب مما هي بكثير، وأنّ هذه قد سقطت في الأعلى فوق الكاستيلّو، أو في حوض الميناء.

لكنه بالكاد أنهى شرحه حتى سقطت صاعقة أخرى، أقرب من الأولى، ودوَّت في آن واحد مع البرق، وكان الذين صرخوا هذه المرة، عديدين.

وقبل أن يهدأ روعنا من الخوف، حدثت ظاهرة غريبة. خرج

فجأةً من المدفأة التي كنا مجتمعين حولها، ودون سببٍ ظاهرٍ، لسانٌ من النار راح يركض على الأرض. أصبنا كلنا بالذعر، مكثنا صامتين نرتعش. وأورييتينا التي كانت تجلس بجانبي ولم تكن قد وجّهت لي حتى الآن كلمةً أو نظرة، تشبَّثتْ بذراعي وشدّت بقوة حتى أنها غرزت أظافرها في لحمي.

تمتمت - بتمتمةٍ واسعة جعلت الكل يسمع: «إنه يوم الحساب! لم يكذبوا عليّ! إنه يوم الحساب! ليأخذنا الله برأفته!»

ثم ارتمتْ على ركبتيها وسحبت من جيبها مسبحةً داعيةً إيانا أن نفعل مثلها. راحت بناتها الحاضرات ومعهنّ الخادمات يتمتمن بالصلوات. أما أنا فلم أكن أستطيع إبعاد ناظري عن لسان النار الذي وصل في ركضه إلى جلدِ خروفٍ وُضع هناك، وتشبَّث به وحوَّله إلى لهب. كنتُ أرتجف بكامل جسدي، أعترف. وقلتُ لنفسي في ارتباكِ اللحظة، بأنّ عليّ أن أسرع إلى غرفتي وأحضر كتاب *الاسم المئة*.

وببضع خطوات واسعة، كنتُ على السلم، لكني سمعتُ غريغوريو يصرخ:

«بالداسار، أين تذهب؟ ساعدني!»

كان قد نهض وأخذ كوز ماء كبير وراح يصبّ منه فوق جلد الخروف المشتعل. هدأت النار قليلاً دون أن تنطفئ، فأخذ يدوسها بقدميه في رقصةٍ كانت، في ظروفٍ أخرى، ستُبكينا من شدة الضحك.

عدتُ نحوه مسرعاً ورحتُ أقوم بالرقصة نفسها، أسحق اللسان، أخنقه عندما ينبعث من جديد، كأننا نُبيد رتلاً من العقارب.

أثناء هذا الوقت، استفاق بعض الأشخاص الآخرين من خوفهم، أولهم خادمة شابة ثم الجنائنيّ ثم جياكومينيتا. راحوا يحضرون مختلف الأوعية مملوءةً بالماء فيصبونه فوق كل ما يشتعل أو يأخذ لوناً أحمر أو يدخّن.

لم تدم هذه البلبلة سوى دقائق، لكنها حدثت قرب منتصف الليل، ويبدو لي أن «عام الوحش» قد انتهى بهذه الهزْجة.

لم تلبث السيدة أورييتينا، التي بقيت راكعةً وحدها على ركبتيها، أن نهضت أخيراً وأعلنت أنه آن الأوان لكي نذهب جميعاً للنوم.

وأنا صاعد نحو غرفتي تناولتُ شمعداناً وضعته فوق طاولتي حين وصلت، لكي أكتب هذه السطور.

خرافة النهاية، سأنتظر طلوع النهار لأدوّن التاريخ الجديد.

نحن في الأول من كانون الثاني من عام ألفٍ وستمئة وسبع وستين.

العام المسمى بـ «عام الوحش» انتهى، لكن الشمس تشرق فوق مدينتي جنوة. وُلدت من أحشائها قبل ألف عام، قبل أربعين عاماً، وهذا اليوم من جديد.

إنني في حبور منذ الفجر، وأرغب أن أنظر إلى الشمس وأتكلم معها مثلما فعل فرانسوا داسيز. يجب أن نبتهج كلما راحت من جديد تضيء لنا، لكن الناس يخجلون اليوم من الكلام إلى الشمس.

لم تنطفئ إذن، وكذلك الأمر بالنسبة للأجرام السماوية الأخرى. إذا لم أرها الليلة الماضية فهذا لأن السماء كانت غائمة. سأراها غداً أو بعد ليلتين، ولن يكون هناك حاجة لعَدِّها. إنها موجودة، والسماء لم تنطفئ، والمدن لم تُدَمَّر، لم تُدَمَّر جنوة ولا لندن ولا موسكو ولانابولي. سيكون علينا أن نعيش على الأرض أيضاً، يوماً بعد يوم، مع أشكال شقائنا البشرية. مع الطاعون والدوار والحروب وحوادث الغرق، مع قصص حبنا، مع جراحنا. لن تأتي أية كارثة ربانية رائعة، ولا أي طوفان مهيب، لكي يُغرق فزَعَنا وخياناتنا.

ربما لم تعِدْنا السماءُ بشيء. لا بالأسوأ ولا بالأفضل. ربما أنها لا تعيش إلا على إيقاع وعودنا الخاصة.

الاسم المئة بجانبي، وما زال من وقت لآخر يلقي بالتشوش في أفكاري. أردته، ووجدته واستعدته، لكني حين فتحته بقي مغلقاً. ربما

لم أستحقُّه كفايةً. ربما خفت أكثر مما يجب من اكتشاف ما يخبّئه. لكنه ربما لم يكن يخفي شيئاً أيضاً.

لن أفتحه ثانيةً من الآن وصاعداً. سأذهب غداً وأتركه في ركام إحدى المكتبات، لكي تستولي عليه أيدٍ أخرى يوماً ما، بعد سنوات عديدة، وتستغرق فيه عيون أخرى لا يُغلّفها حجاب.

جبتُ العالم مقتفياً أثر هذا الكتاب، بحراً وبراً، لكني، مع الخروج من عام 1666 ، إذا نظرتُ في المحصلة العامة لرحلتي، وجدت أن كل مافعلته هو أني ذهبتُ من جبيل إلى جنوة بطريق غير مباشر.

جرس الكنيسة المجاورة يشير إلى وقت الظهيرة. سأضع ريشتي للمرة الأخيرة، أغلق هذا الدفتر، أطوي لوح كتابتي، ثم أفتح هذه النافذة على مصراعيها، لكي تجتاحني الشمسُ مع أصوات جنوة.

الفهرس



رحلة بالداسار

«لم يكن ما هدَّأتْهُ هذه المرأةُ في داخلي هو الجوع الجسدي الذي يشعر به مسافر، بل هدَّأتْ شِدَّتي الأصلية. ولدتُ غريباً وعشتُ غريباً وسأموت غريباً أكثر. أنا أشَدُّ زهواً من أن أتكلم عن عَداءٍ أو إهانات أو ضغينة أو عذابات، لكني أستطيع معرفة النظرات والحركات. هناك ذراعا امرأةٍ يكونان غُربَتك، وذراعان أخريان يكونان مسقط رأسك».

سار راوي هذه القصة، بالداسار أمبرياتشو، الجنوي المشرقيّ، تاجر الأشياء الطريفة، في العام 1665 ، يقتفي أثر الكتاب الذي يُفترض أن يمنح الخلاص لعالم مضطرب، ولا شكّ أُنه راح يبحث أيضاً عمّا يُعطي معنىً لوجوده بالذات.

يجتاز بالداسار في رحلته بلداناً مشرفة على الهلاك، ومدناً مشتعلة، وجماعات مترقبة. ينتابه الخوف ويعاني من الخديعة وزوال الأوهام، لكنه يشعر أيضاً بالحب في اللحظة التي لم يعد ينتظره فيها.

الناشر